منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef

منشورات ضفاف
DIFAF PUBLISHING

إبراهيم فرغلي

معبد أنامل الحرير

رواية

معبد
أنامل الحرير

طبع في لبنان

معبد
أنامل الحرير

إبراهيم فرغلي

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef

منشورات ضفاف
DIFAF PUBLISHING

الطبعة الأولى
1435 هـ - 2015 م

ردمك 978-614-02-1266-4

جميع الحقوق محفوظة

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef
149 شارع حسيبة بن بوعلي
الجزائر العاصمة - الجزائر
هاتف/فاكس: 21676179 213+
e-mail: editions.elikhtilef@gmail.com

منشورات ضفاف
DIFAF PUBLISHING
هاتف بيروت: 9613223227+
editions.difaf@gmail.com

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأيّة وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أيّة وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي **الناشرين**

"في الليل حين توقد مصابيح المكتبة، يختفي العالم الخارجي"

البرتو مانجويل

"لم يكن سوى البحرُ في كل اتجاه..
الدليلُ إذن كان خُدعةً
إذ لم نعد نراهُ في أي مكان.
كنتُ أعرفُ أننا في التيهِ،
وأننا هالكونَ لا محالةْ"

خالد أبو بكر

1

"في مدارات بعيدة مُعلّقة في الفضاء، تسجّل الأقمار الصناعية، على مدى الساعة، صورًا لكوكبنا الفاتن، الذي يبدو لمن يمخر في الفضاء، أو لنا هنا عبر صور شاشات الكمبيوتر، بفضل برنامج (جوجل إيرث)، كرة زرقاء مبرقشة بالأبيض، جميلة ومسالمة. العدسات العملاقة تصور على مدى الساعة، لمن يرغب، دولاً كاملة أو مدنًا وأحياء، وصولاً للمنازل والمساكن. لكن هذه الأقمار الصناعية، رغم إمكاناتها الفائقة، لا تزال اليوم قاصرة على تصوير ما يجري على سطح الأرض.

فليس بإمكانها أن ترصد ما يدور هناك في الأعماق، في أنفاق سرية، شُقّت في مستويات القشرة الأرضية الهشّة. بعضها كان مخططاً ومرصودًا، وغيرها لم يكن معروفًا حتى وقت قريب.

أعترف بأنني محظوظ؛ كوني نفرًا بين من اضطرتهم ظروف دقيقة ومعقّدة، سيأتي ذكرها في حينه، للبحث عن مأوى بعيد لا تطولهم فيه أيدٍ، حتى وجدتُ نفسي أتسلل في أحد تلك الأنفاق الرطبة المعتمة؛ زحفًا، وفي نهاية النفق سطع ضوء إدراكي أني أمسيت بين فريق الكتبة الهاربين .

حينما انتهى الشخص الذي أنقذني، من قراءة هذه السطور الأولى التي أحتويها على صفحاتي، أغلق الدفتر الضخم، المغلف بغلاف جلدي أزرق، ثم دستني داخل الجاكيت الجلد الذي يرتديه، وأحكم إغلاقه، لأجد نفسي حبيسة المساحة الضيقة بين القميص وبطنه الليّن المشعر، أترقب مصيري.

قفز من القارب الخشبي الذي كنت ملقاة على أرضه، إلى قارب بخاري آخر أكبر قليلا وبعد أن عالج المحرك مرة، أو اثنتين، دوّى صوته عاليًا، وانطلق.

بعد وهلة توقف القارب وأوقف المحرك فعمَّ الهدوء. غادر القارب، متشبثًا بدرجات سلم معدني صدئ عتيق، ليصعد على درجاته منتقلاً إلى سطح سفينة..

قال لمن سأله:

لا لم أجد شيئًا. القارب خالٍ تمامًا.

ثارت جلبة تخلّلتها صرخات انطلقت من أكثر من جهة. توقعت أن السفينة تضم صيادين رأوا سربًا من الأسماك، وشرعوا ينادون بعضهم بعضا، ثم بدأت خطوات أقدامهم تقرقع على أرض القارب الخشبية وهم يركضون. ظلّ الرجل ساكنًا، فيما ابتعدت أصوات الأقدام تدريجيًا حتى تلاشت، فبدأ يتحرك بخطوات بطيئة.

بعد رحلة قصيرة، قطعتُها كأنني جنين في جيب كانجارو توقف عن القفز وشرع يمشي الهوينى في ممرٍ داخلي في هذه السفينة، سمعت صوت أحد الأبواب ينفتح ثم يغلق، وحالما أخرجني الرجل من داخل قميصه، شعرت برطوبة قطرات العرق على جسده.

فتح صفحاتي للحظات، وأخذ يتأمل بضعة سطور عشوائيًا، قبل أن يغلقني، ويضعني في دُرْجٍ خشبي صغير في "الكومود" المجاور للسرير، ثم خرج من الغرفة.

وهكذا وجدتني وحيدة، مرة أخرى، معلَّقة في المجهول. استدعيت مشهد هروب رشيد؛ الكاتب الذي أوجدني من عدم، أو بالأحرى اختفائه، للأسباب التي لم أكن أعرفها كلها.

في الساعات القليلة التي سبقت اختفاءه كان قلقًا، متوترًا ومتوفزًا. أخرجني من دُرجٍ خشبي معتم، ثم دفسني بين أغراضه في حقيبة يد حملها على كتفه، ألقى بها على أرض قارب صغير كان موثوقًا بحبل غليظ يربطه بالباخرة، وبعد أن حلَّ عقدة الحبل، جلس في موضع يتيح له الإمساك بمجدافي القارب، وظلَّ يجدّف بقوة ودأب حتى ابتعدنا عن السفينة بدرجة تكفيه ليستعيد إحساسه بالهدوء.

وقتما استعاد هدوءه فتح الحقيبة. أخرجني ليتصفح بعض صفحاتي ويعيد قراءتها، حتى خفتَ ضوء الشمس، وهدهدته الحركة الهيّنة الرتيبة للقارب الذي تؤرجحه مويجات المياه، وبفضل الصمت، ولفحات الهواء الهادئة التي أحاطت بنا، غالبه النعاس. وقبل أن يغفو وضعني بجواره. فتح الحقيبة والتقط من جوفها قميصا كوَّره ووضعه تحت رأسه.

قبل أن تغشانا العتمة، كنت أنصت إلى نُواح الريح وصفيرها مفزوعة، ليس بسبب هذا العواء الصارخ، بل لأني عشت حياتي كلّها، تقريبًا، حبيسة الجدران والهدوء والصمت، ثم إذا بي فجأة وسط الأمواج العاتية، رهينة عواصف البحار، التي تبدو، لمن عاينها،

صنيعة جنيّات البحر وكائناته الخرافية الشبحية، إذ تهبُّ من سُباتها العميق مهتاجة، لتتحول إلى موجات تتقافز وتشبُّ باستئساد، على أقدامٍ من مياه هائجة، تمكّنها من أن تحمل بارجة عملاقة، وتحوّلها إلى لعبة صغيرة؛ فيما تتوحش وتتغوّل صارخة بهديرها الغاضب.

أحسست بالقارب يتقافز على الأمواج المهتاجة كأنما جنّ جنونه. استيقظ رشيد، وتلفت حوله بشيء من الذعر. هبَّ واقفًا واتجه إلى مقدمة القارب، لكن لم تمض دقيقة واحدة حتى بوغتّ به يسقط بجواري مرتطمًا بأرضية القارب، متأوِّهًا، ممسكًا وجهه المتقلص بفعل الألم.

هبَّ واقفًا، ثم سمعت صوت قرقعة آتية من صوب مقدّمة القارب، فإذا بشخص متين البنية فارع الطول يقفز أمامه، ويلقي بنفسه عليه. اعتدل الرجل بحركة مباغتة، فور أن وقع على رشيد، لكي يحكم الإحاطة بجسده حتى تمكن منه، ثم أمسك به من صدر قميصه بإحدى يديه، بينما حوّل الأخرى إلى قبضةٍ راحت تلكم وجه رشيد، الذي اكتفى بمحاولة يائسة لحماية وجهه، بينما أفلت الوافد الوحشي العقال لجنون ذراعيه، وراح يضرب، بعنفٍ بالغ، ما تصل إليه يداه من جسد رشيد، المكوّم على الأرض، وعندها نهض العملاق الأسمر، واستبدل قدميه بيديه؛ وبدأ فاصلاً من الركل.

بمجرد أن توقف الرجل المجنون بعدائه ووحشيته وهو يتأمل ضحيته، وجدتُ رشيد يستند على حافة الزورق، لينهض واقفًا، ثم، وبلا سابق إنذار أو تردد، ألقى بنفسه في مياه البحر. ولم يستغرق زمن مفاجأة العملاق برد فعل رشيد سوى لحظات قليلة، وبعدها قفز بدوره إلى مياه البحر، واختفيا ليتركاني وحيدة.

انتظرت أن يعود رشيد بين دقيقة وأخرى، لكن شيئا لم يتغير، لساعات. أحسست بالذعر، وأقعيت على الأرضية الخشبية الرطبة بائسة من شدة اليأس، منزوية تحت شمس تلتهب في السماء، تنفث لظاها عليَّ طوال ساعات النهار، فيما تُسلّمني، ليلا، ليد آلهة العَتمة والبرودة وعصف الريح. أناجي نجومًا، تتلألأ وتلتمع عبر ملايين السنين الضوئية، لا تُنصت إليَّ، وحتمًا لا تسمعني أو تراني. لكنها مع ذلك، وبوميضٍ متصل غريب، تبثني إشارات عبر ملايين السنوات الضوئية، تدعوني للتشبث بأمل أن تسترق السمع لمناجاتي.

أقفز كمجنونة مع أمواج البحر العاصفة في هذا الزورق الصغير، الذي كاد أن ينقلب حين اشتد هياج الرياح والأمواج معا.

لكنني شهقت بقوة غريقٍ نجا بمعجزة. وانتقلت من إحساسٍ حزين قاتم ويائس إلى فيض من النشوة، عقب وصول هذا الرجل الوسيم الذي أخبرتكم عنه سالفًا. رجلٌ لا يقلّ غرابة عن صاحبه. لا أعرف كيف وصل إليَّ في عرض المحيط لينتشلني من مصيرٍ مأساوي بائس؛ حيث لم تتعد أكثر توقعاتي تفاؤلاً إلاّ أن ينتهي بي الأمر غارقة في الأعماق، وليمة لأعشاب البحر.

2

تِكْ تِكْ تِتِكْ تِكْ تِكْ.. إززززز. تِكْ تِتِكْ تِكْ تِكْ تِكْ تِكْ تِكْ.

تعجبني كثيراً فكرة أن وجودي يمكن أن يتحقق على طرقات الحروف المعدنية لآلة كاتبة على الورق، ولكن هويتي يمكن لها أن تتشكل أيضا بطرق أخرى؛ مثل صرير قلم جاف، أو حفيفٍ خافت لسنّ قلم حبر على الورق.

يمكنكم القول إنني لست سوى صوت، أو بالأحرى مجموعة أصوات؛ تجسِّد فكرة موجودة في ذهن رجلٍ عاش زمنًا ليصنع منّي ما أنا عليه اليوم. لكنني أجبرت على الصمت. صمتٌ بدا لي على مدى الساعات الماضية كأنه سيستمر للأبد.

صحيح أنَّ الصمت جزء من هويتي ومصيري، لكنه يجسّد جانبًا من طبيعتي، حالي في ذلك حال أقراني، نقضي جُلَّ حياتنا صامتين، غامضين، مُغلّقين على ذواتنا، نترقب وننتظر أن تمتد إلينا الأيدي، وترتاح الأنامل على صفحاتنا لتنفتح أمام عيني قارئ ما، كي تضج فينا الحياة، فتجلو أصواتنا وتتجلى، ونصطخب بما يمرح في أعماقنا من شخوصٍ وأفكار، وتغلي دواخلنا بصراعات أرواح بشرية، وبأشواقٍ ورغباتٍ تفيض بها نفوسٌ مهجوسة بالقلق والنوازع

البشرية المدمرة، وبأسئلة لا تنتهي، وننشغل بنفوس أخرى، ترقب ذواتها وتدّعي السعي للتوازن والكمال؛ تمثل معًا جزءًا من صوت البشرية وروح الكون، الذي ينبغي لنا أن ننصت له، فنشق الطرق لبلادٍ تتوزع على قارات عالمكم، إلى مدنٍ فسيحة تتلألأ بأبراج زجاجية شاهقة، وبنايات حديثة تترصع بماسات من أضواء العولمة، أو دروب وأزقّة متربة وضيّقة تتلوى في قرى غامضة نهارًا، ومعتمة ليلاً، صامتة إلا من نباح الكلاب وهمس جنيّات الخيال والأشباح الليلية صنيعة الأساطير والخرافات، لا ترى على خرائطكم، لا يسمع بها غير من يعيشون بها.

أسماني مبدعي اسما ذكوريًا هو "المتكتم"، ولا بأس، فحتى أعظم روايات الفروسية حملت اسمًا غريبًا مثل "دون كيخوت دي لامانشا".

في النهاية، يمكنني القول إنني لست سوى رواية مغمورة اختُلقت في عرض البحر، عقب محاولة فاشلة لكتابة سيرة ذاتية وبعض الخواطر، وربما قصص ونصوص لم تكتمل.

حتى سويعات مضت كنت أظن أنني سأعيش وأموت هنا، من دون أن أرى اليابسة التي تدور فيها كل الوقائع التي أضمّها على صفحاتي.

إحساسي باليأس قلّ نسبيًا، عقب وصولي إلى هذه السفينة، على يد هذا الرجل الوسيم، الذي لا أعرف عنه شيئًا. أشعر بأن له علاقة وثيقة بمن أبدعني لأصبح ما أنا عليه.

"رشيد الجوهري"؛ وهو الذي يعود وجودي إليه مباشرة، شاب في مطلع الأربعينيات. إذا التقيتموه سترون شابًا نحيفًا وسيمًا، وجهه

منحوت تتوسطه عيناه الطيبتان الهدباوان الغائرتان قليلا أسفل حاجبين ثقيلين. وغالبا ما سوف يكون، كما شأنه في أغلب الأحوال، مرتديًا بنطلون جينز باهتا، و"تي شيرت" أيّا كان لونه. أما إذا صادفه أحدكم ماشيًا في الطريق، فسترون شخصًا خفيف الحركة، كما تكشف مشيته التي يدفع خلالها جسده الرشيق بخفة، ويبدو، في الوقت نفسه، كمن يحاول أن يبطئ من خطواته، كأنه يمشي على أطراف أصابعه. ومع قامته السبطة يُميل رقبته للأمام كأنه ينحني انحناءة خفيفة يخفيها مع رقبته النحيلة شعره الأسود الثقيل المجعد يلتمع بمرطب الشعر، الذي يبدو كهالة سوداء حول رأسه، بينما ترتسم على وجهه ابتسامة هادئة، باتت ملمحًا؛ تمنح إحساسًا لمن يراه بأنه يعيش سلامًا داخليًا مستمرًا، كأنه ثبّت الابتسامة على وجهه وشرد عنها.

خلال مراهقته استحوذ حلم الطيران على كل خياله. كان يتأمل فكرة الطيران بوصفها معجزة. وفي كل رحلة سفر، في صحبة والديه، جيئة وذهابًا، من وإلى الإمارات، تراه جالسا متوفزا في مقعده؛ يترقب بحبور صعود الطائرة وهبوطها، كمعجزتين صغيرتين يقوم بهما ساحر، وخصوصًا لحظة ارتطام عجلات الطائرة بأرض مهبط الطائرات، حيث يتخلى الطائر المعدني العملاق، الذي كان محلقا قبل لحظات متحديا قوانين الجاذبية، عن خفته، ليستعيد ثقله مرة أخرى، في لحظات سحرية، مستجيبًا لقانون الجاذبية، خاضعا لتحكم قائد الطائرة؛ الذي يتحول بالكائن العملاق بين الحالتين النقيضتين بلمسة رشيقة، يحاول ألا يجعلها ارتطامًا لعجلات الطائرة العملاقة على ممر المهبط، وهنا تتحول من حالة الطيران إلى

الهرولة بسرعات تتفوق على مركبات السرعة جميعا، حتى تهدأ تدريجيا، وصولا للحظة السكون وإعلان انتهاء الرحلة.

وحين يتم الانتقال الرهيف بين السماء والأرض، لحظة هبوط الطائرة ولمسها للأرض، من دون أن يشعر أيٌّ من الركاب بهذا الانتقال المذهل، بسبب مهارة قائدها، كان يصر على الذهاب إلى قمرة القيادة لكي يشد على يد كابتن الطائرة ليحييه على مهارته اللافتة.

اكتشف في نفسه شغفًا بقراءة كتب الرحلات، ووقع يومًا على إحدى مجلات "ناشيونال جيوغرافيك"، فطالع فيها زيارات مصوّرة لعددٍ من مدن العالم، مصحوبة بصورٍ عالية الجودة، تلتمع على ورق المجلة المصقول، لبشر وأماكن كان يحلم أن يراها ويعاينها بجسده وروحه. أغرم بالمجلة وراح يبحث عن أعداد قديمة، كوّن منها مخزونًا هائلا لم يملّ من الاطلاع عليه وقراءته يومًا بعد آخر.

اتسعت دروب خياله لحلم وحيد رأى فيه نفسه رحّالة يجوب بلاد العالم. يتأمل طبائع البشر، ويترك نفسه لدروب مدنهم وأزقّتها، يتكشف معالمها، ويتتبع روح البشر فيها، يراقب سلوكياتهم، ويتلمس عاداتهم وتقاليدهم المستترة والمعلنة، وكيف تراكمت طبقات التاريخ داخلهم لتشكل شخصياتهم التي عادة ما تميز شعبًا عن غيره مهما بدت الفروق الشخصية بينهم. يسهر معهم في ملاهيهم الليلية، ويرى كيف تنطبع أرواحهم وأفكارهم وسلوكياتهم وطرائفهم وما يأكلون ويشربون ويعتقدون في تشكيل روح المدن التي يسكنون.

لم يفكر كثيرًا قبل أن يقرر الالتحاق بمعهد الطيران المدني، آملا أن يصبح ملاَّحًا جويًا. في البداية سمحت له ظروف الطبقة

الوسطى، التي ينتمي إليها، وعائلته التي اختارت أن تنتمي بإخلاص لوسط الوسط في هذه الطبقة، بفضل أب عمل في الخليج لسنوات وعاد ليعمل في تجارة العقارات، بالالتحاق بالمعهد ذي المصروفات المكلفة، وأنقذته من البديل الموضوعي الوحيد، ممثلاً في الالتحاق بالكلية الجوية الحربية، فلم يكن القتال، أو بذلة العسكر، حُلماً من أحلامه.

تمنى والده أن يثنيه عن حلمه ليلتحق بالكلية الحربية، ليصبح "رجلا"، كما اعتاد أن يردد له، يعرف المسؤولية، ويتحلى بالصرامة اللازمة لمواجهة صعوبات الحياة التي كان يرى أن ابنه لا يدري عنها شيئًا بعد.

لكن رشيد كان صارمًا في حلمه، عنيدًا في رفض فكرة والده، غافلا عن جانب آخر لم يذكره الأب الحصيف، يتعلق بأن كُلفة الدراسة العسكرية لا تكاد تذكر مقارنة بالعبء الكبير المتعلق بمصروفات الدراسة المدنية.

لكن حسابات الربح والخسارة التي لا تعرف الطموحات ولا الآمال أو الأحلام بكّرت بالدرس. ويبدو أن الأب الذي خبر تقلبات الحياة، وغدرها، كان قد تنبأ بما يمكن أن يحدث، إذ تعرض للإفلاس، عقب مجموعة من الصفقات التي تعرّض فيها لنصب من أسماهم الرجل متحسرًا حيتان مافيا تجارة العقارات"، واضطر رشيد بالتالي لإيقاف دراسته في المعهد، عقب عام واحد من بدء دراسته به، على مضضٍ وتعاسة. وبإحساس باطني بالإهانة والانكسار والفشل؛ دُفع دفعًا لتحويل أوراقه إلى كليّة نظرية في جامعة القاهرة، حيث قرر أن يدرس الفلسفة.

هكذا أصبح حلم الولوج لكابينة الطائرة، والجلوس على مقعد القيادة للتدريب، وسط غابة المفاتيح الإلكترونية التي تحيط به من كل مكان، حلما مغدورا.

حاول في البداية أن يفعل شيئا يمكّنه من الاستمرار في دراسة الطيران. فكر مبدئيا في العمل ليوفر نفقات الدراسة، متدربا في بار أحد الفنادق الكبرى، ونادلا في مطعم، وشريكا لصديق في تجارة منتجات جلدية مهربة من بورسعيد، لكن ذلك كله لم ينجح في توفير رُبع مصروفات دراسة عام واحد.

ذهب إلى اثنين من أعمامه الموسرين ليقترض منهما، لكنهما أوشيا به لدى أبيه، فثارت ثائرة الأخير، وتملكه الخذلان والأسى من ابنه وبسببه، لأنه كان يحاول جاهداً ألا يُظهر خسارته لأحد.

استعر غضب الأب من رشيد، لدرجة أنه قرر قطع علاقته به، لولا سرعة تدخل الأم بمحاولات مستميتة لإقناع "ابن قلبها"، كما كانت تطلق عليه، أن ينتقل للدراسة في أي كلية أخرى ويؤجل حلمه قليلاً، حتى يستطيع الأب أن يستعيد توازنه، ويتعامل مع حسرته على ما مني به من خسارة.

اعتبر رشيد الأمر هزيمة شخصية، وقَبَر حلمَه ليعيش حالة فصام كاملة، يقضي الوقت مع أصدقائه كأي شخص طبيعي: يبتسم، ويضحك، يشاركهم لعب مباريات كرة القدم أمام أسوار جامعة القاهرة، أو في نواحٍ عديدة من أزقة القاهرة، أو ملاعب الخلاء في أحياء مازالت بكرا، ليلاً أو نهارا، ويسهر يومياً معهم. يصحبهم في جولاتهم بين المقاهي في أزقة القاهرة العتيقة، لكنه كان يفعل ذلك كله شارداً، مشغول الذهن بسؤال واحد: "لو أنني في باريس الآن.."،

ثم تبدأ رحلة حلم يقظة يمتد طويلاً، يبتسم خلالها ابتسامة شاردة لمن معه أيًا كان، لكن لو باغته سائل عما يقولون لما وجد إجابة.

ظلّت أحلام اليقظة تلاحقه من مطار إلى آخر، ومن مهبط الطائرات في بلد إلى تحليق منخفض حول مطار آخر. وكثيراً ما التقط طرف الخيط من فيلم يشاهده، ليقوم بإدخال طائرة ما؛ عنصرا مختلقا من خياله في الأحداث، ليحلّق بعيدًا عن الفيلم وأحداثه، إلى عالمه الخاص، في قُمرة قيادة إحدى الطائرات؛ يواجه الأعاصير الخيالية، ويقوم بالمراوغات، متحديا العواصف الغادرة، وغضب السماء، وبريقها الوامض، وأمطارها الهادرة، أو يهبط بالطائرة اضطراريًا بمهارة سينمائية.

أخيرًا، تمكن منه الإحساس بمأزق حياته اللاعقلانية، التي بدت في النهاية تيهًا مستمرًا من التحليق في سُحب الوهم، فاضطر إلى هبوط إجباري، وبمقتضاه أنصت لخبرة صديق من أصدقائه المقربين، كان يعمل مندوباً لبيع الموسوعات والكتب لدى إحدى شركات تسويق الموسوعات. راقت له الفكرة، كمرحلة انتقالية بين الخيال والواقع؛ فقرر العمل في المجال نفسه. التحق بدورة تدريبية. ولعب الشخص الذي تولى تدريب المجموعة التي انضم لها رشيد دور المحفز الحقيقي له للعمل في هذا المجال.

بدا رجلاً شديد الذكاء، عصري المظهر، معتدل القوام، وجهه متوازن الملامح؛ عينان سوداوان واسعتان تتألقان بالذكاء، حاجبان ثقيلان يقتربان من بعضهما حد الالتصاق. وأطلق شعره الأسود الغزير، ليبدو كهالة تمنحه مزيدًا من الوسامة، أو بالأحرى تؤكد الكاريزما التي تتجلى بوضوح في شخصيته أينما وُجد. كما أطلق

لحية عصرية مشذّبة، وقدّم نفسه لمجتمع المتدربين كرجل عصري ثري، كأنه يتكئ بقوة على هذه الصورة، لكي يجعل منها الجزرة التي يقدمها للمتدربين في العمل في بيع الموسوعات والكتب المجلدة في كافة المعارف؛ جزرة الحلم بالأمل في أن يبلغوا ما بلغه.

وكما وصفه من عرفوه من قبل رشيد الذي عرفه بدوره لاحقا؛ كان رجلا ثرثارًا مُعتدًّا بنفسه، متحذلقا، يحكي قصصًا متتالية يصوّر فيها نجاحاته المستمرة في إقناع أشخاص؛ بعضهم كانوا نجومًا ومشاهير في عالم الفن، بضرورة اقتنائهم لموسوعات ضخمة في المعارف العامة والسينما، وفي التاريخ واللغات، وفي العلوم والهندسة، وسواها.

لم يكن يملّ من تكرار حكاياته للمتدربين، أو المندوبين المحتملين، عن سيرة النجاح الذي حققه، وضمن له التنقل بين مسيرات نضال الشباب الأولى من مجرد وسيط أو مندوب إلى صاحب توكيل لاستيراد الموسوعات، ثم إلى ناشر وموزع، اعتمد على الأسلوب.

كلما استعاد رشيد تلك الخبرة عادة ما يستدعي معها كلمات الرجل: "الفكرة ممكن يقولها مِيت شخص بميت طريقة، بس ممكن تلاتة أو أربعة من الميت شخص بَس اللي يقدروا يكونوا مقنعين، ويخللوا اللي بيسمعوهم يغيّروا فكرتهم

أوضح لهم أن الأمر ينجح كلّما تمكن المندوب من استغلال حضوره الشخصي وثقافته ولباقته لإقناع أي شخص بمدى حاجته إلى موسوعة أو مجموعة من الكتب المجلّدة الضخمة لتتراص في مكتبة أنيقة، رغم أنه يعلم أنها آخر ما يمكن أن يحتاجه هذا

الشخص. ففي عصر المظاهر كان كل شيء قابلا للاستخدام في المظاهر الخادعة، قابلاً للتسويق والتسليع.. حتى الكتب!

حين دوّن رشيد الجوهري مذكراته في البداية على جانب من أوراقي، واستدعى ذكريات تلك المرحلة، أوضح أن الكثير من المتدربين لم يستوعبوا أن اللباقة والإقناع لا تعني الثرثرة ولا اللزوجة أو التذاكي، وهذا ما لم يكن من السهل شرحه، وإن كان فهمه سهلاً لمن يمتلك موهبة الإقناع. كان يقول لمتدربيه إن كل شخصية لها مفتاح خاص؛ مدخل يرتبط بثقافتها الخاصة ومستواها الاجتماعي وطبيعة عملها. ويضيف، بطريقته الساخرة، التي حاول بها أن يثبّت انطباعا عن خفة ظله، أن المندوب الفاشل فقط من يظن أن الأمر لا يعدو مجرد حفظ بضعة كلمات عن السلعة التي يريد أن يروجها، يرددها كالببغاء.

وهكذا، وبواسطة فيصل أمين، الذي ظل رشيد يحفظ اسمه طويلاً؛ وأمثاله ومتدربيه الطموحين، كما كتب رشيد بالنص: "امتلأت أركان بيوت فاخرة أنشئت في الثمانينيات بمكتبات ضخمة تراصت على رفوفها مجلدات أنيقة، مغلقة وصامتة للأبد. أصحابها من طبقة الأثرياء الجدد، ممن صنعوا ثروات طائلة في عصر الانفتاح الذي كان سمة السبعينيات، جُلُّها تحققت بفضل تجارة العملة والسمسرة وتجارة العقارات والأغذية الفاسدة؛ الذين تأسست لديهم فكرة التملك على أساس مكين من شهوة الاستعراض؛ استعراض أي شيء، بما في ذلك المجلدات الضخمة المتراصة في مكتبات خشبية أنيقة تتوسط غرف الصالون والمعيشة، بحيث يوفرون لعيون ضيوفهم مسرحًا وهميًا يمنحهم اعتراف الانضمام إلى النخبة؛ باعتبار الثقافة

واحدة من أدوات التراتب الطبقي الذي كان الأثرياء الجدد يصنعونه بإلحاح وسماجة يحسدون عليها، ليطمسوا بها صورًا قديمة كانوا عليها في شبابهم وصباهم، ويستبدلونها بأخرى تناسب المكاسب الجديدة.

3

هل تدهشكم معرفتي بالكثير مما يدور حولي؟ حسنا، ينبغي أن تدركوا أنني رواية، أي حاوية معرفة، لكني ينبغي أن أتخذ لهذه المعرفة أسلوبًا وشكلا فنيًا وأدبيًا، أرى بحواسي الأدبية وأبصر ببصيرتي الروائية كثيرا مما لا ترون، وأعرف ما قد تعرفون وأحيانا ما لاتعرفون. فمثلي في ذلك مثل قريناتي؛ نمتثل في البداية لعقول وأيدي خلاقينا ومبدعينا، ثم بعد أن تتكون بعض ملامحنا، نضرب بهم عرض الحائط ونقود نحن المسيرة، حتى لو بَدَوْنَ لكم صموتات، محتشمات خلوقات، ساكنات في هيئة الكتب التي بها تمسكون وتتناقلون، لكننا نعرف أن جوهرنا ليس الشكل الذي عليه ترونا، بين دفتي كتاب، بل بالعواصف التي تتحول من الكلمات إلى عوالم من المعرفة والأفكار والمصائر والأقدار.

دعوني أعود بكم إلى سيرة مبدعي؛ رشيد الجوهري، والتي عرفت ما عرفته عما فاتني منها، بالإضافة لما سبق أن دونه منها شخصيا: من كلماته لأصدقائه، ولعشيقاته اللائي عاصرتهن، ومن ليالي السهر التي كان يحدث نفسه فيها كالمجنون. وفي بعضها كان يكرع كؤوس العرق حتى تفيض روحه بالنشوة، فيصرخ كالمجانين،

أو يسجل لنفسه على جهاز تسجيل صغير بعضا مما يفكر فيه لروايته، التي أجسدها، ثم يستطيب الكلام عن نفسه، فيتحدث كأنه يناجي نفسه، يستدعي سيرة حياته بصوته الذكوري الأخنف قليلا، بينما كنت أجلس أنا قريبة منه منتبهة بكل حواسي لكل ما يقول، رغم أنني لم أكن أعرف أنني سأضطر لاستدعاء سيرته على هذا النحو البتة.

أقول لكم إن رشيد، وهذا من بين ما استدعاه بالقول الصريح وسجله أمامي في يوم من الأيام، قد أعجب بشخصية فيصل أمين، مدرب تسويق الكتب والموسوعات: بلباقته، وبالذكاء الذي يتمتع به، وبالحيل الكلامية التي كان يستخدمها لإقناع العملاء بشراء منتج ثقافي رصين، رغم أنه يعرف جيداً أن مآل هذا المنتج، مجسداً في مجموعة من المجلدات الأنيقة، لن يزيد على موضع ثابت في رفوف مكتبة تتجاور فيها مجلدات وتتراص لتُكّون شكلاً جماليًا يروق لعيني صاحب المكتبة، لكن مضمونها لا يعني له أي شيء، فمثله لا يهتم سوى بأن تمنحه هذه المجلدات وصف "المثقف"، من قبل أي من أشباهه، الذين يترددون على بيته من بعض المعارف أو أصحاب المصالح المشتركة؛ عبيد الثروة والشكليات وطقوس البورجوازية، في حياة مبنية كلها على المظاهر.

في هذه الخبرة التي بدأ بها حياته العملية هاويًا، وفي خبرات لاحقة، لم يراود رشيد شك في يقينه بأنه سيسافر يومًا ويبدأ رحلة، تستمر طويلاً حتى يتمكن من أن يجوب العالم. لكن ذلك اليقين لم يتمكن من القضاء على الإحساس بالمرارة والكدر الذي تمكن من روحه.

أدرك حينذاك أن حلمه بأن يكون طيارًا، كان جزءًا جوهريًا من حلمه بأن يجوب العالم، ليس فقط لأنه كان مهووسًا بقيادة طائرة تحلّق في السماوات حول العالم، بل لطغيان فكرة أعمق، جوهرها شغفٌ عميق بفكرة التحرك في الزمن، أو بالأحرى بفكرة الخفة التي تحارب الثقل، كأن تبدو طائرة "جامبو عملاقة وزنها يزيد على عدة أطنان مجرد ريشة تطير بين السحب، لذلك كان شديد الإعجاب بسباق السيارات، وبالأفلام التي تتناول مغامرات ومناورات الطائرات الحربية.

ربما لهذا السبب اختار لبطل روايته ذلك الحلم الغريب؛ الذي يقود فيه شاحنة في طريق سريعة لا وجود لها إلا في خيال رشيد الجوهري. وربما أيضا لأنه كان يعبر في ذلك المشهد عن إحباطه الشخصي.

انفتح باب الغرفة فانتبهت. دخل منقذي، وأغلق الباب. اقترب من الدُرْج الذي وضعني به، وتناولني بين يديه متأملاً غلافي: صفحة بيضاء عليها كلمة واحدة "المتكتم"، ثم اتجه صوب الفراش الصغير في إحدى زوايا الغرفة الضيقة.

تأملته، ببصيرتي، لأول مرة. بدا لي رياضيًا قوي الجسد، وسيم الملامح، عيناه واسعتان تطلاّن على العالم بنظرة متذاكية، أهمل حلاقة ذقنه وشاربه منذ أيام، شعره طويل أسود وكثيف، معقوص في ضفيرة تتدلى خلف رقبته وتتناثر بها شعرات بيضاء كثيرة.

ألقى بنفسه على الفراش مُنهكًا، يحدق شارداً في السقف، بعد دقائق التقطني واعتدل جالسا، وفتح إحدى صفحاتي، ليقرأ من حيث انتهى:

"استعدها في الحلم. جاءتني مندفعة، متدفقة بحيوية، متألقة باللون الأحمر كشهاب، متعملقة كماردة أسطورية، كلّما اقتربتْ تراءى لي مدى وحشية الجمال الذي تتمتع به، يتردد زئيرها في الأرجاء فيختلط توتري بتيار دفين من الإثارة يكاد يطفر من روحي. شاحنة الحلم. قُمرة فسيحة لشاحنة عملاقة، فخمة، تلتمع بالأحمر، شامخة وحدها من دون مقطورة. تقف مستأسدة على إطاراتها العشرة في شموخ.

ارتقيت الدَرَج المعدني فضي اللون، المكسو بنتوءاتٍ معدنية صلبة صغيرة، فيما أتنشق رائحة الجلد الذي يكسو المقعدين الأسودين الوثيرين المتجاورين. أتأمل قُمرة القيادة التي بدت كأنها كابينة طائرة لا شاحنة. عدّادات سرعة، وأخرى للفّات الموتور، وبقع لونية مضيئة بألوان مختلفة ترتبط بتجهيزات القيادة، وبينها عصا ناقل السرعات التي يعلوها مقبض كروي أسود اللون من بلاستيك مضغوط له لمعة أنيقة.

وجدتني أقودها مستثاراً على طريق سريعة، تلتف كثعبان، تنحشر بين وادٍ سحيق يمتد على يسار الطريق، وبين جبلٍ وعر يختلط لونه البرتقالي بمساحات من البني الفاتح والأصفر، بينما تناثرت على ضفتيه شجيرات صغيرة شحبت وريقاتها الخضراء بفعل أتربة الجبل والشمس الحارقة.

أتشبث بالمقود الذي يستدير مع حركة يدي الهيّنة؛ يُمنة ويسرة، وفقاً لتعرجات الطريق، محاولاً أن أكبح شعورا غامضا بوجلٍ غير مبرر. لكني أثناء القيادة بسرعتي القصوى، وفق ما التقطته عيناي في لمحة خاطفة إلى عدّاد السرعة. وبتركيزي الحاد على الطريق كنتُ،

بحس نبوئي غامض، أعرف أنني سأكتشف بعد وهلة أن مكابح الشاحنة لا تعمل، وأنني سأظل منطلقاً بفعل القصور الذاتي حتى أهلك، عاجزاً عن إيقاف السيارة؛ متشبثًا بالمقود كأنه سر حياتي، عازمًا على التشبث بمعجزة توقف الشاحنة قبل أن تهوي في الوادي السحيق.

تجاوزتُ هبَّة الخوف المقيتة التي ضربت روحي، حينما لمحتُ على جانب الطريق فتاةً تلوح هيئتها المثيرة من بعيد كيانًا مبهجًا، تقف على جانب الطريق وتلوّح لي. ترددت لبضعة ثوان. كنت أخشى أن تكون لحظة قراري بالتوقف من أجلها هي تلك اللحظة الموعودة التي سأكتشف فيها عطل المكابح. لكني، وضعت قدمي على مدوسة المكابح، فهدأت سرعة الشاحنة. تنفست عميقاً، وأوقفت الشاحنة تدريجيا.

وجدتُ وجه الفتاة يطل عليَّ من النافذة المقابلة لي بعد أن تعلقت بالباب. أشرت إليها بالدخول، وكنت أرقب ملامحها المبتسمة بينما يذكرني جمالها بوجه الممثلة المكسيكية سلمى حايك، غمرني عطر نسائي مشوب برائحة عرق خافتة، سرعان ما انتشر عبقه فيما أحدق في العينين الجميلتين، واسترعت انتباهي شامة دقيقة جداً على طرف أنفها الصغير.

فور أن جلستْ بجواري في قمرة الشاحنة شرعتُ في القيادة مرة أخرى. دار بيننا حديث غامض، تحدثتْ بلغة لم أفهم منها كلمة، و لم يكن لما أقوله أيضًا دلالة بالنسبة إليها. مع ذلك استمر حديثنا العجيب، بينما ألتفت بين الفينة والأخرى إلى فخذها الناعم المثير المنعكسة عليه أشعة الشمس، أو إلى نهديها المارقين من "التي شيرت" الأسود.

لكن المدهش أننا ظللنا نتحدث بلغات وإشارات عدّة، لا يتوقف حديثنا إلا بفعل ضحكاتها القصيرة المتقطعة. وأخيرًا أوقفتُ الشاحنة؛ بعد أن رأينا حانةً على جانب الطريق تزدحم أمامها الحافلات والشاحنات، وحولها تناثرت مجموعات من الشباب والفتيات الذين وقفوا يتضاحكون، ويدخنون، ويتجرعون البيرة من زجاجات صغيرة داكنة. تجاوزناهم فيما نهرول باتجاه الحانة، مستثارين بمرح لا يبرره لديّ سوى وجود تلك الفتاة الجميلة، التي تتحرك بحيوية طفولية، وترسم ابتسامة أبدية على ملامحها الفاتنة. الابتسامة التي تبدو كفعل مستمر ثابت، لا يتغير إلا بانقباضات الوجه الصغير المليح؛ حالما تتحول ابتسامتها إلى ضحكة تقرقر بها بسرعة.

دلفنا إلى الداخل، عبر باب زجاجي ضيق، فألفينا جمهورًا كبيرًا، يتناثرون في جماعات حول مناضد خشبية مستديرة ومستطيلة، مغلفين بالدخان، وبجلبة الضحكات الصاخبة، بينما لم نجد سوى فتاتين اثنتين تقفان أمام البار وهما تتهامسان كعشيقتين.

أضواء المكان خافتة، انعكس وهجها الشاحب بألوان حمراء وزرقاء، على الطاولات، وعلى أشباح البشر من حولنا. لفتت الفتاة المكسيكية انتباهي إلى سقف الحانة الخشبي، في مرح وإثارة. نظرتُ إلى حيث أشارت وضحكتُ. كان السقف ممتلئاً بـ "كيلوتات" أنثوية بألوان وموديلات مختلفة، معلقة بعشوائية إلى جوار صدريات نسائية مختلفة الألوان.

اقترب منّا كهلٌ وسيم، لم ينل سقوط شعر رأسه من وسامته التي أكّدها شارب كثيف؛ استعار مما بقى من شعر رأسه اللون الأبيض. وجهه مضرج بالحمرة، وبشرته الحليقة تلتمع في الضوء.

متين البنية، يرتدي قميصًا قطنيًا أخضر وبنطلون جينـــز. أشـــار إلى السقف وسألنا عن مدى استعدادنا التقيد بشروط المكان، فارتسمت على ملامحنا تعبيرات استفهام. أوضح لنا أن الحانة لا يدخلها ســـوى الرجال، أما النساء فلا يسمح لهن بالدخول إلا بتصاريح مـــن هـــذا النوع، وأشار إلى السقف.

سألته صديقتي عن سر وجود الفتاتين العشـــيقتين. قـــال لهـــا ضاحكاً: هما أيضا لا ترتديان ثيابًا داخلية. ضحكتْ ضحكة ماجنة، وبلا تردد أدخلتْ يديها تحت الجيب الجينـــز القصير الذي ترتديـــه، وبحركة خاطفة، انتفضت لتُخلّص "كيلوت" أسود من تحت قدميها؛ الواحدة بعد الأخرى، ثم قدمته للرجل بابتسامة خجـــول. انتزعـــه شاكراً، ثم دسّه في أنفه، قائلا لها بمودة، ولكن بطريقته الخشـــنة، إن رائحتها جيدة، فابتسمتْ له بغُنج، بينما تحول ارتباكي إلى ابتســـامة بلهاء وزعتُها بينهما وأنا أتخيل شعيرات مهبلها التي منحت الكيلوت العبق الذي وصفه الرجل بـــ "رائحة جيدة"

سألنا عن المكان الذي سوف نختاره لجلوسنا ليضع الكيلـــوت أعلاه. أشارت إلى ركن قصي قريب من نافذة تطل على الطريق.

رأيتها تجلس أمامي عارية، ينسدل شعرها الأسود الفاحم علـــى كتفيها. يرتاح نهداها على صدرها، وتستند بذراعيها على المنضـــدة. كانت تتكلم بينما تأخذني عيناها ولا أسمع شيئا مما تقول، أو أتأمـــل شفتيها وهما تتحركان بحيويـــة. أخـــتلس النظـــر، إلى الكيلوتـــات والسوتيانات المعلقة أعلى رأسينا، مأخوذاً بحيوية وجههـــا المبتســـم باستمرار، وبهالة شعرها الأسود المتموج كشـــلاّل علـــى كتفيهـــا العاريين، وبعبقٍ غامض، يفوح بين آن وآخر في أرجاء المكان.

كانت تنظر إليّ بغنج. أبتسم ثم أهمس: جسدك جميل جداً.

انقطع المشهد بظهور مجموعة فتيات عاريات وقفن يتأملننا. لاحظت شبهاً بين واحدة منهن بإحدى بنات عمي. تحركت باتجاهها مبتسماً، بيد أني فوجئت برجلٍ ضخم يقترب من الفتاة الجالسة معي ويقبّلها. نهضتْ من مكانها وعلى وجهها ابتسامة واسعة. ثم تداخلت التفصيلات التي مرت عليَّ في الحلم، وأمست صوراً مشوشة، حتى رأيتني أقود الشاحنة وحيداً، مرة أخرى، بسرعتها القصوى تقريبًا، قابضًا على المقود، آملاً ألا تواجهني سيارة أخرى. وبينما أدرك أنني أحلم، لا أستطيع كبح جماح الكابوس، أو جماح الشاحنة التي كانت تبدو كمارد يمسك بمصيري. أفقد السيطرة على قيادتها نهائياً، إذ تعاندني وتنحرف عن الطريق. أردد لنفسي أنني أحلم، أحلم، وسوف أستيقظ الآن، وأصرخ كمن يستغيث بمن يوقظه من الحلم الذي لا يريد أن يتوقف، حتى دخلت روحي في فقاعة سوداء فجأة لم أشعر فيها بشيء البتة.

* * *

استيقظت متكدرًا، كارهًا الحلم، ونفسي. فبسبب ضعف ذاكرتي الحلمية عشت تقريبًا بلا أحلام. لكنني الآن، لا أعيش سوى على الأحلام، أو الكوابيس بالأحرى"

تناهت دقّات خافتة على باب الغرفة فانتفض منقذي معتدلاً، وخبأني أسفل المخدّة ثم نهض، واتجه صوب الباب، وفتحه.

4

فتح منقذي باب القمرة، فوجد قبطان السفينة أمامه. بدا كهلا، بارز الملامح، حليق الذقن ووجهه مشرب بالحمرة، عيناه رماديتان حادتان وباردتان، له شارب مشذّب خفيف يسوده الشيب، ويرتدي زي القبطان التقليدي: قميص أبيض ناصع، يتزين كتفاه بكتّافتين زرقاوين تنتهيان بثلاثة خطوط ذهبية، ويعتمر الكاب البحري ببروزه المستدق الذي يعلو الحاجبين ويخفي جزءًا من الجبهة.

خلع القبطان الكاب من على رأسه فور دخوله الغرفة، فبدا شعره الرمادي ثقيلاً ومموّجاً، رغم أنه شذّبه وقصّره بعناية.

أهلاً وسهلاً يا كابتن.

شكراً يا دكتور قاسم.. أنا بس حبيت أدردش معاك شوية.

اتفضل..

اقترب القبطان من كرسي صغير مجاور للركن المجاور للباب، وحمله إلى منتصف القُمرة ليجلس، بينما عاد قاسم ليجلس على الفراش.

قال القبطان:

دلوقت إيه العمل؟

في إيه بالظبط؟

هنروح فين؟ إحنا كُنّا في الأول ماشيين ورا حاجة محدّدة، باخرة متجهة لميناء فينيسيا الإيطالي، وعارفين خط سيرها، وحتى لما وصلنا لها ومالقيناش صاحبك عليها قدرنا نحدد خط سير القارب اللي حاول يهرب بيه من الباخرة.. لكن دلوقت.. الموقف شوية مش واضح. أنا في الآخر حدودي إني أعطل سير السفينة خمس أوست ساعات، مثلا، أو يعني لو اضطريت يوم بالكتير، لكن ماليش صلاحيات أكتر من كده.

أنا عارف إني عامل لسعادتك إزعاج، بس زي ما محمود باشا فهّم حضرتك، إن احتمال اضطرارك إنك تغير اتجاه الرحلة احتمال ضعيف جدا. والحقيقة إني بالكتير ممكن أحتاج إلى قارب صغير من قوارب النجاة وأتحرك بيه لوحدي، لو بس اتأكدت إن الناس اللى المفروض نلاقيهم غيّروا خط السير.

نظر القبطان إليه للحظات ثم سأله:

طيّب، ومش هتقول لي إيه الموضوع بالظبط علشان تديني فرصة أقدّر نسبة المخاطر اللي ممكن رُكّاب السفينة دي يتعرضوا ليها؟

ابتسم قاسم، وظلّ صامتًا لوهلة مترددا في ما يريد قوله، ثم نطق أخيرا:

يعني يمكن تعتبرها مسألة أمن قومي.

فرد القبطان مستنكرًا ومتعجبًا وبنبرة لم تخل من السخرية والاستهوال معا:

أمن قومي؟!
يعني.. لو سعادتك شايف إنها مبالغة مني خلاص اعتبرها رحلة بحث عن صديق.. بس ممكن تعتبره في الحالة دي صديق شخصي لمحمود بيه، وأنه مش عايز يشوفنا راجعين من غير ما يكون صاحبه ده معانا..

هرش الكابتن ذقنه الحليق بيده، وصمت للحظات، ثم هز رأسه علامة التفهم، لكنه لم يستطع أن ينزع علامات الضيق من على وجهه، موجهًا السؤال لقاسم:

يعني في كل الأحوال إحنا كنا متجهين لميناء نابولي، وده مسارنا لغاية ما نوصل لحاجة تخللينا نغير الخطة؟

تمام يا كابتن. على الأقل إحنا دلوقت متأكدين إننا ماشيين في الطريق الصحيح. الدفتر اللي في إيدي ده كاتبه صديقي رشيد الجوهري، ولقيته في المركب اللي لقيناه قريب من هنا. للأسف شكل اللي كانوا متابعينه أخدوا بقية حاجته اللي كانت معاه.

نهض الكابتن، ثم وضع الكاب على رأسه، وقال:

دكتور قاسم.. شكرًا على التوضيح، بَسْ كمان حضرتك لازم تبقى فاهم إني أنا هنا الكابتن.. يعني المسؤول الأول عن كل حاجة بتحصل على السفينة. والأخطر من كل ده، إن الرُكّاب اللي معانا، حتى لو كان عددهم قليل، لو عرفوا بتغيير مسار الرحلة، من ميناء نابولي إلى المواني الشرقية للحدود الإيطالية ممكن يعملوا لنا مشكلة كبيرة.

لم يتحرك قاسم من مكانه، لكنه قال:

اطّمن يا كابتن، أنا مش طالب منك إلا إنك تديني فرصة لغاية بكره بالليل، وبعدها هاديلك كل المعلومات اللي عايز تعرفها. غالبا الناس دول نشاطهم في روما، مش ممكن يكونوا متجهين لفينيسيا، خصوصا بعد ما تأكدوا إن صديقي مش موجود في السفينة اللي رايحة فينيسيا.

وفور إغلاق الباب، أمسك قاسم بشعيرات من ذقنه، وهو يفكر واجمًا، ثم سرعان ما عاد للقراءة.

"لسنوات كان لديَّ حلم واحد: أن أستيقظ لأجد نفسي في بيت جديد، ومن نافذة الغرفة المشرقة أطل على حديقة جميلة، وشارع ممتلئ بأشخاص لا أعرفهم، منمقين، مهندمين، يسيرون بنشاط، لكن بلا ضجيج.

لم أستطع أن أحدد المكان. كان الحلم في جوهره توقًا للحرّية التي لا يمكنني القول إنني اختبرتها على أي نحو أن أعيش في بلادٍ لا أعرف لها اسمًا، لكنها تعرفني، وأعرفها. جاء ذلك بعد أن خرجت، أو بالأدق لّما تمردت على حياتي في تبعية كبير المتكتمين، واكتشفت، بفضل ملابسات عديدة، وبينها سلوكيات ناصر، الرفيق الذي كان بيننا، من دون أن يبدو البتّة أنه واحد منّا، والذي وضع أمامي المشهد في كامل وضوحه.

بمرور الزمن كنت أضيف بعض الرتوش إلى حلم يقظتي ذاك، من اكتشاف أماكن جديدة، إلى معرفة عوالم كانت غيبا قبل أن أصل إليها، ثم حسناوات جميلات ألتقيهن، في ملهى ليلي، أو بالصدفة على الطريق، أو في مقهى لا يرتاده إلا محبو العزلة والانفراد

بأنفسهم، أحس نفسي بواحدة منهن، بعد علاقة حب تسبقها مغامرات الطريد والقناص.

لكني كلما ابتعدت عن تذكره كلما عدت إليه مدفوعًا بإضافة تفاصيل جديدة، وبينها حلم الانتقال من ذلك المكان إلى أماكن أخرى تشبهه أو لا تشبهه، لكنها كلها غريبة عني، مدن حديثة جميلة، نظيفة، ملوّنة، بناياها شاهقة، تتناطح في محاولاها الشامخة أن تصل للسحب، مدينة رمادية تختلط فيها شبهة القدم بالحداثة.

تشبثتُ بذاكرتي محاولا استعادة تفاصيل الحلم، وملامح وجه الفتاة السمراء الجميلة، لكني أدركت أن وجهها، لم يمر علي من قبل. تتابعت في مخيلتي ملامح العديد من الفتيات اللائي مرّوا علي في علاقات عابرة، أو حتى بعض ممن رأيتهن بشكل عابر، وظلّت ملامحهن عالقة بمخيلتي، لكن ذاكرتي ظلت عمياء. هبّت على روحي لفحة من تلك المشاعر الغامضة، التي يتوهم العشاق بها أنهم وقعوا في الغرام. ابتسمت للخاطرة الساذجة عن خداع اللاوعي الذي أوهمني أنني مغرم بتلك الفتاة.

نهضتُ متجهًا صوب الحائط المقابل للفراش. أضأت المصباح. أعدت تأمل مجموعة من الصور واللوحات التي جمعتها من المجلات والصحف على مدار سنوات عديدة. توقفتُ أمام صورة كبيرة للممثلة المكسيكية؛ سلمى حايك، عارية على أرض غرفة خشبية خالية، وتغطي نفسها بملاءة، تنظر للعدسة نظرة تجمع تعبيرًا غامضًا بين الحزن واللامبالاة. راعني أنها بملامحها المنمقة وعمق عينيها السوداوين الذكيتين لم تكن تشبه فتاة الحلم كما هيّأ لي خيالي.

جلست ساهمًا. هاجمت ذاكرتي تلك الرحلة الطويلة التي انتهت بالمأساة التي أعيشها اليوم، وربما يعيشها غيري. قلبي يتمزق كلما تذكرت أنني كنت طرفًا من أطراف تلك المأساة. وفيما أستعيد تلك المرحلة السوداء من حياتي أدركت أن الأحلام التي تداهمني يوميًا ربما ليست إلا شعوراً باطنيًا عميقًا يعارض حقيقتي التي كنتها، وما تمنيت أن أعيشه.

أدركت أن فتاة الحلم، بشكلٍ ما، تجسّد مثيلا موضوعيًا لفتاتي الراهنة، قارئة كتابي السري، التي تصر على أن اسمها "سديم" كانت لديَّ شكوك عديدة نحوها، رغم كل الصدف التي تسببت في تعارفنا وبدء علاقتنا التي توثقت بسرعة. شعرت لفترة، بأنها مدسوسة علي من "المتكتم الكبير"، الذي يتوق أن يعرف أسباب اختفائي ويتأكد من شائعات انتقالي إلى معسكر "كبير النساخين"، وحياتي مع جماعته السرية في مخابئ أرضية حيث ننفذ مخططه في نسخ النصوص الممنوعة.

كانت تردد اللقب الذي منحته لي سنوات الحياة في ظل "المتكتم"، ثم تسألني بابتسامة: "أنت متكتم ولا كتوم"؟ منتقدة صمتي المستمر وتحفظي تجاه الغرباء.

وضّحتُ لها أنني شخصية متحفظة لا تجيد التعبير عن مشاعرها، وأنني في أحيان نادرة يأخذني الحماس، فأتخلى عن تحفّظي وصمتي، لكن ذلك ليس سوى لمراتٍ قليلة يمكنني أن أتذكرها وأن أعدّها على أصابع يدي.

ورغم كل حساسيتي وذهنيتي الشكّاكة، التي بلغت حد الارتياب المَرَضي، التي اكتسبتها على مدى سنوات العمل مع المتكتم وأعوانه، لم أتماد في شكوكي.

تعرفت إليها في واحدة من الجلسات المخصصة لقراءات الشعر التي نعقدها في الأنفاق.

لفتت نظرتهم انتباهي، بهيئتها وشعرها الأسود الحالك القصير نسبيا، وملامحها المنمقة وبشرتها البيضاء، ولاحظت أن عينينا التقيتا خلال الجلسة التي تململت فيها أكثر من مرة، فيما أنصت لقصائد كثيرة كنت أراها مجرد لغو حين بدأت تلقي قصائدها، وجدت صوتها يتحول بين الرقة والحدّة، ويتلون بروح ما تقرأه بشكل لافت. وعند إلقائها مقطعا إيروتيكيًا من قصيدة أسمتها "البتول" بدت ملامح وجهها للحظة كأنها امرأة تكاد تصل إلى ذروة شبقها، زامة شفتيها، ومقلّصة وجهها ومضيّقة عينيها، فيما رفعت إحدى يديها إلى فضاء المكان كاشفة عن إبط شاهق البياض. التقط مخي الصورة، واحتفظ بها في الذاكرة فورا، كواحدة من أكثر الصور الشعرية المجسدة بملامح شاعرة.

في طريقي إلى مقطورة الشِعْر ضللت الطريق. كنتُ شاردًا، تناوشني أفكار الكتاب الذي أتولى نسخه لفرح أنطون بعنوان "ابن رشد وفلسفته"، وتتداعى لتدفعني أحيانًا للتوقف عن القراءة حين تتناوش مع ما يخصني منها، أو ما تلهمني به لأدونه في كتابي السرّي، وتتلاقح مع يقيني، فتخلق أفكارًا أخرى تخص حياتي الجديدة في مدينة الأنفاق.

وجدتُ نفسي فجأة في ممرٍ مُعتم، بدا لي كحارةٍ سد. انتفضت من أفكاري خوفًا من إحساسي بأنني ضللت الطريق لأول مرة، منذ تعرفت على مدينتنا السفلية، التي هربنا إليها خوفًا من بطش المتكتم وأعوانه.

كان أول الشروط التي يُسمح لنا بمقتضاها التجول في المدينة السفلية، أو مدينة الأنفاق كما اعتدنا أن نطلق عليها، أن يختبر كبير النساخين قدراتنا في التعرف على المدينة بكل دروبها وعطفاتها، وبينها تلك التي تقود إلى أماكن التجمع الكبير للنساخين، الموقوفة على النساخين، والتي تبدو وسائل الوصول إليها أشبه بعملية اختطاف، بحيث لا يمكن لمن يصل إلى هناك أن يفكر في العودة بمفرده. لذلك توجب علينا أن نعرف كل منافذ الأنفاق العلوية المخصصة للهاربين والشعراء والفنانين والبوهيميين والموسيقيين، وحتى الأفراد العاديين ممن لا ينتمون إلى كتيبة النساخ الهاربين، هذا طبعا بالإضافة للأماكن السرية المخصّصة للعشاق، الذين لم يعد بإمكانهم أن يجدوا مكانًا يمارسون فيه الحب في مدينة الظلام.

استمد هذا الشرط ضرورته من خشية كبير النساخين، أو "الكاتب الشبح"، كما كنا نطلق عليه بيننا، أن يعرف "المتكتم" بأمر عالمنا السري هذا، وإطلاقه بالتالي لأتباعه خلفنا لاعتقالنا أو حتى قتلنا.

توقفتُ محاولاً إعمال ذاكرتي في النقطة التي بدأ عندها شرودي عن تتبع الطريق. ولم أنجح. وهكذا قررت العودة من حيث أتيت. استدرت فإذا بي أرتطم بجسد بشري. ومن فرط المباغتة امتزجت صرختي بصرخة مماثلة من صاحبة الجسد التي سرعان ما اكتشفت أنها سديم.

شرارة الرعب التي اندلعت في تلك اللحظة فجرّت بيننا شعورا غامضا. وعندما سرنا متجاورين عبر الأزقة السرية في طريقنا إلى مقطورة الشعر، لفنّي شعور بأنني أعرفها منذ سنوات، دون أن أتذكر

متى أو أين؟ فقلت لنفسي مبتسمًا، ولها لاحقا: "ربما في حياة أخرى عشناها في الماضي

في تلك الليلة استدعيت ذلك الحلم البعيد وفتاة الشاحنة التي لم تكن تشبه سديم على أي نحو، فبينما كانت فتاة الحلم سمراء لها جمال لاتيني حسي ساخن، كانت سديم بيضاء البشرة تمتلك وجهًا رقيقًا، تتشكل حسيته من التضاد بين بياض بشرتها وحلكة شعرها الأسود الناعم، ومن تلك اللمعة الغريبة في حدقتي عينيها السوداوين. ولكني شعرت بأن شعورًا عميقًا قد بدأ يتشكل تجاهها، يقترب مما شعرت به تجاه الفتاة الخلاسية في الحلم. باستثناء أنني الآن قررت ألا أنشغل بالخيال وأكتفي بالأمر الواقع الذي فاق في تقديري جمال الخيال.

على أي حال، فالرحلة بين العالمين؛ العلوي وهذا السفلي الذي نحيا فيه اليوم، طويلة، تماما كما هي رحلتي بين عالمين باتا اليوم بعيدين لدرجة أصبحت معها لا أصدق أنني نفس الشخص الذي كنته ليس قبل عشرين سنة مثلاً، بل قبل خمس سنوات فقط"

5

توقف قاسمٌ عن القراءة. وشرَع يعبث في حقيبته باحثًا عن شيء ما، وفي تلك الأثناء استدعيت اسمه، "قاسم الحديدي". حاولت استعادة صوت رشيد في إحدى جلسات تسجيله لذكرياته، وحينما اطمأننت أنني سمعت هذا الاسم بالفعل من قبل أدركت أنني عرفت هذا الشخص أخيرًا. أظنه كان صديق طفولة لرشيد، لكن علاقتهما انقطعت حينما سافر رشيد إلى الإمارات في عمر مراهقتهما، وانقطعت الصلة بينهما إلى أن عاد رشيد للدراسة الجامعية.

كان طالباً في كلية الآداب أيضا، لكنه التحق بقسم المكتبات وليس الفلسفة، كما شأن رشيد، وأظنه الشخص الذي عمل في تجارة الموسوعات ودلّ رشيد على الطريق إلى فيصل أمين.

تبين لي أن قاسم كان يبحث عن علبة سجائره. أشعل السيجارة وعاد للقراءة وعلى وجهه ملامح جديّة واهتمام.

"لكنني إذ أستعيد حلم الشاحنة، أشعر بالحسرة، ليس بسبب الفتاة السمراء حقيقة، بل لأنني بقدر ما تمنيت تحقق مثل هذا الحلم، والسير في طريق بلا نهاية فيما أقود شاحنة عملاقة، كرحّالة لا يمكن

له أن يستقر في مكان، بقدر ما جعلت منه حلمًا اعتبرته حالة "ديجا فو" لم تتحقق بعد. حلم من الماضي انبثق لكي يصبح واقعًا، للدرجة التي أصبحت معها أعيش في أحلام يقظة طويلة، تشبه رحلات الصوفية الباطنية، لا يمكنني التمييز بين الواقع الذي أعيشه والخيال الذي يسيطر على عقلي.

أما السبب الحقيقي الذي يُشعرني بالحسرة والمرارة اليوم، فهو أن الطريق التي سلكتها، لم تكن لها أي علاقة بما حلمت به، منذ اضطراري للعمل في مهنة الرقيب، وصولا إلى الواقع المأساوي الذي انتقلنا إليه في هذا الكابوس المُسمّى بمدينة الظلام. أصبح الفارق بين ما عشته وبين ما أطمح إليه اليوم شاسعًا بقدر خيبة أملي. المسافة بين ما أرغب فيه وما فعلته حتى الآن أقرب للمسافة بين الجنّة والنار.

أستعيد خبرة عملي كرقيب حكومي فأشعر بالغثيان، وتراودني الرغبة في الضحك من الطريقة التي كنت أفكر بها، بل من الشخص الذي كنته يوما.

بعد أربعة أيام من لقائي بسديم في الطريق السفلية، كنت أحكي لها، بلون من الحياد، وكأنني أشاهد في خيالي فيلماً أستعيده من الذاكرة:

بعد خمسة شهور من الحياة بلا راتب، بدأت أُضيّق دوائر الاختيار، قدمّت تنازلاً عن أمر كنت أعتبره أساسيًا في البداية، فلم أعد أرى ضرورة للالتزام بالعمل في بنك من تلك التي انتشرت رافعة شعارات الحلال، أو في جمعية تُسبغ على نفسها معرفة بسبل الربح الحلال! صحيح أن الكثير من المعارف والأصدقاء عرضوا علي عروضا للعمل هنا أو هناك، لكنها بالنسبة لي كانت عروضا تتضمن

شيئا من الانتهازية الخفيّة. وكنت أردد لنفسي أنني لو قبلت بأي منها فسوف أظل مدينًا لهم. و لم أكن راغبا في منّة من أحد.

كان ذلك الرفض يتطلب مني قوّة وإصرارا، خصوصا وأن حياتي بلا أي وسيلة للحصول على دخل أنفق به على نفسي، أصبحت مُقبضة. ورغم بؤسي هذا فقد كنت أغبط شقيقتي التي تصغرني في العمر بنحو ثلاثة أعوام، إذ كانت على العكس، تعرف تماما ما تريد. أنهت دراستها في كلية الآداب، ودأبت على مطالعة الصحف كل يوم، بحثا عن إعلانات التوظيف في مجال الضيافة بشركات الطيران، فإن لم تجد انصرفت عن الصحيفة، كأن شيئا لم يكن. وحينما وجدت بُغيتها أخيرًا، ممثّلة في إعلان بارز لإحدى شركات الطيران المرموقة، عن وظائف خالية لمضيفات جويّات، كانت مستعدة، وبعد أسبوعين تقريبًا، أعلنت لنا أن الشركة قبلتها للوظيفة.

كان عمل شقيقتي الصغرى يمثل لونًا من الاستفزاز، ويضع سدًّا بيني وبين استمراء حياة التبطل وإضاعة الوقت، ويحول بين استمرار لجوئي لأمي لتقترض لي من والدي بعض المال مما أدبر به نفقاتي

* * *

يبدو أنني شردت قليلا أثناء قراءة منقذي لما أضمه في متني، إذ إنني عدتُ أفكر كما فكرتُ طوال الليل في رشيد الجوهري، حاولت تخيل مصيره، بعد اختطافه. كان اعتزم الرحيل إلى إيطاليا. فبعد رحلة من جزيرة بالي إلى ألمانيا عاد إلى القاهرة يائسًا، رغم تجاوزه لمحنته النفسية والروحية، وتخلصه من أوهام كثيرة لاحقته خلال الشهور الأخيرة له في شتوتغارت.

وبعد شهور عدة، في فترة اتسمت بالغموض، على الأقل بالنسبة لي، لأنه تخلّى عنّي خلال أغلب تلك الفترة، وتوقف عن الكتابة، اتخذ قرار رحلته البحرية التالية إلى فينيسيا، لكن لم يعلن لأحد عن الطريقة التي اختارها للسفر. وهي الرحلة التي اكتملتُ فيها. هل اكتملت حقا؟ أنا أشك دائما في كوني مكتملة!

كان قد قرر، خلال رحلته تلك، أن ينتهي من صياغتي بشكلي النهائي، بعد مشروع تدوينه الطويل لي بين رحلاته في ألمانيا ومدن أخرى عديدة خلال إقامته هناك.

خلال سعيي للتنبؤ بمصيره بعد أن تركني في القارب، كنت أفكر في أنه ربما تعرض للقتل عقب اختطافه، أو بالأحرى للغرق، بعد أن ألقى بنفسه في مياه البحر. لم أستطع أن أمنع نفسي عن التفكير في تلك المخطوطات الغامضة التي كان قد احتفظ بها منذ فترة، والتي كانت بين أغراض قليلة اصطحبها معه في تلك الرحلة المشؤومة، لكن كيف لمن جاءوا ليطاردوه ألا يجدوها بين أغراضه في الحقيبة التي تركها معي على القارب؟ أظن أن قاسم أيضًا كان متأكدا من وجود تلك المخطوطات معه. مع ذلك لا أذكر حتى أنه اهتم بحقيبة رشيد الموضوعة في القارب. المهم الآن أن أعود لأتابع ما يقرأه منقذي في متني، حتى يتسنى لي التركيز في ما قد يدور في باله مما يقرأه.

"بعد أسابيع من الانتظار، وبصدفة غريبة جمعتني بصديق طفولة لم أكن رأيته لسنوات، وجدتني، عائدًا من هيئة رقابية مسؤولة عن رقابة الكتب والنصوص والأعمال الفنية.

بدأتُ عملي بحماس، وبأعمال بدائية لا تزيد عن بعض مهامٍ روتينية، هدفها رقابة المجلات الأجنبية وشطب الصور الفاضحة منها، أيا كانت، إعلانًا أم صورة تخص موضوعًا صحافيًا، صورة فوتوغرافية أو لوحة مرسومة.

كان عملي يتمثل في استخدام أقلام حبر سوداء غليظة السنون، في تظليل وتسويد كل ما قد يُظهر جانبًا عاريًا من الجسد البشري: النهود العارية والسيقان والأفخاذ والأكتاف. وبمرور الوقت، وبُغية اكتساب ثقة مديرنا المدقق، كنت أتبرع حتى بشطب صورة أي رجل يظهر صدره عاريًا، رغم ما أثارته مجموعة من الزميلات المحجّبات من نميمة حول الموضوع وصلت إلى مسامعي في وقت لاحق كالعادة، عن ارتيابهن في كوني مثليًا. كما تبرعتُ بتمزيق صفحات كاملة من بعض الصحف والمجلات. كانت تضم صوراً رأيتها آنذاك إباحية ومستفزة ومخجلة.

كنت أتردد على المحال التجارية، فإذا لاحظت صورة على منتوجات المحل، مما نصنفه "إباحيًا"، أتوجه من فوري إلى الموظف المسؤول، لألفت انتباهه إلى ضرورة تشطيب الصور الموجودة، وتكليف موظفيه بذلك فورًا.

بلغ عهد الرقابة آنذاك ذروة قوته، ما منح لشخص الرقيب هيبة اعتبارية. نعم، مُنحنا سلطات مطلقة في ردع المخالفين؛ وصلت حد التوصية بإغلاق المحل لمدة يمكن لنا تقديرها؛ بسبب وجود صورة من تلك الصور، حتى لو كانت ملصقًا على منتج من منتجات الملابس النسائية الداخلية.

ثم أصبحت واحدًا من بين من يوكل إليهم مهام مداهمة محال

المصنفات الفنية، وخصوصا الفيديوهات التي تختص بعرض الأفلام السينمائية والأغاني والمسرحيات. تقافز قلبي من النشوة عندما خرجت في أولى مهامي بغرض مداهمة عدد من المحال. كنت أفعل مثل الرقيب الأكبر الذي يرأس المجموعة والزملاء من الخبراء. نرتدي جلابيب بيضاء، ونعتمر عمامات صفراء نميز بها أنفسنا، فيما نرسم على وجوهنا ملامح التجهم. ندهم المكان المستهدف ونتحرك بعصبية، ونتعامل مع العاملين فيه كأنهم مجموعة من المجرمين. نطلب رخص المحل ووثائق الإيجار أو التملّك، ونبدأ في العبث بكل ما يوجد أمامنا، فيما يطلب منا الرقيب الأكبر البحث عن المخازن، حتى لو لم يكن هناك مخزن. ومن نظرة عينيه كنا نعرف ما ينبغي أن نفعل، وإلام سينتهي الأمر، سواء وجدنا ما نبحث عنه أو لم نجد. وصحيح أن المفترض أننا نبحث عن أفلام مخلّة بالآداب، لكن بيننا اتفاقا، تقريبًا، أن أي فيلم لا بد أن يحتوي مشاهد مخلّة، ولكن هذه الأفلام لا تسمح لنا بإغلاق المكان أكثر من مدّة محددة، بينما مكافآتنا تقوم على تشميع المحل بالشمع الأحمر.

لكني، بيني وبينك، يا سديم، لاحظت آنذاك أنني أصبحت شديد الحساسية للصور، هل تفهمين قصدي؟ كنت أحلم ببعض الفتيات من أصحاب تلك الصور، ويأتينني في الحلم عاريات. وهذا سبب لي نوعًا من الاضطراب، رغم أني لم أكن مضطرا لأن أحكيه لأحد.

تعلمت من هذه المهنة التكتم الشديد، لا أتحدث لأحد عن طبيعة وظيفتي. لا أتفوه بما أسمع في العمل، ولا بأي أخبار تخص منع عمل فني أو حذف مشهد من فيلم سينمائي، أو منع مقطع غنائي،

أو مصادرة كتاب. كنا كمن يعمل في كتيبة عسكرية؛ السرية جانب أساسي ليس في طبيعة عملنا فقط، بل كانت تشكل جانبًا رئيسًا من هويتنا الجديدة أيضا. وبالتالي كانت موضوعات أحلامي من المناطق السرية التي لا أستطيع حتى أن أحكيها لأصدقائي المقربين، لأنها في النهاية، تخص العمل. فالفتيات اللائي كن يلاحقنني في الأحلام لهن أصل في الواقع، أو حتى في الخيال الفني؛ منشورة صورهن في صحف أو كتب مصورة أو مجلات.

وزادت سعادتي بعد أن أضيفت لمسؤولياتي، أخيرًا، مسؤولية جديدة تمثلت في إعداد تقارير عن الكتب المشتبه في تضمنها مشاهد إباحية أو ألفاظًا جنسية.

لم تكن لديّ خبرة جيدة في رقابة الكتب، إذ عادة ما كنت أستمتع بما أقرأه، وأجيزه، ثم أفاجأ بعد فترة بتقرير طويل عن الكتاب مقتطف منه فقرات طويلة، مذيّلة بتعليقات مديرنا الذي عادة ما كان يتهمني بالإهمال، واللامبالاة، والرغبة الدفينة في إفساد المجتمع، أو بأن الطريقة التي أعمل بها تؤكد أن لي ميولاً قوية للانحلال.

وهكذا عدّلت منهجي. رحت أُمسك الكتاب بروح من الشك والعدائية، وبتربص من يرتاب في المؤلف. كل كاتب متهم حتى تثبت براءته، وغالبًا ليس بريئا. كل فكرة من أفكار الكُتّاب قد تتضمن الفتنة، أو الانحياز لقيم تتعارض مع قيمنا الأصيلة. وأغلب الكُتّاب من غير من يؤلفون في التفاسير والفقه والسيرة، عادة ما يريدون أن يمرروا إلى القراء رسائل إباحية، لا أخلاقية، أو دعوة للانحلال، ونشر الرذيلة في المجتمع.

أخذت أردد ما علمنا إياه كبير المتكتمين في المحاضرات التدريبية التي تلقيتها على يده بعد أن وصفني بالمنحل، بل أصبحت أكثر حساسية لكل ما قد يثير انتباه أي ممن يقع الكتاب في يده: المشاهد الجنسية، الفقرات التي تمثل انتقادًا سياسيًا للسلطة في البلاد، المتواطئة معنا، أو بالأحرى مع زعيمنا المتكتم الكبير، أو أي من رموز الإرشاد الروحي، وطبعا كل شبهة لتجديف أو....

لمحت نظرة شاردة لسديم، وهي توجه نظرها إليّ، عبر نظارتها الطبية ذات الإطار البلاستيكي الأسود الرقيق مستطيل الشكل، ولكن عينيها السوداوين الكحلاوين الهدباوين بدتا شاردتين؛ كأنها لا تراني. أدركت أنها تململت، فتوقفتُ عن الكلام. نظرت إليّ بدهشة ورفعت حاجبيها تساؤلا، كأنها تنتظر. قلتُ لها: حكاية مملّة؟!

صمتت وابتسمت كأنها تحاول أن تفهم معنى صمتي المفاجئ. بدت أنها تتأمل ما قلته وتحاول أن تفهم ما أقصده.

فكرت، ووجمت قليلاً، ثم ابتسمت ابتسامة واسعة، وأخيراً قالت: "عاوز تقول إنه بان عليّا الملل؟"، وقبل أن أجيب استطردت تقول: "لأ، مش ملل، ممكن شرود.. بافكر في كلامَك، باتخيّل شَكْلَك لمّا كنت بتفكر كده"

صمتت وقالت: "أكمل أيها المتكتم الكبير

وضعتُ يدي على فمها مداعبًا، فأفلتت ضحكة لها رنين أنثوي فاتن. كان لقب "المتكتم الكبير هو اللقب الذي أطلق لاحقًا على رئيس الرقابة، بعد أن أصبحت سلطته نافذة، وطال نفوذه كل شيء. بينما كان كل رقيب له لقب متكتم فقط"

أظن أن قاسم، وبالرغم من رغبته في استكمال القراءة، بدا منهكًا، وربّما أنه حتى لن يذكر بالضبط اللحظة التي توقف فيها عن القراءة وتركني من بين يديه لأسقط بجواره، تاركا إياي للصمت متجها صوب ملاك النوم.

6

ظهور قاسم في الصورة بهذه الصدفة الغريبة جعلني أحدس أن ثمة علاقة تربطه بتلك المخطوطات التي يحملها رشيد معه. لكن الأهم أن ظهوره بدّد شعوري بالضياع منذ اختفاء رشيد. تماما كما الفارق بين اختفاء شخص في توقيت ما، من دون أن يسمع عنه أحد شيئا بعدها، وللأبد، وبين أن يُختطف فيلقي خلف كل خطوة من خطواته أثرًا. كان وجود قاسم الحديدي في ظني، بمنزلة الأثر الذي تركه رشيد!

لكن السؤال الأهم الآن: لماذا قاسم؟

ما أعرفه أن العلاقة بينهما شبه مقطوعة. رشيد لم يذكره كثيرًا، وبالتأكيد لم يره على الأقل منذ ترك العمل في بيع الموسوعات، واتجاهه للعمل في السياحة، كأن لقاءه بقاسم، كان مقدّرا فقط لكي يعمل رشيد في بيع الموسوعات، ثم تتفرق بينهم السبل مجددا.

أذكر الآن مما حكاه رشيد في جلسات جمعته بصديقات أو أصدقاء، وخصوصا لعشيقاته اللائي قضى مع كل منهن علاقة عاطفية طويلة؛ سلمى وبيرجيت ويوديت وأهران، أنه عندما أنهى فترة دراسته الجامعية، تبيّن أن كل ما استطاع أن يدبره من مدخرات،

خلال أربع سنوات من عمله في بيع الموسوعات، لا يكفي لتدبير تكلفة تذكرة طائرة ذهابًا وإيابًا إلى أقرب بلد يمكن السفر إليه في أوروبا، فقرر أن يعمل في وظيفة يمكنه فيها أن يستغل إمكاناته، بحيث يحصّل دخلا معقولا يتيح له السفر لاحقًا.

الفائدة الوحيدة التي جناها رشيد من بيع الموسوعات، تمثلت في ما أتيح له من اطلاع على الموسوعات التي كانت الشركة توزع منها على المندوبين نسخًا مجانية، كنماذج يستخدمونها للتسويق، ولإقناع العملاء، وبينها قواميس وكتب تعليم اللغات الأجنبية. أتقن الإنجليزية التي كانت معرفته بها جيدة، وتعلم قليلا من الفرنسية والألمانية. وبهذه المؤهلات قدّم نفسه لشركة من شركات السياحة المختصة في تنظيم رحلات للأفواج السياحية، لكن معرفة اللغات وحدها لم تكن كافية. الاختبار الذي أجري له قبل الالتحاق في المعهد كشف أنه يمتلك معلومات تاريخية لا بأس بها، فعمل في وظائف مؤقتة، ثم التحق بمعهد للإرشاد السياحي، بعدها أصبح مؤهلاً، أخيرًا، للعمل كمرشد سياحي.

بدأ عمله بنوع من الشغف، وبرغبة حقيقية في إثبات جدارته، لكنه كان يخفي نواياه الحقيقية انتظارًا للفرصة المناسبة، فلم يكن لديه استعداد لأن يخسر شيئًا يريده بعد خسارته لحلم قيادة الطائرات.

وبلون من القبول الجزئي للتنازلات، والتخطيط بعيد المدى لتحقيق الأحلام اعتبر عمله في مدينة الأقصر، بعد مرحلة من العمل في القاهرة، بداية تحقق حلمه في الرحيل والتنقل.

من بين التسجيلات الصوتية التي كان قد سجلها خلال عمله في الأقصر، والتي لم يُقدَّر لي أن أسمعها بصوته إلا لاحقا، بعد

ذهابه إلى شتوتغارت، في الفترة التي اعتاد خلالها على العودة للإنصات إلى ما سجله بصوته، وكان ذلك على ما يبدو من أجل أن يستفيد بملاحظاته تلك في كتابتي، من ذلك التسجيل تحديدا تبين لي مدى شغفه بالحضارة المصرية القديمة.

شغف بدأ بمشاعر الانبهار الأولى العادية، ومع قليل من القراءة بعد زيارة أولى للمتحف المصري على تخوم ميدان التحرير تحول الأمر إلى رغبة في المعرفة. كما أن الإيقاع الهادئ لمدينة الأقصر، وبساطة الحياة فيها، مثّل بالنسبة له هدنة من جنون القاهرة الصاخب، واللهاث المستمر فيها، بسبب إيقاع الحياة الجنوني بها.

تتبع تاريخ الأسر الفرعونية في العهود الثلاثة؛ المملكة القديمة ثم الوسطى والمتأخرة. وتحول الشغف إلى ولع، ومحاولة للوعي بكيفية الاختلاف بين شخص عاش بعد الألف عام الأولى التي مرّت على نشأة الحضارة الفرعونية، أي في نحو العام 3500 قبل الميلاد، مقارنة بشخصٍ آخر عاش في الألف الثانية، أي في نحو العام 2000 قبل الميلاد، مع فارق أن شعوره بالامتداد لهذه الحضارة سيكون أصيلا، خصوصا أنه، على سبيل المثال، سيكون متقنًا لنفس اللغة الهيروغليفية، ومتمكنا من قراءة منجز السابقين بلغتهم، عارفًا بطبيعة التطور العلمي والحضاري الذي تم خلال ألف عام سبقت وجوده.

أدرك رشيد، وهذا ما عرفته من حوارات عدة دارت بينه وبين آخرين، أن الفجوة العميقة التي تفصله عن حضارته التي تمثل هوية أساسية، تتسبب في أن يُنظر إلى عصر الفراعنة تقريبًا كأنه حقبة واحدة، حقبة بعيدة صامتة، حقبة حجرية تحولت في ذهنية

المصريين المحدثين إلى حضارة اسمية ينتمون لها، بلا فهم حقيقي لجوهرها الأخلاقي والفني والأدبي والديني.

حتى الكلاشيهات الغربية، كما كان يسميها، عن رقصات المصريين القدامى، وأغنياتهم التي كان يصفها بالسخيفة، مثل أغنية "أن تمشي كما مصري Walking Like An Egyptian، كانت في تقديره تفتقر إلى الخيال، وتبدو حركاتها كأنها محاولة ركيكة لفك دلالات رسوم جسّدت رقصات المصريين قبل 4000 عام، من على جدارية أحد المعابد أو القصور أو المقابر الملكية الفرعونية، ونقلها إلى الواقع، من دون محاولة فهم الزمن والتاريخ الفاصل بين تاريخ رسمها، وبين الواقع اليوم، ومن دون محاولة إحيائها، بضخ اليقين في أنها كانت مسلكا بشريا طبيعيا، وكانت من طبائع الحياة اليومية، وليست وهمًا أو أسطورة أو خيالا.

انتقل شغفه بتلك الحضارة القديمة إلى السيّاح الذين تصادف زيارتهم للمواقع الأثرية التي عمل بها، إذ كانوا يتأملون آثار حضارة عمرها يزيد على 5000 عام، تقف أمامهم بشموخ، بينما يقوم ذلك الشاب النحيف الوسيم، بلكنة بريطانية سليمة، بإنطاق الحجارة، وضخ الروح فيها، بحيث يشعر كثير منهم بأنهم لا يقفون في الأقصر بجنوب مصر في القرن العشرين، بل بأنهم رحلوا في الزمن حقا، إلى عصر مدينة طيبة؛ عاصمة بلاد كانت تجسّد يومًا إحدى كبريات حضارات العالم.

كان معبد الكرنك واحدًا من شواهد العبقرية التي يشعر تجاهها بنوعٍ من الإجلال والتقدير. في فترات راحته، كثيرًا ما كان يفضّل التجول في أرجاء المعبد بمفرده، ليتأمل التفاصيل المعمارية والفنية،

والنقوش على الأعمدة الحجرية العملاقة، ليستعيد ما تعلمه عن تاريخ تلك المرحلة من عمر المملكة المصرية القديمة.. مملكة الجنوب.. طيبة.. موطن أحمس؛ محرر شمال مملكة مصر القديمة التي كانت عاصمتها منف، وحيث كانت الديمقراطية تميز الحكم في الجنوب قبل نحو ثلاثة آلاف عام، في حين كان أهل الشمال، في منف وحولها، يعانون امتهان كرامتهم، والاستهانة والاستخفاف والاستعباد من قبل فراعنة الرعاة.

الآن، تذكرت أيضا، كيف أنه حين أنصت لما سجله عن مشاهداته لمعبد الكرنك، استدعى لذهنه ما كاد أن ينساه:

لاحظ في تلك الأيام مسجداً أثريًا قديمًا، اكتشف أسفله مباشرة مبنى فرعونيًا لم يكن المستكشفون قد استطاعوا تحديد الفترة التاريخية التي ينتمي إليها بعد، لكن هذا المبنى ومض في ذهنه فجأة، عندما قرر أن يكتب الفكرة الأولى لما أصبحت أنا عليه لاحقًا.

"ليس معروفًا على وجه الدقة من الذي اكتشف المدينة السفلية التي نعيش فيها الآن نحن معشر النساخ، والعشاق، والشعراء، أو جماعة "الكتبة الهاربين"، كما يُطلق علينا. اختلفت أقوال كل من استمعت إليهم حول الموضوع، فالبعض يقول إن "الكاتب الشبح" أول من اكتشف المدينة السرية، وإنه استقطب النسّاخين تباعًا، وعمل معهم على ترميم البيوت القديمة وحفر الأنفاق المغلقة وترتيب نقل معدات النسخ. والبعض يقول إن الشعراء هم أول من هبطوا إلى المدينة السرية عبر معابر مترو الأنفاق، وإنهم استطاعوا أن يخصصوا بعض عربات المترو الهالكة لتصبح منابر شعرية لأمسيات اتسمت

بالحيوية، وشهدت تسابقًا مبدعًا في إلقاء قصائد من مدارس شعرية مختلفة.

لكن فريقًا من قدامى النساخ الذين استقروا في المدينة السرية يقولون إن السبق في الوصول إلى هذا المكان تحقق على أيدي العشاق الذين أصبح تلاقيهم في مدينة الظلام شبه مستحيل، في ظل التشدد الذي انتقل من الرقابة على النصوص والكتب إلى التليفزيونات ثم الأفلام، مما أدى إلى هجرة الكثير ممن لم يستطيعوا التوقف عن العمل السينمائي خارج مدينة الظلام. وتوقف البعض دون أن يفكروا في الهجرة، على أمل أن يتمكنوا من تحقيق أي أعمال مع مراعاة المحاذير، بينما كان مصير من وقف في وجه المتكتم وأنصاره النفي في الخلاء؛ الذي استبدل به المتكتم السجون، والمصير الذي اختاره لأغلب أصحاب الفكر والفلاسفة والمبدعين والشعراء والفنانين. وهكذا لم يعد هناك سوى بعض الكتبة والمتملقين الذين يدبِّجون ديباجات تافهة تمدح في المتكتم وعصابته.

ما نعرفه جميعًا الآن أن فريقًا من النسّاخين قرروا أن يقاوموا المتكتم بالهروب إلى هذه المخابئ، التي لا يعرف بها أهل مدينة الظلام، ومعهم نسخ من النصوص الممنوعة التي لا حصر لها، وكنا في احتياج مستمر إلى عدد أكبر من النساخين، حتى نتمكن من إنجاز المطلوب نسخه. ولولا تطوع الكثير من العشاق والشعراء للانضمام إلينا لأصبحت مهمتنا شبه مستحيلة، لكنهم منحونا الأمل

* * *

أظن أن فكرة المدينة السريّة كانت حلا جيدًا في الفكرة التي أجسّدها اليوم، والتي ابتكرها رشيد ذات صباح، في "كافيه شامليون" كان مكتئبا، كعادته خلال الفترة التي واكبت توتر علاقته بفتاته الألمانية يوديت.

أراد أن يعيد تأمل حياته، والإجابة على الأسئلة التي تلاحقت على رأسه عما يريد أن يحققه، وإذا ما كان سيستمر في علاقته مع يوديت أم لا. وعن كل تفاصيل التجربة الألمانية.

اعتاد المرور على المقهى في الصباح ليشرب قهوته وللتأمل، وكتابة بعض الخواطر، وأغلبها ذكريات ملأت أكثر من نصف أوراق الدفتر. عندما قرر أن يكتبني، ألحت عليه فكرة، ولم يكن يدرك حتى إذا ما كانت خاطرة فنية أم قصّة أم مجرد شذرات سردية، لكنها كانت بداية تخلقي.

صحيح أنه لم يستمر في كتابتي إلا بعد فترة طويلة، لكني لم أنتبه إلى أي شيء غامض بعد اكتمالي (لماذا أكرر هذه الكلمة رغم أنني أشك دائما في أنني مبتسرة؟) باستثناء شعور غريب كان يراودني أحيانًا أنني أعاني الفصام، الذي يجعل من يصاب به منقسمًا على نفسه إلى شخصيتين. كنت أشعر في الشخصية الأولى أنني رواية رصينة، تعود أصولي إلى آباء الرواية العظماء. واحدة من تلك الروايات التي تُكون في جوهرها فكرة عميقة عابرة للأجيال والثقافات والزمن.

وفي أحيان أخرى، عابرة، كنت أشعر أنني مجرد رواية تجارية رخيصة، رواية جريمة يمكنها أن تحقق مبيعات ضخمة ويقرأها عشرات الآلاف، لكنها لا تحظى باحترام آباء الرواية. أو حكاية

مسلية مما يكتبه التافهون في عصور مختلفة ويختفي بالنسيان، الرد الطبيعي الذي يصفع به القراء كُتَّابًا يظنون أنهم قادرون على الضحك على القراء بالسخافة والتفاهة والافتعال.

هذا الشعور يجعلني أرغب في الهلاك؛ أن يتم إحراقي وأن يُنثر رمادي في المحيط، أو أن تُمزع أوراقي كي لا يقرأني أحد. فما الفائدة من أكون مجرد رواية للتسلية، يقضي معي المرء وقتًا، يتسلى بي، ثم يمنحني لصديق من أصدقائه، أو يتعمّد أن يتركني على مقعد في قطار، كأنني إثم يتبرأ منه، أو يبيعني مع أغراض أخرى لبائع روبابيكيا؟

لست أعرف سر هذا الإحساس، فأنا، مثل كل الروايات، أعرف قدري، وأعرف أن الفكرة التي منحتني الوجود فكرة جيدة، والأسلوب الذي تشكلتُ به أسلوبٌ أدبي رصين.. أسلوب قد يناسب ذائقة أدبية بعينها، وقد يختلف مع أخرى، والأهم من هذا أن خلاَّقي يمتلك لغة بليغة، يعبر بها بشكل جيد.

وحتى لا تفهموني خطأ، فلم تكن لدي أزمة هوية لها علاقة بتحديد جنسي مثلا، فنحن لا نتوالد إلا من أفكار من يبدعنا، ذكرا كان أم أنثى، لكننا لسنا ذكورا أو إناثا إلا بقدر ما يمتلك مبدعنا من نزعة ذكورية في أفكاره. هويتنا في الحالة هذه تكون موزعة ما بين كوننا روايات ذكورية النزعة أو نسوية النزعة، أو روايات إنسانية لا تتحيز إلا للإنسانية ولا تميز بين البشر الذين تستعرضهم، ولا تتحيز أو تتسم بالعنصرية. أعتبر نفسي أنتمي للنوع الثالث، وفي هذا الوعي ما يمكن أن يجعلكم تصدقونني، فلو لم أكن كذلك لما اعترفت به، أو لما أدركته من الأساس. لكنني، وجريا على نهجكم في اللغة التي

أنتمي إليها، بفضل من أبدعني، أتحدث عن نفسي كما تصنفني اللغة: "رواية"، تنطبق عليها كل مواصفات التأنيث لغويا. وها أنا أبتسم لكم أيضا، إذا كان بإمكانكم امتلاك البصيرة لترونني!

أظن أن رشيدًا امتلك السمات التي تمنحه الفرصة للكتابة بشكل جيد، فهو واسع الاطلاع، مثقف، بنى نفسه معرفيًا بشكل جيد.. رحّالة، متعدد اللغات والعلاقات، صاحب ذائقة خاصة في الفنون والموسيقى، وحتى الطعام، لكنه كان، في كل مراحل حياته، حريصًا على أن يُثقّف نفسه، وأن يقرأ آداب البلاد التي يحلّ فيها، ويتعرف إلى ثقافة البلد بشكل عميق.

استطاع أن يحوّل شغفه بالتحليق في أرجاء العالم إلى شكل من أشكال التعلم والمعرفة، بدأ بذلك منذ اهتمامه الكبير بالقراءة في علوم الطيران، وما اقترن بذلك من علوم الفيزياء، والطبيعة، ثم أنه نتيجة فكرة وصفها بالسخيفة تقول إن الفراعنة سقطوا من السماء، أمعن النظر في الأمر وتدبره، ليصل إلى احتمال معرفة الفراعنة بفكرة الطيران مبكرًا، ففطن إلى قراءة تاريخ مصر الفرعوني، ثم الحقب التاريخية المصرية المختلفة، وتعمّق في تاريخ مصر القديمة بمجرد أن قرر العمل كمرشد سياحي، واستمر شغفه بذلك التاريخ بعد أن سافر إلى ألمانيا، وغدا قارئًا نهمًا، وتعددت اهتماماته بين الفلسفة والأدب والأديان والسير الذاتية وتاريخ الفكر، مما جعل منه مثقفًا مجتهدا بشكل ما. ومع ذلك لا أستطيع أن أفهم السر في إحساسي هذا بالانفصام.

ربما تعود أزمة الهوية التي أعانيها، إلى عدم قدرتي على تحديد قيمتي الحقيقية، ليس عن تواضع زائف، ولكن لأسباب، منها

ربما إصراره على تدويني على أوراق سبق أن دوّن عليها شذرات من خواطره، وبعض الأفكار الرومانسية الأولى، قبل أن يمحوها ليكتبني. ألم يكن قادرًا على شراء دفتر آخر في ألمانيا؟

ليكن. فهذا قدري الذي لا يمكنني التنكر له، أو حتى البكاء على اللبن المسكوب، ما كان قد كان، وفي النهاية أنا الآن ما أنا عليه. وكما تقولون، فالمرء يثاب رغم أنفه، أو رب ضارة نافعة أيضا، فلولا محاولته لكتابة مذكراته على صفحاتي، ما تمكنت اليوم من أن أعرف ما أستدعيه من سيرته.

7

استيقظ قاسم مبكرًا، وأصابته الدهشة لأنه تبين أنه نام بثيابه، فخلعها ودخل عاريًا إلى الحمام الضيّق الذي ينزوي في ركنٍ مواجه لباب الغرفة الضيقة. اغتسل وخرج مبتلا يبحث عن منشفته. ارتدى ثيابًا نظيفة. اقترب منّي وتناولني من على السرير واصطحبني في يده خارجا.

التقى بعض أفراد تنظيف قُمرات الباخرة، فأخذ يحييهم من دون أن ينظر إليهم، مثل آلة تردد برتابة: "صباح الخير.. صباح الخير"، وإذا صادف سائحًا أو مسافرة من الإيطاليين الذين يملأون السفينة وسّع من ابتسامته، وهزّ رأسه محييًا من دون أن ينبس بكلمة.

دخل إلى مطعم السفينة، بنفس إيقاع خطواته الرتيبة. ألقى نظرة على المكان، الذي لم يكن به سوى عدد محدود من النزلاء، يتناثرون على الطاولات وقد علقت بوجوههم ملامح النوم. تناول صحنًا واتجه إلى ركنٍ توجد به بعض المخبوزات، يجاورها وعاء معدني ضخم يمتلئ بالفول، وآخر يحتوي البيض المسلوق. تناول بيضة ووضع قَدرًا من الفول في طبقه. بحث عن بعض اللحوم الباردة والجبن، وتناول الخبز في طريقه لطاولة صغيرة جانبية، ووضعني بجواره على

الطاولة، ثم نادى أحد الشباب المارين وطلب منه القهوة.

ظلّ واجمًا حتى وصلت القهوة، فارتشف منها رشفات عدّة، ثم بدأ في تناول طعامه على عجل، وعندما انتهى أشعل سيجارة. انتهى من القهوة، وطلب من الشاب الواقف قريبًا منه أن يعيد ملء قدحه منها، ثم بدأ يقرأ الجزء الذي توقف عنده، والخاص بالطريقة التي تم بها اكتشاف المدينة السفلية.

عندما انتهى من هذا الجزء سمع صوتًا يلقي عليه التحية:

صباح الخير يا دكتور.

رفع عينيه فوجد القبطان يقف أمامه مبتسما بملامح وجهه الصارمة، التي يرسم بها نوعا من الترفع الأرستقراطي، بادله التحية وطلب منه أن يجلس، وأغلقني ووضعني بجواره.

قال الكابتن:

فيه عاصفة قوية هتواجهنا النهارده بالليل.

أطرق قاسم صامتًا، ثم سأل عن مدى قوة العاصفة وخطورتها، أجابه القبطان:

يعني.. فيه بواخر اتصلت بنا بيقولوا إنهم اضّطروا يوقّفوا المحركات تماما، وينتظروا إنها تعدّي، والسُفن الصُغيّرة كانت معرضة للغرق.

وبعدين؟

مش عارف. إحنا أخدنا احتياطاتنا، وجهزّنا قوارب الإنقاذ، والمهندسين وفريق الصيانة بيفحصوا دلوقت على كل حاجة تجنّبا لأي مفاجآت. عموما فيه رياح قوية فعلا وصلت لنا بس البحر مش عالي قوي.

ربنا يستر.

أشار قاسم للقبطان لكي يتناول شيئا، فأوضح القبطان أنه تناول إفطاره مبكرا، ثم سأل:

مافيش أي أخبار؟

والله لسه مافيش جديد. بالمناسبة إنت مش ممكن تعرف لنا السفن الرسمية اللي متوجهة لموانئ إيطالية؟

أنا تقريبا عارف خط سير 3 سفن اتحركت قبلنا كلها رايحة في اتجاه الموانئ الشرقية، يعني وجهتها إما مينا مونوبولي وإما فينيسيا.

نابولي دي في الغرب.

أنا باقول مونوبولي مش نابولي.

آه. لامؤاخذة.

المهم.. فيه قبطان من التلاته بيقول ليا إن فيه سفينة رابعة خط سيرها روما. عموما...

وتوقف القبطان ليعطس عطسة قوية، ثم تبعتها عطستان أخريان، حاول القبطان أن يبدو متماسكا بينما يعطس، كأنه يواجه عاصفة بثبات، وحاول أن يكتم العطسات الثلاث، لكنه بمجرد انتها العطسة الثالثة هبَّ واقفا، وقال:

أنا آسف. لازم أمشي حالا.. شكلي أخدت دور برد. هارجع لك بعد شوية.

ابتسم قاسم وهز رأسه للكابتن، وظل يراقبه حتى خرج، ثم هز رأسه مبديا دهشته من القبطان وغرابة أطواره، ثم عاد إلى أوراقه واستكمل القراءة:

"كان الوضع بالنسبة لي خطيراً، فلست بالنسبة لجماعة المتكتم مجرد شخص من عشرات الآلاف المتضررين من أجواء الصمت والانحطاط التي فرضوها على المدينة فقط، بل كانت رأسي مطلوبة أيضًا، باعتباري أحد المارقين والمرتدين عن نهجهم، خصوصًا أنني كنت واحداً منهم، أعرف عنهم الكثير، بل لعلني أعرف أكثر مما ينبغي. وحتى بافتراض أنني لم أكن أعرف شيئًا عنهم؛ فالخروج عن طاعة المتكتم حدث جلل. ومن يجترئ على فعل كهذا ينبغي أن يعاقب بصرامة حتى يكون عبرة للآخرين ممن قد تراوده نفسه. والأدهى من كل ذلك أنني اقترفت الجريمة الكبرى، في عرف المتكتم، بعد أن أصبحت فردًا من النساخين الذين يعيدون نسخ الكتب الممنوعة.

بالتالي، فبعد أسابيع قليلة من الحياة كالخفافيش، والتخفي المستمر، عرفت من بعض الأصدقاء بأمر الأنفاق السرّيّة تحت الأرض، التي ينتقل إليها الهاربون من بطش المتكتم وأعوانه، وقررت الانتقال إليها على الفور.

وبدلا من أن يتحقق حلمي بالتجول في شاحنة ضخمة على الطرقات حُرًّا، متنقلا بين خلق الله وبلادهم، إذا بي أعيش كالخفافيش في مدينة سرية مُعتمة.

حينما قلت ذلك لسديم ضحكت، وقالت:

إنت مصدّق الكذبة دي؟

أي كذبة؟

إن حياتنا هنا تشبه حياة الخفافيش.

نعم؟! هوّا إنتي مش شايفة إننا عايشين هنا في أنفاق سرية، لما نحب نشم هوا بنروح ندوّر عن التهوية في ممرات مترو

الأنفاق؟ وإننا لو شفنا أي مصدر للضوء بنخاف ونبعد عنه زي مصاصي الدماء؟

أيوه [illegible]، بنعمل كده، بس ده مش معناه إننا خفافيش. أنا [illegible] إني أعيش هنا حرّة، أقرا الشعر والكتب وأحضر أمسيات الشعراء، وحفلات الرقص، وأمسيات قراءات النصوص الممنوعة، والاشتراك في تمثيل نصوص المسرح اللي اتنسخت هنا، أحس لي ألف مرة من إني أعيش مع أتباع المتكتم في ضوء النفاق ونهار التخلف.

لاحظت أن عينيها التمعتا بوميض غريب وهي تقول هذه الكلمات، وبرز عِرق نافر في رقبتها وهي تتحدث دليلا على حماسها، فآثرتُ ألا أعقّب عليها مباشرة، لكنها حدّقت في عيني قليلا، ثم أضافت بحماس وبعربية فصحى سليمة:

نحن هنا أحرار أيها المتكتم الصغير.

اختلج صوتها ليبدو مزيجًا معبرًا عن الرحمة والبكاء والصراخ القوي، ثم تردد صدى الجملة مرات عدة حتى ارتجف جسدي.

احتضنتُ سديم لأول مرة، وأسلمتْ نفسها لي باستكانة ووداعة، ولاحظتُ ارتعاشات واهنة لجسدها الغض. سرنا بعدها صامتين، بينما كان صدى جملتها يتردد في وعيي "نحن هنا أحرار أيها المتكتم الصغير

وحسنًا فعلت سديم، إذ أيقظتني من وهمي على هذه الحقيقة، فبالفعل كنا نعيش في مدينتنا السرية هذه أحراراً. لاحقا تبينت أن كبير النسّاخين يُسهل الانتقال إلى المدينة، التي اكتشفها تحت الأرض، بنفسه، لمن يثق فيه، ويرى فيه نَسّاخًا مؤمنا بأهمية نسخ تراث مدينتنا

المنهوبة في الأعلى، ونسخ تراث الإنسانية المسكوت عنه بجرائم المتكتم في منع الكتب والفنون ومصادرها وحرق الكثير منها أيضًا.

عندما انتقلت إلى المدينة السرية أو مدينة المخطوطات، وهي تختلف عن مدينة الأنفاق، وهذه مدينة أخرى كان الوصول إليها قصة خيالية لا تنسى، هالني ما رأيت، بعد أن دخلت من مدخلها الحجري الضخم ألفيت نفسي في ممرٍ مبلّط بالحجارة، تتراص على ضفتيه مجموعة من الأعمدة الضخمة والعملاقة، وفي علّو شاهق ارتفع سقف شاسع يشع بلون الذهب.

بعد أن انتهي الممر الطويل وصلتُ إلى مدخلٍ حجري آخر، يطل على ما يشبه ميدانا واسعا يتوسطه تمثال فرعوني ضخم، وفيه وجدتُ أفرادًا من أهل المدينة السرية، شبابًا وفتيات، عشاقًا وفنانين، شعراء ونساخين. بعضهم يقفون وهم يتسامرون، والبعض تحلّقوا في جماعات لينصتوا لعدد من الشعراء الذين كانوا يلقون قصائدهم.

تجولت قليلا في أرجاء الميدان، ثم توغلّت في دربٍ من الدروب المنبثقة منه. أدركت أن المدينة السريّة مدينة فرعونية كاملة غارقة تحت الأرض. وشعرتُ أننا ربما نمتلك الآن مدينة كاملة. مدينة شاسعة بلا نهاية، قد تماثل في مساحتها مدينة الظلام في الأعلى، كما نسميها منذ أحكم المتكتم قبضته على كل شيء فيها.

تذكرت أنهم أعلنوا قبل فترة طويلة عن اكتشاف مقابر فرعونية جديدة ومبان تمثل ما يشبه حياً كاملاً أسفل منطقة سقّارة، لكنه مشروع من بين مشروعات كشفية أثرية توقفت منذ سنوات، وقتما أطلق المتكتم الحريّة لأتباعه أن يحطموا التماثيل ويهشموا الأعمال النحتية الفنية، وقد تصدى لهم مجموعات من الشعراء والعشاق

ومحبـــي الفنون الجميلة والنساخ وأنقذوا ما استطاعوا، وتناوبوا على حراستها قبل أن تشتد قبضة المتكتم ويُغرق أفراد شـــرطته الجديـــدة بالرشاوى، ليدعم نفوذه وسلطته.

فكرت أن المدينة التي أتجول فيها والتي اكتشفها كبير النساخين تماثل للمدينة التي اكتشفت في سقّارة.

حالما التقيت سلمى في المدينة السريّة سألتها إن كانـــت قـــرأت شيئا عن مرحلة تاريخية تعرضت فيها مصر الفرعونية لظواهر مناخية أدت إلى اختفائها نهائيًا، أي تكون قد طمرتهـــا التربـــة أو طبقـــات حجرية، ونشأت مرحلة تاريخية جديدة أعلاها. قالت إنهـــا تســـأل نفسها السؤال نفسه، لكنها لا تجد إجابة شافية"

* * *

كان قاسم واجمًا، غائبًا عمّا حوله؛ مستغرقًا في قراءتي، حين سمع جلبة وضوضاء تأتيان من خارج المطعم. توقف عن القراءة، والتفت حوله، ووجد بعض أفراد المطعم يسرعون للخارج، ليكتشفوا ما يحدث، فأغلقني ونهض بسرعة وتوجه خارجًا من المطعم.

8

لـم تكـن السـفينة عملاقـة، لكنهـا لا تعـد بـين قريناتهـا صـغيرة أيضـا، فلعل وزنهـا لا يقل عن 30 ألـف طـن، كمـا فهمـت ممـا تنـاثر لـي مـن محـاورات بـين مـن أمسـكت أيـديهم بـي علـى هـذه السـفينة. تتكون من طابقين أساسيين؛ الأول يضم عدداً من الغرف أو القُمرات الموزعـة علـى الجـانبين. بينمـا يضـم الطـابق الثـاني مطعـم السـفينة وغرفـة اسـتراحة تبـدو كغرفـة معيشـة صـغيرة، يجاورهـا "مقهـى وبـار جدرانـه مكسوّة بالخشـب، لـه طـابع عتيـق، وباحـة مكشـوفة للتشـمس، يمـثلان معًـا ثلثـي مسـاحة الطـابق الثـاني. أمـا الثلـث البـاقي، فيضـم زورقين بخـاريين صـغيرين مثبتين علـى رافعتين، وبجوارهمـا رافـع آلـي يقوم بإسقاطهما أو رفعهما من مياه البحر عند الضرورة. أمـا الطـابق الثـالـث فيضـم غرفـة واحـدة لاسـتخدام الطـاقم ومراقبـة حركـة سـير السفينة. بينما يتوسط بهو الطـابق الأول حمام سباحة صـغير محـاط بعشـرات الكراسـي الخشـبية، التـي تتـيح الاسـترخاء لمـن يرغـب مـن المسافرين على ظهر السفينة.

خرجنا من المطعم، واكتشفنا أن مصدر الضـجيج يرد إلينا من صـوب الطـابق العلـوي. تلفت قاسم حولـه للحظـات، ثم صـعد الدَرَج

المؤدي إلى الطابق العلوي، ووجد الكابتن يصرخ في شاب من طاقم الباخرة اتضح أنه لم يأتمر بتعليماته التي شدّد عليها في الصباح، بإبطاء سرعة السفينة، لتفادي استقبال العاصفة في منطقة يعتبرها القبطان منطقة شديدة الخطورة لا يمكن فيها السيطرة على الوضع.

تبادل الشاب الصراخ مع القبطان. بدا شابًا صغيرًا، مغرورًا، لم يتخلص من حماقة السنوات الأولى لامتلاك المهارة. غير أنه فوجئ بالتزام الجميع الهدوء والصمت، وحينما تدخل المسؤول عن الدّفة، بصوت أجش، لكن بنبرة هادئة ورصينة وحاسمة، فقد أصر على ضرورة الاعتذار للكابتن.

هنا أحس الشاب الغرير بأنه أصبح وحيدًا في موقفٍ لا يُحسد عليه. وحالما شعر بإجماع الموجودين على نزقه، تولّدت لديه حالة دفاعية غاضبة، فاستجاب لشيطان الغرور، ورفض الاعتذار بصفاقة، ما أثار ثائرة قائد الدفّة، الذي تجلت في نظراته كراهية واستصغار للشاب. وعلا الضجيج الذي تسبب في ركض أغلب الطاقم ومعهم قاسم، وبعض الفضوليين من رُكّاب السفينة الأجانب، بينهم فتاة شقراء نحيفة ذات عينين مبتسمتين باستمرار، باتجاه مصدر الصخب، ليتعرفوا على ما يجري.

انصرف الشاب غاضبًا، وأعطى القبطان أوامره بتوقيفه عن استكمال مهامه في تسيير وصيانة السفينة حتى إشعار آخر.

اقترب قاسم، وطلب من القبطان أن يحافظ على هدوئه، واصطحبه الى الغرفة المتاخمة لمطعم السفينة. طلبا قهوة، وأشعل قاسم سيجارة وقدّم واحدة للقبطان، فشكره الأخير، موضّحًا أنه يدخن

الغليون فقط. ابتسم له قاسم، سائلاً إياه إذا كان سيدخن الآن، فهز رأسه، قائلا إنه لا يدخن إلا خلال فترات الراحة.

اقترب قاسم منه قليلاً عبر المنضدة المزيّنة بمفرش أبيض، أحيطت حوافه بخيوط ذهبية اللون، وسدّد نظراته إليه، وقال:

شوف يا كابتن.. أنا متأكد إن الناس اللي احنا بندَوَّر عليهم متجهين لروما. بس كنت خايف إنهم يغيّروا خط السير، وبالتالي ياخدوا مسار الشرق بدل ما يمرّوا على مالطا، لو عِرفوا إن فيه حد بيدوّر عليهم. قُدّامنا ساعتين وبعدين أكون وصلت لخبر مؤكد عن الموضوع.

تنهد القبطان وخلع الكاب الأبيض الأنيق، وتحسس شعره الرمادي الثقيل المتموج، ثم سدد نظرة عميقة وثاقبة لقاسم، قبل أن يقول:

أنا مش متوتر على فكرة إذا كان ده قصدك.

شعر قاسم بذكاء القبطان، لأنه كان بالفعل يريد أن يخفف من حدة توتر القبطان بالحديث بعيدا عن المشكلة التي كانت قد جرت مع الشاب الأرعن قبل قليل. وكان يشعر بأن القبطان متوتر بشكل عام، بسبب القضية التي يورطه فيها والتي قد تضطره لتغيير خط سير السفينة، ولكنه ابتسم وتساءل بدهشة واستنكار:

ومين قال إنك متوتر؟

كلامك دلوقت. عموما إنت لازم تبقى عارف إن اللي أنا شفته في البحر كتير، وعدت عليّا مخاطر وعواصف ومشاكل كتير. ما أقدرش أقول إن فيه أي حاجة في عمري ده ممكن ما تكونش عدت عليا قبل كده. أما

بالنسبة للي حصل مع شريف فده ولد صغير ومغرور وأنا باربّيه.. أنا عدّى عليّا في شغلي مِيْت واحد زيّه. ماتقلقش أنا مسيطر على الموقف تمامًا.

ابتسم قاسم وعاد للخلف مستنداً ظهره على الكرسي، وعبّر للكابتن عن إعجابه بحدّة ذكائه، فتلقى الأخير اللفتة بابتسامة امتنان مقتضبة.

أمسك القبطان بطرف شاربه، ثم قال:

بس أنا اللي يهمني أعرفه فعلا.. إيه الحكاية؟ مين الشخص اللي احنا بندور عليه؟ ومين اللي خطفوه دول؟ ولمّا نواجههم إيه نوع الخطورة اللي احنا متوقعينها؟

تأمل قاسم القبطان، ثم قال:

لو قُلت لك على التفاصيل دي كلّها توعدني إنك ما تقولش لحد؟

سدّد له القبطان نظرة عبّر بها تعبيرًا مزدوجًا عن دهشته من سرعة استجابة قاسم ليخبره بما يبدو سرّاً لم يكن له أن يطّلع عليه وحتى دقائق قليلة، وبين كونه لا يثق كثيرًا في أنه سيخبره شيئًا، ثم ابتسم كمن يقول لسان حاله "خلّلينا ورا الكدّاب"، وهزّ رأسه مائلاً بها لليمين قليلاً، ولم يقل شيئًا.

تلفّت قاسم حوله، ثم اقترب مرة أخرى من الكابتن، لكنه توقف عن الكلام عندما لاحظ اقتراب نادل شاب يقف على رأسه بصينية يعلوها قدحا قهوة صغيران، وضعهما أمامهما وانصرف.

عدّل قاسم من وضع القدح، بحيث تكون أذن الفنجان باتجاه أصابع يده اليمنى، وهو يراقب فتاتين أجنبيتين جميلتين أخذتا

تشربان البيرة وتتهامسان، ولمس الفنجان للحظة ولم يرفعه من مكانه، ثم قال:

الشخص اللي اتخطف ده أعز أصدقائي. أعرفه من أيام الجامعة. الحقيقة إحنا أصلا كنا أصدقاء طفولة قبل ما يسافر مع أهله للإمارات واحنا صغيرين، تقدر تقول علينا كده متربيين مع بعض. والناس اللي خطفوه دول عاملين عصابة، بس هما شوية صيّع عارفين إن الراجل اللي هيخطفوه رجل مسالم في حاله، مش هيقاومهم، ولا هوّا أصلا خطر عليهم.. يعني مش محتاج حتى مسدس علشان يخطفوه. لكن اللي باعتينهم بقى دول عصابة تقيلة في بيزنس غريب شوية.

نظر له القبطان باهتمام، وقال:

إيه يعني؟ مخدرات؟

ضحك قاسم، قائلا:

لا لا يا كابتن، بلاش خيالك يروح لبعيد. دي عصابة مهتمة بسرقة مخطوطات قديمة أو أثرية.

فغر القبطان فمه مندهشًا، ثم مرّت على وجهه ابتسامة، سرعان ما تحولت إلى قهقهة صاخبة. ظل قاسم مبتسمًا في هدوء كأنه ينتظر أن ينتهي الآخر من الضحك. واغتنم الفرصة ليرشف من قهوته رشفة.

انتهى القبطان من الضحك بسرعة، ثم قال:

أنا آسف، بس دي أول مرة أسمع إن فيه عصابات بتسرق مخطوطات. أنا أعرف إن الناس بتّاجر في

المخدرات مثلا، في السلاح، في الأدوية الممنوعة، أو حتى اللوحات الفنية. إنما المخطوطات؟ يعني مش للدرجة.

معاك حق يا كابتن طبعًا. بس إنت عارف إنه طالما فيه مشتري يبقى فيه بيّاع. فيه ناس ماعندهاش حاجة خالص، لا تاريخ ولا تراث ولا حاجة أبدًا، بس معاها فلوس. إنتَ ماعندكْش حاجة غير التاريخ والتراث..

آهّا. تمام فهمت قصدك. معقول جدًّا برضو. طيب وإيه علاقة صديقك بالموضوع؟

صديقي متورط الحقيقة. والعصابة ماعندهاش أي فكرة إنه متورط.

تمام.. يعني زي ما أنا حسّيت من الأول.

قطب قاسم جبينه، وعلّق بنبرة ملتبسة عن عدم فهمه.

ابتسم القبطان ابتسامة توحي بالتذاكي، ثم رفع فنجان القهوة وارتشف منها رشفة طويلة، ثم وضع الفنجان وقال:

يعني معنى كلامك إن العصابة دي بتلاعبك إنت.

أنا؟

تقريبا. ولمّا لقوا إن فيه علاقة بينك وبين صديقك قالوا إنه ممكن يبقى ورقة ضغط عليك.

أنصت قاسم للقبطان، وظل صامتا لوهلة، وتحولت ملامح وجهه إلى الجديّة. وارتشف قهوته، ثم اعتدل قائلاً:

تقدر تقول إن كلامك فيه كتير من الحقيقة، بس مش كل الحقيقة.

أخذ القبطان يتأمل قاسم للحظات بعين شاردة، ولعل من يراه في تلك اللحظة سيدرك أنه لا يرى قاسم، بل يبدو مشغولا بفكرة يكاد يرى كل تفاصيلها في خياله الذي أخذ كل الاهتمام من مركز البصر في تلك اللحظات ليضيء ظلام المخيّلة.

قاسم أيضًا أدرك ذلك، فلم ينطق بكلمة، منتظراً ما سيقوله القبطان بعد أن يفيق من شروده.

أشعل قاسم سيجارة واحتفظ بدخان النَفَس الأول في صدره لوهلة، ولم ينفثه إلا مع صوت القبطان:

تعرف أنا لو مكانك كنت فكرت بطريقة تانية خالص، طالما متأكد من خط السير.

إزاي؟

يعني بدل ما تاخد كروز سياحي، كان ممكن تاخد يخت أو أي وسيلة نقل سريعة نسبيا.

أطرق قاسم صامتاً كأنه يفكر في الكلام، لكنه في النهاية رد قائلا إن فكرة كهذه أكثر خطورة، لأن البحث هنا لا يتضمن قاربا أو زورقا، بل باخرة كبيرة. واتخاذ سفينة سياحية كبيرة لا يمكن أن يثير شبهات أحد. وقبل أن يعقب القبطان بشيء استطرد قاسم قائلا:

أنا مش طالب غير إنك تزود سرعة السفينة بحيث نلحق السفينة التانية قبل ما نوصل مالطا، وساعتها أنا حتى ممكن أطلب منك تخليني آخد مركب إنقاذ وأتصرف لوحدي، وتكملوا إنتوا لميناء نابولي في الحالة دي عادي جدا.

هوا إنت مش لقيت القارب الصغير فاضي؟ مش ممكن يكونوا تخلصوا من صاحبك مثلا؟

أتمنى ما يكونش ده حصل، ما أقدرش أمشي دلوقت ورا الاحتمال ده لغاية ما أتأكد من السفينة اللي أنا عارف إنّه كان مسافر عليها.

تأمله القبطان لوهلة، ثم قال:

أكيد ليها حلّ ما تقلقش..

أظن أن القبطان نجح في إثارة توتر قاسم، الذي انصرف بعد هذا اللقاء إلى غرفته، وضعني بجواره، وظلّ مسترخياً على الفراش، وهو يحدق في سقف الغرفة مستغرقا في تداعيات أفكاره.

9

لا أخفيكم أنني لم أكن مرتاحة لعدم قدرتي على فهم حقيقة ما يدور حولي. في فترة تخلقي، كنت أشعر بنموي يومًا بعد آخر، من مجرد سطور تتضمن جملا وصفية لبعض الأحداث، التي تترابط بمرور الوقت، ثم تظهر شخصيات وتتداخل علاقاتها فأنمو أكثر كحكاية، بينما تظل فكرتي الجوهرية مخفية خلف الأحداث وسلوك الشخصيات. لكني كنت أشعر كل يوم، وكلّما تقدم رشيد في كتابة متني، بأنني أصبحت أعي عن ذاتي أكثر مما كنت أعرفه عنها قبل يوم أو يومين.

بمرور الوقت، تولّد لديّ الشغف انتظارًا لتلك اللحظة التي سيضعني فيها رشيد أمامه ويشرع في استكمالي. ترقبٌ وفضولٌ لمعرفة ما سوف أتطور إليه حتى أصل إلى اللحظة التي أدرك فيها جوهر فكرتي، حتى لو سبق ذلك اكتمالي. فضول التطلع للمستقبل، الذي يشبه الرغبة البشرية الحارقة في التنبؤ به عبر قراءة الحظ أو تنبؤات العرافين.

لكني أدركت أن المرحلة المهمة في تطوري تبدأ مع إدراكي للفكرة التي يريد رشيد أن يؤسسني بمقتضاها. ففي مثل تلك اللحظة

كانت تتولد لديّ قدرة جديدة تتمثل في دخولي طرفاً في لعبة تطوري. أعتقد أن بلوغ الرواية مرحلة سطوع فكرتها، حتى لو كانت مُضمرة، هي لحظة نضجها.

نعم، حينما توصلت للمعنى الذي أمتلكه كفكرة، أحسست أنني تجاوزت مرحلة الطفولة والمراهقة إلى النضج، وهنا اكتشفت قدرتي على الإسهام في مسار تطوري، والإيحاء لخلاقي بأفكار قد تختلف عمّا يكون قد خطط له. وعندما فطنت إلى ذلك شعرت بنشوة مضاعفة. فقد بات لي دورٌ في تطوري واكتمالي. أدركت بأن لي إرادة، وأنني لست مجرد مخلوقٍ لا يملك من أمره خيارًا.

رشيد انتبه لذلك بدهشة. وحالما تبيّن هذه العلاقة الغريبة نشأت لديّ عاطفة مختلفة تجاهه. أظنّها رد فعل للمشاعر الجديدة التي تولدت لديه ناحيتي. كان في البداية يتعامل معي كطفلةٍ وليدة، يكنّ لي محبّة، لكنه لا يوليني الاهتمام الذي قد يوليه لأحد أنداده، لكن منذ مررت بمرحلة النضج، التي أدرك رشيد معها قدرتي على تغيير خططه والمسارات التي كان قد خطّطها لي سلفًا، أحسست أن حبّه لي كنص، تعدى مرحلة الإعجاب بكائن تابع لهواه الشخصي ولأفكاره، إلى غرام بكائن له خصوصية تنبع من ذاته.

أصبحتُ صوتًا يستطيع أن يولّد أفكارًا لم تكن واردة على ذهنه. تولّدت بيننا علاقة جديدة، لعلها محبة عميقة كتلك التي تنشأ بين مختلقي الأفكار، لا مصالح ضيّقة تحدد علاقاتهم ببعضهم بعضًا، لا فذلكة أو ادعاء، لا غيرة أو أنانية، لا غرور أو حقد، بل تبادل حقيقي لمشاعر الإلهام والامتنان.

هكذا فكرت كيف تكون العلاقة الحقيقية بين خالق ومختلق، وكيف أن فكرة التقديس من اتجاه واحد هي فكرة ديكتاتورية، لا تتضمن الحوار والفكر المتبادل في حالتي مع رشيد الجوهري. بالتأكيد هناك اختلاف ما في النهاية بين تخلقي كفكرة، وبين تخلق كائن ما.

المهم أن ما عرفته عن سيرة رشيد جاء في فترة مرَّ خلالها بعلاقة عاطفية مع سلمى، وهي امرأة دخلت حياته بالصدفة، وجعلته يقع في غرامها، ومما كان يحكيه لها استطعت أن أكوّن فكرة مفصلّة عن حياته. حسنا، يجب علي أن أتوخى الدقة وأقول لكم إن رشيد تحدث لنفسه، كما أوضحت سابقا، مسجلا بصوته ما بدا كأنها رسائل مطولة إلى سلمى. رسائل لم تصل. لكنها كانت بمثابة بوحه إليها، واستعادته لذكرياته معها، ومحاولاته المستمرة للبحث عن أو فهم ذاته.

كان يتعامل معها بنوع من النديّة، لأنها أوضحت له من البداية أنها ليست غيورة. لا تتعامل مع الحياة كامرأة- قالت- بل كإنسان، وحرصت أن تقول له بنبرة صوتها الهادئة إنها لا تمتلك أفكاراً ضحلة عن الحب.

استفسر منها عما تعنيه، فقالت إن البشر يتوارثون أوهاما عن مفهوم الحب ويأخذونها كمسلمات، مثلما يرثون قناعاتهم الدينية، من دون أن يُخضعوها للاختبار، وحين يمارسون ما يظنونه حبا، يكشفون عن بعض من أكثر الصفات البشرية دناءة؛ الغيرة، الأنانية، الاستئثار، التملك، السيطرة. فهمها للمعنى العميق للحب يعود الفضل فيه إلى فترة من حياتها قضتها وهي تتنقل بين مدن وغابات

عدد من دول شرق آسيا، ترددت خلالها على المعابد البوذية، فأدركت قيمة السلام الروحي العميق.

وليتحقق من مدى صدقها راح يحكي لها بعض شذرات من حياته، أغلبها عن علاقات نسائية، عن مرأة تعلق بها عاطفيا أكثر من غيرها، ومرة أخرى عن واحدة ممن كان يتردد عليهن فقط ليمارس الجنس، محاولاً أن يبدو محايدًا وطبيعيًا جدًا وهو يحكي لها كيف أنه مارس مع تلك المرأة الجنس بشكل لم يعرفه مع غيرها، ثم أورد تفاصيل عن بعض العشيقات مّمن عبرن في حياته. ألقى بالطُعم اللفظي، على يقين بأنها، مثل أي امرأة، سوف تخزّن هذه الحكايات في ذاكرتها، ثم تستخدمها في مواقف من علاقتهما المستقبلية على نحو أو آخر.

لكنها خيّبت ظنه. كانت امرأة حنونًا واثقة في ذاتها، وناضجة بشكل حقيقي. وسوف أحكي لكم عنها في حينه، لكن المهم الآن أن ما حكاه لها عن حياته كوّن لي فكرة كاملة عن سيرته. مع ذلك فلست متأكدة من تفاصيل ما تسبب في اختفائه على هذا النحو، أو اختطافه كما فهمت الآن من حوارات قاسم مع القبطان.

لفترة طويلة تولّد لديّ الإحساس بأن البطل في النّص الذي اختُلقت بفضله، يعبّر عن شخصية رشيد على نحوٍ ما. لكنّي حين أستعيد حكاياته تلك، التي حكاها لسلمى، يتبين لي أن هناك الكثير من الاختلافات بين شخصيته وشخصية بطل الرواية.

في الرواية يمر البطل، المدعو "كيان"، بفترة نضج اكتشف فيها أنه كان ينفذ رغبات الآخرين، وحينما اكتشف أن رغبته الحقيقية لا تنسجم مع أفكار المتكتم وجماعته، انقلب عليهم، وبحث عن

تحققه في المدينة السرية. أما رشيد فمنذ صغره يعرف تمامًا ما يريد، وظلت دوائر حياته تدور تحت سماء هذه الرغبة، حتى لو كانت الظروف أحيانًا تدفعه ليخرج عن المسار بدافع الفضول أو الاكتشاف، أو على الأقل فهذا ما كنت أتصور أنني أفهمه عن شخصيته، حتى أوضحت له مسارات حياته في ألمانيا أشياء مختلفة ليس فقط عن العالم بل وعن نفسه. على الرغم من ذلك فقد ظل يعاند ذاته، لا يريد أن يصدقها حتى أكدتها له يوديت متهمة إياه بأنه فقد البوصلة التي يتصور أنه بها يعرف ما يريد حقا.

لكن ما الذي يمكن أن يكون تورط فيه وأدّى إلى اختطافه؟

حينما أمسكت بي يد قاسم أحسستُ بالأمان، شعرت بأنني سأفهم كل شيء على يد قاسم.. لكن متى؟ لم أعرف ما الذي كان يشغل ذهنه في تلك اللحظة، لكنه توقف وأحسست أنه بدأ ينصت لصوتي ويقرأني:

"لا شك أني شعرت باختلاف كبير بين مشاعري عندما اهتديت إلى المدينة السرية أول مرة، مقارنة بالمرّة الأولى التي وصلتُ فيها إلى مدينة الأنفاق. كان وصولي الأنفاق قد بدأ وفق خطة وضعها لي كبير النساخين، بعد أن عرف أن رجال المتكتم بدأوا بحثهم عني، وخصوصا بعد تعرضي للاعتداء على أيديهم. ومن حسن حظي أن مرّ عددٌ من النسّاخين في تلك الليلة وأنقذوني من بين أيديهم، ودارت معركة بالعصي والجنازير والسكاكين والسِنَج. ولولا لطف الله لكنت..

كنت ممسكاً بنسخة من ترجمة عربية لكتاب "آيات شيطانية" لسلمان رشدي، في يدي، وحيث كلفت بنسخ الكتاب بأسرع وقت ممكن، حين قرر البعض منا ممارسة النسخ سرًا في مدينة الظلام. التقيت بوسيط الكاتب الشبح في شارع مظلم لا يرتاده المارة لوقوعه في منطقة خالية من المنتزهات أو المحال التجارية. تسلمت منه الكتاب، وسار كل منا في طريق. لكن يبدو أن رجال المتكتم كانوا يتتبعوني؛ إذ فور أن غادرني الوسيط فوجئت بمجموعة لا تقل عن عشرة أشخاص، يمسك كل منهم بآلة حادة مما ذكرت.

قبل أن أنطق بشيء وجدت أحدهم، وكان يرتدي جلباباً أبيض، على عادة أتباع المتكتم بعد أن شدّد قبضته على البلاد والعباد، ويتشح بوشاح أبيض، كاشفا عن وجهه الملتحي غليظ الملامح، وقد جزّ شاربه مبقيًا مساحة خضراء تعلو شفته المتشققة. اندفع نحوي ونزع الكتاب من يدي، فتركته له بدافع غريزي خوفًا من أن يتمزق في أثناء تشبثنا به. تأمل الغلاف وقرأ العنوان فانتفض وتقلصت ملامح وجهه فزعا كمن أمسك بحية تسعى، ثم ألقى بالكتاب بعيداً بقرف، ورفع عصاه، قائلا:

"يعني كمان مش كفاية اللي عملته ورايح تقرا كتاب لملحد كافر زي دا يا خنزير يا عدو الله؟!" ثم هوى بالعصا فوق رأسي، لكني انتحيت جانبًا فوقعت عصاه على كتفي، مسببة لي آلاما لا تطاق.. انكبوا علي معا.. تماسكتُ لكسب أي قدر من المكاسب مهما كان ضئيلاً.. صمّمت أن أحتفظ بأي انتصار بسيط.. لكمة مباغتة، أو رفسة في مكان خطر من جسد هؤلاء الحيوانات. حاولت التركيز وأنا أسدد لكمة قوية لأول من اقترب مني، وكان شابًا

رشيقًا خفيف الحركة عرف كيف يتفاداني، وأعقبه آخر اقترب مـني بلون من الاستهزاء والاستهانة، ما أثار كبريائي وحنقي، فكوّمـت كل غضبـي في لكمة باغتّه بها بعد أن دفعت بنفسي باتجاهه مثـل فهد، وفوجئت به يتلقاها بألم ثم يهوي ساقطًا.

كانت هذه اللكمة بداية النهاية، فقد تكالبوا عليَّ وهم يسبّونني وينعتونني بـ "أوسخ" الصفات. و لم ينجح شيء من ذلك في تبديـد شعوري بالنشوة من فرط قوة اللكمة الوحيدة التي سـددها لـذلك الساقط. لكنني بسبب ما تعرضت له من ضرب فقدت الإحسـاس بالألم تقريبًا، وقبل أن يُغشى عليَّ سمعت صوت جلبة وخطوات أقدام تركض قريبًا منا، وفجأة وجدهم جميعا ينفضّون من حولي، ولكـني سقطت على الأرض. كنت أسمع كل شيء، لكـن لا أسـتطيع أن أنهض أو أتحرك أو أفتح عيني. كنت أشعر بآلام في أنحاء جسـدي. وبدأ وعيي بما يحدث حولي يخفت، فيما راودني إحساس بدوار وثقل في رأسي الذي تهاوت عليه ضربات مبرحة عديدة.

في الليلة التالية قررت الانتقال إلى المدينة السريّة، بمساعدة مجموعة من الأصدقاء، الذين أنقذوني من بين أيدي أتباع المتكتم. تنكرت مخفيـا ملامح وجهي، وكذلك لآثار الضرب التي تحولت إلى هالتين زرقـاوين حول وجهي تمنحني مظهر العفاريت. كنت أريد أن ألـتقط أنفاسـي وأقضي بعض الوقت قبل الذهاب إلى مدينة الأنفاق لكي أتعافى قليلا من آثار الضرب المبرح، وأيضا لأحصل على هدنة حتى نتيقن من أن أحـداً لن يتبعنا إلى المدينة السفلية. وهكذا انتظرت أسبوعاً تنقلتُ خلاله بـين بيت طارق، أحد أصدقائي المقربين ودليلي إلى المدينة السفلية، ومنها إلى بيت سعيد خاطر، أحد أبرز المنسقين بين المتكتم والنساخين.

وحينما أعطانا مساعد كبير النساخين الإشارة، اصطحبني طارق إلى أحد ممرات مترو الأنفاق. وانتظرنا حتى غفل عنا الجمهور، ثم قفزنا إلى مسار عربات المترو؛ ملاصقين لأحد الجدارين اللذين يحددان مسار العربات، وركضنا بسرعة في طريق المترو، ولحسن الحظ كان النفق مضيئًا بمصابيح شاحبة، ولم تكن همنا كثيراً، إلا في ما أتاحته لنا من الركض بأقصى سرعة. وكان عليَّ أن أقاوم إحساسي بالألم، بسبب الضرب الذي تلقيته في الأسبوع السابق، ولازلت أعاني آثاره.

وعند بقعة معينة، كان بها ما يشبه لافتة لسائقي المترو، مستندة على جدار مصمت، توقفنا. شرع طارق يتفقد الجدار المتاخم، ثم أوضح أن هناك مدخلاً للهوّايات التي تقوم بتهوية الأنفاق، بجوارها باب سيقودنا إلى أحد المخارج، وبالفعل بعد دقائق كنا نسير في ممر ضيّق معتم ورطب، بينما كاد ضجيج ماكينات التهوية الضخمة يصيبنا بالصمم، لكننا كلّما توغلنا قُدُما قلّت درجة الضجيج.

فجأة، وجدتُ نفقًا يتخذ شكلاً اسطوانيًا، شديد الاتساع مثل ممرات المترو تحت الأرض، لا يحوي قضبانا حديدية مثل الموجودة في أنفاق المترو. كان المكان مُظلمًا، وصوت الهدير بدا مكتومًا، لكنه ظلّ يلحقنا. ومن بعيد لاح لنا ضوء ضعيف في نهاية النفق، كأنه يفضي إلى لوحة معتمة بالأسود تنعكس عليها إضاءة فضية شاحبة تتوهج بدرجة من الأزرق.

عندما خرجنا من النفق أحسست أني ولجتُ عالمًا خياليًا تمامًا، كأنني في حلم، أو رحلة خارج الزمن. وجدتُ عربتي مترو قديمتين وخاليتين متجاورتين، معتمتين وأبوابهما مغلقة.

قال لي طارق إن أمسيات الشعراء الأولى التي كـــان الشـــعراء الهاربون إلى المدينة السرّية يقيموها اتخذت من تلك العربات مقـــرات لها، لكن كبير النساخين طالب أنصاره بنقل العربات إلى أماكن أكثر سرية.

سمعت صوتًا منتظمًا سرعان ما اكتشفت أنـــه زخّـــات ميـــاه تتسرب من مكان ما، وتسقط متتابعة على الأرض المبلّطة بالإسمنت.

سرنا في النفق تحيط بنا جدرانه الرمادية المصقولة، وأشعة الضوء الفضية التي لا يعرف أحد مصدرها. واقترحت على طارق أن نكتفي بذلك، وأن نبيت في إحدى عربات المترو، فابتسم قائلا: "لا تكـــن متعجلاً" بعد عشرة أمتار أخرى وجدنا صخرة ضخمة تبدو نائمـــة على الجدار، طلب مني طارق، أن أساعده في إزاحتها قليلاً. فعلـــت بجهد جهيد، فانفتح لنا من خلفها نفق ثالث، بدا ضيّقًا، منخفضًـــا ومعتمًا. أخرج طارق من جيب بنطلونه الخلفي كشّافًا ضوئيًا وطلب مني أن أتبعه.

انحنى بجسده قبل أن يحبو على ركبتيه، ففعلت مثله، كان النفق أشبه بخندق بلا تهوية، شديد الرطوبة، محفورًا بين كتـــل حجريـــة، بحيث يشق طريقا ضيقة لا تسمح بمرور أكثر من شـــخص واحـــد، منكفئًا على وجهه. أصابني ذلك بنوع من الاختناق، لكن وجـــود طارق معي جعلني أصمت وأصبر منتظراً نهاية النفق في تحفز".

10

سمع قاسم صوتا خارج الغرفة، فتوقف عن القراءة وأصاخ السمع. لم يكن متأكدا هل هناك من يقف خلف الباب، أم أن مارا بالصدفة قد احتك به من دون قصد. نهض ووضع أذنه على الباب للحظات، ثم فتحه بغتة، كأنه في طريقه لكي يفاجئ أحدهم. لم يجد أحدا، لكنه سمع صوت خطوات أقدام مهرولة في نهاية الرواق، ولم يتمكن من رؤية صاحبها. وقف للحظات كأنه يحاول استيعاب الأمر، ثم عاد إلى الداخل في النهاية وعاد إلى الفراش ليستكمل القراءة:

"منذ بدأتُ حياتي الجديدة في المدينة السرية راودني شعور مختلف، ربما لم أشعر به إطلاقًا في مدينة الظلام. شعرت بالحرّية، أو بالأحرى، فهمت المعنى الحقيقي للحرية. أدركتُ أن ما عشته تقريبًا في مدينة الظلام، التي تستقر راسخة في أعلى مدينتنا السرية، لم يكن سوى مجموعة من المسالك التي تبدو لمن يسير في حياته بلا تدبّر أنها خيارات حرّة، لكني اليوم أعرف تمامًا أنها كذبة كبيرة.

حتى حياتي قبل أن يتمكن المتكتم من بسط نفوذه على المدينة، كانت بلا أمل، ولا رغبة حقيقية في فعل شيء. ولعل هذا الفراغ

الكبير الذي كان عنوانًا لحياتي وحياة الكثيرين، جعل المناخ ملائمـا لوصول المتكتم إلى الموقع الذي بلغه، ليفرض نفوذه لاحقًـا علـى القلوب والعقول، لكن كُثراً للأسف لا يعرفون ذلك، وبينهم أولئك الذين غسلت عقولهم على يدي المتكتم وأنصاره؛ ممّن غُرِّر بهم مـن شباب صغير ومراهقين؛ فارغي العقل والوجدان، وجدوا في الانتماء لجماعة المتكتم ما يوهمهم بانتفاخ ذلك الفراغ.

هذا الإحساس بالفراغ التام، الذي كان يسيطر علـى حيـاتي الواهية في مدينة الظلام تبين لي فجأة مثل حقيقة ساطعة متوهجة منذ تعرفت إلى سديم. في الأمسية الشعرية الأولى التقت عينانا بالصـدفة، فحدقنا لبعضنا بعضا لوهلة. عينان صغيرتان ناعسـتان وشـاردتان، لكن أهدابهما الطويلة تظهرانهما كأنهما مكحلـتين، ممـا يضـفي الإحساس بعمقهما خلف عدستي النظارة الطبية الأنيقـة المسـتطيلة ذات الإطار المعدني الرقيق. وجه طفولي، يغطي جانبيه شعر أسـود حالك قصير؛ لا هو ثقيل ولا شديد النعومة، فيما أنفها الرقيـق ذو النبقة الصغيرة في طرفه يمنحها جاذبية خاصة.

بهاتين العينين، اللتين هُيّئ لي شرودهما، بينمـا همـا تبصـران وتلاحظان كل ما يحيط بها، أصابتني الفتنة، ولعـب فـأر المشـاعر المدهشة في قلبـي. أحببت كل شيء فيها، الشـفتين الصـغيرتين، الذقن الرقيقة المزدوجة، لون البشرة الحليبـي المشـرب، الممتـزج بلمسة هينة من لون الخميرة، اليدين الصغيرتين النحيلتين اللتين تكتمل رقتهما بالعلاقة التي تصنعها مع رسغ دقيق أقرب للنحافة.

عقب انتهاء الأمسية تبادلنا النظرات، عنـدما انتبـهتُ إلى أن عينيها السوداوين، اللتين تلتمعان، تتأملاني، أو ربما تحدقان بـي من

خلف عدستي نظارتها، ارتجفت روحي، كان لمقلتيها ذلك السواد اللامع الذي يجعل من يقع تحت ناظريها يشعر بأنه بات عاريا، وأنها لو بكت فسوف تكون دموعها بلون المقلتين. ولكني حين امتلكت الشجاعة وحدقت فيهما، أمكنني القول إنها تمتلك عينين شعريتين.. وهذا لا قِبل لي بتفسيره.

اهتمام الجميع بالشعراء، وبإدلاء ملاحظاتهم حول القصائد، لم يتح لي اختلاق فرصة لأحادثها، لكن الصُدفة أتاحت لنا الحديث في ليلة لاحقة، حينما ضللت طريقي إلى مقطورة الشعر، ووجدت نفسي أرتطم بجسد بشري دافئ ورقيق، سرعان ما تبينت أنه جسدها. ابتسمنا معتذرين، كل منا للآخر. وحين أبلغتني أنها في طريقها لمقطورة الشعر أكدتُ لها أنها صدفة رائعة.

سرنا متجاورين نثرثر بما يرد على ذهنينا، بينما أتأمل ملامحها بين الفينة والأخرى. قدّرتُ أنها لا تتجاوز الثامنة والعشرين. وأسبغ عمق عينيها السوداوين سمتًا خاصًا لوجهها. كلّما نظرتْ لي بدت كأنها تحتضني بعينيها المبتسمتين، لكن هاتين العينين عكستا، في الوقت نفسه، ملمحاً من النضج يفوق عمرها، لكنه لا يمنحها عمرًا إضافيًا. وربما في هذا ما يشرح إحساسي بشعرية عينيها.

سديم واحدة من المتمردات اللائي هاجمن المتكتم وأتباعه، عبر وسائط افتراضية حديثة، بينها وسائل التدوين، باعتبارها المساحات المتاحة الوحيدة وغير المراقبة في وقت كان التشدد قد بلغ مداه في الصحافة ووسائل الإعلام المختلفة. ووجدت النصوص التي دونتها، عبر الوشاة ومخبري المتكتم، طريقها لأتباعه، الذين سارعوا باتهامها بالحض على الإباحية والشذوذ، وبدأوا يتعقبونها ويتحرشون بها.

قالت لي إن ذلك لم يزدها إلا إلحاحًا أن تكون ذاتها، فتاة طبيعية كما أمها وجدّتها. ترتدي ما تحب، ولا ترى في نفسها ما يروجه المتكتم، الذي أفلتت منه الكلمات أكثر من مرة، واصفاً المجتمع المثالي، المتحفظ، بأنه مجتمع الفحول. طبعا هذا المجتمع المثالي عند المتكتم لم يكن سوى مجتمع منافق محافظ ورجعي، كما أوضحت سديم، وهي تشدد على كلماتها بطريقة بدت كأنها تمضغ الكلمات وتطحنها بأسنانها طحنا من فرط الانفعال.

كانت ترتدي الجيبات القصيرة أو البنطلونات الضيقة، و"التي شيرتات" ذات الألوان الصاخبة، والبلوزات مفتوحة الصدر، كاشفة بشرتها العاجية، فتحرشوا بها عبر بلطجية المتكتم، الذين زعموا أنهم أصحاب سلطة تنفيذ وصايا مجتمع الرشد.

كنت أنصت لها غائبا في نبرة صوتها، نبرة ناعمة وهادئة، مهما كانت درجة الإثارة أو الصخب في ما تحكيه. كانت تتمتع بهدوء داخلي رهيب. لكني، من خبرتي، كنت أترقب اللحظة التي تغضب فيها وكيف ستكون؟ وكيف ستتحول نبرة صوتها آنذاك؟

لاحقا، سأنصت لهذه النبرة، وهي تحكي لي عن والديها المنفصلين، وجحيم الحياة بينهما، حتى قررت الاستقلال بحياتها بعيدًا عنهما.

أضافت أنها قررت أن تهرب إلى المدينة السرية، بعد تعرضها لواقعة تحرش مقصودة من عدد من سيدات يتشحن بالأسود. اقتدنها إلى إحدى الطرق الخالية. أوسعنها ضربًا ومزقن ملابسها.

ضلّت الطريق حينما دلفت إلى أحد الأنفاق عشوائيا. وجدت نفسها في مساحة كهفية، مضاءة بإضاءات صناعية، مشحونة

ببطاريات شحن، عُلّقت على جدرانها مجموعة من اللوحات العارية لفنانين شباب، إلى جوار جداريات ضخمة رسموها على الجدران لفتيات عاريات.

قال: "أجمل معرض عاري شفته في حياتي"

في وقت لاحق، عبّرت عن رغبتها في الانضمام إلى فريق النساخين، وأكدت لي شغفها بمشروع إعادة نسخ الكتب الممنوعة. في اليوم التالي عرضت الأمر على الوسيط المعلن بين النساخين المحتملين وبين سعيد خاطر، الذي كنت قد قضيت عنده الأسبوع الأخير لي في مدينة الظلام هاربًا من أعوان المتكتم، ونشأت بيننا علاقة صداقة، كما أنه كان يزودني خلال تلك الفترة بخبراته في النسخ.

المهم أنني أوصلت له رسالة عن طريق طارق بما ترغب سديم فيه. وعاد لي طارق مساء اليوم التالي برده، قائلا: إنه يرحب بالأمر وسيرسل لها اليوم التالي اقتراحًا بما يود أن تقوم بنسخه"

سمع قاسم صوتا لا مجال للشك فيه، يبدو حفيفا لشخص بالباب، ففقز هذه المرة وفتح الباب بسرعة، لكنه لم يجد سوى قطة تتغطى بشعر أبيض يبدو كطبقة من الفراء، وهي تتمسح في باب الغرفة المجاور. التفتت له، ثم انصرفت بسرعة حين راح يرمقها بغضب. عاد إلى الغرفة متوترا، وإن شعر بالراحة أن الأمر لم يتعد وجود قطة أحد النزلاء ضائعة، أو لعلها تتولى حراسة السفينة من الفئران. هكذا تفكر في الأمر قبل العودة إلى الفراش، وإشعال سيجارة واستكمال ما بين سطوري.

"كانت المرحلة الأولى في الأنفاق لها متعتها الخاصة، أمسيات شعرية، نسخ نصوص، مناقشات بين النساخين والشعراء، قراءات، جولات في الأنفاق لاكتشافها، وسهرات في عربات المترو المهجورة.

وكثيرًا ما كنّا نبيت في تلك العربات التي يفيض فيها الشعر، خصوصًا أن الحياة في الأنفاق لم تكن أفضل حالاً من حياة المشردين الذين لا مأوى لهم. كنا نحضر معنا أباريق القهوة الحافظة للحرارة، نصب منها في أكواب ورقية. ندخن، نضحك، ونتبارى في التباهي بدقة النسخ، معوّلين على الأحكام التي يطلقها المسؤولون عن مراجعة النصوص المنسوخة، ممن كان مسموحًا لهم بمخالطتنا.

وأحيانًا كنا نسهر في أماكننا حتى الصباح! وعندما يصرخ أحدنا: "النهار طلع يا بشر!"، ننفجر جميعا ضاحكين، ففي المدينة السريّة لا يعرف أحد معنى النهار، فنحن نعيش في عتمة مستمرة، أو بالأحرى في زمن يبدو كأنه ليالٍ مستمرة لا تنتهي، إذ تتوزع في الأنفاق الكشافات والبطاريات، والإضاءات الصناعية التي تم توصيلها من الكهرباء الخاصة بمولدات مترو الأنفاق.

كانت الأيام الأولى بالغة السوء، فليس من السهل أن يعيش الفرد في هذه العتمة والإحساس الليلي المستمر. أصابني الاكتئاب، ولم تجدِ نصائح الشعراء ممّن مرّوا بخبرة الاعتقال أو السجن في زمن المتكتم ومن سبقه. حتى محاولتي إقناع نفسي بأنني كمن يعيش في السويد أو فنلندا، حيث يطول الليل أحيانا لأكثر من ثلاثة أرباع اليوم الذي نعرفه في بلادنا المشمسة، لم تستطع أن تغير من مزاجي الكئيب.

الاكتئاب، بكل آفاته من تغير المزاج، والإحساس بالاختناق والضيق والخوف، مثلّ أسوأ خبراتي في مدينة الأنفاق. الحساسية المفرطة، وتأويل سلوكيات البشر وفقا لتوهمات ذاتي المكتئبة جعلتني أنتحي بنفسي منعزلا، فاقدًا الهمّة لبذل أي جهد. وحتى محاولات سديم لإخراجي من الاكتئاب لم تنجح.

فكرتُ جديًّا أن الحل الوحيد يتمثل في الهروب من الأنفاق والعودة إلى مدينة الظلام، من أجل التمتع بالإضاءة الطبيعية، واستنشاق هواء طبيعي. عندما قلت ذلك لسديم، ابتسمت كمن يكبح ضحكة: نظرتُ إليها مندهشًا، متصورًا أنها تسخر من فكرة أنني أريد الهرب من الاكتئاب لألقي بنفسي في يد جماعات الزومبي التي تعيش في مدينة الظلام، لكنها لاحقت فسرت لي وهي تتساءل مستنكرة:

هوَا إيه يا كيان؟ هيّا البلد دي بقى فيها هوَا؟ البلد متنيلة، غرقانة في العوادم والتراب والمجاري، ده غير تلوث العقول. غباء في غباء خلّى البلد كلّها ضلمة.

ضلمة؟

إنت ما سمعتش إن حكيم الزمان، سخام البرك، زعيم الندامة بتاعك بقى بيضلّم البلد من الساعة 10 بالليل علشان ما حدش يمشي في الشارع بالليل؟

أهو كلام بنسمعه. هوّا حد فينا هنا بقى عارف إيه اللي بيحصل فوق؟

اقتربتْ مني، ووضعت كفها الرقيق على جبيني وهي تصطنع أنها تجس حرارتي. ابتسمت لها. لكنها أشاحت بوجهها وانصرفتْ.

بقيتُ أسابيع أخرى حبيس زنـــزانة الاكتئـــاب وجـــدرالها الموحشة. لم ينقذني سوى الكاتب الشبح في النهاية، ومـــن دون أن يدري، أو لعله كان يعلم ذلك، فقد كلفني بنسخ الترجمـــة العربيـــة لرواية "الجريمة والعقاب" لدوستويفسكي. استغرقني النص، بحيث إنني كنت أتمنى ألا ينتهي. وكنت أردد لنفسي كلّما تقـــدمتُ في قـــراءة النص أن كاتبه ليس طبيعيا. أظنه شيطان كتابة وعقلا موهوبا بشكل بالغ. لم أكن قرأت لدوستويفسكي من قبـــل، ولكـــني أصـــبحت موسوسا منذ قرأته. لم أعرف كاتبًا له مثل هذه القـــدرة في معرفـــة الطبيعة المعقدة للنفس البشرية ونوازعها. كمـــا أن هـــذه الروايـــة، التي أصابتني بمسٍ من الجنون، دفعتني لأشـــرع في كتابـــة كتابـــي السري"

* * *

توقف قاسم عن القراءة، ووضعني بجواره، إثر طرقات على الباب، الذي فتحه ليجد بحّاراً شابا يحييه بأدب. قال له الشاب إن سُحُباً كثيفة ظهرت في الأفق، وإن احتمال اقتراب العاصفة بالسفينة وارد في أي لحظة، وإنه يطلب من كل فريق السفينة ونزلائها ارتداء "الجاكيتات" المطّاطية من الآن، من قبيل الاحتياط.

هز قاسم رأسه للشاب وأغلق الباب، ودار في الغرفة الضيّقة محتارًا، ثم فتح الباب وخرج.

لم يكن من الصعب التكهن بأنه سيقصد الكابتن، ربما ليعرف منه تفاصيل أكثر عن العاصفة ومدى قوتها، وإمكانات السفينة لاحتمالها، لكنه في الوقت نفسه كان ثابتاً، رابط الجأش. ففي النهاية

كان يؤكد لنفسه أن عواصف في البحر المتوسط لا يمكن أن تماثل العواصف المجنونة المهلكة، كالتي تهب على المحيطات والمناطق الاستوائية.

11

أما أنا، فعدت بذاكرتي إلى رشيد، فيما بات السؤال الأكثر إلحاحًا: ما علاقة قاسم بما حدث له؟ وكيف تسبب في تورطه في هذه القضية الغامضة؟

كانت حياة رشيد في غالبيتها حياة رحّالة تتقّل بين دول عديدة، لكنه لم يسلك أي مسالك مريبة أو ملتوية. كان كل ما يبتغيه هو الحب ورؤية أكبر جزء ممكن من أرجاء العالم.

عندما رأرأت عينا "يوديت"، الفتاة الألمانية ذات الملامح الرقيقة، وهي تنصت لرشيد في قلب معبد الكرنك، أمام جدارية فرعونية كانا يقفان أمامها، بينما يسرد لها جزءًا من التاريخ الذي عاشه الملك رمسيس الثاني، كانت ترنو إليه حين لحظ تعلقه بعينيها. ثمة بريق مدهش أطل من مقلتيها الزرقاوين، وبسبب الإجهاد والشمس، شابت بياض العينين درجة هينة من اللون الأحمر.

في مساء ذلك اليوم، في الفندق الذي كان الوفد الألماني يقطن به، وجدها تجلس في مطعم الفندق بمفردها، تقرأ كتابًا، ترتدي قميصًا قطنيًا أزرق، بحمالتين رفيعتين، وشورتا أبيض.

وبحماس من أغنية فريق Scorpions التي دارت فجأة، وحالما سمع كلماته

"Try. Baby try. To trust in my love again"

نهض من مكانه واتجه إليها وحيّاها، فالتفتت إليه، لكنها ابتسمت مرحبة به، فسألها:

هل تنتظرين أحدًا؟

لا.. لا أنتظر أي أحد. تفضّل، بإمكانك أن تجلس معي.

جلس وهو يقول:

أغنية جميلة

I'm still loving you

أنصتت للحظات، وأيدته بهزات من رأسها، أظهرت بها مدى اندماجها مع الأغنية. أدرك أنها تريد أن تنصت فانتظر، وأخذ يطرق بكفه على فخذه مع الإيقاع، من دون أن يقول شيئا، حتى انتهت الأغنية.

قالت:

آسفة، لكني أحب هذه الأغنية كثيراً.

أنا أيضاً.

سألته إذا ما كان يرغب في تناول شيء معها. قال لها إنه انتهى من تناول طعامه بالفعل، لكنه لا يمانع أن يشرب شيئاً، فطلبا سويًا زجاجتي بيرة.

أخبرته أنها عادة لا تحب الأغنيات العاطفية ولا موسيقى البوب، وأنها تفضل فقط الروك آند رول، فأجابها بأن هناك دائما استثناءات.

سألها عن انطباعاتها حول ما شاهدته في مصر. مرقت سحابة من ذكريات غائمة في ذهنها منذ زارت متحف برلين وشاهدت رأس نفرتيتي، وتعلقت بالحضارة المصرية، وقرأت كتبا عنها، وقررت أن تسافر يوما لتعاينها على الحقيقة. قالت له إنها كثيرًا ما تفكر أن مثل هذه الحضارة الخيالية كانت تخص بشرًا خارقين، لعلهم انقرضوا فجأة مثل الديناصورات.

لمس نبرة الإدانة في صوتها. تأمل عينيها ونبرة الصدق التي قالت بها الكلمات. قال: "أنا أيضا أفكر في ذلك كثيرًا"، ثم أضاف "أظن أننا لن نتواصل مع تلك الحضارة كأبناء شرعيين لها، إلا عندما نتخصص في دراستها وبحثها واكتشافها بدلا من خبراء الآثار الأجانب الذين تخصّصوا في علوم المصريات، بينما نكتفي نحن بقراءة ما يكتبون كأنها حضارة غريبة عنّا".

ابتسمتْ بحماس وأيّدته بهزاتٍ من رأسِها، ثم قالت: "ربما أنتم تفضلون الحالة السحرية لهذه الحضارة. هذا الصمت المحيط بآثار عمرها آلاف السنوات، ومومياوات من العمر نفسه، ففي هذا الصمت ثمة دائما أسرار تقال، وعجائب وأسرار لا يمكن أن تكشف بسهولة".

تأمل كلماتها وهو يفكر في أن التواطؤ على الصمت تجاه الحضارة المصرية القديمة يبدو نوعا من انتظار المعجزات التي يمكن لحضارة مثلها أن تفعل، لكنه عقّب قائلا: "ربما يكون معك حق، ولا أخفيك أنني، شخصيا، ولك أن تصدقي ذلك أو لا تصدقيه، كثيرا ما أمر بحالات غريبة خلال جولاتي المتخصصة داخل المقابر الفرعونية، إذ أشعر أثناء وقوفي صامتا لتأمل النقوش على الجدران

أن روحا طافت بجواري. أظنهم يرعون ماضيهم بشكل ما، وأرواحهم هي التي تحمي هذا التراث على مر الزمن

اتسعت حدقتا عينيها وهي تقول له كأنها تؤمن على كلماته بطريقتها:

"هل تصدقني إذا قلت لك إنني شعرت اليوم بمثل هذا الإحساس أثناء جولتنا في الكرنك؟".

اقترح أن يصطحبها لزيارة "وادي الملوك"، مضيفا بابتسامة: "حتى تعرفي أن السحر الذي تملّكك في صباك عن الحضارة المصرية لا يساوي شيئا أمام الفتنة التي تنتظرك في ذلك المكان

مساء اليوم التالي، في غرفتها الصغيرة في الفندق الفخم، كانا يجلسان على كرسيين متجاورين، يواجهان نافذة تطل على نيل الأقصر، وينصتان معا لأغنية I'm sailing، وعندما سمع مقطع

Im dying

Forever crying

To be with you

ارتجفت روحه، لكنها بحساسية ورهافة، التقطت التماعة العينين وحزنهما، وتفكرت قليلا.. ولم تقل شيئا.

لكن بمجرد مرور طائر غرام خفي، شعرت به يقف على كتفها ارتجفت، وقالت له: "هل سبق لك أن سافرت خارج مصر؟".

فر طائر الغرام من أعلى كتفها، ليحلّ على الفضاء الذي يجمعهما بدلا منه طائر رُخ أسطوري راح يرفرف بجناحين عملاقين أعلى رأسيهما، فارتعدت من لفحة الهواء التي باغتتها.

حكى لها عن أحلامه في الترحال عبر العالم، وعمّا عاناه من أجل تحقيق الحلم.

ولو صغت أفكاره لكم لقوّلته الآتي:

"أنا مسافر أبدي، تقطعت السبل بيني وبين أحلامي. أنا رحّالة الرحلة المؤجلة، المسافر على صفحات الكتب، وبين سطورها. قرصان البحر الخيالي الذي امتشق بواخر لا يراها أحد سواه. أو يمكنك القول إنني روبنسون كروزو المُقعد؛ الذي حالت الظروف بينه وبين أحلامه للوصول إلى جزيرة الأحلام. أنا المسافر الأبدي العائش في الحقيقة. طائر الرُّخ الذي قارب على الانقراض ولا يستطيع الطيران لأن جناحه العملاق انكسر ولم يعد قابلاً للإصلاح".

رفرف طائر الرُخ مغادرا الغرفة، تاركا إياهما يرتعدان من ضربة الهواء الخفية الغامضة، ولو قُدّر لها أن ترى سحابات خياله في تلك اللحظة لشاهدت بعين الخيال من أعلى بساط سحري عوالم من أحلام واشواق، من بشر يتحركون في موجات النشوة، يرقص بعضهم ويتيه سواهم في كتلة بشرية غائمة تتحرك من تحتها.

ثم حلّ الصمت، كُتلةً مصمتة حالت بينهما للحظات، لكن صوتها الناعم ذي النبرة الحزينة الهامسة وصل إلى أذنه باقتراحها، الذي اعتبره أول بشائر تحقيق حلمه القديم: "عليك أن تأتي معي إلى ألمانيا، ومن هناك يمكننا معًا أن نسافر إلى أرجاء أوروبا"

أما الآن وهنا، وخلافاً لتوقعاتي، لم يعد قاسم كما تمنيت. بقيت وحدي في هذه الغرفة، أحاول توقع نتائج مثل هذه العاصفة. نقّبت في ذاكرتي عمّا يمكن لي أن أزجي به الوقت. الانشغال المستمر في البحث عن جذوري، إلى أي سلف أنتمي؟ أسلاف غربيون، أوربيون على نحو خاص؟ رشيد لم يكن يقبل هذا الأمر. يرى أن أوروبا هي التي تُدين لإسبانيا في الرواية، وإسبانيا تدين للأندلس. كان يقول إن سرفانتس نفسه وهب قصته المبهرة "دون كيشوتي دي لا مانشا" إلى اسم كاتب عربي أسماه "سيدي حامد". وفي نقاشات أخرى كان يرى أن النصوص الأدبية الأولى التي عرفها العالم جاءت من مصر القديمة. كُنت كمن يستجدي عودة رشيد باستدعائه ذهنيًا، أو حتى بأن أتذكر جزءًا مما أضمه على صفحاتي من قريحته:

"في إحدى المرات التي كنا نتمشى فيها معًا (أنا وسديم) في محاولة لاستكشاف مدينة الأنفاق السرية، سمعت منها مصطلح "كتاب سري" لأول مرة، ثم وجدها تضع يدها في حقيبتها وتخرج كتابًا من القطع الكبير، مجلّدًا بجلد بني اللون. سألتها عن الكتاب فمدّت يدها به إلي. اكتشفت أنه كتاب ثقيل نسبيا وأبديت دهشتي. على الغلاف الجلدي البُنّي وجدت العنوان بلونٍ ذهبي مكتوب بخط جميل: "كتاب الأرق"، فأثار فضولي. حاولت فتحه فاستعصى عليَّ، نظرت إليها طالبا المعونة، فوجدها ترمقني بفضول. وتبتسم.

اكتشفت أن الكتاب المزعوم ليس سوى خزينة متنقلة، مصممة على هيئة كتاب، تحتفظ فيها سديم بأغراض شخصية تعتز بها، وبعضها تخشى عليه من السرقة.

ومضت في ذهني لحظتها فكرة أن يكون للشخص كتاب سري. ما الذي يمكن أن يدونه في كتاب كهذا؟ مرت على ذهني تجربتي مع جماعة المتكتم، فهي ما يستحق أن يكون موضوعاً لكتاب كهذا، لكني قررت حينها تأجيل التفكير في الموضوع. قلت إنه سيكون موضوعًا مؤجلاً، ولأجل غير مسمى، فلم يكن هناك وقت لكتاب كهذا، بسبب الوقت الطائل الذي تستغرقه عملية نسخ الكتب.. و لم تكن مصادر الكهرباء المتاحة في الأنفاق تسمح لنا باستخدام أجهزة الكمبيوتر، وبالتالي كان علينا النسخ باليد، وعدد الكتب يحتاج إلى أكثر من ألف ضعف عدد النسّاخين الموجودين.

كما أن المرحلة الأولى؛ قبل الانتقال إلى المدينة السريّة كانت صعبة للغاية، فلم تكن هناك أماكن مناسبة للنسخ. كنّا نفترش الأرض في إحدى عربات المترو، أو في بعض الأنفاق التي أضيئت بوسائل إضاءة بدائية، أو بمصابيح صناعية مشحونة ببطاريات.

لكن ما كان يردنا من أخبار مدينة الظلام يجعلنا نحمد الله على أحوالنا، فمع كل وافد جديد إلى مدينة الأنفاق السرية تواردت أخبار عن العتمة التي تعيشها المدينة ليلاً في محاولة من المتكتم للسيطرة على أي حركة تمرد ضده، وبالتالي لم تعد هناك استخدامات للتلفزيونات، اما دور السينما والمسارح فأغلقت تقريبًا كلّها كما أعلن لنا الوافدون الجدد، أو بعض من يتنقلون بين الأنفاق ومدينة الظلام، مثل طارق وغيره.

كلما سمعت خبرا من هذه الأخبار المقبضة، كنت أقول إنني أفلت منهم في الوقت المناسب، ولو أني أشعر بالحزن الشديد تجاه الكثير من أهلي وأصدقائي الذين يعيشون في تلك العتمة، حيث لا

يمكن لهم احتمال الهروب إلى المدينة السريّة هنا، وتحديدا من كان يرى في تلك النفاية رُشداً وصلاحًا أو حلاً أخلاقيًا لما كانت تعيشه المدينة من فجور، وبتعطيش الجيم كما يفضل أتباع المتكتم أن ينطقوها

إنت إزاي كنت واحد منهم؟

سألتني سديم. نظرت إليها مباغتًا. تقاذفت على ذهني شهبٌ من ذكريات بعيدة رأيت نفسي فيها جميعا، منكبًّا على قراءة نصوص وكتب، بعين الوصي على البشر، الذي يعرف ما يصلُح لهم وما لا يليق بهم، أو ممسكا بقلمٍ أسود أغطي به عورات نساء لم تكن أي منهن تشعر بغضاضة أن يرى جسدها العاري أحد، مع ذلك فكنت أراهن مارقات، أمنح نفسي صكّاً ربّانيًا وأخلاقيًا في ألا يتشارك الآخرون في إثمٍ كهذا.

قلت لها إن هذه قصة طويلة على أي حال، واليوم عندما أتذكر بداية تعرفي إليهم، أشعر بأن دهراً مرّ على عمر تلك العلاقة. كيف بدأت تلك القصة؟ لا أعرف، في لحظات من حياتنا نسير كأننا مدفوعين من قبل آخرين، ولا نقف لنفكر، وهكذا تمر حياتنا مسروقة لأنها مجرد تنفيذ لرغبات الآخرين.

قالت: "زومبي يعني؟

انتفضت وقلت لها: أرجوك.

استفسرت بدهشة، فقلت لها ببراءة إنني أخاف من سيرة تلك الكائنات.

قهقهت وقالت: بتتكلم جد؟

طبعا.

عادت لتقرقر للحظات، ثم قالت:

بس دول خيال مش موجودين أساسا.

مش موجودين؟! إحنا عايشين هنا، في مدينة الأنفاق في عالم سفلي، يعني ممكن يكونوا أقرب لينا مما نتصور.

ما اعتقدش. الزومبي الحقيقيين عايشين هناك. فوق على أرض مدينتنا اللي خربوها. وبقت زيهم. مدينة أكل عقلها المتخلفين، أهلها ماشيين زي دبة سكرانة، بيتطوحوا كأنهم جذوع شجر ضخمة ماشية على الأرض بدون عقول. أو أموات كالأحياء.

لكني بالتأكيد أذكر جيداً كيف انتهت علاقتي بهم. استدعيت اللحظة التي بدأت فيها شرارة الأحداث. بدأ ذلك عقب قراءتي لنص بعنوان "أبناء الجبلاوي" لكاتب اسمه إبراهيم فرغلي، لم أكن سمعت عنه، تخيل في روايته تلك اختفاء كتب نجيب محفوظ من الوجود فجأة، بلا سبب معروف. وربط بين هذا الاختفاء الغامض وبين وقوع المدينة القاهرة في ظلام مريب نتيجة مرور أسراب من طيور لا يعرف لها أحد جنسًا، ظلّت تحلّق أعلى المدينة حتى منعت عنها ضوء النهار، وتسببت في إظلام المدينة بشكل تام.

أعجبتني فكرة الكتاب، ورغم ما وجدته فيه من وصف للحظات جنسية عديدة، وحتى المشاهد التي بدت انتقادًا لاذعًا لجهاز إعلام فاشل وفاسد، لكني أحسست أن به ما يستحق أن يمر من أجله وأن يجد طريقه للقراء.

أجزتُ الكتاب، ووضعت ملاحظاتي الخاصة ببعض العناصر السلبية في النص، وأغلبها مقاطع جنسية، وقدمت في تقريري

الفقرات التي رأيت ضرورة حذفها، مع التوصية بنشر النص، ودفعت بالتقرير إلى مدير جهاز المتكتمين.

في اليوم التالي مباشرة، فوجئت برسالة على مكتبي مؤشر عليها بخط المتكتم شخصيًا، يخطرني فيها بإيقافي عن العمل وإحالتي إلى التحقيق. توجهت بالرسالة إلى مدير عموم إدارة المتكتمين والنائب الأول للمتكتم، رفض مقابلتي بزعم انشغاله، ثم فوجئت بتجاهل محاولاتي للقاء أي مسؤول آخر.

لم يكن أمامي سوى الانتظار حتى يحل موعد التحقيق.

في الأيام التي قضيتها في البيت معتكفًا، مكتئبًا، وجدتُ ذاكرتي تستعيد علاقتي بالمتكتم وإدارته. كما استدعيت نصوصًا عديدة، وأفلامًا سينمائية، ومقالات وموضوعات صحافية ساهمتُ في حجبها عن الجمهور، ووقيتهم شرور ما فيها، مقصيا سموم الفكر الضال عن عقولهم حتى لا تتسمم بما كان كثير من الكُتَّاب المارقين، العلمانيين، والملحدين المنحلين، يحاولون أن يمرروها إلى الجمهور، ومارست كل صلاحياتي وخبراتي في وقاية المجتمع من شرور ما جاء فيها.

كنت أشعر بالغبن، وبالغضب، لكني لم أعبر عن ذلك إلا بالصراخ متجولا في البيت، مثل المجاذيب، لاعنًا المتكتم وسوء تقديره لمن يجتهد في العمل. نعم، لعنته لأنه جسَّد بالنسبة لي نموذجا لرجل الفضيلة وإشاعة الأخلاق الفاضلة ومكافحة الرذيلة، رجل مقدس بفضل صرامته في حرصه على منع كل ما يصفه بأنه إباحي ولا أخلاقي عن الناس، حريص على مكارم الأخلاق. أديت عملي على أفضل وجه. نعم، كنت بين قلّة قليلة من المتكتمين الذين يفضلون قضاء وقت طويل عقب ساعات العمل الرسمية لأواصل قراءة نص

لرواية أو كتاب سياسي أو غيرهما مما كان يرد إلينا بانتظام. وأحيانًا كنت أقضي يومين متعاقبين بلا نوم، لأنتهي من تقزير، فيما ألاحظ حولي كثيرًا من الموظفين الذين لم أستطع أن أطلق علـى أي منـهم لقب متكتم يوما، ممن كانوا يتصفحون النصوص التي ترد إلـيهم ثم يكتبون تقريرهم بسرعة.

كنت أحسدهم على طريقة عملهم، فبعضهم كان يتوقف أمام عنوان يجد به كلمة مريبة، فيجعل منها مسوغا لتقرير بحظر الكتاب، وأحيانا يفتح الكتاب عشوائيا، فتقع عيناه على فقـرة لا يفهمهـا، فيسارع فورا ليكتب تقريرا مشابها، أو يلتقط كلمة يراها مثيرة للريبة أو الاشتباه، فيتخذ القرار الأسلم، والأكثر أمانًا له بمنع الكتاب، فهذا أمر مأمون، لا يعرض من يقوم به للجزاء، على عكس إجازة كتاب قد يرى البعض لاحقًا أنه كان جديرا بالمنع، وخصوصا أن المتكـتم كان محميا بترسانة من القوانين والتقاليد الاجتماعية، وبالتالي لم يكن يعبأ بجماعة الكتَّاب الذين كانوا يشنون هجمات إعلامية على المتكتم وأتباعه، ويكتبون في منافذهم التي لا يقرأها عموم الناس ممـن كنـا نرى أن حمايتهم أخلاقيا وفكريا أمانة تقتضيها مسؤوليتنا جميعـا. لم يلق لهم بالا أو يهتم بما يكتبون، حتى تمكن من تجريم انتقاده في محاولة لإخراس كل معارضيه. وفي هذه الأجواء كان من السهل على الكثير من زملائي المتكتمين معدومي الضمير كتابة ما يربو علـى عشـرة تقارير في اليوم الواحد أحيانا عن كتب يمنعونها مـن دون قـراءة أو معرفة بما تتناوله.

بينما كنت أقضي ساعات طويلة في قـراءة كتـاب واحـد، أتفحص وأتأكد من مقاصد المؤلف. وإذا ثبت لي أنه يدس سـمًّا في

عسل، فإنني سرعان ما أتحفز له. أبحث عما قد لا يُلتفت له بسهولة، في صياغة جملة تبدو عادية لكنه يريد منها معنى خطيراً، يشكك به في العقيدة النزيهة مثلاً، أو يحاول بها أن يمس ثقاة الشيوخ، أو كاتبة تمرر أفكارا عن تحرر المرأة في مجتمعنا المحافظ، الفاضل الخلوق، الذي يصون شرف المرأة ويقدّرها كما لم تقدَّر المرأة في أي حضارة أخرى في العالم.

هنا أطلقت سديم ضحكة صاخبة رقيعة ساخرة على ما كنت أقوله، وأنا أتعمد قوله متقمصاً شخصيتي عندما كنت رقيبًا، متجاهلاً قرقرات سديم الضاحكة كلما سمعت كلمة من هذه الكلمات. كانت تعيد لفظها مقلدة إياي، قاطبة جبينها وراسمة بعينيها ملامح امرأة مجنونة زائغة النظرات، وهي تُفخَم وتُغلّظ النطق، ثم عادت لتغرق في الضحك الرقيع.

رحت أستخدم كلمات المتكتم حرفيًا، يساورني إحساس بالتعاسة من غضبه، وقراره بإجراء تحقيق معي. فبالرغم مما مررت به من خبرات التعليقات السلبية التي تلقيتها منه، لم يخالجني الشك بأنه يفعل ذلك حرصًا منه على النظام الأخلاقي، وعلى جماعتنا، جماعة المتكتمين، وبالتأكيد حرصه على الأعراف والتقاليد.

خَبَّرتُها عما كان يدور في ذهني آنذاك، موضحا أنني كنت أعرف أنه يتصرف بقسوة أب على ابنه الذي يريده أن يكون أفضل منه. قدّرت له ذلك. وفي النهاية يجب أن أعترف بأنني حاولت كثيرًا إخفاء إحساسي بالغرور، وبقيمتي التي توهمت أنها الأعلى بين أقراني، حينما كان يميزني عنهم موجهًا الحديث إليّ وقتما يمر ليتفقد سير العمل، أو ليشيد بتقرير من التقارير التي تقع تحت يده مما خطته

يداي. فكم من أفراد جاءوا وعملوا وقرر المتكتم أن يتخلص منهم من دون أن يلتقي منهم أحدًا، بلا تأشيرة منه أو تعليق.

ومع ذلك، فبين آنٍ وآخر، كان المتكتم يتهمني بالتكاسل، أو بأنني تلميذ المتفسخ، وهو اللقب الذي كان يطلقه على الشخص الذي كان يتولى منصب "كبير المتكتمين" قبل أن يزيحه من مكانه عقب عدد من الضربات الخفيّة التي كان يوجهها من خلال الإعلام؛ لإظهار رئيس الرقابة السابق بمظهر رجلٍ منحلٍ، لا يصلح، بل ولا يجب أن يكون قيّمًا على رقابة الأخلاق العامة وتصويب الأفكار

كان المتفسخ، أو المسؤول الأسبق عن هيئة المتكتمين، وغريم المتكتم الذي تمكن من إزاحته عن طريقه في النهاية، رجل دولة يرى أن الرقابة يجب أن تكون ذكيّة لكي تمنع ما يؤذي مشاعر الناس أو عقائدهم، ولكن من دون أن يؤذي النظام السياسي ويتسبب في وسمه بالتخلف والديكتاتورية.

أما المتكتم فكان ينتمي إلى مدرسة أخرى تقول إن الأصل هو المنع، والاستثناء الإباحة. كان صارمًا متشددًا، يرى في كل خروج عما يعتبره صحيح الأخلاق انحلالاً ودعوة لوقوع العباد في أسر الرذيلة، ويتولى بنفسه استقبال المتكتمين الجدد؛ ليتأكد من تلقينهم الخبرة الأهم في عمل أي متكتم: "أن كل نص أدبي أو فني أو كتاب، مُجرَّم حتى تثبت براءته" ولم أنتبه إلى أن كل متكتم تقوم سلطته على الارتياب، وعلى الشك، وهو ما يقتضي منه أن يعين المتلصصين وقصّاصي الأثر والمخبرين، ويُطلقهم، ليس فقط في ربوع المدينة، بل وبيننا. لم أنتبه، ربما بسبب سذاجتي، أو ليقيني بأنني أعيش في أكثر المؤسسات أخلاقية في المجتمع، إلى أن كل من يحيطون بي

هم مجموعة من الوشاة الذين يتربصون ببعضهم بعضا، لكي ينالوا حظوة عند المسؤولين عنهم، وبالتالي ترتفع أسهمهم لدى المتكتم.

لكن سديم استوقفتني بغتة، وهي تشخر من شدة الضحك، قائلة إن استمراري في هذا المونولج سيصيبها بتشنج عصبي.. فتوقفت.

* * *

كنتُ مستغرقة في استدعاء لحظات كتابة رشيد لهذا الجزء من النص، الذي يعد جزءًا من وجودي، حتى شعرت فجأة بحركة غير اعتيادية ارتجّت لها السفينة، كأنها ارتطمت بسفينة أخرى، أو ربما بصخرة عملاقة. سمعت قرقعات وارتطامات من مكان قصيّ، توقعت أنها تتناهى لي من غرفة المحرك. وأدركت أن العاصفة المتوقعة منذ الصباح حلَّت بشائرها. وأن طاقم السفينة جاء لاستدعاء قاسم من الغرفة لهذا السبب.

12

استمر غياب قاسم لفترة أخرى لم ينقطع خلالها الصخب البشري والضوضاء. وطال انتظاري، لكن أحدًا لم يدخل الغرفة، حتى قتلني الفضول لمعرفة ما يجري بأي شكل.

لم أفهم شيئًا مما يحدث إلا بعد مرور ساعات طويلة؛ إذ فوجئت بمجموعة من فتيان ذوي بشرة سمراء، يدهمون الغرفة، ويحمل كل منهم بندقية آلية. صدورهم عارية، ولا يرتدي أيٍ منهم أكثر من سروالٍ مهلهل، باستثناء شخصين كانا يغطيان صدريهما بصدريتين سوداوين.

تبينتُ أن السفينة المنكوبة تعرضت لحادث سطوٍ مسلح، ووقعت في أيدي مجموعة من القراصنة، الذين عرفتُ، ممّا تردد حولي لاحقاً، أنهم من الصومال، ويطلبون فدية مالية ضخمة مقابل الإفراج عن طاقم السفينة، وبعض النزلاء على متنها. لكنني لم أعرف ما هي الجهة التي طالبوها بهذه الفدية بعد. وتبين لي أن سبب اختفاء قاسم أنهم أخذوه رهينة، بعد أن تعرض لضربة على رأسه حينما قاوم أحد أتباع القرصان.

توقف ثلاثة من الشباب خلف رجل كهل، تسطع أسفل وجهه الأسمر لحية مشعثة يغلبها البياض، بينما يشب شعره المشعث كهالة

شيطانية أعلى رأسه الذي انتثرت به الشعيرات البيضاء، أمسك في يده سلاحا آليا، بينما وقف خلفه ثلاثة فتيان لا يرتدون سوى سراويل رثّة، يمسك كل منهم ببندقية ويتمنطق بحزام يمتلئ برصاصات حية.

تأمل محتويات الغرفة ثم بدأ يعبث بكل شيء، رفع مرتبة السرير ليرى إذا كان هناك ما قد أخفي أسفلها، ثم أفلتها لتعود إلى موضعها. فتح الدولاب وأسقط كل ما به من أغراض قاسم إلى الأرض. فتح الأدراج وألقى ما بها، وحتى أنا لم أسلم من عبثه. أمسكَ بي وتأملني في احتقار قبل أن يلقي بي أيضا..

آخ أيها الحقير، سأنال منك بعد قليل. المهم أن عملية التفتيش الهمجية هذه استمرت لوهلة، قبل أن يدرك القرصان أن ضالته ليست في هذه الغرفة، فانطلق خارجا وخلفه الأتباع.

بدا لي المشهد خياليًا لا ينتمي للواقع.. ليس فقط لأن زمن القرصنة الذهبي كان قد انتهى قبل أكثر من قرنين، بل أيضًا لأن هيئة القراصنة وأداءهم كان يختلف كثيرًا عمّا سردته المحكيات ودونته المدونات.

وبوصفي سليلة لتراث من السرد والحكي، كنت أدرك أن جانبًا من ذلك التراث كثيرًا ما تناول القراصنة، حينما كان البحر وسيلة التنقل الوحيدة بين ربوع عالمكم هذا، وعندما وجد الخارجون عن القانون وسيلة للتربح والنفوذ عبر السطو على قوافل التجارة البحرية في العصور الوسطى.

قلت إن العالم يتراجع لزمن سابق. العالم يكرر ذاته بدلا من أن يرتقي ويتطور. وها هي القرصنة التي بدأها الغرب ضد المستعمرات على الأرض سوف تُدير دوائرها عليه. هل تعيش البشرية مرحلة

نكوص بسبب ظلم العالم المتقدم للعالم المتخلف؟

هذه هي الفكرة التي انبنى عليها وجودي، ففي الوقت الذي راودت رشيد فكرتي التي أراد أن يكتبها، كان يرى أن مصادرة الأفكار، أو بالأحرى محاولة منع حركتها بالوأد والمنع، أو حتى محاولة نفيها، وإعدامها بالحرق أو التمزيق والقمع، أسلوب عتيق عرفته البشرية في مرحلة بدائية من مراحل نضجها تخص زمنًا سابقًا مضى وما كان له أن يعود، حينما كانت محاكم التفتيش لا تكتفي بحرق الكتب ووأد الأفكار، بل وتفتش في ضمائر الناس وتحاسبهم على ما يهمسون به لأنفسهم. وهكذا انبثقت في ذهنه شخصية "المتكتم".

عندما ذهب إلى ألمانيا كان يشعر لأول مرة في حياته أنه يفعل شيئًا بكامل إرادته. يسافر إلى بلد كان يتمنى أن يرحل إليه، ويعشق فتاة مثلت له "العقل الأوروبي والعاطفة في شفافيتها التي لا تقتضي سوى صدق المشاعر. العاطفة متخلّصة من تعقيدات التقاليد الاجتماعية الشرقية، ووسائل التربية الازدواجية التي تنشأ عليها الفتاة في الشرق.

بهرته الطبيعة، واغتسلت عينيه بالأخضر الجميل، الذي يحيط بمظاهر الحداثة والبنية المعمارية التاريخية العريقة والعصرية على السواء، وبالمصانع الجبَّارة وكافة مظاهر المعجزة الألمانية. آنس إلى أن الطبيعة الألمانية، بغاباتها التي تتضافر فيها الأشجار وتتكاثر، وبوديانها وتلالها التي تفيض بدرجاتٍ ساحرة من الأخضر، لا بد أن تصيب بجمالها قلوب الألمان رغم ما قد يبدو عليهم من جفاء.

مع يوديت اكتشف دماثة ورقة جليتين، قال لها لاحقًا إنها دمثة أكثر مما تخيل، وأزعجتها كلماته، فاعتذر مبررًا ذلك بأنه أراد فقط أن يستخدم توضيحا للكليشيهات الشائعة عن الألمان.

تبين أن التحفظ الشائع عن الألمان تجاه مشاعرهم، وعدم قدرتهم على التعبير العاطفي، ليس على النحو الذي تصوره، كما فطن إلى أن اللغة الألمانية التي كان يعتبرها دوماً لغة للفلسفة وللأفكار، ويعتقد أنها جافة وخالية من الإحساس، قادرة على أن تصفعه بكشف جديد. فمن بين شفتي يوديت، تسللت كلمات الحب إلى أذنه وروحه بلغتها، وهي تقول له إن المشاعر يصل معناها بالكلمات حتى لمن لا يعرف معناها، لأنها ستصل عبر الإحساس أولا، ستصل للقلب والروح قبل العقل. ومن شفتيها إلى أذنيه، وصلت النبرة الناعمة الرخيمة المثيرة، لتؤكد له أنها محمولة على لغة تلين في أحاديث الحب والشهوة لتتأود وتتثنى وتفيض بالرقة والغنج. ما جعله يقرر دراستها بشغف.

مع الوقت، وحين شرع إيقاع الحياة العملية يدق على رأسه، كما يفعل مع الألمان، أحس بقسوة المجتمع الألماني الذي يركض فيه الجميع، وهم لاهثون، إذ يصبح كل منهم ترسا في آلة الانضباط، والإحساس العالي بقيمة الوقت، الإدراك الواعي بالزمن، وبمنظومة رأس المال التي تضغط على الجميع من أجل النهضة الألمانية، والشعور المضمر في أعماق الشخصية الألمانية بأن كل ما يبذلونه يرتد على صورة ألمانيا في العالم.

تقلّصت أوقات المرح، وزادت ساعات انتظاره ليوديت في شقتهما الصغيرة، التي اقتسماها في مدينة شتوتغارت. وبعد أن كانت النزهة في الغابة يومية يتمشيان فيها بتؤدة، يتبادلان الحديث الهامس والمشاعر والحب واللعب، أمست موعداً أسبوعياً خاضعاً للظروف، ولحالتها الصحية ومزاجها.

وبالرغم من حيويتها الشديدة، وحركتها النشطة، كانت تعود في نهاية اليوم منهكة، لا ترغب في شيء سوى أن تستلقي في فراشها، ممسكة بقدحها الفخاري المفضل الذي يحتوي مشروبًا ساخنًا من أنواع الشاي التي أطلق عليها رشيد "مشروب الصحة"

وبين ليلة وضحاها ثقل صدره بإحساس فاحش بالخواء. داهمه شعور غامض بأن ما يعيشه أقرب لكابوس منه إلى الحلم الذي لأجله جاء إلى هذه المدينة. غدا إيقاع يومه رتيباً لا يناسب فكرة رشيد عن الترحال والسفر والتنقل المستمر من مكان لآخر.

حينما وصل إلى ألمانيا، اعتقد أنه سيزور مدنها جميعا، توقع أنّها برومانسيتها المفرطة سوف تدعوه للتجول في غابات شتوتغارت وضواحيها، ثم غابات مدن أخرى كان يتمنى أن يزورها، لكنها أحبطت توقعاته، إذ إنه بالكاد تعرف على بعض الضواحي الريفية القريبة من شتوتغارت. اكتشف أن الوقت المحدود ليوديت بسبب عملها لا يمكن أن يحقق له هذه الأمنية بسهولة.

وسرعان ما انخرط في تزجية الوقت بالقراءة، وفي محاولة التعرف على المجتمع الألماني، وانشغل بأفكار المجتمع الألماني عن نفسه، وأسباب تقوقعه على ذاته، وخصوصا الأجيال الأكبر عمراً، وسرعان ما راح يختبر فكرة أن ثمة عنصرية مُضمرة يكنّها الألمان لكل ما هو أجنبي، وأصبحت هذه الفكرة تؤرقه.

اعتاد الهروب من الفكرة بمقارنة يوديت بسلمى، سلمى التركي؛ الفتاة التي أحبها في الفترة الأولى من دراسته للسياحة، العشيقة الناضجة التي صفعت كل ما يعرفه عن المرأة الشرقية الغيورة المهتمة بذاتها أكثر من أي شيء آخر. ورغم شعوره بالحسرة لانتهاء

علاقته بها، بسبب تصرفاته المراهقة، كما قالت له آنذاك، فإنه كان يرى أن وجوده في ألمانيا لم يعد يسمح له بالبكاء على اللبن المسكوب، بعد زواجها وسفرها إلى أميركا.

رأى في اختباره الألماني أن الغرب الذي أفرط في انتهاك حقوق الآخر على مدى العصور الوسطى، مرة بدعوى اكتشاف العالم، ومرات بدعوى تنمية المجتمعات البدائية، لايزال يحتفظ باحتقاره للآخر، وأن هذه الاستهانة المبتذلة لا يمكن أن يكون مآلها إلا السقوط بهم على نحو أو آخر.

بسبب هذه الفكرة بدأ يشعر بالضجر من المجتمع الألماني كله، لكنه لم يواجه يوديت بما يفكر به. أراد أن يختبر الأمر بنفسه.

تُرى ما الذي كان يمكنه أن يفكر فيه إذا تعرّض إلى ما أتعرض له الآن؟ أن يجد نفسه فجأة أسيرًا على ظهر سفينة، تواجهه بنادق آلية مصنوعة في روسيا أو ربما في غريمتها الأميركية، يمسك بها صعاليك يستعيدون تاريخًا عتيقًا من أساليب اللصوصية والابتزاز التي عفا عليها الزمن؟ ألن يشعر بأن التخلف لم يعد مجرد تأخر أو توقف في نمو المعرفة والعقل ووسائل التفكير، بل ورغبة عميقة في العودة لماض يغذي الخيال المتخلف، وتعبيراً عن مقاومة مستميتة لسُنَّة التطور وتقدم التاريخ؟

ألن يفكر بأن المشكل لم يعد في أن الغرب يُضمر الكراهية للآخرين، وللشرق خصوصا، بل في أن الشرق أصبح كارهًا لذاته؛ مُستصغِرًاً نفسه ومستهينا بها إلى درجة أنه يبحث حثيثاً عن الطريقة التي يمكن له بها أن يدمرها بيده؟

13

استيقظ مبكراً صباح أحد أيام الآحاد. كان يعلم أن يوديت لا تنهض في هذا الوقت من يوم الراحة المقدس، وإنجاز الأعمال المنزلية. وحتى لو استيقظت مبكرًا عن المعتاد، فإنها تفضل أن تسترخي في الفراش، ولا تغادره إلا لإعداد القهوة، ثم العودة لتشربها وهي ممددة. تنصت للموسيقى وتحدق في السقف لساعات طويلة، تعود خلالها لتغفو غفوات سريعة وحتى قبيل الظهيرة بقليل، حيث تنهض أخيرا لتبدأ مهام نهاية الأسبوع: غسل ثيابها أو كيّها، وتنظيف البيت، أو انتظار عمّالٍ متخصصين في إصلاح عطل طارئ في السباكة أو أجهزة المنزل المحدودة.

ربما تخرج أحيانا لنزهة صغيرة تتمشى خلالها حول المنزل والحدائق المجاورة له. وبحلول المساء تخرج إلى الشرفة لتتناول كأسًا من نبيذها المفضل، وتدخن سيجارتها اليومية الوحيدة، ثم تسترخي حتى تنام.

تسلل من جوارها وخرج من الغرفة إلى المطبخ الصغير. لفحت أنفه النكهات المختلطة التي تتضوع في المكان ولا يعرف مصدرها بدقة. مزيج من عبق قهوة أضيف إلى نكهات الشاي المختلفة التي

تفضلها مع نكهة فاكهية مبهمة. ولاحقا سوف يداهمه حنين فاجر كلما التقطت أنفه مزيجًا من الروائح القريبة من عبق هذا المطبخ، وترتجف روحه كمن يقع في الغرام!

أعد قهوة وأضاف لها قليلاً من الحليب، ثم أدار ماكينة صغيرة وضعها في المشروب لتخفقه وتصنع طبقة ثخينة من رغوة القهوة بالحليب. خرج إلى الشرفة الصغيرة الملحقة بالمطبخ، فداعبت وجهه نسمة هواء باردة استقبلها منتعشًا؛ مرتديًا جاكيت بيجاما صوفية زرقاء وكلسونًا داخليًا صوفيًا أبيض، فيما ينتعل جواربه القطنية السميكة.

فتح باب الشرفة، وتنشق الهواء بعمق. تأمل المساحة الخضراء التي تتوسط خلفيات مجموعة من البنايات التي تشكل شبه دائرة، تتوسطها حديقة دائرية عادة ما يقضي بها الأطفال الوقت مع أي من والديهم، أو يقوم الجيران بتمشية كلابهم فيها.

استمتع بالهدوء، مصحوبًا بزقزقات طيور محلقة هنا وهناك. احتسى القهوة بنشوة، ثم قام بلف سيجارة، كما كان شائعا في ألمانيا، ولضغط نفقاته في الأساس. دخن سيجارته مصحوبا بالهدوء النفسي وبصفاء داخلي على عكس ما كان يشعر به خلال الأسبوع. فكر أن يوقظ يوديت، ليقترح عليها أن يقضيا اليوم معا في الغابة أو ليفعلا أي شيء. لكنه سرعان ما تذكر أن آخر محاولة له في هذا الاتجاه انتهت بمشادة صباحية، أثرت في مزاجهما أسبوعا كاملا.

قرر الخروج بمفرده. تنشق هواء الصباح البارد بعمق وهو يغلق باب البناية الخارجي. اعتزم المشي حتى سوق الأحد الأسبوعي في مركز المدينة.

راح يتأمل ما يجده أمامه؛ أكوام من عاديات منسقة. باعة من جاليات آسيوية، إيرانية وشرق آسيوية وصينية، أغلبها وجوه لامبالية، وضع الزمن فيها إزميله. شمس واهنة. حركة خافتة. راديو خشبي عتيق. لوحات فنية. فضيات. كتب عتيقة مجلدة ومهترئة. صحون من الصيني عليها رسوم ملّونة بدقة، تستند على لوحات فنية عتيقة، موضوعة على أرضية السوق الحجرية العتيقة الباقية من زمن قديم. أوانٍ خزفية قديمة. صناديق خشبية مطعمة بالأصداف أو الحجارة، ومنقوشة ببراعة، أغلبها تظهر عليها آثار الحرف اليدوية الآسيوية. هياكل خشبية بديعة منقوشة ومزخرفة سرعان ما تبين أنها ساعات حائط تقليدية. أحذية سيدات أنيقة مغطاة بالشمواه، أغلبها ذات أعناق طويلة وكعوب دقيقة عالية. منفضة سجائر زجاجية. وجوه تتأمل المعروض بشغف خافت، بلا ضجيج، كما حال كل شيء في شتوتغارت، وأخرى تبحث بدأب عمّا يمكن أن تكون له قيمة. رؤوس شقراء، حمراء، سوداء، وبيضاء تتباهى بالمشيب.

لاحظ فتاة تقف بمفردها، تتأمل لوحة فنية بلا اكتراث. تأملها للحظات ثم تخيلها وهي خلفه أعلى دراجة بخارية يقطعان بها الطريق السريع خارج شتوتغارت. ابتسم لها. تجاهلت نظراته وواصلت زحفها البطيء حول العاديات تتفحصها. تابعها بعينيه. لكنها لم تعاود النظر إليه، فانصرف.

انطلق باتجاه قلب المدينة، وتوقف عند سوق مماثل، لكنه يختلف في درجة تنسيقه، مدركا أنه سوق الخضراوات الشعبي، الذي تلتمع فيه حبات الفواكه والخضراوات، مانحة المكان طقسًا لونيًا ملفتا للانتباه، على عكس سوق العاديات.

انطلق إلى وسط المدينة، شارع "كونيغ- شتراسه". زحام طفيف. وجوه في الزحام. كرنفال ألوان. في الأيام العادية تبدو خطوات المارة أسرع كثيرا منها في أيام العطلات، لكنها تظل خطوات رشيقة متعجلة مقارنة بمثيلاتها في القاهرة.

لا يمثل التسوّق أولوية لمن يمر بهذا الشارع في مثل هذا الوقت المبكر من النهار، وهذا ما يجعله هادئا في ذلك الوقت. ولأن رشيد في ألمانيا كان اعتاد أن يدون ما يمر به في يومه لحظة بلحظة فقد كان بإمكاني دائما أن أصف بدقة شديدة ما يفعله في يومه هناك.

التفت رشيد إلى المكتبة الضخمة في الطريق. اتجه إليها. انطلق إلى الطابق العلوي. تأمل أغلفة الكتب. روايات، لكتّاب ألمان، لا يعرف غالبيتهم. أعمال أدبية كلاسيكية. روايات مترجمة.

خرج من المكتبة. شعر بالجوع فتوقف أمام عربة صغيرة تتعلق بها حلقات مخبوزات "البريتزل"، أو السميط الألماني، كما كان يسميها. ابتاع واحدة، وراح يقضمها مستمتعا بمذاقها الدهني المالح. انتهى منها في الطريق. عند مبنى كنيسة عتيقة الطراز انحرف يسارًا، واستمر في المشي قليلا على رصيف محاذٍ لشارع رئيسي، تمرق منه سيارات "بي إم دبليو المنتشرة في شتوتغارت بكل الأشكال والألوان، حتى بلغ شارعا صغيرًا، ينحشر بين صفّين من المباني الرمادية الصغيرة، التي تتراص أسفل كل منها بعض المحال والمطاعم.

كانت أغلب المحال مغلقة بسبب العطلة الأسبوعية. وحين لمح لافتة مطعم "الستيك" المفضّل لديه؛ بلوك هاوس Block House إلى

يساره، التفت إلى اليمين متنبها، لأنه اقترب من مقهاه المفضل الذي يقع على ناصية تفرع صغير من الشارع. اجتاز الشارع الصغير إلى الساحة المبلّطة الصغيرة في الجهة المقابلة فألفى نفسه أمام "كافيه شامليون".

دخل إلى المقهى. لم يكن مكتظًا. كان البار الأمامي يعرض ألوانًا من الحلوى المختلفة في ثلاجات ذات واجهات زجاجية بالغة النظافة؛ قطع حلوى، ونماذج مختلفة لأشكال منوّعة من الكيك تعلوها الفواكه بألوان ناصعة. اقتربت منه نادلة رقيقة الملامح، حنطية البشرة، تزرع في قمة أنفها فصّاً ماسيًا صغيرًا، وقد عقصت شعرها البني، وسألته عما يرغب في تناوله بالألمانية، وهي تلقي إليه نظرة فارغة من أي معنى. وضع يده اليمنى خلف شعر رأسه الطويل المتموج خلف رأسه كهالة، ورسم الابتسامة التي لا تبارحه غالبًا، ثم طلب قهوة ومياهً غازية. تأمل أردافها وهي في طريقها باتجاه البار. ثم التفت إلى الطريق عبر النافذة الزجاجية الكبيرة. كان المشاة قليلين، كما المعتاد في عطلات نهاية الأسبوع، ومع ذلك يتحركون بإيقاع سريع.

أخرج الدفتر. عفوًا- يجب أن اقول أخرجني- فهذا أنا حين كنت مطية ليومياته، وشرع يتفكر ويدون أفكاره:

"ماذا أريد حقا؟ أحب ألمانيا؟ بالتأكيد، شتوتغارت على نحو خاص، في بساطتها وأناقتها ما يخصها. لديّ الآن بفضل يوديت معارف، وربما بعض الأصدقاء. نتجمع في عطلات نهاية الأسبوع في شقة واحد منهم. نثرثر ونأكل ونحتسي البيرة والنبيذ ونختتم بالـ "شنابس"، ونعود إلى بيوتنا متعبين، لكن سعداء، ومنتشين، وربما

دائخين قليلا من فرط الشراب. لكن ما علاقة كل هذا بما أريده؟ أحب يوديت بالتأكيد. شخصية عاطفية بما يفوق كل ما تخيلته عن الشخصية الألمانية ومخلصة، لكنها أيضا مغرمة بذاتها، بحرصها على أن أُظهر لها ولعي بها باستمرار. ربما بسبب إحساسها بالإرهاق المستمر، وإشفاقها على ذاتها، وبالتالي رغبتها في أن تشعر بمن يربت على روحها بين آن وآخر. أو ربما بسبب انفصال أهلها المبكر، وإحساسها بأنها فقدت اهتمام الأب والأم مبكرا. في النهاية لا يسبب لي هذا كله أي ضيق. نعم أحبها. وألمانيا تستهويني كثيرا. لكني لم أسع إلى أن أعيش في ألمانيا، أو أن أصبح ألمانيًا. بالعكس تماما، كان حلمي أن أكون مواطنا عالميا. لا يستقر. وفي كل مكان يشعر بأنه وصل أرضه ووطنه. أحلم بأن أعيش شهرا في نيويورك، وأعقبه برحلة قصيرة أقضيها في إيطاليا؛ روما، أو فينيسيا، ومنها إلى باريس"

معجزة الحب. ردد الكلمتين مع نفسه، كما يسمعهما بالإنجليزية من يوديت، ثم بالألمانية كما كانت ترددهما له حين سألها: Wonder van de liefde، وأخيرا نطق الكلمتين بالعربية مرة أخرى.

وصلت النادلة بملامح متجهمة، وعينين بريئتين سوداوين، وبشرة ملتمعة بلون الكاراميل، وبصينية يعلوها ما طلب، وسرعان ما أخلتها مما تنوء به، ووضعتها على المنضدة أمامه. تنّشق عبق القهوة، وابتسم لها شاكرًا. تأمّل ردفيها مرة أخرى بمجرد أن أولته ظهرها.

بدأ يلف سيجارة بسرعة، بأنامله الرشيقة المشعرة قليلا، والمدربّة تمامًا على لف السجائر، ثم أشعلها. ونفث الدخان. ووضع قطعة

سكر في فنجان القهوة. وفكر في الكلمتين مرة أخرى "معجزة الحب" هل يعني هذا أن وجودي هنا في ألمانيا يعود لمعجزة الحب؟ ليس لمعجزة الترحال إذن؟ هل يعني ذلك أنني بعلاقتي ببوديت أشعر حقا بالسعادة؟ ماذا لو...؟

وفتح باب الخيال، فقاده إلى غرفتها الصغيرة، التي تأويهما معًا. دخل من الباب فاحتضنته ظلال الستارة البيضاء التي تحجز خلفها الضوء. لم يجدها في المشهد الذي كان يتخيله باستمرار. المشهد الذي خلقته هي في خياله، لكنه في الواقع لم يره تقريبا.

عندما اتصل بها ليطمئن على وصولها إلى شتوتغارت بعد رحلة القاهرة، قالت له: "ها أنا ذا؛ وحدي في فراشي. أرتدي البيجاما، وأفكر فيك. في أنك شخص حقيقي ولست جزءًا من أساطير الفراعنة الذين لايزالون يطاردوني بجمالهم وأطيافهم في نومي

تخيلها، خلال جلسته في مقهى شامليون، نائمة في الفراش الوثير، تحت البطانية البيضاء المغطاة بملاءة حريرية بيضاء، ترتدي بيجاما بيضاء وتنظر بعينيها الزرقاوين إلى السقف، فيرتعد جسده ولا يعرف السبب في ذلك.

بمجرد أن رأى باب الغرفة، في خياله، مفتوحا، ووجد الفراش خاليًا، انقبض قلبه. كانت آثارها في كل مكان. الحذاء الأسود ذو المقدمة المخروطية الدقيقة. البووت الأبيض طويل الرقبة ذو المقدمة المخروطية الدقيقة أيضًا. الدولاب الأبيض الذي يحتضن ثيابها، وجواربها.

نام في مكانها. استعاد إحساسها بالوحدة، كما وصفته له، بعد عودتها من القاهرة.

أغلق عينيه على المشهد. ثم فتحهما وشعر بوخزة في ضميره، أو ربما في قلبه. شعر بأنه يفتقدها. ارتشف رشفتين متعاقبتين من قهوته، وسحب نفسًا من سيجارته. راودته الرغبة في التوقف عن التفكير في الأمر. أحس بالخوف. أدرك أن ما يربطه بشتوتغارت ليس روح المغامرة، أو الترحال، ولا تفاصيل المكان، ولا الغابات التي كان يتوقع في كل مرة يتوغل فيها أن يرى شيئًا مثيرًا أو غريبًا، أو أن تكون شتوتغارت مركز انطلاقه كي يلف العالم، كما كان يفكر، بادئًا بفينيسيا؛ باعتبارها مدينة الجمال التي تعشقها يوديت. لم يكن شيئًا من هذا كله هو ما يرتبط بحياته الجديدة هنا، فقد اكتشف أن ما يجعله مرتبطًا بالمكان بشكل حميم هو، فقط، طيف يوديت.

كان قد دوّن كل تفاصيل ذلك اليوم في صفحاتي، ولهذا أحتفظ بها ناصعة كجزء من ذاكرتي.

خرج من المقهى، بعد أن وضع نقودًا على الطاولة، وتمّشى قاصدًا محطة القطار. ترددت في أعماقه أغنية Sail away with me now بصوت دايفيد جراي.

عاد إلى "كونيغ- شتراسه"، ومشى بخطوات بطيئة نسبيًا. استوقفه رجل عجوز له ملامح ريفية. طلب منه سيجارة، بلكنة ألمانية شعر أنها تختلف عن اللكنة الشائعة في شتوتغارت. ابتسم له. وأخبره أنه ليست لديه سجائر جاهزة، لكنه طلب منه أن ينتظر. اقترب من منضدة تخص واحدًا من مقاهي الرصيف، وجلس إليها. ظل العجوز يرقبه بعينين ذاهلتين، فيما أخذ يحك شعر رأسه الأبيض الكثيف المشعث، الذي يبدو أنه لم يصفف منذ عقود. أخرج رشيد علبة سجائره ولفّ سيجارتين، ثم منحهما له. ابتسم له العجوز

ابتسامة واسعة، والتقط من يده سيجارة واحدة فقط؛ مؤكدا أنه لم يطلب سوى واحدة.

انطلق مرة أخرى في الطريق. التفت إلى يمينه عندما لمح الساحة الواسعة التي تتوسطها مساحات خضراء من الأعشاب المشذّبة، وراقب مجموعات من الشباب المستلقين في مرح على المرج الأخضر، ثم وقع بصره على رجل وصديقته يعريان صدريهما ويستلقيان للاستمتاع بالشمس، وحولهما تناثر أشباه لهما بالعشرات.

عندما دخل من بوابة المحطة الخلفية المطلّة على شارع "كونيغ- شتراسه"، انطلق بسرعة مارًا عبر الكافيهات والمحال التجارية، قاصدًا رصيف المحطة. وصل قطار قادم من ميونخ. فكر أن يشتري تذكرة ليستقل القطار إلى ميونخ. أكد لنفسه أنه سيعود ليلا. أعاد التفكير في الأمر، فانهار حماسه. تردد قليلا، ثم عاد من حيث أتى. همس لنفسه أنه سوف يقوم بشراء تذكرة بعد أن يرتب مواعيده، ويتأكد من أن يوديت لديها ما يشغلها ليومين، إذا لم توافق على اصطحابه إلى هناك في عطلة نهاية الأسبوع.

نظر في ساعته واكتشف أنها تعدت الظهيرة. فكر أن يتوقف عند أي مطعم صغير ليتناول زجاجتي بيرة مع غداء بسيط، لكنه شعر بالانزعاج من تناول الغداء بمفرده في يوم عطلة. وحين خشي ألا تكون يوديت في مزاج لإعداد وجبة غداء لهما، وهو ما كان يتوقعه بيقين، قرر أن يمر على أقرب محل "كباب" تركي؛ مما يتناثر في كل مكان حوله. في طريق العودة لمح محلا للورود، فتوقف أمامه للحظات. كانت أشكال الورود وألوانها جميلة بشكل لافت. وبعد دقائق كان خارجًا من المحل ذي الواجهة الزجاجية،

وهـو يحمـل وردتـين بلـون وشـذى القرنفـل مغلفـين فـي كـيس مـن السـوليفان، وبمجـرد أن خـرج مـن محطـة القطـار قـرر العـودة إلـى البيت، وكان وجه يوديت يحتل كل مساحة خياله.

14

بعد أن خرجوا من الغرفة، بدأت أستعيد هدوئي. ولا أخفيكم أنني مع تتبعي للواقع الذي أعاصره منذ اختلقت على يد رشيد الجوهري، وأنا أشعر أن أفكارًا مستقرة حول الاختلافات بين الواقع والخيالات والفانتازيا آن لها أن تتخلخل. لكنني من قبيل استعادة الهدوء، والاحتشاد لما أرغب في التفكير فيه عن هؤلاء القراصنة، اعتزمت أن أعود إلى ذاتي أولا.. أعود إلى المتن:

"خلال الأيام الأولى بمدينة الأنفاق، اعتقدتُ أنها ملجأ النساخين الهاربين من المتكتم وأتباعه وعسسه فقط. لكني اكتشفت أن عالماً آخر يعيش هنا، في تجمعات، مثل الشعراء والموسيقيين والمسرحيين والفنانين، وبينهم فنانون تخصصوا في الفن العاري، وهواة عزف الموسيقى المرتجلة، ومطربون، ومحبو الفنون والهاربون بحريّاتهم الفردية إلى حيث لا يفتش في ضمائرهم أحد.

في الفترة التي عانيت فيها من الاكتئاب اصطحبتني سديم، عبر طريق طويلة إلى مكان يبدو كأنه كهف جبلي محفور في بطن جبل. عندما اقتربنا من الكوّة الجبلية الواسعة تناهت إلى أذني أصوات عزف

موسيقى صاخب. وجدتُ نفسي أمام ما يشبه قاعة مسرح كبيرة، هي في الأصل أقرب ما تكون لكوّة جبلية فسيحة استُخدمت كمنصة عرض، تناثرت أمامها بعض المقاعد، فيما توزعت مجموعة من الفتيات اللائي كن يرتدين بنطلونات جينز ضيقة، و"بوديهات" ملونة بلا أكمام. أمسكت فتاتان كانتا تقفان في مقدمة المسرح بجيتارين إلكترونيين، وبجوارهما فتاة أمسكت بآلة ساكسفون، تجرب لحناً أخاذاً، وإلى جوارها اثنتان تمسكان بآلتي كمان. وفي خلفية هذا كله تناثرت مجموعة من آلات الإيقاع، لاح خلفها رأس شاب ملتحٍ ذي ملامح غليظة.

قلت لسديم: واشمعنى الشاب ده هوا الوحيد الموجود في فرقة نسائية؟

ضحكتْ وقالت: هيّا دي أصلا مشكلتهم اللي بسببها اضطروا ييجوا يعيشوا هنا.

ابتسمت لها راسمًا ملامح الاستفسار، فقالت:

شايف المُزّة المليانة شوية اللي ماسكة الكمان؟

مالها؟

في مدينة الظلام كانت بتضرب على "الدرامز Drums، وكانت قائدة الفريق (أومأت برأسها إلى الفتاة التي تتوسط العازفات) شايفه إن البنت دي هيّا سبب فشل الفريق.

ليه؟

بصراحة اللعب على الدرامز محتاج قوة وخفة إيد، صعب تلاقيهم عند البنات مهما كانت موهوبة. وبعدين هما ما

كانوش بيعزفوا أي موسيقى.. المجانين بيحبوا موسيقى "الميتال لكن السبب الأساسي طبعًا أنه بعد منع الاختلاط بقى صعب أنهم يعزفوا ومعاهم راجل في الفرقة.

يعني جُم هنا علشان كده؟ معقول؟

لا طبعا، السبب الرئيسي إن سعادة المتكتم وأعوانه اتهموا البنات إنهم بيروجوا لموسيقى "عبدة الشيطان"، وطبعا بدأ أتباع المتكتم يقرفوهم ويطاردوهم. بس أهم حاجة هنا إنهم بقى عندهم حد محترف على الدرامز.

هههههه، هايل، يعني أخيرا هيكون عندنا فرصة للاستماع لموسيقى عبدة الشيطان.

مع الوقت اكتشفت أن العالم الأرضي هنا يضم أيضا أفرادا من غريبي الأطوار ممن وجدوا في الأنفاق السرية ملاذا آمنا.

كان أكثر من أدهشني وجوده هنا "طارق الزجاج" وهذا لقب لاسم لم يعد يذكره أحد. كنت أسير وحدي يوما أبحث عن حل لمعضلة أصابتني عندما كُلّفت بنسخ كتاب "دون كيخوت" لسرفانتس. أدافع ضحكاتي وقهقهتي المتوالية منذ وقعت عيني على سطور من الجزء الثاني للرواية، والتي تتمثل في مشهد قرر فيه شخصان من أبطال الرواية أن يبحثا عن حمار، يتصور أحدهما أن الطريقة المثلى للنداء على الحمار هي أن يقوم بالنهيق. وهكذا أخذ ينهق في الخلاء، واقتنع صديقه بما يقوم به فراح ينهق مثله.

انفجرتُ ضاحكًا، لكنّي، ومع الأسف، لم أستطع التوقف عن الضحك بعدها، فقد كان مشهد نداء الرجل للحمار بالنهيق يحتل مخيلتي ويثير ضحكي بلا توقف.

وبالصدفة المحضة حينما خرجتُ للبحث عن سليم، وجدتها مثلي تضحك بشكل متواصل، إثر توقفها أمام مقطع آخر من الرواية نفسها، إذ كان سعيد خاطر قد كلفها بنسخ الجزء الأول من الرواية.

وهكذا التقينا ونحن نضحك، وبين دموعنا الضاحكة كان كل منا يحاول، بأنفاس متقطعة وعينين دامعتين من فرط الضحك، أن يحكي للآخر عن المقطع الذي يتسبب في ضحكه. وعندما تبيّنا أن وجود كل منّا أمام الآخر يفجر ضحكات أكبر بسبب تذكّرنا للمقطعين معًا، أدركنا استحالة حلّ الأمر على أي نحو بوجودنا معًا، وانصرفتُ تاركا إياها وهي تقرفص على ركبتيها وتخبط على الأرض من فرط الضحك.

تركتها وأنا أتذكر لقطة من فيلم للأطفال بعنوان "عصر الجليد"، كان على أبطاله، وهم جميعًا من حيوانات عصر الجليد، أن يمروا على حبل طويل متهالك بين قمتي هضبتين داخل كهف عملاق، ويقتضي مرورهم في بقعة بعينها أن يشموا رائحة غاز مثير للضحك، فيصبح الضحك عدوهم القاتل الذي لا يستطيع أي منهم الفكاك منه.

وهكذا انفجرت موجة كبيرة من الضحك، بعد أن تركت سليم وابتعدت عنها لا ألوي على شيء، ورحت أترنح وأتخبط في الجدار المجاور لي، لا أستطيع التوقف عن الضحك حتى توهمت أنني مقضي علي لا محالة.

في هذه اللحظة، لاحظت من بعيد رجلا نحيفا، وسيمًا، دقيق الملامح لولا جحوظ طفيف في عينيه الغاضبتين، أصلع، خفيف الشعر، يرتدي "تي شيرت" ورديا أسدله على بنطلون قماشي رمادي

ضيق، وبدا وكأنه يتحدث لنفسه، بلا توقف. وبقدر ما بدا الموقف محفزاً على المزيد من الضحك، لكن ملامح وجهه الأسيانة جعلتني أخفف قليلا من حدة الضحك.

استوقفني الرجل مستفزًّاً من ضحكي الهيستيري المتواصل. فحكيت له، متقطع الأنفاس، وبصوت متهدج ومتوتر، عما يضحكني من شأن دون كيخوت وأصحابه، فتغيرت ملامحه لوهلة كأنه يستدعي المشهد لذهنه، ثم سرعان ما استعاد ملامح الغضب، قائلا إن العالم مليء بالشرور والكآبة والمآسي، بينما أنت تضحك كمجنون. وبهذا تمكن من أن يصيبني بالخرس. استطاع أن يوقف ضحكاتي. هنا سألته باهتمام عن المأساة التي تشغله ولا يتوقف عن التفكير بها بصوتٍ عال على هذا النحو.

لست أذكر الآن ما قاله لي بأمانة. كان يرتجف غضبًا يتحدث إليّ، رافعًا بصره قليلا بحيث بدا وكأنه يتحدث إلى أشباحٍ خفية لا يراها سواه.

كدت سأعاود الضحك. لكني تماسكت وحاولت أن أخفف عنه حتى يحكي لي سبب وجوده في مدينة الأنفاق السرية. تردد قليلا حتى صرح لي بالسبب، مؤكّدا لي أنه الزُجاج.

سألته باستنكار ودهشة:

الإزاز؟

أيوه.. الإزاز.

قالها بنبرة جمع فيها يقينه وسخريته من سؤالي معا، ثم حكى قائلا إنه رجل كان يعيش بجوار البحر، قال: إنه بالبحر يطمئن قلبي شديد الاضطراب، فتحت عيني على وجوده، وأصبح جزءا

من تراثي الشخصي. أستكين إليه، وأشعر أنه رفيق صحبتي في كثير من محطات حياتي. وملاذي في أيام الحزن والكآبة. لذا كنت أبحث عن المقاهي التي تطل عليه في مدينتي، وهكذا ارتبطت بالمقاهي التي لا تطل إلا على مياهه الزرقاء والمدى الذي يتصل بالأفق. لكن الترحال جعلني أهيم في بلاد الله، وعندما كنت أجد البحر بعيدًا أبحث عن مقاه بها نوافذ واسعة تطل على العالم. في كل مدينة أرتحل إليها أبحث فيها عن الزجاج، وحينما عدت إلى مدينة الظلام، استبد بي الهاجس نفسه. كنت أبحث باستمرار عن المقاه الحديثة التي استبدلت الزجاج بالجدران المصمتة، لكني كنت أتماهى مع شفافية الزجاج، وينتابني شعور بأنه ليس موجودا.

تأملني للحظات ويبدو أنه أدرك أنني مازلت لم أجد في ما قاله إجابة على سؤالي، ثم أضاف قائلا:

في إحدى المرّات التي كنت أجلس فيها في واحد من تلك المقاهي، أحسست بحاجتي للذهاب إلى الحمام، فنهضت من مكاني بسرعة، وكان عليَّ أن أعبر بابًا زجاجيًا يُفترض أن ينفتح حالما أتوقف أمامه، لكني لم أره. وفوجئت بنفسي وقد أوقفت فجأة فور أن ارتطم جبيني بالباب بقوة، وصحب ذلك صوت الارتطام المروّع الذي لحق به الألم الذي أحسسته في جبهتي، فصرخت.

حينما قال كلماته هذه كانت قهقهات مكتومة تغلي في داخلي، كأنها موجات بركانية تبقبق تعبيرًا عن رغبتها الضارية أن تقذف حممها خارجة عن صدري، لكني تماسكت.

استطرد قائلا إنه انتبه لاحقاً لموضع الأبواب الزجّاجية، وكان عادة ما يحتاط كثيرًا حينما يقترب من أي باب أو جدار زجاجي.

لكن بمرور الوقت فقد حيطته وحذره، وبوغت بارتطام أقوى من سابقه جعل كل من في المقهى يتوقفون عما يفعلون، ليس فقط بسبب صوت ارتطام جبهته بالزجاج، بل بامتزاج الصوت مع صرخة قوية أطلقها مذعورًا، فراحت العيون تطل عليه، بعضها خطفًا من خلف صحيفة، فيما تجمدت أخرى مصوبة عليه وهي محمّلة بلون من الذعر، وأخرى أطلّت بلون من الشفقة، أما هو فتمادى في ادعاء الألم ليخفي ارتباكه، ومفاجأته، من كل تلك العيون، ما دفع النادل القريب وبعض الموجودين يهرعون إليه ليقدّموا له المساعدة.

ثم رقّت ملامحه فجأة، ونظر لي مبتسمًا، فضحكتُ. قال: المهم أنها أصبحت عادة.

عادة؟

فهز رأسه شارداً، ثم شرع، وبلا سابق إنذار، يغني أغنية طربية قديمة جداً، لم أكن أعرف كلماتها، ولم أسمعها من قبل، وأغمض عينيه شجناً فيما راح يهز رأسه بشكل يتناسب مع الإيقاع الخاص بالأغنية، فانخرست تماما حتى انتهى.

بعد جلسات عديدة جمعتني وطارق الزجاج، اكتشفت أنه منذ طرق رأسه الزجاج أول مرة انتابته حالة من الشرود. "لا أكتشف شرودي إلا حين أطرق باباً زجاجياً"، قال.

وهكذا ظلت حياته بين الشرود وطرق الأبواب الزجاجية قدراً لا فكاك منه. لكنه بعد هيمنة المتكتم ورفاقه على مقادير كل شيء باسم سُلطة العيب والأخلاق والقانون، أصبح شروده مقيماً، وحواره مع ذاته لا ينتهي. أصدقاء مقربون منه كانوا يصادفونه في الطريق يتحدث إلى ذاته، بينما يكون قد راح في جدل خالص مع

نفسه حول كتاب سمع بمصادرته، يمصمص شفاهه مندهشا من فجر الفكرة.

منعوا "أفكار أساسية" لهيغل. تصور؟! من أصلا يمكن أن يقرأ هيغل من أتباع هذا الديكتاتور؟ حتى لو قرأوه فلن يفهموا شيئا. الشيء الوحيد الذي يفهمونه أن يقال لهم إن هذا كافر وملحد، كل الكُتَّاب والمفكرين والعلماء عندهم ملحدون، ولم يتوقفوا حتى، ولن يفعلوا ليتأملوا معنى كلمة "ملحد" وما تعنيه حقًا، وهكذا يبررون كسلهم العقلي والبقاء الأبدي في تخلفهم، بل وقد يزيد البعض ويتحول إلى مجرم وقاتل، لكن المتكتم سيبرر له جرائمه باسم الله، سيقول له إنه قتل كافرا زنديقا، وهذا عمل يذهب به إلى الجنّة. كلهم تخلّصوا من بشريتهم وأصبحوا أتباعًا للجهل والتخلف، باسم العيب والأخلاق التي لا يعرف أي منهم عنها شيئا.

في النهاية، وإزاء زيادة مساحة الواجهات الزجاجية، في أغلب الطرق التي اعتاد السير فيها، لم يجد "طارق الزجاج" مفرًّا من أن يهرب إلى مدينة الأنفاق بعد أن تورمت رأسه، وكاد أن يُجن حرفيًا.

والحقيقة أنني أنهكت تماما من محاولاتي لكبح ضحكي، الذي كان لايزال يعتمل في داخلي، وجدت نفسي ألقي بحمم القهقهة من جوفي، مصيبًا صديقي الجديد هنا المعروف باسم مطرقة الزجاج بعدوى الضحك.

حينما أخبرت سدنم عن قصته أسميته لها "مطرقة الزجاج"، وجدتها تبتسم مأخوذة، ثم قلبت حاجبيها فجأة وسألتني: "بس اسم مطرقة الزجاج ده مش دقيق على فكرة؟". "عفوا؟ مش فاهم "هوا

ده إسمه يعني؟ ولا مين اللي سماه الاسم الغريب ده؟" "لا ما اعرفش اسمه الصراحة، أنا سميته كده لما سمعت حكايته"، "بس الحقيقة ما تقدرش تقول عليه مطرقة. "لا يطرق الزجاج؟ بعد كل اللي حكيتهولك؟" "أنا شايفه إنه مش بيطرق الزجاج، هوا الحقيقة بيخبط الإزاز براسه.. بينقره يعني "بينقره؟" "أيوه طبعا، يعني الاسم المناسب ليه هوا نقّار الإزاز

فغرت فمي وأنا أتأمل ملامح وجهها للحظات، فحدّقتْ في عيني بثبات، ثم بوغتنا بتفجر موجات الضحك من أعماق كل منّا في اللحظة نفسها تقريبًا. وهكذا عاودتنا هيستيرية الضحك مرة أخرى"

15

انظروا البؤس الذي أرى الآن مثلاً: قرصان من الصومال. كيف تسلل وعصابته من البحر الأحمر إلى هنا في البحر المتوسط؟ كان نطاق نفوذهم هناك قرب شواطئ بلادهم، قريبًا من خليج عدن أو بحر العرب. فكيف نفذوا إلى هنا؟ هل هي مافيا دولية؟! هل توفر الحماية لمثل هؤلاء القراصنة قوى أخرى لها مصالح ينفذها لهم القراصنة كواجهة؟ والأهم من هذا كله، بالنسبة لي على الأقل: هل هذا الرجل العجوز رث الملابس هو قرصان حقيقي؟

سُحقًا لك يا قرصان آخر الزمن! دعوني أقول لكم إذن أيها القراصنة الصوماليين إنكم لا تعلمون شيئا عن قراصنة البحار الأصليين. كيف تفهمون، مثلا، أنّ نصّابًا يُفضل سرقة المجوهرات لا يعتبر نفسه لصًّا، لأنه يفعل ذلك مرتديا ثياباً فاخرة، متقلّدًا خواتم بها فصوص ماس حقيقية، فيما يتأبط ذراع شابة فاتنة الجمال، يتركها ليأتي بالنقود من سيارة فارهة تنتظر في الخارج، لكنه لا يعود مرة أخرى. أما الفاتنة فسوف تهرب من المحل في اللحظة المناسبة، ببضاعة تقدر بعشرات الآلاف من الدولارات. هل فهمتم ما أقصد؟ هذا المثال لنصّابٍ معاصر حديث، قرصان

برّي لو صح التعبير، لكنه يستلهم روح القرصنة القديمة التي عرفتها البحار.

أقصد أن القرصان ليس مجرد لص عابر للبحار، بل هو فرد ممن أسماهم الفرعون مرنبتاح[1]، بـ "شعوب البحر"، بينما أسماهم آخرون بـ "أجانب البحر" القرصان سليل تراث يبدأ من حس عارم بالمغامرة، ومعرفة بالملاحة وقيادة السفن في أعتى الظروف. لهذا كان القرصان، في عصور القرصنة الذهبية، أشبه بأسطورة.

القرصنة في ذلك الزمن البعيد كانت فنًا خالصًا، تختلط فيه السيطرة على البحار بالسيطرة على المؤتمرين بأمر القرصان، يقسّم مغانم السفن الأخرى بينهم بالعدل، ليضمن ولاءهم جميعًا، وأخيراً السيطرة على السفن الأخرى التي تمثل أهداف القرصنة. ولعلني أعرف أن من قاموا بعمليات القرصنة كما تداولت الحكايات والكتب والأساطير؛ تنوعوا في قدراتهم وفي منهجهم وحتى في مصائرهم التي تراوحت بين القتل صلبًا، أو إعدامًا أمام الجماهير شنقًا، أو غير ذلك مما تعرضوا له حين بدأت مقاومتهم، لكن كانت هناك مناهج عدة في تنفيذ مهامهم.

دعونا نتخيل أن السفينة الصومالية بقرصانها المشعث هذا انطلق إلى بحر الظلمات ليواجه سفينة قرصان شهير من نجوم عصر القرصنة، كيف يمكن أن تكون مثل هذه المواجهة؟

"كان السيد مانويل، الشهير بلقب القرصان الأحمر يجلس في مقدمة سفينته الشراعية الضخمة التي وُصفت يوما بطارود البحر، بسبب عدد الأشرعة التي تعلو صواريها، وبسبب عدد البحارين الذين يعملون عليها، والذين يساعدون بالتجديف أيضًا في بعض الأحيان،

حيث اتسم الطارود بنحو اثني عشر ثقبا في جدار السطح وبالتوازي من الجانبين، لكي تمر منها المجاديف الأربعة والعشرون، بالغة الطول، التي يستخدمها البحارة عندما تأتيهم أوامر مانويل بزيادة السرعة لو لم تكن الرياح كافية لتسيير هذه السفينة الشراعية بالسرعة الواجبة.

وينظم عملهم القرصان الأحمر في نوبات عمل تجعلهم يتبادلون مواقعهم، بحيث يستمر انطلاق السفينة لتمخر في مياه بحر الظلمات بأسرع ما عرفته السفن الشراعية في ذلك العصر.

ليس معروفًا، على وجه اليقين، طبيعة ما انشغل به ذهن القرصان الأحمر في أصيل ذلك اليوم، الذي يمثل اليوم التاسع والسبعين للقرصان، وسفينته والبحّارة جميعًا، في عرض البحر الذي لم يروا فيها يابسة. وفي اليوم الثالث والثلاثين عقب انتهاء آخر عملية قرصنة قادها السيد مانويل، واكتفى فيها بعشرة صناديق تمتلئ بذهب الأرض، إضافة إلى حمولة إضافية من ذهب العصور الوسطى، ممثلا في التوابل، كانت في طريقها من الهند إلى بريطانيا العظمى.

لكنه كان جالسًا وحده في مقدمة الطارود، على كرسيه الخشبي الوثير، وقد أسند نظارته المقربة، ذات العدسة الوحيدة، التي تبدو كقرطاس معدني ضخم، إلى فخذيه. وبجواره على الأرض الخشبية قنينة معدنية يرتشف مما فيها، بين آن وآخر، رشفات طويلة. كان مساعدوه يحاولون التكهن بما يشغل ذهنه، لكن أحدًا منهم ما كان ليجرؤ على الاقتراب منه بلا إذن، إذا لم يكن هناك ما يبرر ذلك.

والحقيقة أنه لم يكن مشغولا بشيء مما قد يدور في خلد البحارة، أو مساعديه، لأن أحدًا لم يعرف شيئًا عن الهاجس الذي سيطر عليه منذ استيقظ صباح ذلك اليوم، بأنه سيفقد البصر في إحدى عينيه قريباً. كان الهاجس قد تمكن منه، حيث إنه انشغل به عما سواه. فقد تذكر أن أباه فقد البصر في عينه اليمنى، بلا مقدمات، عندما بلغ عامه الخامس والأربعين، وكانت تلك واقعة مدهشة، لأنها حدثت لأبيه أيضاً، جد مانويل، في العين اليمنى نفسها، وفي العمر ذاته، وبلا أي حوادث أو إصابات مباشرة.

لو أتيح لمانويل أن يعيش حتى يرى الجيل الثالث لأحفاده، لعرف أن المرض الذي يخشاه بعد أن أصاب والده وجده من قبله، سيُعرف عقب حقبة لافتة من التطور لعلوم الطب، بانفصال الشبكية، وأنه بالفعل قد ينتقل عبر الجينات بين أكثر من جيل، مع اختلاف وحيد لم يكن متاحاً لجيل مانويل ومن سبقه، يتجسد في قدرة الطب الحديث على إعادة لصق الشبكية، إما بضغط الهواء، وإما بالسليكون، واستعادة المريض لبصره.

لكنه في تلك اللحظة، حيث كان جالسًا يحدّق في الأفق، مستغرقًا في قانون الوراثة، فيما تلفح الرياح وجهه، لم يكن يعرف شيئًا عن مرض أبيه وجده. ولم يكن على يقين مما إذا ما كان سيرث المرض أم لا، رغم أن ما شككه في ذلك يعود لهذا العمى اللحظي، الذي داهمه في صباح ذلك اليوم، عندما استيقظ من النوم واستمر لدقائق.

وإذن، كان مانويل شاردًا واجمًا وذاهلا عمّا حوله، حيث بدأ يستعيد وعيه على صوت صُراخ رجل الصاري؛ الذي لمح سفينة شراعية تمخر باتجاه سفينة القرصان الأحمر.

نهض بحماس، وأمسك بنظارته المقربة ذات العين الواحدة، ونظر منها إلى حيث لمح إشارات رجل الصاري، وتأكد من صدق ما يقول. حاول أن يحدق ببصره أكثر عبر العدسة المقربة، ليلمح علامة أو إشارة يمكن له بها أن يحدد معرفته بالوافدين على مرمى البصر عبر سفينتهم؟ أهي تجارية يمكن أن تمثل له صيدًا جديدًا؟ أم أنها تخص واحدًا من القراصنة ممن كان العُرف يمنع عليه أن يترصدها.

انتظر القرصان طويلاً كعادته، مع رفعه حالة التأهب القصوى. المدفعان المختصان بإطلاق القنابل في ذروة تأهبهما. البحارة المقاتلون، بعضهم على السطح، والبعض في قمرات خاصة، يقفون بكامل حماسهم، على أهبة الاستعداد ببنادقهم وسيوفهم، ورجل الصاري يدوي صوته، لحظة بلحظة، واصفًا ما يراه من أمر السفينة المتجهة صوبهم.

رجال المجاديف الأربعة والعشرون قابعون في الأماكن المخصصة لهم، وبجوارهم يقف، وبتحفز، الأربعة وعشرون بحّارًا الاحتياطيون الذين يتسلمون مهامهم بعد فترة زمنية يحددها القبطان، في عملهم التبادلي. رجل الدفّة، والبحارة المسؤولون عن توجيه الأشرعة مترقبون في أماكنهم.

لاحت لرجل الصاري حركة مريبة في السفينة القادمة، أعلنها للقبطان الذي لم يتردد بعدها في إعطاء أوامره ببدء الحركة في دائرة تبدو في البداية كأنها فرار من تلك السفينة، ولكن بزيادة السرعة، وتعديل المسار إلى ما يشبه الدائرة، تتم مباغتتها ووضعها في نطاق السيطرة، وبدء إطلاق النار بلا توقف، حتى يعلنوا استسلامهم.

ولندع جانبًا تفاصيل المعركة، وقدرات رجال القرصان الأحمر، في المناورة والقتال، وإرسال الزوارق الصغيرة في الوقت المناسب، عندما يسود دخان القنابل المساحة التي تغطي السفينتين المتقاتلتين، وصولاً لاستسلام قرصان الصومال. نعم، لندع كل هذا جانباً الآن.

لنتوقف عند مشهد مثول القرصان الصومالي صاحب الشعر المشعث، والعينين القلقتين، حاسر الرأس، مقيدًا ومحاطًا باثنين من بحّارة القرصان الأحمر، الذي وقف يتأمل خصمه بنظرة تجمع التحدي والدهشة بلونٍ من الرثاء.

هذه الشفقة ليست وليدة غطرسة أو ادعاء، بل نتيجة خبرة واحد وثلاثين عامًا في البحار، منذ ترك مانويل أباه الفلاح الفقير، في قريتهم النائية، ليحقق حلمه بأن يكون بحارًا، يرتقي أعالي البحار ويطوف الشواطئ ليرى العالم. قضى منها ستة وعشرين عامًا، بحّارا، يطيع الأوامر، ويتعلم حياة الصيد، حيث بدأ حياته في قوارب للصيادين قبل الانتقال إلى العمل في سفينة ضخمة، ليعمل على متنها.

لكنه تعلم أيضا من أبيه، الفلاح الذي رآه لآخر مرة وهو في الخمسين من عمره بعين كفيفة، وأخرى تكفيه للعمل في تقطيع أشجار الغابات، بمساعدة شقيقين يصغرانه عمرًا، أن العدل قوام هذه الحياة، أن الحرية فن السيطرة على الذات، والإحساس بالمسؤولية عن توازن رغباتك من دون أن تمس حرية الآخرين.

هذا الدرس الذي استقر بعيدًا في وجدانه، جعله دائمًا شديد التحسس تجاه كل ما يشعر بأنه يمس كرامته، أو يتعرض لحريته،

أو يتنافى مع العدل. وبسبب طغيان قبطان مارس كل ألوان الإساءة إليه وزملائه البحارة، على مدى عامين كاملين، اعتزم، بعد ليلتين قضاهما بلا نوم، أن يثور على القبطان، لكن ذلك لم يكن من منطلق الجشع أو البحث عن الغنائم، بل من أجل العدل.

لأجل العدل بات مانويل أسابيع طويلة يفكر في إحساسه بالإهانة، ولم يستخدم كلمة الإذلال، ويستعيد مشاهد الظلم والتعسف التي مر بها زملاء له على السفينة، ثم بدأ يناقش ما يفكر فيه مع من يثق فيه منهم، ويطرح أفكاره حول الثورة، ويجد له أنصارًا مؤيدين، وجبناء يقبلون بالقهر خوفًا من تعرضهم للقتل إذا تمردوا على قائدهم. وفي النهاية أعد خطته بدقة. استعان بكل أصدقائه الذين أحسّوا بالقهر والظلم من ممارسات بشعة مارسها القبطان في حقهم، وبنَفَسٍ طويل استخدم كل ما يمكنه من سُبلٍ لزعزعة ثقة القبطان بمساعديه المقربين، وتمكن بمرور الوقت من أن يحظى بالتأييد من عدد كبير من البحّارة، حتى أحس ذات ليلة أن أنصاره قادرون على قلب كف ميزان أي معركة لصالحه، لو لم يكن له مفر من خوضها، وقد كان.

وبالعدل الذي ثار لأجله أقر مبادئ جديدة، اقتضت تحديد الأهداف التي يمكن أن تتم قرصنتها، من سفن دول معادية، تجارية، أو مداهمة القراصنة الذين يقرصنون سفنًا تابعة لحكومات بلادهم، ووضع حصّة لتقسيم ما يحصلون عليه وفقًا لدرجات ترتيبهم البحري، وتقسيم نصف ما يحصل عليه هو شخصيا بين أكثر البحارة وعمال السفينة فقرًا واحتياجًا، مما جعله بين ليلة وضحاها ليس مجرد قرصان آخر، بل أصبح زعيمًا ومثالا أعلى لنموذج العدل.

لهذا، فحين نظر القرصان الأحمر لنظيره الصومالي تلك النظرة، لم يكن يفتعل شيئًا بقدر ما كان قد تأمل القرصان الصومالي، وأدرك أنه اختار النهب مسلكًا للحصول على ثروات خيالية، أصبحت في بلاده، كما شاع، مصدرًا لاهتمام الفتيات الحسناوات الفقيرات اللائي يبحثن عمن ينتشلهن من بؤس الحال، ومن الجوع، ممن وجدن في القراصنة الجدد حلا ناجعًا لمشكلاتهن التي باتت مآسٍ قدرية لا تنتهي.

القرصان الأحمر تعمّد أن يظهر رثاءه لخصمه، الذي اختار أن يغتصب ما ليس له بكل السبل، يقوده جشعه الأعمى لنهب أموال غيره وممتلكاتهم، وليرضي أطماعه في فتيات لم يكن ليمتلك ما يؤهله لرفقتهن والاستمتاع بحسنهن إلا أن يغدو من أصحاب الثروة بأي وسيلة.

على أي حال، فكل ما سبق مجرد حكاية من وحي خيالي. حلم يقظة يخص رواية ملقاة في عرض البحر. أما الواقع الذي أوقف انسيال أفكاري، فقد ظهر فيه القرصان الصومالي فجأة، وهو يقود فريقًا من الفتيان الناحلين، سُمر البشرة، ممن يبدو على ملامحهم الجوع والشره، ليعيثوا نهبا وفسادا في السفينة، وليحصلوا على كل ما يتمكنون من طعام أو أغراض. ومما يؤسف له أنني وجدت نفسي، بغتة، بين يد صبي من صبيان القبطان، انتشلني وتأملني للحظات، ولا أتخيل أنه قد يكون فهم شيئًا مما تصفحه. وكنت أتمنى أن يلقي بي في أي لحظة، لكنه لم يفعل، وأمسك بي، وقفز خارجًا من الغرفة التي أخلاها زميل له من كل ما حوت من أغراض قاسم.

16

وصل بي الشاب الصومالي إلى القرصان، وألفيت نفسي بين يديه. تأملني باحتقار، من عينين ضيقتين سوداوين سوادًا اختلط بشحوب رمادي، بفعل السنوات وبوادر أمراض العيون، وبينها المياه البيضاء. تمنيت ألا يكون من أصحاب القدرات الخارقة التي تمكنه من استقراء ما دار في خلدي قبل قليل. لا بأس. فقد كان الوضع عادلا بالنسبة لي.. احتقار متبادل.

قلّب صفحاتي كمن يبحث عن سرٍّ مخفي، وهو ينفضني، ويضع يده في موضع ثنيات الورق، وبعنف عاد ليهزني عدّة مرات، حتى أحسست بأنني سأتمزق في أي لحظة، وأُصبح نثارًا من ورقٍ بال. لكنه، في النهاية، ولحسن الحظ، هز رأسه قرفًا ويأسًا، ولعله تذكر أنّها المرة الثانية التي أقع فيها بين يديه، فاستشاط به الغضب، وألقى بي عاليًا، فوجدتني أطير في فضاء السفينة لا أسيطر على نفسي حتى خشيت أن يكون مصيري الغرق في مياه البحر. لكني لحسن الحظ وقعت قريبًا منه، بعد أن ارتطمت بالسور الخشبي. ولكن أحدًا لم يتحرك نحوي أو يلقي إليَّ بالاً.

عاودتني مشاعر الرهبة، التي انتابتني عندما قفز رشيد من

القارب، تاركًا إياي لمصيري، قبل أيام، إلا أنني وبعد انصراف الجميع وجدتُ شابًا صوماليًا يافعًا، رغم البؤس الذي وسمته به أيام البحر والقرصنة والمخاطر وكثرة العمل، يرتدي بنطالا أسود باليًا، تكلّح لونه حتى أصبح رماديًا، يقترب مني في حذر ووجل. أمسك بي وطواني، ثم وضعني أسفل إبطه، ثم تابع الخطو بحذر وهو يتلفت حوله كأنه يتأكد من أن أحدًا لا يراقبه.

انتقل الشاب من سفينتنا إلى أخرى أكبر حجمًا، لكنها كانت ممتلئة بشباب لهم تقريبًا نفس هيئته، أخذ يتبادل معهم المرح والقفشات الضاحكة، فيبادلونه الضحك، وربما السخرية؛ لأنهم كانوا يصحبون كلماتهم بإشارات مبتذلة.

انطلق إلى سلّم معدني هبط درجاته بسرعة، ليصل إلى ردهة طويلة تنتهي ببابٍ وقف أمامه فتى أسمر حليق الوجه، ذو جسد رياضي. عندما رأى الشاب الذي يمسك بي نظر إليه متسائلا عما يريد، فهز رأسه باتجاه الباب ولم يقل شيئًا. أدار حارس الباب مفتاحًا، كان قد أخرجه من جيبه.

دخل الشاب الأسمر ووجدت نفسي معه في قُمرةٍ صغيرة خالية من أي شيء. وفي زاوية من زواياها كان قاسم جالسًا على الأرض، وعلى وجهه ملامح الفزع. لكن الفتى حينما رآه رفع يده عاليا ممسكاً بي، فقفز قاسم ناهضًا وعلى ملامحه علامات السعادة، ثم خلع ساعته ومد بها يده إلى الفتى الذي تناولها منه بحبور، وأخذ يتأملها قليلاً، ثم دسّها في جيبه وخرج من دون أن ينطق بكلمة.

تلقفني قاسم كمن يتلقى سر نجاته، وشرع يقلّب صفحاتي، كأنه يستعيد كنزًا فقد الأمل في أن يجده. وربما ليتأكد من اكتمال أوراقي،

تفحصني كمن يتأكد خلوي من تلفٍ أو تمزق. وحين خرج الفتى أخذ قاسم يجري بعينيه على سطوري، حتى وقع على الصفحات التي أراد أن يعود لقراءتها:

"عندما قالت لي سديم إن الاسم الأنسب للشخص الذي حكيت لها عنه (نقّار الإزاز)، وبعد فاصل الضحك، أطرقتُ صامتا للحظات. وأعدت تكرار الاسم مرتين همسا، وأعجبتني الفكرة. تخيلته وهو ينقر الزجاج برأسه فضحكت، وعاودنا الضحك، ويبدو أن الضحك كان يستدعي لذهن كل منا المشهد الروائي، الذي توقف كل منا عنده في رواية دون كيخوت.

وهكذا لم يكن أمام أيٍ منا سوى التوقف عن النسخ لفترة. والنتيجة أن تقريرًا شديد اللهجة رُفع ضد كل منا إلى كبير النسّاخين يتهمنا بالتقصير في نسخ الكتاب، والتراخي في أداء المهام التي كُلّفنا بها، ويقترح أن يتم فصلنا من فريق النساخ. و لم أستوعب كيف أمكن لسعيد خاطر، الذي كان صديقا مقربا أن يفعل ذلك.

أصابنا الوجوم، فلم نكن قد انتقلنا من مدينة الأنفاق إلى مدينة النساخ بعد، وهو ما كان يعني أننا لن ننضم إلى فريق النساخ المحترفين الذين يتولون تنفيذ مشروع الكاتب الشبح لإعادة تكوين ما يسميه مكتبة العالم. وبالرغم من ذلك، وبعد أن توسلت إلى طارق لكي يذهب إلى سعيد ويوضح له الأمر، لكي يتوسط لنا لدى الكاتب الشبح، ليمنحنا فرصة أخرى، فإننا وفور الاطمئنان إلى أننا عدنا إلى مملكة النساخين، وعاد كل منا إلى عمله اكتشفنا أن شيئا لم

يعد قادراً على توقفنا عن الضحك. تحولنا إلى مسخرة حقيقية وفي النهاية اقترحت سديم أن نحتكم إلى "نقّار الزجاج"

عندما التقيناه طلب من كل منا أن يذكر النص الذي يضحكه بدأت سديم فسردت جزءا من نص دون كيخوت حيث توقفت:

"أثناء تفكيره في هذه الترهات، وصل الوقت وحانت ساعة (بالنسبة له كانت ساعة نحس) وصول الأستورية، والتي دخلت الغرفة ذات السكان الثلاثة، بحثا عن البغّال، بخطوات رقيقة حذرة الكياسة، في قميص، حافية القدمين، وقد جمعت شعرها داخل شبكة من خيوط القطن. ولم تكد تتجاوز إلى الداخل الباب، حتى أحس دون كيخوت بها، جالسا على السرير بالرغم من المراهم والألم المرير الذي يجتاح ضلوعه، مد يديه لاستقبال فتاته الحسناء. والأستورية في مواجهة هذا الترحيب صامتة بذراعيها مفتوحتين بحثا عن حبيبها البغّال، وقعت يداها مصادفة في يدي دون كيخوت، والذي قبض على معصمها بقوة، وجرّها إليه، دون أن تجسر على فتح فمها بكلمة، وأجلسها على السرير وهنا لمس القميص الذي رآه أرق من الحرير، وهو من الخيش، وفي معاصمها كانت بعض الغوايش من الزجاج وحسبها من جواهر الشرق ولؤلئه. والشَعر الذي بطريقة ما يحاكي عُرْف الفرس تراءى له خيوطا براقة لامعة من جزيرة العرب، شعاعها يطفئ أشعة الشمس. أما أنفاسها التي كانت دون شك لها رائحة (السلطة الباردة البايتة) فقد فاح لأنفه من فمها عبقريًا ناعمًا وعطريًا، وأخيرا فإنه رسمها في خياله في نفس الصورة التي قرأها في كتبه عن أميرة أخرى جاءت لرؤية الفارس الجريح مدفوعة بحبها، وقد تزينت بكل ما رآه في الأستورية. وكم كان أعمى فارسنا

المسكين، حتى أن لا اللمس ولا النفس ولا أشياء اخرى لصيقة بذات الشابة الطيبة الأصل، وصلت إلى إحباطه، مع أنها أشياء مما يدفع لتقيؤ أي شخص آخر ما لم يكن بغالاً "(2)

هنا قاطعها "نقار الزجاج" مغمض العينين، قائلا: "هل هنا موقع الضحك؟"

تأملته سديم للحظات، وكانت قد بوغتت من مقاطعته لأنها استغرقت في القراءة بأداء تمثيلي، لوّنت فيه صوتها بما يتناسب وإيقاع الحكي، وبنبرات تناسب الأجزاء الحوارية، لكنها تمالكت نفسها وابتسمت، ثم قالت: "الحقيقة لا، ولكني لا يمكن أن أصل إلى الفقرة التي تضحكني مس دون التمهيد حتى تفهم أصل الموضوع"

تأملها "نقّار الزجاج" للحظات، ثم أغمض عينيه وهو يتصنع الجديّة، ويطلب منها هازاً رأسه هزات متتابعة لحوحة أن تستمر وظل مغمضاً عينيه مُصرّاً على التركيز في ما ستقول. رمقته سديم وظلت صامتة، وعندما أدرك أن صمتها موجه إليه زاد من عناده، وأطال إغماض عينيه متبتلا، كأنه ينتظر هبوط الوحي، وكان ذلك كفيلا بتفجير الضحك، مرة أخرى، لولا الخوف من رد فعل "نقار الزجاج" "فتنحنحت سديم"، ثم عاودت القراءة بصوت بدأ مختلجا مرتعشا بفعل مقاومتها للرغبة الدفينة في الضحك:

"كانت ماريتورنس في كرب شديد، يتصبب منها العرق، وقد رأت نفسها في قبضة دون كيخوت دون أن تفهم أو تتنبه لما يقول من عبارات، وكانت تحاول دون أن تنطق بكلمة الفكاك من قبضته. الطيب في سلوك البغّال والذي أيقظ دخول عشيقته رغباته السوداوية عندما أحس بها عند عبورها الباب، أنه مضى يسمع ما استطاع كل

ما كان يقوله دون كيخوت. وفي غيرة من أن الأستورية لم تفه لـــه بكلمتها، أخذ يقترب من سرير دون كيخوت، وبقي شاخصًا، حتى يرى ما سوف تنتهي إليه هذه العبارات، التي لم يستطع فهمها، لكن عندما رأى الشابة تناضل للفكاك منه، وأن دون كيخـــوت يجهـــد لإلقائها بدا له أنها دعابة أقرب إلى الشَرَك والخدعة. رفع يده وهوى بها بقبضته على الفك الشحيح للفارس العاشق، فاستحم فمه في الدم.

ولم يكتف بهذا فقفز فوق ضلوعه، وأخذ يتمشى رمحا من رأسه إلى قدميه، ومن قدميه إلى رأسه. والسرير الذي كان ضعيفا بعـــض الشيء وليس له أساس ثابت، لم يستطع أن يتحمل الحمل الإضـــافي للبغال، فتساقط مكوّما فوق الأرض، مُحدثا ضجة أيقظت صـــاحب النُزل، الذي أدرك في الحال أن السبب هو السعي الليلي لماريتورنس، لأنه نادى عليها عاليًا ولم يكن من مجيب. ومع هذه الريبة، نهـــض، وأشعل قنديلا، وذهب إلى حيث أحس بالتعارك. وعند رؤية الشابة أن سيدها قادم، وأن الظروف بالغة السوء، انكمشت داخل فـــراش سانشو بانثا فزعة مضطربة. وهذا كان حتى تلك اللحظـــة يغـــط في النوم، وملتصقة به تكومت وتكورت. دخل صاحب النـــزل قائلا:

أين أنت أيتها العاهرة؟ إني واثق أن ذلك من صنائعك.

عند هذا استيقظ سانشو، وأحس بتلك الكرة تعلـــوه تقريبًـــا، وظن أنه يمر بكابوس، فأخذ يحرك يديه بلكمات في كل جهة، وبين بعض تلك الأهداف التي بلغتها لكماته أصاب مـــاريتورنس لا أدري بكم منها، ومتأثرة بالألم، ومدفوعة باصطناع الشرف كالت لسانشو رد ضرباته مضاعفة، فسرقت بالإكراه النوم من عينيه، وعنـــدما رأى أنه يُعامَل بهذه الطريقة ودون أن يعرف ممّن، فلم يملـــك إلا محاولـــة

النهوض بقدر ما استطاع، وهنا وجد نفسه وماريتورنس في حالة احتضان، وبدأ الاثنان يتناوشان مناوشة هي الأفكه والأكثر تحدّيا في الدُنيا. وعلى ضوء قنديل صاحب النُزُل الذي أهل رأي البغال ماذا يجري لعشيقته، فهرع لتقديم النجدة الواجبة تاركا دون كيخوت. ونفس الشيء صنعه صاحب النـزُل، لكن مع اختلاف في القصد والنية، لأنه هرع لعقاب الشابة، لاعتقاده أنها وحدها كانت سبب كل هذا التناغم والانسجام. وهكذا كما يقال "القط وراء الفأر، والفأر وراء الحبل، والحبل وراء النبوت"، فقد أخذ البغال يلاطم سانشو بضرباته، وسانشو يلاطم الشابة، والشابة تلاطمه، والفندقي يضرب الشابة، والجميع مسرف في أداء مهامه في سرعة خاطفة، فلم يمنحوا أنفسهم لحظة راحة أو سكون، وجاء الخبر عندما انطفأ قنديل صاحب النُزل، وكما سادهم الظلام تبادلوا في ما بينهم اللطمات دون شفقة، والجميع يضرب (عمياني)، وكانوا حيث تسقط أيديهم لا يتركون شيئا سليما" (3)

رفعت سديم صوتها بالجملة الأخيرة، وكانت جالسة على الأرض في إحدى عربات المترو، انقلبت على قفاها، وراحت "تشخر بقوة من أثر محاولاتها لكتم ضحكاتها، فانفجرت قهقهاتها، وانتقلت عدواها إلينا أنا و"نقار الزجاج"، فأخذنا نضحك أنا وإياه، بلا توقف، كذئبين قررا اختبار لحن جديد للعواء المشترك. هكذا رحنا نعوي ضحكا حتى توقف نقار الزجاج محمر الوجه، والعِرق النافر في أعلى رأسه الصلعاء تبدو فيه نبضات الدماء، ونهض متجهًا إلى بوابة العربة ثم جلس ودلّى قدميه، وقال بثبات:

– اقرأ أنت الآن.

ولم يكن أمامي مفر، فتمالكت نفسي، وشرعت أقرأ:

"لم يترك دون كيخوت الخبز ينضج في الفرن، كما تعوّدوا القول، قبل أن يسمع ويعرف العجائب الموعودة من سائق الأسلحة. ذهب للبحث عنه حيث قال له الفندقي إنه موجود، فوجده وقال له إن عليه أن يقول في الحال ما كان عليه قوله بعد، حول ما سأله عنه في الطريق. أجابه الرجل:

بالراحة قليلا، دعني فخامتكم، أيها السيد الطيب، من الانتهاء من بث رسالة إلى دابتي، ومن ثم أقول لك أشياء تدهشك"

قال دون كيخوت:

لا تتأخر. من أجل ذلك سأساعدك في كل شيء.(4)

خرستُ للحظات، لأتأمل وجه نقار الزجاج، ووجدته يغمض عينيه وينصت باهتمام، ثم تركت جزءًا من السرد قاصدًا الفقرة التي كنت أعتبرها خفيفة الظل، ومضحكة بشكل لا يقاوم، ثم استطردت:

"باختصار، النائبان على أقدامهما ذهبا إلى الجبل، ووصلا إلى المكان والموقع الذي اعتقدا العثور على الحمار به، لكنه لم يظهر في المكان وكل ما حوله مهما بالغا في البحث عنه. وعند رؤيتهما أنه لا يظهر قال النائب الذي سبق له رؤيته للنائب الآخر: "انظر، أيها الزميل، لقد وردت فكرة على بالي، وبها دون أدنى شك، سنكتشف هذا الحيوان حتى لو كان موجودًا في أحشاء الأرض، وليس فحسب الجبل، فأنا أعرف أن أنهق بشكلٍ عجيب، وإذا فخامتكم تعرف النهيق بعض الشيء فلنسمع غنائك" قال الآخر: "أعرف التنهيق

تقول يا زميل؟ بحق الله، فإنني لا أسمح لأحد أن يتفوق عليّ في هذا ولو للحمير نفسها. أجاب الثاني: "الآن سوف نرى، لأنني عزمت على أن تذهب لناحية من الجبل، وأذهب أنا إلى الناحية الأخرى حتى نحاصره ونسعى إليه معًا، ومن لحظة لأخرى تنهق فخامتكم، وسأنهق أنا ولا سبيل أمام الحمار إلا الاستماع إلينا والجواب على نهيقنا، هذا إذا كان في هذا الجبل (5)

وهنا ضاع صوتي قليلا واختلج إزاء بدء إحساسي بتكون لغم خفي من الضحك ينبعث من أعماقي، وأشعر أنه سينفجر في لحظة. اختلست النظر إلى نقار الزجاج فوجدته ينظر إليّ بتوفز غاضب، لكني شعرت للحظة أنه غضب مصطنع، وهنا انفجرت ضاحكا.

بدا "نقار الزجاج" متوفزا وهو يحاول أن يتماسك. وبدا لي أنه مدرك تماما، لأنه إذا ما استسلم لرغبته في الضحك فسوف يتحول الأمر كله إلى كارثة حقيقية، وسوف يصبح ثالثنا الذي يقع أسرى كريزة الضحك المعدية التي قد تحول مشروع النسخ كله إلى فكرة عبثية إذا كبرت كرة الضحك كثيراً وخرجت عن السيطرة. لذلك فقد بدأ يسعل بهيستيريا، واستمر في ذلك حتى ناوشني الإحساس بالقلق. فقد بدا الأمر بعد قليل أشبه بأزمة ربو تعرض لها الرجل بغتة، إذ احمر وجهه وانتفخت أوداجه ونفرت عروق في جبينه حتى أشفقت عليه.

وبعد فترة من السعال المتواصل، والقلق، وضيق التنفس، والبحث المشترك بيني وبين سديم عن زجاجة مياه، ليكرع منها ما

يتجاوز به هذه الأزمة، عاد لطبيعته فجأة وبدأ يتنفس بشكل طبيعي، ثم أغلق عينيه، وبصوت متحشرج قال:

استمر

وقبل أن أرد عليه بشيء، كان قد جلس على الأرض مُسندًا ظهره إلى جدار، وأشار لي بيده أن أستمر بطريقة أوحت بقوله: لا تتهرب من واجبك أو تتباطأ في القراءة، وهكذا لم يكن أمامي سوى العودة للقراءة:

"وعلى هذا أجاب صاحب الحمار: أقول يا أبا الزُمُل إن الفكرة حيلة ممتازة تليق بعبقريتك" وهكذا افترق الاثنان وانقسما، طبقا للاتفاق، وحدث تقريبا أن أخذا في النهيق في الوقت نفسه، وكل واحد، تحت خداع نهيق الآخر، هرع يبحث عن زميله ظانا أنه الحمار وقد ظهر، وعندما اصطدما أحدهما بالآخر قال فاقد الحمار: "هل من الممكن أبا الزمل، أن من كان ينهق لم يكن حماري؟" أجاب الآخر: " لم يكن إلا أنا" قال صاحب الحمار: "والآن أقول يا أبا الزُمل، إنه لا يوجد بينك وبين الحمار أي فرق، في ما يتعلق بالنهيق، لأني طوال حياتي لم أر شيئا بهذه الأصالة. أجاب صاحب الحيلة: "هذا الثناء والإعلاء من شأني ينطبق عليك أكثر مني، يا أبا الزُمل، فبحق الله آمنت أنكم قادرون على تسجيل نهقتين أكثر من أي ناهق خبير في العالم، بما تكسب المباراة لأنك تمتلك صوتا عاليا وقرار الصوت في تواقت وإيقاع ودقات اللهجة غزيرة ومتسارعة، وباختصار أعلن هزيمتي واستسلامي وأسلمكم علم هذه المقدرة النادرة والكفاءة" (6)

عند هذه النقطة رفعت يدي وأنا أعود بظهري للخلف، موضحا عدم قدرتي على استكمال القراءة، فما كان من "نقار

الزجاج" إلا أن ابتسم ساخراً، ثم طلب من كل منا أن يقوم بنسخ الفقرة التي تضحك الآخر، ويستمر عملنا بهدوء، ثم تركنا وخرج من العربة، وبعد خروجه بلحظات تناهى إلى سمعنا صوت عواء رهيب، أقرب ما يكون لضحك الذئاب إذا ضحكوا، وسرعان ما راح صدى ضحكة الذئب يتردد في أرجاء النفق.

17

كنت بدوري سعيدة لأنني عدت إلى يدي قاسم، رغم استمرار عدم استيعابي لما يدور من حولي، خصوصا أنني فوجئت بوجود قاسم وحيدًا، فأين القبطان؟ هل نقلوا قاسم وحده إلى هذه السفينة وأبقوا الآخرين في سفينتهم؟ ولماذا؟

راح قاسم يتمتم: "إنت فين يا رشيد؟"، ثم يكرر: "يا ريت تقدر تثبت لغاية لما أوصل لك".

شعرت بالفزع فور أن بدأ يتمتم بهذه الكلمات، بنفس القدر الذي شعرت به بالأمان وقت أن تلقفتني يداه من بين يدي الفتى الصومالي الذي حملني إليه.

ترى أين ذهب رشيد إذن؟ أليست كلمات قاسم هذه تقول إنه يعرف مكانه بالفعل؟ لكن أين؟ كان يمر بمرحلة من عدم الاستقرار في الفترة التي سبقت اختفاءه.

احتفظ بعدد من الأوراق التي كان يتصفحها بين آن وآخر. ولم تكن مجرد أوراقا عادية، أظنها تلك المخطوطات التي كان مهتما بها، ربما لأن محتواها له قيمة خاصة، أو لأنها تمثل له ذكرى معينة، أو لأسباب أخرى لا أعرفها. احتفظ بها في دولاب خشبي صغير يقع في

ركن من أركان غرفة مكتبه. وكان حريصا، كلما رغب أن يطالعها، على تنظيف مكتبه وإخلائه تماما، قبل أن يتوجه لدولاب الثياب ليُخرجها بحذر من درج سفلي مغلق بمفتاح. يمسك بها بإحكام وحرص ورقّة. يضعها على المكتب، وعندما يقلب ورقة منها فإنه يفعل ذلك ببطء وحذر شديدين. وأحيانا كان يضيء الأباجورة التي تتوسط المكتب، ويضع تلك الأوراق أمامه ويستغرق في قراءتها لوقت طويل.

في تلك الفترة توقف عن كتابة ذكرياته، أو يومياته، التي أعتقد أنها كانت البذرة الأولى لفكرة كتابة رواية في وقت لاحق. لم تكن اليوميات التي يكتبها مجرد سرد لأحداث يومية مما يمر به، أو وصف لمحطات حياته التي تعددت وتنوعت بين القاهرة والإمارات وألمانيا وإندونيسيا، وغيرها، بل كانت تتعلق أيضاً بأفكاره عن الحياة، وعن شكوكه حول كل شيء.

في الفترة التي كان قد بدأ يحولني فيها إلى نصٍ روائي، كثيراً ما كان يعود لتلك اليوميات، ويقتطف منها بعض الأفكار والتعليقات، وبينها تلك المتعلقة بأفكاره عن السلام الداخلي، وعن المعتقدات الدينية عقب زيارته عدداً من المعابد البوذية. وقراءته عن البوذية، واستماعه لبعض رهبان معابدها.

من بين ما دونه، عبر اليوميات، تفاصيل الفترة التي تديّن فيها خلال وجوده في ألمانيا، بعد أن التقى مجموعة من المصريين المقيمين هناك، والذين تعرف عليهم بالصدفة في أحد المقاهي، ومن الأحاديث العادية عن الحياة في ألمانيا والمصاعب والمزايا، تطورت النقاشات إلى الأتراك والمسلمين في ألمانيا، ومن المذاهب والتصوف إلى الفقه، وبعد أكثر من لقاء، تطور السجال والنقاش ومساحات

الاتفاق والجدل، وأخيرا وافق على دعوتهم له إلى مسجد بعينه، فقالوا إن خطيبه لديه أفكار عظيمة حول الأمور التي يناقشونها. كما زودوه ببعض كتب الفقه الإسلامي. وجد في الكثير من أفكار الكتب الفقهية ما لبى إحساسا باطنيا استباقيا بأن الدين يتضمن حلا لمشاكل عديدة، لكن لم يكن الأمر مجرد فكرة التدين.

كتب لاحقا بين سطوري ما لا أزال أذكره:

"هذه الرحلة التي لا أعرف أين ستنتهي، أو إلام ستقودني. هذان الشابان اللذان عرّفاني إلى مسجد الحي، شخصان بسيطان، وأنا أكن لهما الكثير من المودة وربما المحبة، لكن التناقضات التي يعيشانها تكاد لا تصدق. أحدهما يفتخر اليوم بأنه يمتلك علامة صلاة في منتصف رأسه، ويحرص، مهما كانت قسوة الجو أن يصلي في المسجد. متزوج من امرأة مصرية محجبة ويرفض أن تأتي إلى ألمانيا، ومع ذلك فهو لا يمانع من أن يتزوج من امرأة أخرى وأجنبية لأجل الحصول على الجنسية الألمانية. وهذا ما يسعى له فعلاً، ولا يشعر بالحرج، بل بالعكس فهو يرى أن الشرع يسمح له بذلك! ماذا عن النفاق؟ عن الكذب؟ وسيد، سائق المطعم. بعد حياة صاخبة ماجنة سعيد بأنه أصبح ملتزمًا، وأنه يصلي الفروض في المسجد. والتوقف عن الشراب.. لماذا؟".

في مرحلة أخرى من تلك اليوميات، نقل رشيد حوارًا دار بينه وبين أحد أصدقائه الألمان، وهو يان، الذي عرَّفته يوديت عليه باعتباره صديقها القديم.

يان أوضح لرشيد أن هناك حالة من الرعب التي انتابت الكثير من الألمان من المسلمين الأتراك والعرب، بعد أحداث الحادي عشر

من سبتمبر، بعد أن تبيّن أن أحد الذين هاجموا البرجين من المسلمين عاش ودرس في ألمانيا.

قال يان: "لي أصدقاء عرب كثيرون وأتراك أيضا، وغالبيتهم يشعرون بعدم الارتياح. يقولون لي إنهم لا يشعرون بنفس إحساسهم بالاندماج في المجتمع كما كان عليه الأمر قبل 11 سبتمبر. أعتقد أن ظاهرة تديّن الكثير منهم له علاقة بذلك. أظنه ردّ فعل على المجتمع الألماني، أو دفاعا عن هويتهم التي يرون أنها ليست هوية قتلة كما يتصور الكثيرون هنا الآن".

عندما أدرك رشيد هذه الأزمة، بدأ يراقب سلوكهم بدقة، ويسألهم في الكثير من الأمور الفقهية والتفاصيل. أدرك أن تديّنهم مجرد تديّن شكلي، بلا عمق أو استيعاب حقيقي لجوهر الفكرة الروحية، أو معنى فكرة الأديان، أو حتى المجاهدة الروحية لاستيعاب معنى الكون وجوهر الوجود، تنبه إلى أن ما يفعلونه مجرد لون من ألوان التدين الموروث، يتشبثون به، وبمظاهره الشكلية وطقوسه، من دون أي اهتمام بأسئلة كبيرة أو تفاصيل معمقة. كانت أيضا وسيلة يواجهون بها إحساسهم بعنصرية مضمرة، ويلتاذون بجماعة يشعرون بالانتماء إليها، وبنوع من القوة التي يشعرون بأنهم يفقدونها في مواجهة المجتمع الألماني كأفراد. وتدريجيا، قلّ من خروجه معهم، وبدأ يعكف على قراءة متأنية في الفقه والتاريخ الإسلامي.

فجأة شعرتُ بأن المكان يهتز، أو بالأحرى يرتج بنا بعنف. انتفض قاسم واقفاً، لكنه لم يكن قادرًا على الاحتفاظ بتوازنه. أصبحت السفينة مثل لعبة من ألعاب الملاهي، بينما أنا وقاسم في هذه الغرفة الصغيرة نقفز كأننا لعبتان صغيرتان تتلاعب بنا أشباح غير مرئية.

من خارج الغرفة تتاهت لقاسم أصوات صاخبة وضجة. وبالتدريج أدرك أن العاصفة التي حدثه القبطان عنها في الصباح داهمت السفينة. بدأ قاسم يفقد أعصابه ويعلو صراخه مع فقدانه الكامل للسيطرة على حركة جسده. ولم يكن هناك شيء ثابت في الغرفة يمكنه أن يتشبث به ليحتفظ بتوازنه. لم يكن هناك سوى الجنون. جنون الصخب والذعر، وعصف الريح.

18

وضعني قاسم في داخل قميصه كالعادة، وتنفستُ الصعداء، فعلى الأقل سأكون محمية الآن من تلك العصابة الغامضة، ومع ذلك فإنني كنت بدأت أشعر بالهلع. هل سيمكن لقاسم أن ينجو هذه المرة، وأن أنجو معه؟ تمنيت حقا أن أمتلك الآن صوتا لكي أصرخ به. أصرخ بما هو مدون في متني، متيحة الفرصة لكل الشخصيات أن تطلق مصيرها من داخل أسوار حدودي كنص أدبي إلى الواقع، فلربما كانت هذه الوسيلة التي تكفل لي الاستمرار والحياة. وربما لذلك بدأت أستعيد جانبا من ذاتي والهج به، كأنني أتمسك بمصيري وبقائي حية:

"بالرغم من غرابة أطوار "نقّار الزجاج" أحسست بضرورة الاقتراب منه. كنت أشعر أن لديه موقفا تجاه ما يحدث في مدينة الظلام، كما أنه بدا لي عنصرا من العناصر التي يمكن ضمها إلى فريق الناسخين. ثمة شيء غامض في هيئته وشخصيته. يمتلك سمات المثقفين الجادين. وفي المناقشات التي جرت بيننا تبينت أنه يعرف الكثير رغم إصراره أن يبدو شاردًا وذاهلا عمّا حوله.

حينما التقيته بعد أسابيع من واقعة الضحك الهيستيري، التي انتابتنا، بسبب نص "دون كيخوت"، كانت تغيرات كثيرة بدأت تسود مدينة الأنفاق. أعلن الكاتب الشبح بدء انتقال النساخين إلى المدينة السرية التي جُهزت لهذا الغرض. أما الآخرون ممن قرروا العيش في الأنفاق فبدأوا يبحثون عن أماكن لإقامتهم، التي بدا أنها ستمتد طويلا بعد ما توارد من أخبار مدينة الظلام وما تمر به.

أخبرني طارق في ذلك اليوم إثر جولة له في المدينة، بأنه أصيب بالذعر، فقد فرض المتكتم حظراً للتجوال، بعد حركة تمرد قامت بها مجموعات تابعة للمعتقلين في منافي الصحراء من المعارضين لسطوة المتكتم. والذي أصبح الحاكم الفعلي لمدينة الظلام. وذلك بعد أن منع كل ألوان ممارسة الفنون، بعد أن سمع عبر مخبريه أن جماعات تمارس طقوسًا فنية في أماكن سرية بينها شقق خاصة، أو فيللات، وبعضها كان يتم في عدد من مرائب السيارات أسفل البنايات القديمة.

بدأت هجمة شرسة من أتباع المتكتم، الذين عرفوا باسم "كتائب المتكتمين"، وأغلبهم كانوا قد بدأوا عملهم كمتكتمين ومراقبين للنصوص والكتب، وبعد أن تمت مصادرة كل الكتب تقريبا، وأغلقت أغلب دور النشر أبوابها، باستثناء من عملوا في نشر بعض المنشورات السخيفة التي تروج للمتكتم، وبعض كتب الخرافة التي كانت لا تخضع لرقابة المتكتم وأتباعه. وتناقل عدد آخر من الهاربين من المتكتم إلى مدينة الأنفاق أخبارا أخرى لوقائع، قالوا إنهم شاهدوها بأعينهم، لحرق الكتب في الميادين العامة، من دون التحسب لتلويث المدينة، في مبادرة من المتكتمين لتأكيد سطوتهم

وقدرتهم على وأد كل ما يتعارض مع مفاهيمهم الظلامية، عن عالم بلا ثقافة أو فن أو سعادة.. عالم يشبه تجهم المتكتم الكبير وغلظة قلبه. اضطر الكثير منهم إما لتغيير مجال عملهم وإما للهجرة.

بدأ المتكتم بتدريب المتكتمين الصغار على أعمال مواجهة معارضيه بالقوة. وهكذا شن هؤلاء هجمة شرسة على البيوت، والمرائب، والشقق السكنية، وأخضعوها للتفتيش، واقتادوا كل من ثبتت عليه ممارسة عمل فني في السر، أو وجدوا لديه كتبًا ممنوعة، للتحقيق، ونفذوا عقوبات الجلد على الكثير منهم، فيما نُفي البعض الآخر إلى منفى المعارضين. وأحرقوا الكتب أو الأعمال الفنية التي تم ضبطها، وكذلك كل الأدوات المستخدمة في الرسم لدى من ضُبط متلبسا بجرم ممارسة العمل الفني.

وقرر المتكتم تقييد حركة سكان مدينة الظلام، فأعلن أن خروج الناس في الشوارع لا يجب أن يتجاوز الساعة العاشرة مساء، مؤكدًا أن كل الدول المتحضرة تفعل ذلك. ودعك الآن من حملة "الشخر" التي تبناها المعارضون له على مقارنته نفسه بالدول المتحضرة، لكن المهم هنا أنه أصبح على الجميع التزام بيوتهم، مجبرين، من ذلك الوقت وحتى صباح اليوم التالي. وقيل إن فريقًا من المعارضين استطاع أن يرسل رسالة لعدد من الشباب في المدينة ممن يعرف معارضتهم لسلطة المتكتم، وأوحى لهم بضرورة عمل تظاهرة ضخمة يخرجون فيها بالمشاعل والشموع في توقيت إظلام المدينة بعد بدء حظر التجوال.. وقد كان.

قال طارق: فوجئت بمئات منهم وهم يظهرون في شوارع المدينة، وكلما مرّوا بزقاق أو درب متفرع انضم إليهم العشرات،

وهكذا أصبحت المدينة المعتمة، في غضون ساعات قليلة، واحدة
أكثر مدن العالم سطوعا في الليل.

جن جنون المتكتم، فقرر اعتقال كل من تصل إليه أيدي أنصاره وتعذيبهم، ونفي قادتهم.. هل تعرف ناصر؟

ناصر صديقنا؟ زميلي القديم؟

هز رأسه مؤيدا، واستطرد موضحا أنه نفي في الخلاء، وتم تشديد عزلته في منفاه، بحيث منع عنه كل اتصال بأي أحد. وقرر أن يسري حظر التجوال في وقت مبكر من اليوم.

بمجرد أن انتشرت هذه الأخبار في الأنفاق، بدأ البعض يشيّدون خيامًا في أطراف الأنفاق، بينما بحث آخرون عن مآوٍ طبيعية أشبه بكهوف جبلية صغيرة، كانت قريبة من أبواب المدينة السرية. بينما فضلت مجموعات من الأفراد الذين قرروا الهروب معا، اتخاذ عربات المترو التي اتفق على أنها تزيد عن حاجة الشعراء وأصحاب العروض الفنية وسواهم، مقرات للسكنى لهم، فلصقوا على أجساد تلك العربات لافتات، وأسدلوا الستائر على نوافذها، وجهزوها بفرُش وأغطية، وبما يحتاجونه لنومهم فيها. كما اتفقوا جميعًا على تنظيم مهام نظافة الأنفاق وتوزيع مهام النظافة على الجميع وفقا لأيام الأسبوع.

حينما التقيت نقار الزجاج بادرته بعرض الانضمام إلى فريق النساخين، فابتسم، ثم أوضح لي أنه يحتاج إلى مهلة للتفكير. قلت له إن انضمامه للنساخين سيتيح له أن يجد سكنًا ملائمًا في المدينة السريّة، مما يتيح له فرصًا قد لا تتوافر له خارجها، ثم قلت له ضاحكا إن مدينة النساخين أيضا تخلو من الزجاج، فابتسم للحظات، ثم صمت مفكرا في الأمر، على ما يبدو

ظل صامتًا للحظات، وبدت عليه ملامح الوجوم، ثم قال إنه لا يمكن أن يكون فردًا من النساخين. وقبل أن أستفسر منه عن السبب، استطرد قائلا إن ذهنه يعمل في أثناء القراءة بشكل نقدي زائد عن الحد، وإن هذا سوف يتسبب في تعطيل عملية النسخ لو أنه انضم إلى فريق النساخين.

صمت مرة أخرى وبدت عليه ملامح التفكير، ثم قال إنه على يقين بأن عملية النسخ في مثل هذا الظرف مسألة بالغة الأهمية، لكنه ليس الشخص المناسب لمثل هذه العملية الجليلة.

ثم نظر لي وسألني عن أسباب وجودي في مدينة الأنفاق. وقبل أن أجيب قال لي إنه تعرف على مجموعة من الشعراء ممن يقيمون في إحدى عربات المترو، وإنهم سوف يقدمون لنا قهوة يحتاجها بقوة.

في الطريق إلى عربة مترو الشعراء، حكيت له قصتي مع المتكتم وأنصاره، فأبدى اهتماماً وهو يصغي لي، ولاح لي أنه كان يشرد مني بين الآن والآخر، لكنه أثبت تركيزه الشديد عندما أوضح أن الحكاية تستدعي عنده قصة شبيهة.

وصلنا إلى عربة المترو، وكانت قد تخلت عن لونها الأزرق الذي عرفناها به وطليت بالأحمر، وفي ركنها الأيمن وضعت منضدة خشبية صغيرة التف حولها عدد من المقاعد. جلسنا إليها، فاقترب منا شاعر شاب، نحيل الجسد، بدا وجهه المنحوت كوجه فرعوني تسلل إلى العصر الحديث. قدّم نفسه إلينا، ودردش معنا قليلا عن الحياة في الأنفاق وعن الشعر، ثم أحضر لنا قدحيّ قهوة تُركية ممتلئين. كانت نكهة القهوة النفاذة تسبقهما إلى أنفي فانتشيت.

"المجد للفصحى" لاحظت الكلمتين مكتوبتين بخط جميل أعلى جدار العربة المتاخم لنا، والذي يمثل مقدمة، أو مؤخرة، العربة، فلا فارق في الحقيقة بينهما. أشرت إلى الجملة مبتسمًا. ضحك، ثم قال: "لا بد لي أن أسجل إعجابي بكما أنت وسديم" لماذا؟.. "لقدرتكما على الضحك" ماذا تعني؟ "أعني أن الضحك مؤشر على أنكما لا تنسخان فقط، بل تقرآن أيضا، وهذه سمة نادرة للناسخين" "أهناك من ينسخ بلا فهم؟" "النسخ أحيانا يتحول مع الوقت إلى جهد النقل من أجل تحقيق الهدف، وهو تكرار المنقول حرفيا" "في النهاية هذه هي مهمة النسخ" "بالتأكيد ولا أجادل، لكني فقط انتبهت إلى أن الضحك علامة من علامات الحس النقدي"

ارتشفت القهوة وأطرقت صامتًا للحظات، ثم سألته: "إذا كنت تنسخ ما توقفت أنا عنه بسبب الضحك فماذا كنت ستفعل؟" قال: "بالتأكيد كنت سأضحك، دون كيخوت من الشخصيات التي لا يمكن أن تتركك محايدا إزاءها، لكني أعرف أن الضحك كان سينقلب فورا للصراخ على عُمَّال عقلي: "انزعوا كل شيء، أريد أن أرى" صمت كأنه يتأمل رد فعلي على كلماته فهززت رأسي له مبتسما كأنني أستحثه على التفسير، فقال "خلف كل مهزلة توجد حكمة رهيبة، بالتالي لا يمكن أن يمر عبثا مثل هذين الموقفين اللذين أضحكاكما أنت وسديم" بمعنى؟.. "بمعنى أن الوهم الذي يلحق دون كيخوت ولأجله يجري معارك صاخبة عنيفة وطاحنة يعود لأنه لا يعبر عن ذاته. لقد استعار رغبة شخص آخر وهو أماديوس بطل قصص الفروسية خارق القوة، وجعل منه ملهما ومثلا أعلى، وبالتالي

فما نضحك منه طوال الوقت أنه سيظل يصارع الأوهام، علما أيضا بأن أماديوس نفسه من اختلاق كتَّاب الفروسية القدامى

أطرقت صامتا، ورشفت من القهوة، بينما أفكر في ما يقول، ثم سألته: "هل تقصد أن دون كيخوت نموذج لشخص منقاد وليس فاعلا بذاته؟"، فقال: "هذا جزء من الفكرة، أنه ليس حراً تماما كما قد يبدو لنا، بل أسير إرادة أخرى لعله اختلقها، لذلك يصارع أوهاما لا يراها غيره، ولهذا رأى الفتاة الدميمة في الخان فاتنة، و لم يكتف بذلك بل استعان بشياطين عقله لكي يغوي الفتاة متسلحا بأوهام عقله عن جمال لا يراه أحد سواه، ولهذا أيضا في موقف آخر مثلا عندما شاهد عرضا لمسرح العرائس انتفت لديه القدرة على التمييز بين الفن والواقع، واختلطت عليه الأمور، فبادر بتحطيم ما يراه أمامه، متجاوزا كون العرائس مجرد مجاز تعبيري وفني وليست واقعا" "إذن؟" "إذن في المهزلة دائما حكمة رهيبة كما قلت لك، فسرفانتس هنا يقدم نقدا لمجتمع كامل يتعلق بكلاشيهات موروثة من التراث الديني والاجتماعي ويقاتل لأجلها، لكنه يضع في مقابل المجتمع فردا يصارع الوهم وحده، بينما هو مرآة لهذا المجتمع بشكل ساخر وفانتازي"

قلت له: "وربما أيضا هو نموذج يقدم لفكرة أن الجنون والحكمة ينبعان من مصدر واحد، وأنهما أحيانا قد يختلطان بحيث لا يعود المرء قادرا على تمييز الحكمة من الجنون"

نظر لي نقار الزجاج وقد التمعت عيناه، وقال بعد لحظات من التفكير: "ربما طبعا، هذه فكرة وجيهة، وقد فقد جنونه عندما رأى الموت، لكننا لا يمكن أن ننكر أنه في الوقت نفسه، وفي مواقف

عديدة بالفعل امتلك قدرا من الحكمة قد لا يمتلكه العاقلون، تجلى في كثير من أحكامه ورؤاه، حتى في لقائه بأحد وجهاء إسبانيا وزوجته اللذين دعياه لما سمعاه عنه من مواقف وطرائف"

قلت له: "حتى سانشو، لو تذكُر، حين وُلّي حاكما على إحدى المقاطعات، من قبيل العبث أو التسلية بمبادرة من هذين الوجيهين، قد أظهر في البداية جانبًا من الحكمة والعقل والفطنة لم يكن مُتوقعًا من شخص في مستوى ضحالته"

عادت عيناه تلتمعان، وقبل أن أرد عليه سمعنا صوت طرقات أقدام نسائية خارج العربة، وسرعان ما ظهرت فتاة غريبة الأطوار عرفت أن اسمها "نيرد"، وأحيانا كانوا ينادونها باسم جيو"، ولم أفهم سر الاسمين، ولا معنى أي منهما، إلا بعد أن أخبرني طارق بأنها سمت نفسها بهذا الاسم، وهو اسم لاتيني يعني "الحرّية"، أو الطالبة التي لا تكل عن الدراسة بشكل هوسي.

كانت فتاة مدملجة، ربيلة الجسد، بلا ترهل، قصيرة القامة نسبيا. جميلة الملامح، شعرها مصبوغ بلون أحمر، وتضع على عينيها نظارة طبية بإطار أسود بلاستيكي. وتطل عيناها من العدستين الواسعتين بنظرة تبدو كغمزة خبيثة بعد انتهائها من تدبير مقلب لشخص ما. وكانت هذه السمة التي تحملها عيناها تجعل كل من يراها يبتسم، حتى لو كانت عارية، كما كانت تفضل أن تسير في الأنفاق في أغلب الأحيان.

تقول إنها تركت مدينة الظلام لأنها أرادت أن تمارس حريتها بشكل مطلق، وكان سيرها عارية أحد مظاهر إحساسها بالحرية. تنتعل حذاء ذا كعب عال، وجوربين سوداوين يصلان حتى منتصف

فخذيها، وأحيانا تنتعل حذاء برقبة عالية؛ "بووت" أسود طويلا تصل رقبتاه إلى ركبتيها. تسير عارية غالبا وتمسك في يديها علبة بـيرة، لا نعرف من أين تحصل عليها، وتتوقف لتلقي مجموعة من النكـات، ثم تبدأ في الضحك بقوة على نكاتها، وتنصرف.

كانت مدينة الأنفاق مدينة حرّة، تحكم العلاقات بين سـاكنيها مواثيق غير مكتوبة وأعراف متفق عليها. لكل شخص كامل الحرية أن يفعل ما يشاء، أن يقول ما يشاء، ولا يملك أي أحد أن يقيـد حريـة الآخرين لا بالقول ولا حتى بالنظر. لذلك فعندما مرّت "نيرد" من أمام العربة لوّحت لنا فتأملناها مبتسمين ولم نقل شيئا. لكني شعرت بتعلق نقار الزجاج بها. بريق إعجاب مضمر ومض في عينيه. وظل يتأملـها بشغف حتى أخذت تضرب نهديها الكبيرين بالتبادل، وتتأمل اهتزازهما على إثر ضرباتها المتتابعة لهما بالتناوب، ثم توقفت فجأة وأغرقـت في الضحك، وبعد دقيقة أخرى انصرفت كما جاءت بلا إنذار.

خرج نقّار الزجاج من العربة يتأمل الفتاة مبتسـمًا. وسمعنـا صوت أقدام مرة أخرى. التفت نقّار الزجاج تجاه الصـوت، وبعـد لحظات سمعتُ صوتًا رخيمًا يلقي عليه التحية. وأمام باب العربة ظهر الخفّاش، وهو شاب له ملامح غليظة نوعًا ما، ربما بسـبب كثافـة حاجبيه، وعرفتُ لاحقاً أن لقب الخفّاش قد التصق به، لأنه لم يكـن يرتدي إلا اللون الأسود. كان ممتلئًا، قامته تميل للقصـر، وشـعره الأسود "أكرت" قليلا، يضع نظارة طبية علـى عينيـه السـوداوين الضيقتين، وكانت عدستا النظارة سميكتين نسبيًا، بحيث تزيـد مـن الإحساس بصغر عينيه المختبئتين في أعماق جفنين تشعر دومًا بأنهمـا يعانيان من انتفاخ مرضي مزمن.. كأنه إرهاق أزلي.

وحده الخُفّاش من بين من عرفتهم هنا في الأنفاق الذي يتحرك بنشاط وانتظام بين مدينة الظلام وبين الأنفاق. ولا أعرف كيف كان مسموحا له ذلك. نقّار الزجاج كان يؤكد أنه بالتأكيد يفعل ذلك بمعرفة كبير النساخين.. "ما هو لازم يكون فيه حد بينقل له أخبار البلاوي اللي فوق"

ألقى الخفاش علينا التحية، ودخل وهو يفرك يديه كمن يشعر بالبرد، وبينما ضاقت عيناه شبه المختفيتين خلف عدستي نظارته، كان وجهه يرسم ابتسامة بلهاء، فضحكت بصخب. نظر لي مندهشا ومستفزا، ونادى على رؤوف يطلب قهوة، وفوجئت به يضع إحدى كفيه بين ظهري وقميصي فانتفضت وأنا أصرخ. كانت يده مثلجة تقريباً. فبدأ الخفاش فاصلا من الضحك، قائلا: "علشان تبقى تبطل تضحك، أنا لسه جاي من فوق يا عم الأمّور والجو زفت. الجو فوق برد فوق الخيال"، وأضاف مبتسماً: "برْد كده زي النار!"

قلت له ببرود إن دعاباته باردة مثله تماما، فابتسم لي بسخرية.

تأمله نقار الزجاج بعد أن لفظ جملته، ثم هزَّ رأسه متعجبًا وأغرق ضاحكا. فانتبه إليه الخفاش ولكن النقار باغته مقتربا منه، وسأله وهو يقف تقريبا أمامه مباشرة:

طب وإيه الأخبار فوق بقى؟

وقبل أن ينطق شيئًا سمعنا صوتا عاليا وحادا، كأنه نفير موسيقي صاخب، وبعدها، بدا أن النفير يتضمن أصواتا موسيقية أخرى. كان الصوت يتردد بصخب لا يمكن احتماله، ومع ذلك فقد منح المكان حسّاً أسطوريا أثّر علينا جميعا، حتى شعرنا بأننا مسحورون.

خرجنا من عربة المترو إلى الممر، ونحن نتطلع حولنا بحثا عن مصدر هذا الصوت الرهيب، بينما رأيت بعض سكان الأنفاق يظهرون تباعا، كأنما هذا الصوت هو نفير يعيد الجميع إلى الحياة. كانوا جميعا يحملون نظرات دَهشة ومسحورة في الوقت نفسه. البعض رسموا ابتسامات تعبر عن ارتباكهم أكثر من أي شيء آخر. وحتى "نيرد"، عادت لتقترب منا، وهي لاتزال عارية الصدر، وقد اختفت نظرتها الماكرة خلف عدستي نظارتها، لتحل محلها نظرة بريئة مصحوبة بابتسامة غريبة.

وبدا الممر فجأة كأنه شارع من شوارع قلب القاهرة، التي تعج بالحياة والصخب والضجيج، مع ذلك لم يكن بإمكان أحد أن يسمع شيئًا سوى صوت النفير الصاخب، الذي تتلاعب في داخله ألحان معزوفة بآلات موسيقية عديدة، أبرزها ما بدا مثل آلات النفخ الكلاسيكية.

وبالرغم من الارتباك، وعدم الفهم، والارتياب والخوف، إلا أن الجميع سرعان ما بدأوا يشعرون بحالة من النشوة، وتوزعت الابتسامات التي تعبر عن تلك النشوة على الوجوه، فأصبح للابتسامات معنى الفرح والارتياح النفسي والهدوء الوجداني. لكن الموسيقى ومصدرها بقيا لُغزًا عصيا.

في هذا الزحام اختفى نقّار الزجاج فجأة، وكذلك الخفاش، الذي لم نتمكن أن نعرف منه آخر أخبار ما يحدث في المدينة. لكني في الوقت نفسه اكتشفت وجوهًا كثيرة تحيط بي، بعضها بدا مألوفاً، وغالبية هؤلاء كانوا من الشعراء الذين حضرت أمسياتهم الشعرية، وبعض الوجوه كنت أراها لأول مرة.

وبينما كنت أتأمل الوجوه، شعرت بيد تربت علـــى كتفـــي. وبسبب التوتر ارتعبت، لكني رأيت وجه طارق فانفرجت أساريري، واندفعت إليه أحتضنه بينما أصرخ بقوة مطمئنا لضياع صوتي في هذا الصخب الذي لا نعرف مصدره ولا مآله.

احتضنني طارق، وأشار لي أن نحاول الابتعاد عن الزحام، وبدأنا نسير بالفعل بعيداً. بينما ظل صوت النفير الهادر يلاحقنا بإلحاح"

19

قرأ قاسم هذا الجزء من متن النص الذي يجسد كينونتي، بعد يومين من هبوب العاصفة. كان جالسًا في قمرة القبطان، وقد لاحت على وجهه مظاهر الإرهاق الشديد. كان يشعر أن الثماني والأربعين ساعة السابقة مرت عليه كأنها عدة أسابيع، بسبب الذعر الذي عايشه والأحداث المتلاحقة، التي كان خلالها يشعر بأنه سيفقد حياته بين دقيقة وأخرى.

كان الرعب من العاصفة التي جعلت السفينة مثل لعبة صغيرة تتقاذفها الأمواج بجنون هو المشترك الذي جمع كل من كان على متن السفينة، رغم العوالم المختلفة التي ينتمي كل منهم إليها.

ولذلك فبالرغم من دهشتهم مما تعرضوا له بعد إدراكهم لوقوعهم أسرى لقراصنة البحر، فإنهم لم يعانوا من الخوف بنفس الدرجة التي عانوا منها خلال العاصفة، لأن ما شعروا به منذ أن هبّت عليهم، فاق كل ما عرفوه من خبرات الحياة. أن تصبح مثل ورقة صغيرة بلا وزن في مهب الريح العاتية. أن يكون الجلوس والوقوف والقفز والنوم مستحيلا، إذ يبدو المرء فاقدًا السيطرة على حركة جسمه نهائيًا،

حيث لا يبدو تلقي المخ لإشارات الحركة خاضعًا لإرادة المُخ، بقدر ما يصبح أسيرًا لقوانين الطبيعة.

كانت الأصوات التي قد يعرفها البشر جميعًا، تنطلق معًا في وقت واحد، كأنها سيمفونية صاخبة مجنونة: صفير الريح وزئيرها، ارتطام الأبواب وصفقاتها المتواصلة، وهرولة الأقدام، ارتطام الصناديق الخشبية ببعضها البعض، وأزيز الصاري، وصراخ الرجال، وأصوات إطلاق النار من البنادق الآلية.

لكن الشيء الوحيد الذي أصبح مثل حقيقة ساطعة لقاسم وللقبطان ولي معهما ما ظل يردده قاسم قائلا: أنقذتنا العاصفة!

فلولاها لربما كنا حتى الآن رهينة في أيدي القراصنة، لا نعلم ما الذي كان يمكن أن يحدث لنا، خصوصا أن القراصنة اكتشفوا أن السفينة لا تستحق أن تكون موضعا للقرصنة، فلا هي ناقلة للنفط، ولا تحتوي أي بضاعة، ولا تقل شخصيات مهمة. كانت مهمة خاسرة تماما، لكن العاصفة أيضا نجحت في أن تشغل القراصنة بإنقاذ أنفسهم، مما سمح للقبطان أن ينجو بنفسه، وأن يجد قاسم من يعيده إلى السفينة من أتباع القرصان الذين رأفوا بحاله، وعلى رأسهم الشاب الذي حصل على ساعته مقابل إعادتي إليه.

مع ذلك تسببت الواقعة في إصابة القبطان بحالة من التوتر والقلق الشديدين، رغم أنه حافظ على رباطة جأشه، لأنه في أعماق قلبه كان يرى أنه وضع في موقف عبثي تماماً، كان كفيلاً بأن يقضي على حياته وما تبقى من مستقبله المهني.

قال لقاسم بعصبية إنه كان على استعداد تام لأن يفقد حياته للدفاع عن السفينة وعدم تسليمها للقراصنة، لأنه مسؤول عن روح

كل شخص على متن السفينة وسلامته الشخصية أيا كان، ثم أردف قائلا: إن الأمر هنا أيضا مسألة كرامة شخصية وشرف.

ولم يجد قاسم ما يقوله، فقدم له اعتذاراً وودواً، رغم أنه شخصيًا لم ير أن له أي يد في تعرض السفينة للقرصنة، كما ردد لنفسه مؤكدًا أنه أيضا ليس مسؤولا عن عشرات القراصنة الذين يملأون البحار، لكنه كان يشعر بالحرج من القبطان الذي يتحمل مسؤولية التلاعب بمواقيت سفينة لها مواعيد رسمية، ومرصودة وفق جداول ملاحة دولية، وأنه يتحمل هذه المسؤولية، لأن قاسم قرر أن ينقذ صديقه رشيد الجوهري، الذي تورط بسببه في موضوع المخطوطات، ولم يجد سوى هذه الطريقة.

قدم قاسم للقبطان وعودًا مصحوبة بالقسم بأغلظ الأيمان، أنه لا يطلب منه سوى أن يصل به إلى حدود إيطاليا، وأن يتركه في قارب ويستكمل خط سير سفينته، وأنه سوف يتابع مهمته من هناك وحده.

خرجت الكلمات من فم قاسم، فبدت للقبطان مثل ترياق السم، ووصلت لقلبه المكلوم غيظًا وكمدًا مثل دواء شاف، فقد عرف أخيرًا حدودًا لمهمته التي كانت، منذ خروجه من ميناء الإسكندرية غامضة وغير مفهومة، لكنه من جهة أخرى كان يعرف أنها ليست مهمة سهلة، فخفر السواحل الإيطالي يعمل بهمة ونشاط كبيرين في مسح الشواطئ القريبة من حدود إيطاليا البحرية، بسبب الرحلات غير الشرعية، للشباب العاطل القادم بحثا عن الفرصة، عبر الشواطئ الإفريقية للمتوسط، وبينها مصر.

كان يدرك، في الوقت نفسه، أنه ليس رُبّانا لزورق من زوارق مافيا بيع البشر، أو لمركب للنزهة، بل قبطان سفينة تجارية

مرخصة. القبطان رؤوف عبدالواحد القطان، أحد أبرز قباطنه البحار في الحرب والسلام، كما كان يحلو له أن يصف نفسه. رؤوف قطان كما يعرف هو نفسه تخفيفا للقب، القبطان المحترف، صاحب العلاقات الجيدة والواسعة برا وبحرا، وملك المتوسط كما يصفه البحارة الذين عملوا معه منذ تقاعد من القوات البحرية، وقرر الانتقال للعمل في العمل المدني قبطانا للسفن التجارية.

ومنذ تلك اللحظة تحولت العلاقة بين قاسم والقبطان، بشكل مدهش، خصوصا لقاسم الذي فوجئ بانقلاب في شخصية القبطان، الذي أصبح، في دقائق، شديد الدماثة، حتى أنه قرر أن يستضيف قاسم في غرفة خاصة، لم يكن مسموحًا لأحد أن يدخلها، وهي غرفة التدخين.

كانت غرفة صغيرة منزوية في الطابق السفلي، وعندما فتح القبطان بابها الخشبي الصغير، انبعث منها ضوء ساطع عبر النافذتين الخشبيتين قديمتي الطراز اللتين تتوسطان جدارها المواجه للباب، بينما تمركز تحت النافذتين مقعدان خشبيان أنيقان كأنهما مسلوبان من طاقم صالون فاخر. كانت أعمال الحفر والزخرفة الدقيقة بادية في إطاري المقعدين اللذين يشكلان الطرف الخارجي لكل منهما، تكسو ظهريهما وموضع الجلوس طبقة جلدية خضراء، بينما تكسو المنطقة المحيطة بذراعي كل مقعد منهما طبقة جلدية تبرز منها مضلعات صغيرة، يفصل كل منها عن الأخرى زر دائري صغير مضغوط، من لون الجلد نفسه.

ووقف بين الكرسيين كونسول من خشب الأرو، بدُرجين صغيرين، على أربع سيقان خشبية منسابة وطويلة. وعلى مستوى

منخفض جدًا يكاد يصل إلى مستوى قاعدتي الكرسيين، أمام الكونسول، وُضعت منضدة صغيرة بنفس اللون، بينما افترشت أرضية الغرفة، الخشبية اللامعة، سجادة بلون القمح، مستطيلة كثيفة الوبر، تعلوها رسومات فارسية بارزة باللونين الذهبي ودم الغزال. وإلى اليمين، على امتداد الجدار الذي يمثل طول الحجرة من الباب حتى النافذة اضطجعت أريكة من نفس طراز الكرسيين.

أما الجدار الأيسر، فكان مكسوًّا بالخشب، ولم تأو إليه سوى منضدتين صغيرتين عاليتين متجاورتين، وعلى كل منهما استقرت فازة تأخذ شكل سمكة تقف على ذيلها، إحداهما مصنوعة من زجاج أحمر شفاف، والأخرى من زجاج أزرق طرزت حدودها الخارجية باللون الذهبي.

أشار القبطان إلى قاسم للجلوس على أحد الكرسيين، فاتجه الى الكرسي الأيمن وجلس وهو يتأمل الغرفة بلون من الحبور. وضع القبطان الكاب الخاص به على الكونسول الذي يتوسط الكرسيين. فتح أحد الدرجين وأخرج منه مطفأة سجائر زجاجية، ووضعها على المنضدة الصغيرة القريبة من قاسم. ثم عاد يعبث في الدُرج قليلا، وأخرج يديه أخيرا وهي تحمل لفافتين بنيتي اللون، مد يده بإحداهما إلى قاسم، الذي تناولها مبتسما، وسرعان ما تبين أنها سيجار ملفوف بعناية من ورق تبغ أملس. أمسك القبطان بسيجار آخر، وتأمله قليلا، ثم أخرجه من غلافه السوليفان، ثم أخذ يتحسس السيجار، ويشم عبقه، قائلا:

هذا السيجار كوبي أصلي، "كوهيبا"، عندي منه مخزون محترم في ثلاجة السيجار في بيتي في إسكندرية.

تأمله قاسم للحظات، ثم قال:

شكله فاخر فعلا. بصراحة أنا مش متخصص في السيجار. بس أنا كنت فاكر إنك بتدخن الغليون بس.

معاك حق. كنت بادخن سيجار بس زمان، لكن مع الوقت، بدأت أخف التدخين، ولقيت "البايب" بيحل المشكلة، بس لما أخلص مهمة صعبة، أو أحس إني عايز أقعد أفكر في حل مشكلة بدماغ رايقة بآجي هنا وأكافئ نفسي بسيجار.

أمسك قاسم بالسيجار وتنشق عطره التبغي لوهلة، ثم وضع طرفه في فمه وأشعل النار من قداحته، وسحب نَفَسًا وترك الدخان في فمه للحظات، كأنه يحاول أن يتعرف مذاق دخان السيجار، ثم نفثه بإعجاب.

تأمله رؤوف بابتسامة فضول، وترقب، وعندما لاحظ رد فعله ضحك، قائلا:

مش قلت لك؟ روعة.

التفت قاسم إلى لوحة صغيرة معلقة على ظهر الباب، وانتبه إليها حتى أنه انتفض واقفا واتجه إليها كالمسحور. كان القبطان الجالس إلى يمينه يشعل سيجاره البني الغليظ، عندما رأى قاسم يتحرك باتجاه الباب، وظل يتأمله مندهشا، ثم قال:

آخخ إنت أخدت بالك من المخطوط ده؟ أنا معلقه ورا الباب لأني مش متأكد من جماله.

لم يعقب قاسم بشيء، واقترب من المخطوط المعلق على الحائط، الذي كان يضم بعض الرسوم التي صورت أشكالا آلية غير

واضحة، وبجوارها كتابات بلغة تبدو عربية أو فارسية، لكن تحديد ذلك يبدو صعبا بسبب عدم وضوح الخط.

أخيرا قال قاسم:

تحفة! مش ممكن.. دي كنز.

نظر إليه القبطان نظرة زائغة، وهو يكرر كلمته بتساؤل:

كنز؟ هيّا إيه دي اللي كنز؟

اللوحة دي.

لوحة إيه؟ دي نسخة مصورة من مخطوطة مجهولة.

ما اعتقدش.. بيتهيألي دي نسخة من مخطوط مشهور، معروف أن نسخته الأصلية موجودة في متحف في برلين، لكن فيه بعض أوراق منها مش موجودة أو مختفية.

معقولة؟

لو سمحت لي أفُكّ الإطار ده وأفحصها..

خُدها معاك وانتَ ماشي وافحصها براحتك.. بس ترجّعها فورًا.

ضحك قاسم وهو يؤكد له بامتنان:

أكيد طبعا يا سيادة القبطان.. ده كرم كبير منك.

عاد قاسم إلى مكانه، وجلس بجوار رؤوف. ظل رؤوف يتأمل اللوحة من بعيد، ثم نظر إلى قاسم وقال له:

واضح إنك متخصص في موضوع المخطوطات ده؟

زي ما حضرتك متخصص في أعالي البحار بالظبط.

ابتسم له القبطان، ابتسامة غامضة، لكنها كانت بداية لحديث مبهر بين الاثنين.

20

بوصفي رواية، وبفضل خبراتي في كيفيات السرد، سأحاول أن أصف الحوار الذي دار بين قاسم ورؤوف بطريقتي، لأنه في تقديري حوار روائي، ربما لم يتجاوز زمنه الذي جمع بين الشخصين ما يزيد على 45 دقيقة، لكنه من حيث الزمن الحقيقي الواقعي، تجول بين أزمنة وأماكن عديدة، وتنقل بين طموحات ونجاحات شخصية، وبين إحباطات بعضها يمكن أن يتجلى أثره عابرًا على هيئة ابتسامة غامضة كتلك التي رسمها القبطان على وجهه في بداية حواره مع قاسم.

كشف القبطان عن ثقافة رفيعة، ومعرفة بمناطق واسعة من العالم، وفرتّها له فرصة عمله كبحار لفترة طويلة. لو أن هذا الحوار قد قدر له أن يدور بين القبطان ورشيد بديلا لقاسم، لوجد رشيد في كلام القبطان مادة جذابة، ولعلهما كانا سيجدان بينهما مشتركات ذهنية عديدة، كرحالة، تنقلا بين دول عديدة، رغم اختلاف الوسيلة التي استخدمها كل منهما في تحقيق ذلك. كما أنهما، ولأسباب متباينة تماما، وفي ظروف مختلفة، امتلك كلاهما ولعا بالمعرفة وبالقراءة. وقد كان كل ذلك كفيلا بأن يجعل من حوارهما واحدًا من

تلك الحوارات الإنسانية التي لا تنتهي بمجرد اختفاء صوت المتحاورين في الأثير، لكنه مع الأسف كان حوارًا مأمولا، لم يحدث ولن يكون.

أما الحوار الذي دار بالفعل، فقد لعب قاسم في بدايته لعبة فنية، حاول أن يوجد بها علاقة بين ورق المخطوطات وأوراق تبغ السيجار. فكرة تبدو حاذقة، وتعبر عن جانب من شخصية قاسم، الذي حاول أن يبدو شخصًا صاحب أفكار خاصة، ومولعًا بإظهار ذاته.

ابتسم القبطان رؤوف، وهو يمرر يده الخالية من السيجار، على شعر رأسه المتموج الثقيل، ابتسامة أوحت لقاسم بأنه استلطف فكرته، وأعجبته، وسأله على سبيل التعرف على مدى تعمقه في موضوع المخطوطات عمّا إذا كان قد صادف شيئًا كهذا من قبل؟

قاسم الذي لاحت في ذاكرته صور لمخطوطات عديدة مما مرّ عليه في دراسته، وفي حياته العملية، تمنى أن يكون قد رأى مثل هذه الورقة العتيقة المصنوعة من تبغٍ مقوى ومجفف، لكنه لم يكن شاهد شيئًا كهذا، وقال، على سبيل الدعابة، إن مخطوطا كهذا لو وُجد سيكون موضعًا للتثمين الباهظ.

أما القبطان فقد ضحك متعجبًا من أن تثمين المخطوط قد يخضع لنوع أوراقه، وليس لموضوعه، مثلا، أو اسم كاتبه.

ابتسم قاسم، مشاركًا القبطان في انفعاله، وهو يفكر في كيفية ترتيب أفكاره ليرد عليه موّضحا الأمر. ولكنه شعر باحتياج مداهم لتناول القهوة، فاقترح الأمر على القبطان الذي لم يتردد في النهوض، على الفور، ليطلبها له بتواضع مرح.

انشغل قاسم انشغل بالتفكير في سؤال القبطان، وحين راه يدخل، إلى الغرفة مرة أخرى بادره بالتوضيح بأن الأمر قد يبدو عجيبًا بالفعل؛ أن يتم تقييم مخطوط بسبب نوع الأوراق التي خُطّ عليها، وربما بسبب نوع وشكل الخط الذي استخدمه مؤلف المخطوط أو ناسخه، وليس لقيمة محتواه العلمي أو الفكري.

صمت قليلا كأنه يستجمع أفكاره قبل أن يستطرد عن رغبته في التوضيح، قائلا إن هناك فارقًا حتى في عمل المتخصصين في هذا الموضوع، فعلى مستوى التقسيم العلمي، كما قال، لدينا مجموعتان: الأولى تعمل في إطار ما نسميه الكوديكولوجيا Codicology أو علم المخطوطات، التي تهتم بالمخطوط، أما الثانية فتعرف بالباليوغرافيا Paleographie التي تعنى بدراسة علم الكتابة أي كيفية فك رموز المخطوط القديم.

إزاء نظرة الدهشة التي رمقه بها رؤوف القطان، أوضح قاسم الحديدي أن الكوديكولوجي شبيه بعالم الآثار، يبحث في المخطوط كقطعة مادية، أو أثرية، وعمله هنا يشبه عمل الأركيولوجي، أي أنني ككوديكولوجي يصبح من طبيعة عملي التعرف على خصائص الورق هل هو بردي مثلا أم ألياف نباتية مضغوطة أم رقائق جلدية أو أيا كانت مكوناته، ثم يأتي بعد ذلك التدقيق في طبيعة الحبر الذي كُتب به النص، أما الفيلولوجي فهو المنوط به موضوع الكتابة نفسها، وهو، تقدر تقول كده، فرع من علم اللغة المقارن، وهنا ندخل في موضوع تحقيق المخطوط، كجزء رئيسي من عمل الفيلولوجي.

ظهرت آثار الاهتمام على وجه رؤوف القطّان، الذي نفث دخان سيجاره الرمادي، ثم سأل عمّا إذا كان الكوديكولوجي، أو عالم

المخطوطات، هو الذي يستطيع أن يحدد عمر المخطوط، كما يستطيع الأركيولوجي أن يحدد الزمن الذي تعود له قطعة أثرية أو إحدى الحفريات مثلا.

بالضبط.

هكذا رد قاسم، قبل أن يكمل موضحا أن الكوديكولوجي يمكنه تأكيد تاريخ المخطوط بالتحليل المخبري للعناصر المادية للمخطوط، فإذا كانت له دراية وتجربة، عند ذلك يمكن أن يضع تقديرًا دقيقًا بأن هذا الحبر يعود إلى سنة محدّدة أو حقبةٍ تاريخية بعينها، من دون اللجوء إلى التحليل المخبري، ثم أضاف أن من وظائفه أيضا التحقق من ملامح التزوير في المخطوط.

تأمل القبطان وجه قاسم للحظات كأنه يحاول أن يستخدم خبراته في معرفة البشر، بالفراسة، ثم سأله سؤالاً كأنه بدا أنه يعرف إجابته قائلا: يبدو لي إذن أن تخصصك الدقيق هو الكوديكولوجي وليس التحقيق أو الفهرسة.. أليس كذلك؟

قاسم لم يجب إجابة مباشرة، لكنه أوحى في إجابة غامضة وملتبسة أنه يعرف كثيرًا في الكوديكولوجي، ومع ذلك له خبرة في الفهرسة والتحقيق.

نظر إليه القبطان للحظة، ثم بدا كمن يحاول تذكر شيئا، فقال:

وده يختلف عن الباليوغرافيا اللي قلت عنها من شوية؟

الباليوغرافيا بيعرفوها بأنها علم الخطاطة.. يعني علم دراسة الخطوط القديمة، ومحاولة فك رموز وقراءة المخطوطات القديمة.. ده تخصص دقيق جدا.

ويبدو أن هذه الإجابة قلّبت على القبطان المواجع، وجعلته يستعيد جرحًا تاريخيا لا يختلف عن جرح رشيد الجوهري أن يصبح طيارا.. مع الفارق.

أظن أن القبطان لو كان جالساً مع رشيد الآن بدلاً من قاسم، لشرح له بلا مقدمات، تفاصيل حلمه الشخصي الذي شغله لفترة لا يستهان بها في مسيرته المهنية التي قضاها طافياً أعالي البحار، أن يصبح قبطانا على أكبر باخرة في العالم، والمعروفة باسم "واحات البحر"، التي تعد فندقا فاخراً يطفو فوق مياه البحر، ويفوق حجمها حجم الباخرة الأسطورة "تايتانيك".

وأظن أن رشيد، الذي كان مولعًا بإظهار دهشته باستمرار من أي معلومة غريبة أو جديدة بسؤاله التقليدي المكون من كلمة "فعلا؟"، مقترنة برفع حاجبيه الكثيفين والتماع عينيه، كان سيجد من القبطان ابتسامة واثقة يضع فيها قدرته التامة على إضافة المزيد من دهشة رشيد، وهو يهز رأسه، قائلاً:

أكبر من تايتانيك بخمس مرات.. تصور؟

ومن المؤكد أن القبطان لم يكن ليسهو عن أن يخبره بنبرة تشي بالفخر، كيف أن واحدًا من المتدربين على يديه انتقل للعمل بين طاقم تلك السفينة، الذين يبلغ عددهم أكثر من ألفي شخص.

أحس من إجابة قاسم، بأنه لا علاقة أكاديمية مباشرة له بموضوع المخطوطات، وأنه ربما فقط، ومن خلال صدفة ما، وبعلاقات خاصة يمكن التكهن بطبيعتها، اقترب من وسط المخطوطات وعمل بها، من أجل "البيزنس" الذي يقوم على تجارتها.

رأى في قاسم شخصًا، بين آخرين كثر، ينتمي لوسط أكاديمي ضعيف، فقد مقومات الكفاءة منذ فترة طويلة حين تعرضت البلد كلها، كما كان رشيد يقول دائما؛ للترييف، ولضياع القيم المعنوية لصالح قيمة المادة.

واكتشف أنه رغم دراسته الشاقة في الكلية البحرية، وعمله الطويل في القوات البحرية، بكل ما مر به من خبرات، ثم خوضه لاختبارات الطيران المدني حين تقاعد من القوات البحرية، وقرر الاستمرار في العمل في مجال النقل التجاري، فإنه، في عُرف الدراسات البحرية الأكاديمية الدولية، لا يمكن أن يقارَن بخريج البحرية الأميركية، حتى لو كانت خبراته العملية، تتفوق على خبرات المتخرج الأميركي. بالتالي فإن متخرجًا من أكاديمية بحرية أميركية، ستكون لديه فرص عديدة لتحقيق الكثير مما يطمح له ملتحق طموح بمجال البحرية، وبينها ربما الوصول حتى إلى رتبة "مساعد ربان" على سفينة الأحلام الأميركية؛ "واحة البحار Oasis of the seas، ولن يكون هذا سوى حلم خيالي مستحيل بالنسبة للقبطان.

لكن القبطان سكب مرارة قهوته التي يفضلها بلا سكّر، على مرارة روحه، وتعامل مع الأمر بنوع من المرح، وهو يؤكد لقاسم أن الجانب الوحيد الذي يجعله متحمسًا بحلم "قبطان واحة البحار"، هو ذلك الإحساس المبهر بأنك المسؤول الأول عن إدارة جزء صغير من العالم، أشبه بمدينة كاملة طافية على مياه المحيط، تخضع هي وكل من عليها لإشارتك، ويحمل كل شخص على متنها إحساسًا داخليًا بأنك المسؤول المباشر عن أمنه وسلامته في هذه البقعة المدنية الطافية، وحتى يعود إلى اليابسة.

تأمل رؤوف قطان وجه قاسم الحديدي، الذي مال باتجاهه ليضع السيجار في منفضة السجائر التي تتموضع بينهما، وهو يرى في لفتته محاولة للهروب من أن تلتقي عيناهما في تلك اللحظة.

لم تكن القهوة قد وصلت بعد، ولا كان القبطان قد ذكر شيئًا عن حلمه الشخصي لقاسم. فقط كان يحاول أن يسبر أغوار قاسم، ويتأكد مما إذا كان مهمومًا بالمعرفة، في مجاله، أم أنه مجرد مدع آخر، مثل كثيرين آخرين ممن كان التقى وعرف، خلال خبراته الطويلة في حياته العسكرية والمدنية معًا.

ظلّ رؤوف صامتًا مبتسمًا قبل أن يؤكد لقاسم أنه رأى بنفسه مخطوطًا مصنوعًا من ورق التبغ، وإزاء الابتسامة المستخفة التي رسمها قاسم كرد فعل على هذه المعلومة، أضاف القبطان وقد استبدل بابتسامته، ملامح وجه صارم، أضفت فورًا لونًا من الجديّة لا يمكن الشك بها؛ تجلّت في نظرة العينين الرماديتين فجأة، وهو يقول:

في كوبا.

كوبا؟

أيوه، في واحدة من الرحلات سافرنا فيها لكوبا. قعدنا فيها 15 يوما..

ثم كأن طيفاً للذكرى قد مرّ على الغرفة في تلك اللحظة، أعاد ابتسامة باهتة لوجه القبطان، وهو يقول:

من أجمل أيام حياتي.

ثم تحولت إلى ابتسامة أكثر اتساعا، حاول أن يضفي فيها بحار عسكري سابق لونا من العذوبة الدخيلة على حياة العسكر، قائلاً:

حبيت بنت كوبية مجنونة، وقبل ما أسافر أهدتني المخطوط.

أووف! كوبية؟

قال قاسم هذا التعليق المقتضب وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة بلا معنى، وهي رد فعل طبيعي للارتباك الذي سببه له القبطان في هذه المعلومات الغريبة، التي كانت تبدو له مجرد مزحة من قبطان بحري، قضى حياته تقريباً في مياه البحار، وبالتالي من الممكن، بل ومن البديهي تماماً أن يمر بخبرة كهذه. أي أنه كان قد وقع في الارتباك، لأنه كان متردداً بين إحساسه الذي انقسم بالتساوي بين تصديق القبطان بكل حُسن نيّة، وبين تكذيبه جملة وتفصيلا، من دون أن نغفل أن وصف كوبية استدعى إلى ذهنه صورة خلاسية غجرية من حسناوات كوبا.

لكن رؤوف استأذن منه فجأة، وغادر غرفة التدخين، وأغلق الباب خلفه، تاركًا قاسم لإحساسه المتزايد بغرابة أطوار القبطان.

عاد رؤوف القطان بعد وهلة. كان يحمل في يديه ما يشبه لوحة فنية صغيرة بلون ورق السيجار، وأمامه دخل الفتى الذي كان يحمل صينية خشبية مستطيلة تعلوها كنكة قهوة كبيرة، وفنجانان صغيران خاليان وكوبا ماء بارد.

ظل القبطان واقفًا في منتصف الغرفة منتظرًا انتهاء الفتى الأسمر النحيف، حليق شعر الرأس، الذي كان يرتدي بنطلونا أسود وقميصًا أبيض، من صب القهوة في القدحين والانصراف. وبعد أن شكره تقدم القبطان باتجاه قاسم، وهو يحمل في يده اللوحة الفنية التي قدمها له بابتسامة زهو وانتصار.

أمسك قاسم اللوحة بحذر، لكنه لاحظ من ملمسها مدى جودتها وقوة تماسكها. كانت عبارة عن ورقة تشبه أوراق المخطوطات العتيقة، لم تكن تحتوي كتابة من أي نوع، بل تتضمن رسمًا لوجه رجل عجوز أسمر، مربع الوجه، شعر رأسه الأكرت القصير يبدو كوبر أبيض، فيما كان إزميل الزمن قد خط في ملامح الوجه أخاديد عديدة. وصحيح أن جبهة العجوز قد نجت، أو بالأحرى بدت قادرة على مقاومة إزميل الزمن، لكن مساحة الوجه التي تلت ذلك مباشرة، وابتداء من التقاء الجبهة مع خط الحاجبين، وصولا للذقن، استسلمت البشرة فيها، بما تتضمنه من مسام الجلد الضعيفة، لقوة الزمن، مانحة له الفرصة في أن يغير ملامح الرجل، فتجعدت مساحة الوجه التي تبدأ مع مستوى الحاجبين في شكل مربعات صغيرة، واستمرت الغضون والتجاعيد المحفورة تشكل رسم الزمن في الوجه اللاهي عن عجزه بسيجار صغير يتدلى من الشفتين.

كانت لوحة جذابة، تكاد بشرة الرجل لمن ينظر إليها توحي بأنها نسخة واقعية، قطعة حية منزوعة بسكين الفن من جسد الحياة، وتمنح لرائيها الإحساس بأنه إذا مسَّ سطح الورقة سيكون بإمكانه أن يشعر بالملمس المترهل للجلد، من فرط دقة إبرازها لدقة التجاعيد، ومسارات الأخاديد الرقيقة في وجه الرجل، وصولا إلى وجنتيه وذقنه. والمدهش أن رائحة تشبه عبق السيجار كانت تفوح منها.

لم يستطع قاسم أن يعبر عن إعجابه ودهشته مما وقع نظره عليه سوى بإطلاق ضحكة عفوية، وإن ظلَّ متشككا من كون الورق الذي رُسمت عليه هذه اللوحة الدقيقة من أوراق التبغ، ميالا أكثر لكونها أوراقا معالجة.

قال له القبطان، بجديّة تامة، إن أكثر ما كان يخشاه في الفترة التي تعرضت فيها السفينة لهجوم القراصنة، أن يفقد عددًا من التذكارات القيّمة، التي يصطحبها معه في أعالي البحار، حيث عاش أكثر من ثلثي عمره تقريبًا، لأنها تمثل بالنسبة له جزءًا من وجوده وحياته، وبالتالي فهو لا يرى أي معنى للاحتفاظ بها في موضع مستقر آمن على اليابسة.

بينما كان قاسم يتأمل الرسمة الحيّة في يده، يتسلل إلى أنفه عبق التبغ الخافت، الذي يفوح من نسيجها، مختلفًا تمامًا عن رائحة دخان السيجار النافذة حوله.

سمعا طرقًا على الباب، وحين سمح القبطان للطارق بالدخول أطل عليهما فجأة وجه المهندس شريف. الشاب الصغير الذي كان القبطان قد أوقفه عن العمل على السفينة منذ حدثت تلك المشادة المروّعة بينهما. لكن القبطان نظر إليه نظرة أبوية عطوف، وهو يطلب منه الدخول إلى الغرفة بترحاب وهدوء، أثار التفات وانتباه قاسم بشكل فضحته فيه ملامح الفضول التي ارتسمت على وجهه فجأة.

21

نهض القبطان منتظرا شريف الذي مشي بخطواتٍ سريعة وثابتة باتجاه القبطان، وشد على يديه بقوة. وبينما كان القبطان يبادله التحية أسرع باستخدام يده اليسرى رافعا إياها باتجاه قاسم، الذي نهض واقفا في التوقيت نفسه. وقام القبطان بدور تعريف ضيفه إلى شريف، قائلا:

ضيفنا العزيز على السفينة الدكتور قاسم.

تصافح شريف وقاسم، بينما تردد صوت القبطان الغليظ في الغرفة:

ده ابننا البطل شريف.. هوّا اللي تقريبًا أنقذنا من القراصنة.

ابتسم شريف ابتسامة بدا الخجل فيها متصنّعًا، مزيّفًا، لصالح ابتسامة زهو حاول أن يسيطر عليها ويكبحها، ورفع قاسم حاجبيه دهشة، ثم ابتسم، مبديًا إعجابًا بالبطولة التي لم يكن قد عرف عنها شيئًا بعد.

لم يكن قاسم، حين كان أسيراً في غرفة سفلية تقع في أسفل سفينة القراصنة، يعرف ما يحدث في غرف أخرى في نفس السفينة، وبينها غرفة وضع فيها كل من القبطان رؤوف ومساعده وشريف معًا.

وبالرغم من أن القبطان كان يفكر في أي مخرج يمكنه به أن ينقذ ماء وجهه، ويخرج من تلك الورطة بأقل الخسائر الممكنة، وبما لا يهين تاريخه المهني العريق، إلا أنه كان يرى في تلك اللحظة في نظرات عيني شريف المتوفزة، استنكاره واستهواله أن يرى قبطانه يتعرض للمهانة بشكل يفوق أي مخاوف تتعلق بحياته شخصيا.

سيشرح رؤوف لاحقا لقاسم أنه منذ رأى شريف في لحظة اعتقالهما من قبل القراصنة، وقد راوده يقين أن شريف سيتمكن من إنقاذ السفينة، بفضل رغبته الحارة لكي يستعيد كرامته أمام القبطان، ولينقذ صورته التي تعرضت للاهتزاز بسبب استخفافه بقوانين الطاعة المتبعة في أعراف البحرية.

كان حدسه صحيحاً ودقيقاً إلى حد بعيد. فقد تعرض شريف لضرب مبرح من القراصنة، لأنه حاول الاعتداء عليهم بقوة وشراسة مقاتل عسكري مدرب بشكل جيد، ولم تنجح محاولات اعتقاله الفردية من قبل البحارة الصوماليين الصغار، بل إنه أوسع ثلاثة منهم ضربًا، قبل أن يكتشفوا أنهم يحتاجون إلى عدد كبير منهم لينجحوا في الإمساك به، وقد فعلوا، ثم أمسك أحدهم ببندقيته وضربه بها على رأسه بقوة، ففقد الوعي فجأة من أثر الضربة المباغتة القوية.

حينما عاد إلى وعيه، وجد نفسه مقيّدًا ومكوّمًا على أرض حجرة رطبة وقذرة. فتح عينيه فرأى القبطان رؤوف مقيّدًا، جالسا على الأرض، ومستنداً بظهره إلى جدار الغرفة، وعلى وجهه ملامح إعياء شديد. صرخ شريف باسم القبطان، ليتأكد مما إذا كان قد تعرض للأذى أم أنه بخير. فرد عليه القبطان مطالبا إياه بأن يطمئنه على حاله أولاً.

في الغرفة نفسها، لم يكن هناك سوى مساعد الربان، وكبير المهندسين، وهذا يعني أن نحو 20 شخصًا آخرين بينهم ضابط الاتصال وباقي الملاحين والبحارة وقائد الدفة والطباخ والخدم وبقية المهندسين، بالإضافة إلى المسافرين البالغ عددهم 45 شخصًا، إما أنهم تعرضوا جميعا للأسر، أو أن القراصنة قرروا الاستعانة بالطاقم البحري لتسيير السفينة، حتى ينتهوا من إجراء عمليات التفاوض للحصول على مقابل أو فدية، لبقية الأسرى وبينهم خمسة من الأميركيين.

كان على شريف أن يفكر بسرعة في الكيفية التي يمكنه بها أن يفك وثاقه، وقيود الربان ومساعده، كخطوة أولى مهمة لمحاولة الهرب، أو إيجاد مخرج للمأزق، أو محاولة الاتصال ببقية الطاقم بطريقة أو أخرى.

وقد أبلى بلاء حسنا بعد أن بحث بعينيه جيدا، باتجاه بروز معدني ناتئ، يتوسط ماسورة معدنية تحاذي أحد جدران الغرفة، وأن يركز انتباهه وجهده لأكثر من نحو نصف ساعة، ليتمكن من إضعاف نسائل الحبل الذي وثقت به يداه.

كان القبطان يتأمله في إعجاب، وبأمل ويقين في نجاحه. وبعد وهلة شاهده يوسع من حركة يديه تدريجيًا، دلالة على بدء حل وثاقه، فتنفس براحة.

حكى القبطان لقاسم كيف حل شريف وثاق الكابتن أولا، ثم انطلق الى مساعده، لكنه طلب منهما أن يظلاً في مكانهما، حتى لا يثيرا اشتباه أيٍ من أتباع القرصان لو دخلوا الغرفة، ولكي لا يتسبب ذلك في تعرضهما لهجوم مباغت غير محسوب العواقب، بحث عما يمكنه استخدامه في الغرفة من أسلحة يدوية، تمثلت في أجزاء من الحبال التي

كانت قيودا له ولصاحبيه، وقطعة خشب ضالة، وأخرى انتزعها بعد جهد من أرضية الغرفة المتهالكة، ومقعد خشبي صغير، ووضعها جميعًا خلف الباب الذي اتخذ منه ساتراً استقر خلفه في ترقب وحذر.

ولحسن الحظ أن محاولة فتح الباب من قبل شباب القراصنة، لم تتم إلا بعد أن بدأت العاصفة، ما كان له أثر كبير في تشويش، وتقليل درجة تركيز الفتى الذي فتح الباب ليقود القبطان ومساعديه إلى غرفة أخرى، بغرض السيطرة على المعتقلين جميعاً في مكان واحد. ويمكن القول، وفقاً لما تسنى لي معرفته، مما حكاه القبطان، وتكوين صورة لما حدث، إن شريف قام بواحدة من عمليات القتال النظيفة من حيث دقة التنفيذ، والتوقع التام للسيناريو الذي بدأ مع إطلالة الفتى، والتحرك المدروس عقب الخطوة التالية للفتى داخل الغرفة، حيث أصبح رأسه هدفًا مثاليًا لقطعة الخشب التي انهال بها شريف على رأسه، والتي لم تفلت من مرمى يديه حتى وقع الفتى غارقًا في دمائه.

وهكذا، بدأ القدر أيضًا في ترتيب كل الظروف التي أشاعت جوًّا من الهرج في المكان، وفي بدء شريف بالبحث عن بقية مجموعة السفينة، وإرساله تعليمات للجميع بمحاولة الخلاص والانتقال إلى السفينة. وهو ما نجح تمامًا، مع وصول قوات خفر سواحل دولية فجأة، ما جعل القرصان يعطي تعليماته لفتيانه بالهروب بأقصى سرعة.

وكانت تلك الدقائق التي تغيرت فيها كفة القوى، ومقادير الأمور، كافية لإنزال القبطان رؤوف القطان إلى زورق صغير، ومنه إلى السفينة التي وصلها القبطان لكي يشرع فورا في تفقد نزلائها وطاقمها. وقد استعاد روحه المعنوية، حين تأكد له وجود طاقمها

كاملا، إضافة إلى النزلاء الذين كانوا يعانون الذعر والتوتر، باستثناء رجلي الأمن اللذين تعرضا لإطلاق النار وسقطا قتيلين في بداية الأحداث.

أدرك قاسم في هذه اللحظة الجانب الخفي الخاص بكيفية إنقاذ القبطان، لأنه بعد أن تم إخراجه من الغرفة التي كان قد حُجز فيها وحيدًا، انتقل إلى غرفة أخرى وجد فيها عددًا من طاقم السفينة، وبينهم البحّارة وقائد الدفة والطباخ ومساعده، وبقية مساعدي الربان. ومعًا كانت قدرتهم على مواجهة القراصنة أفضل حظا، أو ربما أيسر كثيرا، بسبب عددهم الكبير، خاصة مع بدء العاصفة التي قلبت كل خطط القراصنة رأساً على عقب.

في تلك الليلة إذن، ليلاً على فراشه، كان قاسم يتوسد شعر رأسه الطويل الذي ينسدل حتى كتفيه، بعد أن حل عقصة "ذيل الحصان"، ممدّدًا على فراشه، يفكر في أن ظهور شريف بهذا الشكل، قد يجعل منه الشخص المناسب الذي يمكن أن يساعده في الوصول إلى رشيد الجوهري.

انتهى من فحص المخطوط الفني المعلّق على باب غرفة التدخين، التي لفتت انتباهه خلال وجوده مع القبطان في الصباح. كان مخطوطاً دقيقاً يُظهر خارطة قديمة للبحر المتوسط، بكل موانئ سواحله الممتدة، على الجانبين.

تبين أن الخارطة مرسومة بدقة ومهنية عالية، لكنه اكتشف أنها ليست ذات قيمة أثرية. وفيما كان يتفحصها تحت ضوء الأباجورة القريبة من الفراش، كانت ذاكرته تومض بمخطوط ورق السيجار، أو بالأحرى لوحة ورق السيجار التي شاهدها في غرفة التدخين. وتذكر

في الوقت نفسه ما حكاه له القبطان عن رحلة كوبا، وتفاصيل العلاقة العاطفية التي جمعته بالفتاة الكوبية. واستعاد جملة القبطان "لما حطّيت رجلي في المينا اتجمدتْ من الدهشة أول ما شفت ملامح البلد. اكتشفت إني باشوف أكثر مدينة ملونة في العالم. والحقيقة برضو إنها أقدم مدينة في العالم المعاصر

شرح القبطان لاحقًا، ما يقصده، معدّدًا ألوان السيارات الأميركية الطرز، العتيقة، التي تتناثر في طرقات المدينة الفقيرة، والتي لا تتجاوز أي منها موديلات الخمسينيات، المطلية بألوان فاقعة ناصعة، كأنها لاتزال جديدة، وموضّحًا كيف أن هذه السيارات تتناغم بشكل ما، أو تُكمل صِبغة المدينة، بوصفها مدينة الألوان من خلال ألوان البنايات الفاقعة.

وأضاف رؤوف له، أنه على شاطئها نسي كل ذلك، عند اكتشافه أنّ شيئًا ساحرًا وفاتنًا قد أسره تماما في لحظة الوصول إلى الساحل المتموج، الذي تطل المدينة من خلاله على البحر، تراه ويراها، تمامًا كما شاطئ الإسكندرية.

انتهى قاسم من فحص المخطوط وأعاده إلى داخل الإطار المغطى بالزجاج، بينما بدأ ذهنه ينشغل بشخصية شريف، وفكّر طويلاً في الكيفية التي يمكن بها أن يجد طريقة ليفاتح بها شريف في الأمر، رغم خطورة ذلك.

لم يكن قاسم واثقًا من مدى قدرة شريف في الحفاظ على سريّة ما سيقوله له، ومع ذلك فقد كان حس المغامرة أقوى لديه من الإحساس بضرورة الحذر.

ثم عاد ليتأمل صفحاتي ويقلّبها، حتى وصل إلى حيث كان انتهى:

"في الطريق إلى المدينة الجديدة، وبينما كنت أظن أنني أهرب مع طارق من الصوت المدمر، كان يحكي لي بعضًا من تطورات ما وصلت إليه الأمور في مدينة الظلام. حكى لي عن الصمت. قال لي إن الصمت أصبح سمة عامة للبشر، أو لظلال البشر، ممن يعيشون في المدينة العلوية. انتهى عهد الكلام، وأصبحت الكلمة محسوبة على كل شخص، وبالتالي، وعلى سبيل التقيَّة، فإن كثيرًا من سكان مدينة الظلام يؤثرون الصمت حتى لا يتعرضوا للخطر.

أضاف موضّحًا أن أتباع المتكتم لم يعد لهم عمل بعد أن أحرقوا الكتب وأغلقوا دور السينما والمسارح وكافة الأنشطة الثقافية. وأصبح الأمر مقصوراً على بعض التظاهرات المؤيدة للمتكتم من أنصاره المنافقين ومؤيديه والمنتفعين. ولذلك لم يعد أمامهم سوى أن يحصوا أنفاس الناس، وأن يتنصتوا على ما يقولون.

الناس الذين تعرضوا لمشكلات وزُجّ بهم في مخيمات التعذيب التابعة لمقار أنصار المتكتم، قرروا أن يمتنعوا عن الكلام لاحقاً. ومع ذلك، لم يمتنع أنصار المتكتم عن تتبع البشر، وبدأوا في أخذ الناس بالشُبهات، فقد كانوا في النهاية، موظفين مطالبين بكتابة تقارير تصل إلى المتكتم يوميًا.

وهكذا آثر كثيرون من سكان مدينة الظلام أن يجلسوا في بيوتهم، بمجرد انتهاء ضرورات تواجدهم في الشوارع، وفي صباح اليوم التالي يذهبون إلى أشغالهم في صمت، ويعودون إلى بيوتهم.

أصبحت المدينة مدينة الصمت إذن، هكذا رددت لنفسي بصوتٍ مسموع، فيما كان ذهني منشغلا بتخيل ما أصبحت عليه الأمور وانتبهت إلى أنّ إحساسي بهذه التغيرات التي يوردها طارق

جعلني فجأة أشعر بأن زمنًا طويلا قد مر على وجودي. حاولت أن أحسب الفترة التي مرّت منذ وصلتُ إلى مدينة الأنفاق، واكتشفت أنني لا أستطيع أن أحسبها.

شهر؟ لا لا، أظن أنني هنا منذ وقت أطول كثيرا. ربما شهران، أو.. يا إلهي! أنا بالفعل فقدت الإحساس بالزمن.

لكن طارق أوضح لي، أو بالأحرى، ذكّرني بأنني لم أفقد الإحساس بالزمن، بل حياتنا هنا مع النساخ هي التي تفتقد لمعنى الزمن. لا قيمة لمعنى الزمن هنا. هنا حياة متصلة، نهارها وليلها موصولان بشكل أو آخر، وبالأحرى ممتدان كمدى زمني لا يخضع للتقسيم الذي تأسس على دوران الأرض حول نفسها وحول الشمس.

ومع كل ما قاله لي طارق، كنت أشعر بأن ما كان الخُفّاش سيقوله عن الحياة في مدينة الظلام بالتأكيد على قدر كبير من الأهمية. سألت طارق عنه، فابتسم، وقال:

الخُفّاش؟ ده نصّاب، عمره ما طلع من الأنفاق من ساعة ما وصلها. دي اشتغالة يا معلم. وِشّ أهمية ومفهومية.

هتفت لنفسي: "يا ابن الحرام!"

كان الصوت الهادر قد انقطع فجأة، واكتشفت أننا نمر في ممرات لم أعرفها من قبل. خالية ومقفرة من الحياة. لكنني بعد خطوات عدّة أخرى، وجدتُ شابًا وفتاة يجلسان متجاورين على أرض الممر، يستندان على الجدار، ويمسكان بهاتفٍ محمول، لا أعرف من أين امتلكا القدرة على شحنه، إلا إذا كانا زبونين جديدين من زبائن الأنفاق، وقد وصلا لتوهما، ويقومان بتصوير نفسهما. عندما

اقتربنا منهما، رأيت ملامح الفتاة ذات الشعر القصير، التي كانت ضيقة العينين بشكلٍ لافت، ولم أنتبه للفتى. لكني فقط احتفظت بانطباعٍ عابر بأنه يعتبر ضخم الجثة، مقارنة بها هي صاحبة الجسد النحيل الصغير.

كانت ترتدي قميصًا أخضر من الساتان، يلتمع لونه في الضوء الشحيح، الذي يضيء الممر من مصابيح عتيقة موزعة بانتظام على الجدران الحجرية المحيطة بالممر كان قميصًا عاري الكتفين، يشبه قميص النوم، قصيرًا، بالكاد يصل إلى خصرها، ينسدل من بعده بنطلون جينز ضيق. رأيتها تُمسك بالهاتف وتمارس عملية التصوير، بينما الفتى يقترب منها بشكل حميم، ويبتسم ليظهر معها في الصورة. عندما تنتهي من التقاط الصورة يحاول أن يرى الصورة التي ثبّتت لحظة زمنية لوجودهما معًا في لقطة، ولكنها، في لحظة استعادتها للصورة الملتقطة كانت تتمنع وتبتعد عنه، كأنها لا تريده أن يرى الصورة، بينما يقترب منها بإلحاح، وبشكل يبدو به أنه يحاول أن يضفي لونا من الحميمية على وجودهما معا، متعمّداً أن يلتصق بجسدها، أو أن يمسّ، وهو يحاول الوصول للهاتف بين يديها، كتفها أو صدرها. وأدركتُ أنها تشاركه اللعبة لتجعله يقترب منها بهذا الشكل الحميم، فتعود لتلتقط لقطة تالية، وهكذا يتصنّمان مرة أخرى ويقربان رأسيهما حد الالتصاق، ثم تنفجر ضحكات بلهاء منهما معا، دون أن يتوقف المشهد عن التوالي، ولا اللقطات عن التتابع.

ابتسمتُ لهما، والتفتُ إلى طارق، فوجدته لا يعيرهما أي انتباه، كان مشغولا بالوصول إلى مكان محدد، وفقد أثره، على ما يبدو

قال لي إن هناك فتحة في الجدار الأيسر؛ سنلج عبرها عالماً يهمه أن أتعرف عليه. أثار فضولي، فرحت أبحث معه بأقصى درجات تركيزي عن تلك الثلمة التي يقول عنها. و لم تكن الإضاءة الشاحبة كافية للبحث التقليدي بالنظر فقط، بل كان علينا أن نقترب من الجدران ونتحسسها بأيدينا أحيانا، لكننا استطعنا أن نصل في النهاية.

كانت الفُتحة مغطاة برسوم جرافيتية رائعة الجمال، لا يمكن لأحد أن يعرف أنها تخفي أثرا. كانت رسوما جدارية عارية، بعضها لفتيات يستعرضن جمال أجسادهن، والبعض الآخر لشباب وفتيات في حالات حب شبقة، لكنها متقنة بشكل يعبر عن مواهب وحشية.

تسللنا عبر الثغرة، التي كانت تقود لكوّة صغيرة، بحيث لا يمكن أن يمر منها أكثر من شخص واحد، ومنها وجدتني في ممر طويل، مثل خندق ضيق، لا تتمتع جدرانه بالتماثل والملاسة كما هي الجدران في الأنفاق الأخرى التي اعتدت عليها. كانت الجدران هنا حجرية تبرز منها نتوءات، وأحيانا تبدو كنحت طبيعي لأشكال سريالية، حيث يميل لون الحجارة للّون الأصفر أكثر كثيراً من ثلاثية الألوان الرمادية والترابية والبنية الشائعة في الأنفاق التقليدية.

من مكاننا كنا نرى وهجًا ضوئيًا في بقعة بدت لي كنهاية للنفق، وعند وصولنا إليها اكتشفت أنها باحة حجرية شاسعة، تقع أسفل كوّة بعيدة في الأعلى، كأنها فوهة جبلية مفرغة تمامًا، ما جعل ضوء الشمس الطبيعي يتسلل عبرها إلى هذه الباحة ويضيئها بشكل ساحر. لكن العتمة التي تمتص الضوء النافذ إليها كانت ترشح الضوء وتمنحه انعكاسا فضيّا غريبا. لو قدر لشخص أن يتدلى على حبل من أعلى تلك الكوّة لبدا لمن يراه، ضائعا في تيه من فضاء فسيح محاط

بجدران الجبال، لكنه لا يمكن أن يراها من فـــرط اتســـاع الفضـــاء الكهفي، الذي يتدلى في أحضانه.

سألت طارق عن اسم المكان، فلم يرد، ثم ظل يتأمـــل بعـــض الآرشات الحجرية، التي تطل على ممرات أو أنفاق أخرى. ســـرنا في نفقٍ معتم، ما استدعى أن نسير ببطء وحذر، وبعد قليل تســـلل إليّ صوت بشري يتردد صداه بشكل مؤثر. كان صوتًا ذكوريًا له نـــبرة مميزة، يتردد بإيقاع رتيب. وكلما توغّلنا في النفق كلما علا الصوت تدريجيًا، ووضحت نبراته.

وصلنا لمدخل يبدو كفجوة داخل كهف، ووجدتُ جمعًا كبيرًا من الرجال والنساء، والشباب، يجلسون على منصات حجرية تمـــلأ المكان، بينما في صدارة الكهف منصة عالية، يقف عليها رجل كان صوته يتردد عاليًا، وهمس لي طارق: "دي قاعة الشعر الإيروتيكي

كان الصوت جهوريًا واضحًا، له إيقاع يناسب إلقاء الشـــعر الذي تبينت مصدره بعد لحظات، وكان رجـــلا يرتـــدي بنطلونـــا جينـــز وقميصًا أسود مفتوح الصدر، بوجه ملتحٍ متجهم لا يخفي عينيه الذكيتين فيما شعره الطويل يعلو رأسه مثل هالة سوداء.

كان الحشد الموجود لا يزيد على أربعين شخصًا، توزّعـــوا في كل مكان، لكنهم بدوا مثل المتحجرين، وهم يشخصون بنـــواظرهم تجاه الشاعر، وفيما سمح البعض منهم لملامح الوجـــوه أن تكتســـي بالتعبير الذي يجدونه ملائمًا لما ينصتون له، فقد اقتصر آخرون علـــى نظرات صارمة جامدة، تبدو معها وجوههم متجهمة لا يعرف منها الرائي هل يحبون ما يسمعون ويتجاوبون معه أم أنهم ينصتون بـــروح نقدية غاضبة.

تذكرت سديم، وبحثت عنها بعيني في أرجاء المكان، لكني لم أجد لها أثراً. توقفت بنظري عند فتاة نحيفة لها شعر طويل بُنّي فاتح، وملامح تشبه ملامح سديم. كانت تنظر إلى الشاعر بلون من الهيام، و لم أفهم إذا ما كان ما يلقيه من شعرٍ يخصه أم أنه يلقي قصيدة لشاعر آخر من المشهورين أو المهجورين. وإزاء الجو الصامت تماما لم يكن بوسعي أن أسأل طارق، فبحثت عن جزء خالٍ على إحدى المنصات، ورحت أنصت:

"نهداك الأليفان وهما يقدمان عِظة الالتذاذ
شعرك وجماهيره الفرحة
يداك وقد تَربَّتا مع الطيور والإتقان
يداك المخدرتان وأظافرهما النائمات كأميرات
قامتك وانسياها في المكان
واضطراب الهواء بها
وانحراف المثال والتَشبُّه عنها
ساقاك والفضاء المحيط بهما
ساقاك المستنبطتان من الذُرة والفِطر
وسأمدحك أيتها الشريكة
حيث سرير نومنا هو قاربنا
ونحن نجدّف بأيدينا في الهواء من لُجةٍ إلى لُجة
حيث نجماتنا بعيدة واحتمال لذّتنا كبير
حيث انضمام العواصف الكبيرة إلى العواصف الكبيرة
سريرنا المُوشك على الغرق
المُحاط بالأشنات والزَبَد

ونحن المغموران بفقاقيع القبلات
سريرنا الطافي الموشك ونحن بحارته اثنان على سرير طافٍ
يا إلهي أيتها الشريكة!" (7)

وفور أن اختتم الشاعر القصيدة، ببطء شديد، أنهى فيه الكلمات الثلاث الأخيرة، شرع الجمهور يصفق بحماس.

اغتنمت الفرصة لأسأل أقرب الجالسين لي عن الشاعر، وكانت شابة سمراء طويلة، تميزها أظافر أنامل يديها المصبوغة بطلاء أخضر قاتم، وبشرتها النضرة اللامعة كما يشي بها كتفاها العاريان، اللذين هزتهما بعدم اكتراث، قائلة بنبرة هامسة وملامح جامدة: "ماعرفش مين ده، ولا القصايد دي، بس غالبا مش قصايده"

كانت ثمة رطوبة خافتة تشيع في جو المغارة الإيروتيكية، ونسمة هواء لا أعرف من أين تهب على المكان، تمنحه سحرًا خاصًا. وأحسست بالرغبة في الاستماع إلى المزيد من الشعر الإيروتيكي، لكني أحسست بيد طارق تمسك بي، قائلا إن الرحلة مازالت طويلة، وإنني عرفت المكان وبإمكاني أن أعود إليه وقتما أشاء.

نهضت متثاقلا، وأنا ألتفت خلفي، مثل طفل انتزعته أمه من حفل مبهج، لكن طارق بدا كمن في مهمّةٍ خاصة لا تحتمل التأجيل. خرجنا واستكملنا السير قليلا، وكنت أتأمل جدران النفق التي كانت الإضاءات العشوائية الموزعة عليها تمنحها جمالا إضافيًا.

وصلنا بعد فترة أخرى إلى مغارة شبيهة، لكنها كانت تضم جمهورًا أكبر، أغلبهم شباب وفتيات، ينصتون جميعًا لامرأة كانت تجلس على منصة حجرية تشبه أريكة صغيرة مستقرة أعلى منصة حجرية تبدو كأنها بنيت خصيصا لهذه المغارة.

كانت المرأة أربعينية، تضع نظارة طبية على عينيها، وشعرها الأسود الطويل المموج يحيط بها كملاك حارس، وضعت ساقًا على الأخرى، ولاحت ساقاها ذاتا السمانتان الربيلتان للجمهور، بسبب قصر التنورة التي كانت ترتديها، التي كشفت أيضًا جانبًا من وِركها، بينما كانت تمسك بين يديها، اللتين تزينت أناملهما بخواتم فضية مختلفة التصاميم، بكتاب كانت تقرأ منه بصوت رتيب:

"وضعَ البطانيات بعناية على الأرض، واحدة وُضعت تحت رأسِها، ثّم جلس لحظة على الكرسي الذي لا مسند له، وسحبها إليه وضمّها بذراعٍ واحدة، متحسسًا جسدها بيده الحرة. شعرت بإطباق أنفاسها حالما لمسها، وتعرّت من تحت جاكتتها الصغيرة الناعمة.

"كم جميل أن ألمسك"، قال ذلك وأصابعه تلامس الجلد الواسع الدافئ لخاصرتها ووركيها. وضع وجهه في الأسفل، على بطنها وفخذيها، مرة بعد أخرى. وقد دهشت هي نفسها لما تقدمها له من غبطة. لم تدرك الجمال الذي وجده فيها، من خلال لمس جسدها السري الحي، حيث توجد كل غبطة الجمال، لأن العاطفة وحدها هي التي عادت إليها. وعندما تموت العاطفة أو تغيب، فإن النبضة الرائعة للجمال لا يمكن استيعابها ولا حتى بقليل من الخساسة: فالجمال الحي الدافئ للتواصل أعمق بكثير من جمال الرؤية. شعرت بانزلاق خده على فخذيها وبطنها وعجزها، وبشاربيه يداعبانها. وبشعره الكثيف الناعم فبدأت ركبتاها ترتعشان. بعيدًا في أعماقها شعرت بإثارة جديدة، شعرت بعُري جديد يتجلى. فكانت نصف خائفة، ورغبت تقريًبا لو أنه لم يلاطفها بهذه الطريقة. إنه يستحوذ عليها تقريبا، ومع ذلك فإنها تنتظر، تنتظر.

وعندما دخل فيها بكثافة من الراحة والاستهلاك كان سلامًا صرفا عنده، بينما كانت هي تنتظر. شعرت قليلا أنها بعيدة، وهي تعرف جزئيا أنها كانت غلطتها الخاصة. هي أرادت نفسها في هذا الانفصال. ربما الآن كانت مدانة، ظلت مستلقية هامدة، شاعرة بحركته داخلها، بإصراره العميق، وبارتجافة مفاجئة عندما بث بذوره، ثم باندفاعة جانبية بطيئة. كانت هذه الاندفاعة للردفين مضحكة قليلا. بالتأكيد كان الرجل مضحكا في هذا الوضع وهذا الفعل.

لكنها ظلت مستلقية من دون أن تستعيد وعيها. حتى عندما انتهى لم تهم لتحصل على إشباعها الخاص كما فعلت مع ميكائيل. ظلت مستلقية والدموع تنحدر ببطء وتجري من عينيها.

وظل هو أيضا مستلقيا، لكنه ضمّها إليه وحاول أن يغطي بجساده جسدها العاري ليجلب لهما الدفء" (8)

تعرفتُ على نص "عشيق الليدي تشاترلي بسهولة، كرقيب سابق، ولو أن تلك الصفة لا تشترط القراءة الحقيقية، فكم من رقيب منع كتبًا ونصوصًا بالشبهات، أي من دون أن يقرأها، وكناسخ راهن للنصوص الممنوعة. ولو أن النص الذي تقرأه تلك السيدة ذات النبرات الرخيمة ومخارج الألفاظ الواضحة، كان نصًا ممنوعًا في زمن الرقيب البريطاني، أما الآن فهو لم يعد استثناء، في زمن أصبحت فيه الكتب المجازة هي الاستثناء لا العكس.

تأملتُ الجمهور، وبدا لي مختلفاً عن جمهور الشعر، في مقصورات عربات المترو التقليدية، بل وحتى عن جمهور مغارة الشعر الإيروتيكي. كنت أشعر دوما بنوع من التماثل في نوعية حضور

الشعر. كان أغلب من يحضر تلك القراءات من الشعراء أو من يمتهنون العمل الإبداعي.

لكني هنا وجدتُ تنوّعاً كبيراً في فئات الحضور. صحيح أن ثمة روحا شبابية تلف المكان، لكن شعورا بالاختلافات الثقافية والطبقية كان يطفو على الوجوه أو طبيعة ما يرتدون من ملابس

* * *

كان قاسم يرغب في المزيد من القراءة، ولكنه أدرك أن القراءة أبعدت ذهنه عن التوتر الذي أصابه خلال الفترة الماضية، فقرر أن يستسلم للنوم، بمجرد أن غافله النعاس..

22

يا إلهي! مرة أخرى يعتريني الفزع، لكني لن أسرد أسباب ذلك الآن، بل سأحاول أن أتغلب على مشاعري السلبية، باستدعاء سيرة رشيد الجوهري. كان قد فكر في نصوص ممنوعة يضعها في متن النص. استدعى عدة نصوص، بينها "ألف ليلة وليلة" أولا، ثم "نيكسوس" لهنري ميللر، أو آيات شيطانية لسلمان رشدي، بل وحتى القرآن نفسه، بوصفه نصًّا ممنوعًا في الاتحاد السوفييتي السابق مع الكتاب المقدس، لكنه استعاد رواية دي. إتش. لورانس "عشيق الليدي تشاترلي"، لأنه تذكر أنه قرأها بالإنجليزية خلال فترة وجوده في ألمانيا. كان يعرف أنها ظلت ممنوعة لسنوات طويلة، ولم يتوقف عن الدهشة من الكيفية التي كانت المجتمعات الأوروبية والبريطانية المنغلقة على نحو خاص تفكر بها في مطلع القرن، بل وربما حتى منتصف القرن.

اعتبر الرواية واحدة من أهم ما قرأه، مبهورا بقدرة لورانس على تصوير مشاعر المرأة العميقة خلال العملية الجنسية بهذه الحساسية والعمق. وحينما طلب من بوديت أن تشرح له إحساسها عندما تصل للذروة، ابتسمت له، ثم فكرت قليلا وقالت له إنه مزيج من شعور

بنشوة باطنية غامضة تمتزج مع موجات من اللذة التي تنقبض في موجات حتى تنفجر.

ابتسم للوصف ووجده معقولاً ووافيًا، وبالرغم من ذلك لم يكن كافيًا، أو ربما لم يكن بنفس قدرة لورانس على وصفه، ولذلك فقد قرأه لها بالإنجليزية:

"هي الآن لا تستطيع أن تفعل شيئا بقوتها الخاصة، هذه المرة كانت مختلفة، إنها لا تستطيع شيئاً. لم تستطع الآن أن تقوّي وتضبط إشباعها منه. تنتظر فقط، تنتظر وتئن في روحها كلما شعرت به فيها، ينسحب وينسحب ويتقاص ويأتي إلى اللحظة المرعبة عندما ينزلق منها، ويذهب، بينما كل رحِمها كان يتفتح، وضجيج ناعم مثل شقائق البحر تحت المدّ، تضج ثانية حتى يأتي لها ويحقق راحتها

بلا وعي التصقت به عاطفيًا، وهو لمّا ينزلق منها تمامًا، شعرت ببرعمه الناعم داخلها يثيرها، وبإيقاعات غريبة تندلع فيها، بحركة إيقاعية غريبة متعاظمة، تتورم وتتورم حتى تملأ كل وعيها المفلوع. عندئذ بدأت ثانية الحركة التي لا توصف بالكلام، والتي لم تكن في الحقيقة حركة، بل مجرد دوامات عميقة من الإحساس، تنزل أعمق وأعمق من خلال كل نسيجها ووعيها، إلى أن أصبحت كلها سائلاً مركّزًا كاملاً من الشعور. استلقت هناك صارخة بلا وعي. صرخات عاجزة عن الإفصاح. صوت خارج من الليل، إنه هتاف الحياة. سمعها الرجل تحته بنوع من الخوف، كأن حياته تدفقت فيها. وحالما ارتخى ارتخت هي أيضا، واستلقى خامدا غير مدرك، بينما تراخت قبضتها عنه واستلقت عاجزة. استلقيا لا يعرفان شيئاً، ولا واحدهما الآخر، كلاهما ضاعا". (9)

قــرأ ليوديــت المقطــع الإيروتيكــي. كانــا مضــطجعين فــي غرفــة نومهــا، علــى الســرير الأبــيض فــي الغرفــة شــبه المظلمــة، باسـتثناء البقعـة المجـاورة لمقدمـة السـرير، الـذي يقـع فـي منتصـف الغرفـة، بسـبب الضـوء القـادم مـن أبـاجورة القـراءة المجـاورة لهمـا. تمدد عاريا، إلا من شورت رياضي كان يحب النوم به عادة، وهي تلتصـق بـه، بـالأحرى تـدس نفسـها فـي حضـنه، فيمـا تخفـي نهديها الصـغيرين وصـدرها النحيـف البـارز الضـلوع مـن تحـت منامتهـا البيضـاء؛ التـي لـم تكـن سوى قميص حريري بكـم طويـل يصـل إلـى وركها.

أمسك الكتـاب بيده اليمنـى، بينمـا وضـع ذراعـه الأيسـر خلـف رأسـها الذي توسد صدره، واستكانت غافيـة تنصت لصـوته وهو يقرأ المقطـع بصـوت خافت، تبدو نبرتـه أقرب إلى حشرجة هيّنة تكاد لا تُلحظ، تتماهى مـع نبرة أخرى حادة، بسـبب الوهن الذي يصـيبه في نهايـة اليـوم، أو بسـبب جفـاف حلقـه بسـبب العطـش، لكنـه آثـر أن يستمر في القراءة، وكانت تلك النبرة تصل إلى أذنها فتصيب جسدها بقشـعريرة واهنـة، بينمـا عبـق جسـده الممتـزج برائحـة دخـان السـجائر يداعب أنفها.

كانـت تضـطجع علـى جنبهـا الأيمـن، وتتوسـد بفخـذيها فخـذه، وكـان بـين الفينـة والأخـرى يـداعب كتفهـا بيـده. فتمـرر إبهـام قـدمها اليسرى على قدمه لا شعوريا، من دون أي رد فعل منه، حتى لا يفقد قدرتـه علـى التركيـز فـي القـراءة، لكـن اسـتمرار حركتهـا سـيدفعه لا شـعوريًا لكـي يتحسـس بقدمـه كاحلهـا، ويمررهـا علـى التـل الخفيض لسطح قدمها الرقيق الناعم وصولا للأنامل.

عندما انتهى من قراءة ذلك المقطع كانت قد بدأت تشعر ببعض الإثارة، وفكرت للحظة أن تطلب منه قراءة نص باللغة العربية، التي لم تكن تعرف منها سوى "صباه الكير"، و"سلام أليكو

كانت تجد في وقعها على أذنها نوعًا من السحر، وكانت تطلب منه أحيانا أن يقرأ لها؛ على أن تحاول هي أن تفهم جوهر النص، لكنها أخفقت في كل المرّات في استيعاب المعنى المقصود.

كان يقرأ لها أحيانا مقتطفًا من رواية "الأشجار واغتيال مرزوق" لعبدالرحمن منيف، مثلا، قرأ لها مرة:

"آه لو أمتلك السُلطة، لو أمتلكها يومًا واحدًا لـدمّرت هـذا العالم. العالم لا يحتاج إلا إلى التدمير. لقد فسد كل شيء فيه، تفتتت خلاياه، تعفن، لم يعد من الممكن إصلاحه أبداً. يجب أن يدمَّر نهائياً لعل عالًما جديدًا يقوم على أنقاضه، لعل بشرًا جديدًا يأتون من صُلب عالم آخر ليطهّروا هذه الأرض التي تعلوها الآن طبقة سميكة من القذارة والتفاهة" (10)

كانت تنصت بانبهار، ثم تقول له بعد تردد إن ما فهمته مما قرأ هو عتاب من رجل عاشق يشكو هجران حبيبته، فينفجر ضاحكا. تبتسم له ابتسامة مرتبكة وطفولية يطفو عليها لون عينيها الزرقاوين، ثم يترجم لها المقطع، فتضحك؛ وتضع يدها على فمها وهي تغلق عينيها وتعيد فتحهما بتعبير خجول. كانت ضحكة تلقائية تحاول أن تخفي بها فشلها الذريع في الفراسة والقدرة على فك شفرة كلمات لا تفهم منها شيئا بمحاولة استسلام روحها لوقع تلك الكلمات، وما قد تعنيه من دلالات، وهو ما كان يبدو لرشيد، فعلا، مستحيلاً وعبثياً، ثم تسأله عن اسم الكاتب، وإذا ما كان قد ترجم للألمانية أم لا؟

أما في تلك اللحظة حيث كانا يتمددان، رفعت رأسها قليلا عن صدره. التفت لها فأودعت على جبينه قبلة سريعة، وبينما كانت في طريقها لصدره، مرة أخرى طلبت منه أن يقرأ لها بالعربية. وبالرغم من أنه كان يشعر بمتعة قراءة لورانس، لكن متعته القصوى تتحقق في أثناء قراءته لها بالعربية، فيما يتخيل وقع الكلمات على أذنها، ويحاول أن يتوقع، في الوقت ذاته، تكهنها لمعنى ما يقرأ من الكلمات التي تعد في بدء الأمر ومنتهاه بمنزلة طلاسم بالنسبة لها.

اعتدل قليلاً.. وضع كتاب لورانس على الكومود الأبيض المجاور. تناول كتاب "الخبز الحافي لمحمد شكري، وشرع يقلب صفحاته قليلاً، ثم قال: "هيا بنا يا سيدتي أودعت قبلة خافتة على صدره. ابتسم فيما يهمس لنفسه: "حياتي". كانت هذه هي عادته، كلما لمست جزءا من جسده بالتمسيد أو القبل، أن يهمس لنفسه بما يشعر به.. ثم بدأ يقرأ:

"صعدت إلى شجرة التين في ذلك الصباح. أرى آسية من خلال الأغصان. تمشي مختالة على مهل. تدنو من الصهريج. إذا اكتشفتني فقد تخبر أباها عني. هو أيضًا ما رأيته قط يبتسم مثل أبي. اللعنة على كل الآباء إذا كانوا مثل أبي. تلتفت بعيداً وقريباً. تتوقف. تُصغي إلى الأصوات. عيناها سوداوان كبيرتان ويقظتان. تخيفان. لو لم أكن أعرفها لظننتها جنّية. تقترب من الصهريج بخطوة واثقة وأخرى بشك. أهي تخاف؟ كم تلتفت! تتمهل في المشي كأنها تمشي على البيض تخاف أن تكسره. تقف على عتبة درجات السّلم كأنها الوحيدة في هذا العالم. تفك حزام منامتها.

لم أعد أرى سوى جسمها. تنفتح المنامة الوردية مثل جناحي طـائر يريد أن يطير ولا يطير. ينبثق بياض أعلى جسمها إلى ردفيها. يدوخ رأسي بلذة. أنبهر. تسقط التينة من يدي. أبلع التي في فمي. سـلّتي تميل. يسقط نصف محتواها. يبزغ قرص الشمس القرمزي يحفه النور مثل بيضة مكسورة في صحن أزرق. تسبح الكائنات. يصفر عصفور والحمام يهدل وديك يصيح ونهيق حمار يغطي كل الأصوات التي لا أراها. لا أرى سوى تلك التي.. تتعرى. آسية تتعرى. أتخيل الوجود كله يعرى: الأشجار تسقط أوراقها، الناس يعرون، الحيوانات يسقط عنها زغبها وشعرها. تنـزلق المنامة على جسدها. تعـرت. آسـية تعرت. ابنة صاحب البستان تعرت. ما أضوأ ما في جسمها! ما أسود ما في جسمها! صدرها ملآن. ثمرتاها منتصبتان. زغبٌ أسفل سُرّتها أسود مخيف وجميل. يؤلمني انتصابـي. تخطو خطوتين فـوق عتبـة الصهريج. هياجي يشتد. شعرها الأسود يغطيها من الوراء. تـنحني. على كتفيها ينسدل سالفها إلى الأمام. تعرت من الوراء. ينفتح لحمها الأبيض من الوراء عن ظلمتها الخفيفة. يتعسّل فمي. يتدغدغ. يؤلمني جسمي بلذّة" (11)

* * *

لم تقل له شيئًا، لكنها كانت بدأت تشعر بالبلل، وأخذت تلتصق بـه، بينما تحاول أن تضم ما بين فخذيها إلى فخذه. بدأت تقبل صدره، فوضع الكتاب إلى جواره، وعاد ليتحسس شعر رأسها البنّي الناعم، مستطيبًا ملمس شفتيها الرطبتين على صدره. ولنفسه همس: "يا روحي". بدأت يدها تتسلل إلى قضيبه وتتنزل بأناملها صفنه فهتف

بمحبة ولكن بلا صوت، وعندما ظلت تداعب أسفل خصيتيه وبين شق ردفيه بنعومة، هتف لنفسه: "يا بنت الحرام"، ثم امتصت حلمة من حلمتي صدره، فتنهد بصوت شبق.

عرفت بشرته لمسات أيدٍ لفتيات عديدات، بينهن حبيبته التي أحبها خلال فترة دراسته بالجامعة، راوية، الشقراء البيضاء مكتنزة الجسد، وجمعت بينهما علاقة حسيّة طويلة حتى انتهت فترة الدراسة وانفصلا، وسلمى، التي وقع في غرامها كما لم يفعل مع غيرها. وبيرجيت الفرنسية ذات الروح الشرقية التي جمعته بها علاقة عابرة لفترة من الوقت، وانغمسا معا في عالم مزيج من الحسية الروحية كما كانت تصف علاقتهما، وغيرهن.

لكنه لما قارن إحساسه بملمس كفي يوديت، الرقيقتين الصغيرتين على جسده، بما يتذكره من ملمس أيدي الأخريات، وجد أن أناملها لا تمارس عبورًا حسيًّا رشيقا على بشرته فقط، بل تحاول أن تصل إلى روحه. أناملها تتحرك على ظهره وكتفيه وصدره كيفما اتفق، بوحي من روحها. وبالتالي لم تكن تستثيره بقدر ما كانت تخاطب جسده وروحه على نحو ما. لذلك فحين كان يمارس معها الجنس، لم يكن يبحث عن مُتعة حسيّة خالصة، بقدر ما كان يشعر بأن جسده يخاطب جسدها، وأن الجسدين معا في تناغمهما الحسي يفتحان الباب لحديث الروحين. كان يجد في كل ممارسة حسية وجنسية مع يوديت عناقًا روحيا عميقا عبر الجسد، ليصل لإجابة عن سؤال الروح الرئيس: من أنت؟ وكانت تجيب بجسدها أنها مكمن روحه، وتوأمها. القلب الذي ينصت فيفهم لباطنه العميق من دون كلام.

كانت شهوتهما تتصاعد تدريجيًا، حتى اللحظة التي تعريّا فيها معًا، ولم يوقف حماسهما الشهواني من رغبة كل منهما في تحسس ربوات ونتوءات ومنحنيات ناعمة، في وَلَهٍ، وقد جُنَّ كل منهما بجسد الآخر..

23

بالرغم من أنه عادة ما يشعر بالنعاس يتسلل إلى جسده وحواسه، عقب أن ينتهي من ممارسة الجنس مع يوديت، لكنه في تلك الليلة، وبعد أن استلقى بجوارها مرتخيًا، سمع صوت أنفاسها المنتظمة معلنة عن استغراقها في النوم. شعر برغبة في التدخين، فتناول علبة سجائره ونهض من الفراش بحذر، تأكد من وضع البطانية على جسدها بشكل جيد، وبجوار الباب تناول الروب الصوفي الرمادي من على المشجب، وانتعل شبشبه، وخرج عاريًا قبل أن يتوقف للحظة، ليرتدي الروب، ثم مشي بخطوات متهادية إلى المطبخ. لذعت أنفه نكهات المطبخ التي يطغى عليها دائما مزيج عبق القهوة وعطن برتقال. شرب من كوب ملأه من صنبور المياه.

لفحته برودة الجو فور خروجه، لكنه واجهها بإحساس بالانتعاش، وبالتنفس عميقًا وتنشق الهواء، ثم بإشعال السيجارة ونفث دخانها الذي تضاعف بفعل البرودة. كانت أغلب النوافذ المواجهة له مُعتمة، ولكنه وجد في العَتَمة والهدوء سكونًا روحيًا انتشت به كل حواسه.

كان يفكر بأنه ارتبط بيوديت بشكل عاطفي لم يسبق أن شعر به في أي علاقة سابقة. لكن مشكلته كانت مع إحساسه بأن هذا الارتباط الوثيق يجعله مرتبطا بألمانيا. بل ربما بشتوتغارت، فقد كانت يوديت، رغم ظروف عملها المتقلبة، مرتبطة بفكرة الاستقرار بشكل أثار تعجبه باستمرار.

التقى في أرجاء مختلفة من المدينة، وفي مناسبات عديدة، شبابا يتنقلون من أقاليم طفولتهم وصباهم إلى أقاليم فرص العمل. هنا؛ في شتوتغارت، التقى فتيانا جاءوا من النمسا واستقروا، والبعض ممن كانوا قد انتقلوا من برلين. كما عرف آخرين من أهل شتوتغارت ممن قرروا الانتقال إلى هامبورج، فرانكفورت، دريسدن، ليفركوزن، ميونخ، كولن، دوسلدورف، أو بون إما ليعيشوا مع حبيباتهم، أو توفيقا لوضع العاطفة والعمل معا.

يوديت كانت تتحدث دوما عن الانتقال من شتوتغارت، أو التنقل عموما بوصفه حلما، ولكنه لم يشعر بأنها يمكن أن تتخذ قرارا كهذا في يوم من الأيام. وفي هذا لم يكن يشعر بأنها ألمانية تماما.

كانت تحدثه عن إيطاليا، بوصفها البلد الحلم بالنسبة لها، وتبتسم بعينيها الزرقاوين الحالمتين ابتسامة خبيثة لتخبره بعشقها للرجل الإيطالي.

الرجل الإيطالي؟! أي رجل إيطالي؟

أي رجل إيطالي.. كل رجل إيطالي!

ابتسم لها ببرود متصنع، وهز كتفيه؛ كأن الأمر لا يعنيه.

لكنه كان متأكدًا أنها حتى لو التقت رجلاً إيطاليًا ووقعت في غرامه لأقنعته بالبقاء في شتوتغارت، ولا يمكن لها في المقابل أن تتخذ قرارًا بالرحيل إلى إيطاليا على نحو جاد.

عاودته الأسئلة الوجودية عن حياته في ألمانيا وجدواها. هل تحقق له ما يريد؟ أم أنه يعيش فيها بالفعل وفقط من أجل يوديت، وهل لو سنحت له فرصة عمل مناسبة في مكان آخر ستنتقل معه، أم أنها ستضع أولويات عملها وظروفها عائقا أمام ذلك؟

كان يعرف أنها عاطفية ورومانسية، لكنه، بمرور الوقت انتبه إلى أنها تحمل في ذاتها رغبة دفينة في تعذيب الذات، وفي استعذاب الدراما. كانت هناك علاقات عاطفية كثيرة قد مرت بها، لكن غالبيتها انتهت بسبب ظروف الانتقال التي كانت تضطر الطرف الآخر للرحيل. فلم تكن على استعداد، في أي من تلك العلاقات، أن تضحي وتقرر الانتقال. كانت تتعامل مع أخبار انتقال عشاقها من شتوتغارت إلى مدينة أخرى، كأنها وسيلة العاشق لإعلانه انتهاء العلاقة بينهما؛ وكأنها كانت تجد في ذلك ملاذا للحياة في اكتئاب لفترة، والشكوى من مآسي الحياة التي تلاحقها، وحظها التعس.

المرة الوحيدة التي كانت تعيش فيها فراغا عاطفيا وقررت فيها أن تسافر لتهرب من إحساسها بالوحدة صادفت يوم أن التقاها في الأقصر، وقد عادت إلى شتوتغارت وهي تحمل صورته في خيالها، وتجد فيه شيئا مختلفا.

كانت تردد لنفسها؛ كما أخبرته لاحقا: "جربت الكثير من الألمان، وبعض الأوربيين، فلأجرب شيئا مختلفا، لعلني أجد علاجاً لروحي في الشرق هذه المرّة". كان يعرف أنه بنومه معها في القاهرة

بعد أسبوع واحد من تعارفهما كان ينفذ رغبة امرأة أرادت أن تعيش تجربة، أو ربما مغامرة عابرة، ليلة غرام، أو عشق جسدي، بلا أي تبعات، ولا حسابات من أي نوع. ليلة تغذي خيالها الرومانسي عن الشرق، أو ربما تؤكد ذلك الخيال، المستعار من صور المستشرقين. وتقريبا نسي تلك الليلة بعد عدة أسابيع قليلة، وهي أيضا، لولا اتصال هاتفي منها جاءه لتوصيه بإحدى بنات خالاتها، التي كانت في زيارة سياحية للقاهرة، أرادت منه أن يهتم بها عندما تمر بالأقصر. لكن الاتصال استمر طويلا حتى قالت له بنبرة عادية إنها ترحب بزيارته لألمانيا لو شاء، ومن هذه الجملة بدأت رحلته بين أروقة البيروقراطية المصرية، ووصولا إلى أروقة مطار فرانكفورت العملاق، ثم إلى الصالة الصغيرة الوحيدة لمطار شتوتغارت.

أنهى سيجارته، ودخل إلى المطبخ الدافئ، وانتفض جسده مرتعشًا عقب إدراكه لشدة برودة الجو القارس في الخارج. لكنه لم يجد في نفسه الرغبة للنوم بعد، فقرر الاتجاه إلى غرفة المعيشة التي تتسع لطاولة الطعام، وتضم، في ركن صغير، أريكة تتسع لشخصين، وكرسي فوتيه آخر بنفس لون الأريكة الأزرق. تأمل الكتب المتراصة في المكتبة الصغيرة المجاورة لباب غرفة المعيشة.

وجد عددًا من الكتب أغلبها بالألمانية، وقليل منها بالإنجليزية، أغلبها روايات، كان يعرفها، ولكنه تأملها كأنه يود أن يختار من بينها شيئًا للقراءة. وقعت عيناه على عناوين، مثل "مذكرات فتاة صغيرة" لكاتب يدعى آن فرانك، ثم "أميركا" لكافكا، و"رحلة إلى الشرق لهرمان هسه، و"رفاق ثلاثة.. رواية ألمانيا بين حربين" لإيريك ريمارك.

أمسك بالكتاب. كان غلافه الورقي بُنّي اللون ومكتوب عليه اسم إيريك ريمارك، ثم عنوان الرواية بالذهبي. اتجه به إلى الأريكة، وجلس مسترخيًا. قلّب في صفحات الرواية، وعاد إلى مقدمة الكتاب، التي فهم منها أنها تدور حول ثلاثة أصدقاء في فترة الحرب في ألمانيا، في العام 1928، يحاولون التغلب على الكراهية والعنف الذي يحيط بهم، ويعملون معا في إصلاح وبيع السيارات. يقع أحدهم، روبرت، في غرام فتاة جميلة تدعى "بات". تتلون حياته بسبب علاقته بهذه الفتاة، ويتبادلان الغرام، ولكن الفتاة تتعرض لمرض خطير يضطرها للذهاب إلى إحدى المصحات في سويسرا، ويموت لينز، أحد الثلاثة، فيظل روبرت وأوتوا يصارعان الموت والوحشة معًا.

تأمل صفحات الكتاب، وقرأ سريعا بعض مشاهد الرواية، ثم لاحظ ورقة وصورة بين صفحات الكتاب. صورة ليوديت، تجلس عارية في بانيو عتيق، متحرك، من ذلك الطراز ذي الأقدام النحاسية المزخرفة، تنظر إلى المصور بعين شاردة، وبسبب العَتمة لا تظهر الصورة موقع البانيو، بل تجعل من وجه يوديت وكتفيها العاجيين مركز الضوء. كانت تبتسم ابتسامة طفيفة، تكفي لتكشف أسنانها المتناسقة البيضاء التي تحتمي بالشفتين الورديتين النحيفتين، أسفل أنف دقيق متوسط، لا يثير الانتباه.

أخذ يحدق في العينين طويلا، وهتف لنفسه "عينان شعريتان". كان كعادته قد هتف لنفسه بهذا الهتاف في إحدى المرات، بينما كانا يتناولان عشاءهما في مطعم شعبي في إحدى ضواحي شتوتغارت. كان لتوه قد انتهى من نكتة عن تصوراته عن نفسه حين بلغ العشرين، قال لها إنه ظلّ يردد بفخر أمام أصدقائه ذلك الخبر،

وذهب في الليلة التي تلت يوم عيد ميلاده العشرين إلى مصور فوتوغرافي شهير في ضاحية قريبة من سكنه، وجلس أمام العدسة مبتسما ليخلّد لحظة بلوغه العشرين السعيدة، وكان يُخرج الصورة لأصدقائه من حافظته الجلدية الأنيقة كلما التقاهم بفخر وحبور مبالغ فيهما، حتى قال له صديق مقرب بسخرية: "أي حيوان تجاوز العشرين بشهر واحد قد مر بهذه الخبرة التافهة.. فماذا بك؟"

ضحكت يوديت ضحكة صاخبة، ووضعت يدها على فمها، وهي تتلفت حولها وتبتسم له معاتبة كأنه هو السبب. وفي اللحظة ذاتها كان يهتف لذاته بإيقاع حماسي باطني "عيون شعرية"، بعد أن اقتنصت عيناه من ملامح وجهها ابتسامة آسرة تجعد بسببها طرفا عينيها الخارجيين، وظلت تداعب خياله طويلا.

تأمل الورقة الصغيرة التي كانت موضوعة في نفس الصفحة. وجد فيها خط يوديت الأنيق المنمق، وقد كتبت: "يا ربي! أي جمال هنا؟ الحب في مواجهة الموت. لو قدّر لي أن أعيش لحظة كهذه لما اهتممت لو أنني كنت سأموت بعدها مباشرة".

خطر على ذهنه في تلك اللحظة طيف يوديت. تخيلها وهي تقرأ الرواية وتبكي عند مقطع أو مشهد معين. استعاد صورة عينيها لحظة أن بكت أمامه، واختلطت زرقة عينيها بحمرة بياض العين.

قرأ الصفحة وكان فيها مشهد يرقص فيه كل من بات وروبرت طيلة الليل، بينما تتناثر الجثث حولهما في كل مكان، وبعد أن كان الموت يعشش في كل ركن من حولهما.

أغلق الكتاب ووضعه بجواره وتنهد بعمق، ثم ألقى برأسه على الأريكة يحدق في سقف الغرفة وهو يستدعي المشهد من الرواية.

"فجأة وجدت نفسي أمام ممر واسع من الحجارة، أرضيته مصقولة، وعلى يمين الممر ويساره تراصت مجموعة من الأعمدة الجرانيتية العملاقة خلف بعضها بعضا، لتمنح للمكان حسًّا أسطوريا مبهرًا. نظرت إلى طارق فوجدته ينظر بسعادة باتجاه عمق الممر الذي كان مضاء بإضاءة خافتة تنطلق من أسفل الأعمدة، كان كل منها قد امتلك مصدرًا خفيًّا للإضاءة التي تأتي من خلفه. وفي نهاية الممر ظهر تمثالان فرعونيان مستقران بثبات ورسوخ على قاعدتين حجريتين مصقولتين لرجل وامرأة من العصر الفرعوني.

لم أنطق بشيء من شدة انبهاري بما وقعت عليه عيناي، فيما جاءني صوت طارق معلنا بنبرة بها نوع من الإعجاب: "مدخل مدينة النسّاخين"

نظرت إليه وأنا أعيد تأمل المشهد وأتجول بعيني في المكان، وألاحظ الحليات الزخرفية والنقوش المحفورة في قمم الأعمدة التي أقيمت جميعًا على قواعد مكعّبة الشكل، ضخمة نسبيًا. كنت أشعر بأنني دخلت مشهدًا سحريًا لا علاقة له بأي شيء مما عرفته في الواقع.

لم يكن ما أراه أمامي في هذه اللحظة يحتاج إلى الكثير من الفراسة، فهذه بلا شك مدينة فرعونية قديمة، من آثار المصريين التي دفنت مثل غيرها، لأسباب غير معروفة، وربما اكتشفها كبير النسّاخين ومعاونوه، وجعلوا منها مقرًا لكتيبة النساخين الهاربين.

كان طارق يتأمل المكان، ليس كمن يراه لأول مرة مثلي، بل كمن يبحث عن علامة أو إشارة بعينها. وبعد لحظات نادى عليَّ، وهو يقف أمام العمود الرابع من حيث كنت أقف، فاتجهت إليه،

ووجدت خلف العمود جدارًا به ممر، لا يزيد على شقٍ يسمح بمرور شخص واحد بصعوبة. قال طارق إن كبير النساخين حرص على إغلاق كافة الأبواب الرئيسية للمكان، وترك بعض المنافذ السرية، بحيث لا يمكن الدخول إلى المدينة إلا بواسطة من يعرفونها فقط.

وبعد مسيرة شاقة في هذا الزقاق، الذي يشبه الجُحر، وصلنا أخيرًا إلى حائطٍ حجري بدا وكأنه نهاية هذا الأخدود الضيق. وتبين لي أن طارق، على ما يبدو، قد ضلّ الطريق، لكنه ظل واقفًا بعناد. وبعد قليل وجدته يطرق الجدار بيديه.

انتظر لثوانٍ، ثم وجدته يخرج من جيب بنطاله كرة معدنية صغيرة، وبدأ يطرق بها الجدار، وبعد لحظات أخرى سمعنا صوت صرير يعلو، لكنه يأتينا من جهة اليسار. أشار إليّ لكي أتبعه، ومشينا في الزقاق الجديد الأفقي، الذي يتعامد مع الزقاق الذي سلكناه قادمين من خارج مدينة النساخين. وبعد عدة خطوات وجدته ينفذ إلى الداخل، وبعده مباشرة رحت أتلمس الجدار لكي أتتبع مكان دخوله.

كتمت أنفاسي بسبب الرائحة التي هبّت مع لفحة الرطوبة التي ضربت جسدي ووجهي. رائحة تبدو أقرب إلى رائحة كمكمة، لكنها محتملة رغم ذلك، بينما كانت قدماي تتحسسان أرضًا رطبة لا يمكن أن أتبين منها شيئا في العتمة.

ناديت على طارق. وبدا صوتي ضعيفا، حتى أنني بالكاد سمعته. ولم أفهم لماذا بدا لي مكتومًا على هذا النحو ولما لم أسمع شيئا قررت السير بهدوء، حتى أنتهي من هذا الظلام الذي بدأت أنفاسي تضيق بسببه. وسمعت صوت طارق مرة أخرى، فتوقفت حتى أتمكن من

تحديد مصدر الصوت بدقة، وعاودت النداء عليه. وسمعت صوتي بنفس الضعف. بدأت أتنفس بسرعة، ولم أفهم إذا ما كان ذلك يعود إلى التوتر من المكان والعتمة، أم من الضيق والخوف. فكرت أن أجلس في ركن قريب من أي جدار، لكني لم أكن متأكدا حتى مما إذا كانت الأرض حجرية أم متربة أم طينية.

ناديت على طارق بأقصى ما يمكنني من قوة، ولكن صوتي ضاع، كأنني أنادي في مكان لا هواء فيه، ولا قدرة لصوت على الانتقال عبره، كأنه كاتم للصوت.

أدركت أنني لا بد من أن أستعين بذاتي. أن أسيطر على توتري، وأقاوم العتمة، بانتظار إمكانية أن تتمكن عيناي تدريجيا من رؤية أو تحديد أي شيء من حولي، حتى أتمكن من رؤية أي مخرج من هذه الحجرة المقبضة.

توقفتُ صامتًا، وبدأتُ أشعر بأن الصمت أصبح ثقيلاً حتى تحول إلى وشيش غامض لا أعرف إذا ما كنت أستمع إليه حقًا، أم أنه ضجيج ما يدور في عقلي من أفكار وهواجس. تحول الظلام إلى وجود مادي ثقيل. شعرت أن العتمة أصبح لها ملمس. كأن طبقة من وبر ناعم تداعب وجهي.

والمدهش أنني حينما بدأت أتحرك وأمشي في المكان لم تصدني حجارة أو جدران كما كنت أتوقع. سرت وعددت خطواتي إلى اليسار ولم يوقفني شيء. لكن طول المسافة التي قطعتها جعلني أتوقف. شعرت بالخيبة، وبالضيق. ما هذه المُزحة السخيفة التي دبرها طارق؟ وأين أنا حقا؟ ألم أمر قبل قليل، كالأفعى، من شق ضيق خلف عمود فرعوني عملاق في مدخل بناء أسطوري؟ أتُراني كنت

أحلم؟ هل بدأتُ حُلمًا ما مع ذلك النفير الغامض الذي انطلق مدو، في مدينة الأنفاق؟

لكني كنت أعرف أنه لا مجال للانسياق لهذه الفكرة. أنا يقــظ وموجود في مكان معتم. في الحقيقة في متاهة الصمت والعتمة، بــلا خارطة تدلني على الطريق، ولا ضوء ينير لي دربــي، بلا رفقة مــن أي نوع، سوى أفكاري التي تضج الآن في رأسي. تمنيــت أن أرى سديم، تخيلتني أمسك يدها في هذه العتمة محاولا التغلب على مخــاوفي من إحساسي بأنني المسؤول عن حمايتها من غموض المكان، ومــن هواجس عقلها.

عدت للسير، ولكن في الاتجاه العكسي هذه المــرة، وعــددت عشرين خطوة تصورت أنني أمشيها في طريق عرضي، أي في اتجــاه يتعامد مع اتجاه دخولي المكان. انتهيت من الخطوة العشرين وبــدأت العد وأنا أسير، خطوة إثر أخرى، بحذر، محاولا تبين موقع كل خطوه والتيقن من ثباتي على أرض صلبة، وأنني لا أضع قدمي على موقــع هش، أو في حفرة غير مرئية قد أسقط منها إلى حيث لا أعلم

24

استدعيت ذلك المقطع من الرواية الآن، بالأحرى من ذاتي،
ما لأنه أكثر ما يمكن أن يعبر عن حالتي هنا، في التو واللحظة.
الة من الضياع التام، والإحساس بأن مستقبلي أصبح غامضًا
امًا، لا أعرف أين سيكون مصيري. وإذا لم يجدني رشيد فأين
أكون؟ مجرد دفتر صغير في معيّة شخص لا أعني له شيئًا، أو
لني أنتقل بين أيدي من يتصورونني مجرد مجموعة من أوراق لا
مة لها فيلقونها في صندوق القمامة القريب؟

هذا كان شعوري في الحقيقة حين تسللت إليَّ في العَتمة يد
صغيرة غريبة، لا أعرفها، لكني تأكدت أنها ليست يد قاسم. وهنا
ادت إليّ مخاوفي.

لكن سرعان ما سأتبين أن فتاة سمراء جميلة بشكل لافت،
رتدي زيًّا قصيرًا مزركشًا بألوان عديدة، تسللت إلى غرفة قاسم في
غيابه، وانتشلتني من على الكومود الصغير المجاور لفراشه،
إنطلقت خارج الغرفة لا تلوي على شيء.

تسللت الفتاة إلى إحدى القمرات، التي يبدو أنها كانت تعرف
نها خالية، وأغلقتها خلفها جيدًا.. ثم أمسكت بي تتأملني.

وتأملتها بدوري، وجدت فتاة في أوائل العشرينيات، ذات بشرة سمراء جميلة، لها ملامح وجه منمقة، دقيقة. وكانت أرنبة أنفها الأشم منتصبة تجعل من الأنف مركزًا بصريًا ملفتا، رغم صغرها، وضيق حرفي المنخرين، أعلى شفتين صغيرتين، تبدوان مبتسمتين حتى وهي صامتة، وقادرتين بالتالي عن كشف أسنانها البيضاء الناصعة المنفلجة. بينما انسدل شعرها الأسود، الذي بدا لي رطبا من فرط حيويته، كهالة حول وجهها بخديه النحيلين، مخفيًا جبينها ووجنتيها.

شعرت من الطريقة التي جرت بها عيونها على سطوري أنني بدوت بالنسبة إليها مثل لغزٍ غامض، طلسم لا قدرة لها على فك شفرته.. تمامًا كما بدت لي في هذه اللحظة.

فمن تكون هذه الفتاة اللغز؟ من أين جاءت؟ ومن دلّها على الطريق إليَّ؟ وكيف سيكون مصيري الآن بين يديها؟

جلستْ على الفراش، بثوبها القصير المُلّون بمزيج من ألوان نارية؛ كاشفًا ذراعيها وكتفيها وساقيها بلونها الأسمر. كانت متعرّقة قليلاً، وكان كهيف الرقبة الصغير؛ تلك الفجوة الثلاثية الواقعة عند ملتقى العنق بأول الصدر، يتلألأ بقطيرات عرق طفيف التمعت بها بشرة وجهها إجمالا. عادت لتتأملني وتقلب أوراقي، كأنها تبحث في متني عن رسوم أو صور. تتوقف قليلا وتمعن النظر كأنها ترقب جمال خط رشيد الجوهري، الذي يمثل جزءًا أساسيا من ملامحي وكينونتي، ثم تعاود تقليب الصفحات.

لماذا إذن اختارت أن تنتشلني من بين أغراض قاسم جميعا إذا كانت لا تعرف القراءة، أو ربما لا تعرف اللغة العربية؟ لعلها الآن ستعيدني من حيث أتت بي. وضعتني في درج الكومود المجاور لفراشها، وأغلقت عليّ، وهكذا عدت إلى وحدتي وإلى العتمة.

"لم أعرف فعلا ماذا أفعل بنفسي. هل أجلس على الأرض مستسلما لليأس والانهيار، بوصفهما الخيارين الوحيدين المتاحين لي في اللحظة الراهنة. أعليَّ الآن أن أتشبث بالأمل في أن يعود لي طارق بشكل أو آخر؟ أم يُفترض أن أستمر في المشي مثل التائهين في القفار بلا هدف؟ ماذا أفعل؟

سرتُ حتى تعدّت خطواتي أربعين خطوة، بلا أي أمل في أي جديد. وهكذا لم يعد أمامي سوى الجلوس في مكاني. نزلت على ركبتيّ أولا، وتحسست الأرض، بدت متربة، نبشت فيها قليلا، فأدركت أن هناك طبقة صخرية أسفل هذا البساط الترابي الرطب، وجلست.

استدعيت وجوه بشر مدينة الأنفاق ممن عرفت: سليم، ونقار الزجاج، ونيرد، والخُفّاش، ووجوه عدد من شعراء المترو.. أين هم الآن؟ هل سيلحقون بي؟ أم أن وجودي هنا يعني مرحلة جديدة من الحياة في مدينة الأنفاق؟

يا الله! مرحلة جديدة؟ لقد تعبت من المراحل الجديدة. ألا يكفي ما مر بي هناك في مدينة الظلام؟ ألا تكفيني الخبرات السيئة؟ لكن.. من يدري؟ فلعل أي تجربة جديدة لا يمكن لها أن تكون بسوء ما مررت به مع المتكتم وأتباعه. على الأقل؛ فكل شخص ممن قد يتواجد هنا سيكون إما مطرودا أو هاربًا من مدينة الظلام، ولعله، على نحو أو آخر، سيكون خصمًا من خصوم المتكتم.

لكن العتمة المستمرة هنا، ورائحة الرطوبة الخانقة، وجلوسي على أرض متربة لا تسمح لي حتى بالاستلقاء أو التمدد، جعلتني أشعر بتصاعد توتري، للدرجة التي كنت أشعر معها أنني قد أتعرض

للانهيار. أن أصرخ كالمجانين أو كطفل لا يجد من لغة العالم سـوى الصراخ العنيف، تعبيرا عن خوفه أو غضبه.

كنت أفتش في ذاتي، ابحث عن مواقف شبيهة مرت بـي في حياتي. لم تلتقط ذاكرتي سوى تلك الفترة القلقة، المتقلقلة التي مررت خلالها بأسوأ المشاعر عندما أوقفني المتكتم عن العمل معهم. كنـت أشعر بأنني معلق في الفضاء، لا قدرة لي على وضع قدمي على أرض مستقرة، مهدد بانقطاع رزقي، بل وفي موقف خصومة مع المتكـتم شخصيًا، وفي هكذا مواقف لا تجد من حولك سوى النذالة والخسة، والتضامن الجماعي ضدك، لمجرد أن إظهار التعاطف معك قد يعرض من يفعل ذلك لمصيرك نفسه. ولم تكن تلك سمة من سمات أي ممـن عملوا معي من المتكتمين.. بل العكس، كانوا "غدّارين"، تشـعر أن حياتهم تقوم على التربص، بك أو بغيرك، لا يهم.. المهم أن يكسبوا بك نقطة تقرّبهم إلى الكبار، المتكتمين أصحاب الحظـوة والسـلطة الذين يتمتعون بالنفوذ الكامل، ويغدقون على المقربين منهم بالفرص والمزايا المادية والمعنوية، التي لا يحلم بها أي موظف صغير يعمل رقيبًا مبتدئًا يقرأ النصوص، أو يمر على المحال ليراقب امتثال الجميع لأوامر المتكتم.

ربما باستثناء ناصر، كيف أخفته الذاكرة طوال الفترة السابقة؟ ناصر، النموذج الذي كشف لي فجأة حقيقة مـا يـدور حـولي.. الشاب الذي لم يبد لي يوما أنه ينتمي إلى مجتمع المتكتمين، والـذي أخبرني، بعد أن صرنا أصدقاء، أنه أراد فقط أن ينضم لهذا القطيـع ليكتشف حقيقة ما يدور في عقول هذه العصابة المجهولة، وأنه لا يقرأ سوى كل ما يمنعه المتكتم وفريقه من التابعين، وبسخرية كان يـردد

أنه يثق ثقة عمياء في جهل المتكتم، وأن من يرى نفسه تابعًا لضحل مثله لا يمكن أن يكون سوى...

كان يصمت قليلا ويتطلع بعينيه النجلاوين إلى السقف، كأنه يبحث عن الكلمة المناسبة.. لكنه ضحك وقال لي: "مش لاقي تعريف دقيق الحقيقة، مافيش أوسخ من كده بصراحة"

كان يتعمد أن يتناول المخطوطات أو الكتب المطبوعة التي انتهى من قراءتها بعض المتكتمين من زملائنا، ويرى موضع الخطوط التي خُطّت تحت الكلمات أو العبارات أو الجُمل، تعبيرًا عن أن تلك الجمل مشبوهة تحتاج إلى البتر والحذف، ويقرأ تلك الفقرات أو الجمل بصوت عالٍ، وفي وجود بعض الأخوات المتكتمات، ثم يضحك بصوتٍ عالٍ، وبسخرية لاذعة يردد لصاحب الفقرات الموصى ببترها كلمات شكر أقرب ما تكون فاحشة.

والمدهش أن الجميع كانوا يخشونه. ولكن ورغم الجو العام للوشاية والشكاية السائد في المكان، لم يجرؤ أي منهم على الاقتراب منه، إذ كانوا جميعا يتصورون أنه مدفوع عليهم من المتكتم نفسه، ليراقب مدى أمانتهم وإخلاصهم لعملهم، وللمتكتم أيضا.

قرأ يوما نصّا كان قد أوصى بمنعه واحد من زملائنا المتكتمين، وتوقف عند فقرة كانت تدور عن رجلٍ مِثليّ يقول:

"في بولفار سانتا مونيكا، بمدينة لوس أنجلوس، وتحديدا ببنسويلا أوتيل، كنت مستلقيًا في سرير من زمن السلاطنة، متجردًا من ملابسي كليًا، مستعرضًا نفسي للرسام ليرسم لوحته على حضور القمر. ملمس الحرير يداعب جسدي بكل رقة ونعومة، ونشوتي ترتفع تدريجيًا بارتفاع صوت اصطدام الأمواج، معلنة وصولها لضفة

البحر. أتأمل الضوء المنبعث من الشموع، وكل فكري يحوم حول انتزاع شفتي الرسام من مكانهما بكل جبروت وقوة. كان تركيزي مسلّطاً حول مدى احتياجي ورغبتي في الإحساس بدفء جسم الرسام المغري بعضلاته. لم أفكر ولم أتردد وأنا أشاور للرسام بالاقتراب، بينما كانت يداي تداعب جسمي بكل إغراء وانحطاط. تمنيته لو كان حيوانا مفترسا ليمزقني إرباً من دون أي أدنى إحساس بالرحمة، تمنيته لو ضاجعني كما يضاجع السكير ساقطة لا يكنّ لها أي إحساس بالاحترام، وأنهي ليلتي بمضاجعته مغتصبا أي إحساس بالرجولة ملكه يوما ما" (12)

كانت الفقرة التي توقف عندها ناصر مشطوبة بقلم رصاص، خطه الرقيب على الفقرة كلها.

انتابت ناصر حالة من الضحك، بعد أن رأى سيدة محجبة من فريق المتكتمات، مهمتها مراجعة التقارير المكتوبة في الكتب الممنوعة، وقد رسمت على وجهها ملامح امتعاض مبتذل.

نظر لها ناصر وقال لها، بلغة فصيحة، كأنه يستعرض بلاغته:

هل أزعجتك يا سيدتي بهذه الكلمات الفاحشة؟ هل ترين في جسد الرجال والتعبير عن مشاعرهم لبعضهم بعضا فحشا؟ أعتذر لك إذن عن عدم لياقتي. لكن اسمحي لي أولا أن أبدي اندهاشي من أنك مازلت تتمتعين بهذا الحس الأخلاقي المميز، بينما أنت اليوم من أكثر الموجودين خبرة في قراءة الفواحش، هذا إذا اتفقنا أنها فواحش، من تلك التي تقرؤونها وحدكم وتمنعونها عن الناس؟ هل عضلات الرسام أصابتك بالإثارة يا سيدتي؟ أنا أعتذر نيابة عن الرسام إذن،

لأنه سمح لنفسه أن يؤذي مشاعر سيدة خلوقة مثلك، مهمتها تنظيف الأدب، والنصوص والكتب، وتقديمها مبتوره للجمهور، باعتبارها النسخ الأخلاقية المختومة بخاتم كبير المتكتمين. لكن دعينا نكون واقعيين يا سيدتي، فعادة ما يكون وصف محاسن النساء هو الذي يثير الشهوات، والذي ترون أنه أحد مصادر الآثام، رغم أن التراث العربي القديم لم يترك جزءًا من جسد المرأة إلا ووصفه.

ثم اقترب ناصر من السيدة وحدق في وجهها بوقاحة، مستطردًا بلغته الفصيحة:

ولا جزء واحد يا سيدتي لو أنك تفهميني.

ثم ضحك ضحكة صاخبة.

انتفضت السيدة وهي تعدل من وضع الإيشارب الذي تضعه حول شعرها، وهي تقول:

"لو سمحت يا أستاذ ناصر إزاي تتكلم كده؟ ده شغلنا وانت عارف القوانين. النص ده نص فاحش، ويمتلئ بأشياء يهتز لها عرش الرحمن

قاطعها ناصر، قائلا:

ولكن عندما نبتسرها نحن من النص هل يعني أنها ليست موجودة في حياتنا الواقعية؟

وقبل أن ينطق أحد بكلمة أو يرد على سؤاله، باغتنا ناصر فجأة، بتجرده من ثيابه كلها، القميص والبنطلون والسروال الداخلي، وهكذا أصبح عاريًا تمامًا، يقف أمامنا بجسده المشعر القوي، ويتدلى عضوه النائم بين فخذيه أسفل كرش ناتئ متماسك.

فصرخت السيدة ذات الإيشارب، كأنها رأت فأرا فجأة يمر من على قدميها، بينما ظل ناصر ينظر إليها بتحد، قائلا:

لماذا تصرخين؟ هذا جسد بشري مخلوق من إله قادر. لماذا تتصورينه مصدرا لكل هذا الفزع؟ إلا إذا كنت ترين جسد رجل لأول مرة في حياتك، وهذه في الحقيقة ينبغي أن تكون فرصة لك لتتعرفي على جمال جسد الرجل، إذا لم تتح لك فرصة لرؤيته من قبل.

وعندما عادت السيدة للصراخ، وهي تحاول أن تركض خارجة من الغرفة، لحق بها ناصر، وأمسك بيدها، ما جعلها تواصل الصراخ هيستيريا، لكنه شدّد من قبضته على ذراعها، مهددًا إياها بأن يلصق وجهها في جسده إن لم تكف عن الصراخ. وكانت المفاجأة أن السيدة أخذت تنظر له بفزع وهلع حقيقيين، وهي تؤكد له أنها ستلتزم بما يطلب وانكتم صوتها تماما بالفعل.

"يا ابن المجنونة"، كنت أهمس لنفسي في تلك اللحظات، بينما أراقب أفعال ناصر غير المتوقعة. كان قلبي يخفق بعنف، مستثارا من الموقف الذي كتم أنفاسنا جميعا، وأنا أتخيل وصول المتكتم بنفسه للقاعة في أي لحظة، فقد كنا نعرف أننا مراقبون على مدى الساعة، وأن حدثا كهذا ينبغي أن يصل للمتكتم. وفي الوقت نفسه كنت أعاني من إحساس مضنٍ بالازدواجية بين بشاعة ما يفعله ناصر أمامنا، وبين مشاعر كانت تناوش روحي، تعبيرا عن إعجاب كامن بشخصيته، أو بالأحرى، بكونه لا يخشى أن يعبر عما يفكر به بأي وسيلة، وأمام أيا كان، وبطريقة ساحرة لا تخلو من الفظاظة في أحيان كثيرة.

منذ ذلك اليوم وجدت فيه نموذجًا لرجل مختلف، صورة الملهم الذي تمكن من تغيير كل أفكاري عن الحياة، وأنار لي شُعلة جعلتني أعيد تأمل كل فكرة وكل شخص وكل خطوة أقدمت عليها في حياتي.

لم يكن الاقتراب منه سهلا على أي حال، فعادة ما كان ينظر لي، ومعي أغلب المتكتمين، باستخفاف، وبشيء من الاستهانة؛ كمن ينظر إلى طفل مشاكس يسبب له الضيق والازدراء. كانت هذه النظرة المستفزة تجعل الدم يغلي في عروقي، ولكن كان عليَّ أن أتحكم في أعصابي. وأن أتماسك حتى لا أتفوه بما لا أحسب حسابه. فقد كان معروفا بأن غضبه منفلت، غير محسوب العواقب. معه تنطلق صرخات حادة وبكلمات كطلقات الرصاص تتفجر بالغضب.

فكرت يوما أن أذهب إلى غرفته، من أجل استشارته في بعضٍ من سطور كتاب طُلبت مني قراءته ورفع تقرير عنه. وبسبب ما ورد به من جمل حمالة أوجه، يمكن أن تفسر على أكثر من منحى، فكرت أنني إذا استرشدت برأيه، سأكون قد ضربت عصفورين بحجر؛ بإيجاد وسيلة للحديث معه، وربما الاقتراب منه، وأن أضمن إيجاد حل في التعامل مع النص الإشكالي.

طرقت الباب وانتظرت، لكني لم أسمع ردًا. أعدت الطرق بوجَل، وتكرر رد الفعل. ترددت قليلا حتى استجمعت شجاعتي، ثم فتحت الباب ودفعته بحذر، فلاح لي مكتبه في الواجهة. كان جالسا مستغرقا عاكفا على مجموعة أوراق، واكتفى، حين شعر بدخولي، برفع عينيه بنظرة شاردة من دون أن يغير وضع رأسه المنكب على

المكتب وهو يحدق بـــي، لكن العينين الشاردتين استعادتا يقظتـــهما فور رؤيتي، فاكتسيتا بتعبير أقرب إلى الشراسة.

قلت له:

أستاذ ناصر.. آسف إني دخلت كده فجأة.. بس كنـــت محتاجك في خدمة.

تأملني قليلا من دون أن يرد بشيء، ثم سرعان ما رسم تعـــبيره الساخر المستهين، ثم قال ببرود:

عايزني أنا؟

تمالكت نفسي، وقلت له:

أيوه، لو ما يضايقكش يعني.

ثم أضفت على سبيل المزاح:

هما بيقبضوا على اللي بيعوزوك ولا حاجة؟

وقبل أن تتاح لي فرصة حتى التفكير في ما قلته، وجدته تقريبـــا يقف أمامي، كأنه طار من على الكرسي وأصـــبح أمـــامي بقفـــزة واحدة. وضع يده حول رقبتي وجذبني إلى داخل الغرفة بقوّة، لدرجة أحسست معها بأنه سيخلع رقبتي، وبالأخرى أغلق الباب بعنف، ثم عاد ودفعني من صدري حتى ارتطم رأسي بالباب. ووجدته يقـــرب وجهه مني، ويقول:

يعني انت ماعَندَكش ميعاد معايا، ولا أعرفك قبل كـــده، ولا احنا اصحاب، وجاي تقتحم مكتبـــي، ومش مكفيك كل ده وكمان بتستظرف؟

فاجأتني حركته المباغتة، فأصابني الخرس. ولم يتعد كـــل مـــا استطعت فعله محاولة واهنة لمقاومته ودفعه بعيدا عني. استخدم إحدى

قبضتيه لتثبيت صدري في الباب، بينما التفت أصابع كفه الأخرى على رقبتي. أفقدتني المفاجأة أي قدرة للدفاع عن نفسي، لكن إحساسي بالاختناق التام جعلني أركل ساقيه ركلة عنيفة، نجحت بها في تحرير يده من رقبتي فتنفست بقوة. وكان كل أملي في تلك اللحظة أن أخرج من الغرفة بأي طريقة.

وبينما أستعيد هذه الذكريات البعيدة، سمعت أصوات وقع أقدام فجأة، فخفق قلبي، وقد عاودني أمل أنني سأخرج أخيرا من هذا البرزخ، أو القبر

25

عندما عادت الفتاة، أخرجتني من الدُرج المعتم. تأملت غلافي الجلدي الأزرق بلون من الهيام، وربما بنظرة امتنان لم أفهمها. قلّبت صفحاتي قليلا، ثم وضعتني على الكومود الصغير المتاخم للفراش. خلعت الشورت و"التي شيرت" اللذين لم تكن ترتدي شيئا تحتهما، فغدت عارية تماما.

بدا جسمها الرشيق جميلا بلونه القهوي. وعلى الرغم من نحافة جسدها، فإن أردافها بدت ممتلئة قليلا. اقتربت مني لتبحث عن شيء ما من بين أغراضها، التي تكدست على الفراش، وكانت ترفع ذراعيها كاشفة عن إبطين مشعرين، لكي تلم شعرها وتعقصه، بينما كانت تواجهني بثدييها الصغيرين، مثل حلمتيهما الدقيقتين الناتئتين الداكنتين.

دخلتْ الحمام، وعالجت الصنبور، ثم ألقت بنفسها تحت المياه المنهمرة من "الدُّش"، ومن بين وشيش المياه المتساقطة على أرض الحمام الصغير، امتزج صوت له نبرة شجن مميزة، وبدا أنها راحت تغني أغنية ذات إيقاع إفريقي بصوت رقيق وجميل.

لم أفهم السبب الذي من أجله تأملتني على ذاك النحو، نظرة تشي بسعادة من يحتفظ بكنز. كما أنني كنت مؤرقة، بسبب ظهورها

المباغت. لكن ما فاجأني حقًا، بينما أتأمل هذا الأمر، اكتشافي أنني أمتلك من جنس البشر بعض الخصال، وبينها الإحساس بالارتباك الشديد حينما تباغتني الأحداث، كما يحدث للبشر عندما يفقدون القدرة على التفكير بهدوء عند التعامل مع الأمور المباغتة، ولا يرون من أوجه التفكير في الأمر إلا جانبًا وحيدًا غالبًا هو ما يطرأ على الذهن في تلك اللحظة، وينسون احتمالات أخرى عديدة لا يتمكن ذهنهم من التفكير فيها، إلا عندما يستعيدون هدوءهم.

لهذا أظنني نسيت إمكاناتي التي تيسرها لي هويتي السردية أو الروائية، وبينها أنني يمكنني، بقليل من التدبر، أن أتخيل أو أتوقع عددا من السيناريوهات التي قد تمثل إحداها حقيقة ظهور هذه الفتاة المباغت هنا، بهذا الشكل، ومن دون سابق إنذار.

تعلمت ذلك من خلال خبرتي حين كنت أتشكل، كفكرة تتطور يوميا في ذهن رشيد الجوهري، وخلال رحلة تكوني وحتى تشكيل هويتي على النحو الذي أصبحت عليه. مع الجزء الأخير من الرواية كنت امتلكت القدرة على التنبؤ بمصير شخصياتي، وكثيرًا ما كان حدسي يصدق في التوقع.

لعل الاحتمال الذي يمكن أن يلّح عليَّ كسبب من بين أسباب ظهور هذه الفتاة في سفينة الحمقى هذه، التي بلغتها بلا إرادة مني، أنها كانت بين ركاب سفينة القراصنة، وربما كانت عشيقة أو محظيّة من محظيات القرصان الصومالي. ولعلّها، في فترة الهرج والذعر التي أصابت الجميع في أثناء العاصفة، تمكنت من التسلل إلى هذه السفينة بشكل أو آخر، خاصة أن رجلي الأمن المسؤولين عن حراسة هذه السفينة تبادلا إطلاق النار مع القراصنة في

أثنــاء المواجهــات، ومحاولــة تخلــيص القبطـــان وطـــاقم الســفينة المخطوفة.

أو لعلها مجرد فتاة تسللت مع أحد القراصنة إلى السفينة بشكل خطأ، أو أرادت أن تعيش حياة المغامرة، ووجدت في سفينة القراصنة ما يشبع تلك الرغبة.

ولكـن مـا سـبب اختطافها لـي أنـا؟ مـا الـذي يجعلهـا تتصـور أهميتـي بالنسبة لشخص مثل قاسم؟ هل مجرد وجود دفتر بغلاف جلدي أزرق يمكن أن يمنح الإحساس بأهميته؟ ثم إذا كان قاسم هو هدفها، فما الذي تريد أن تساومه عليه؟

تصـاعد صـوت غنائهـا الشـجي تـدريجيًا، وكأنهـا فقـدت كـل إحساسـها بالحـذر، وتماهـت مـع مـا تشـدو بـه فـي حـال مـن النشـوة الخالصة.

النشوة؟ نعم، أستطيع أن أفهم فكرة أو مشاعر النشوة، ليس فقط من خـلال إحساسـي بمشـاعر الشخصـيات الروائيـة، بـل وفـي الواقـع أيضًا. ربما بسبب قدرتي على إدراك الإحساس الكامل بكل مشاعر رشيد الجوهري.

لعله عندما ترك الكتاب الذي بين يديه، جالسًا على الأريكة في غرفة المعيشة المجاورة لغرفتهما هو ويوديت، كان يشعر بشـيء من النشوة. ربمـا بسـبب رؤيتـه لصـورة يوديت العاريـة في البـانيو. وعلـى أي حال، فالذهن البشري له تداعياته التي يمنطقها بطريقته الخاصة.

مرّ على خياله آنذاك طيف وجه "بيرجيت"، وهي فرنسية تعرف عليها بالصدفة في إحدى حفلات رأس السنة في القاهرة، وقتما دعاه صديق مصري متزوج من فرنسية لقضاء السهرة معهما.

فرنسية مفتونة بالشرق، حتى أنها احترفت الرقص الشرقي، تعلمت على يد أشهر معلمة رقص شرقي في باريس، وشاركت في حفلات رقص عديدة. تعرف الفروق الدقيقة بين رقص العوالِم، ورقص نجمات الرقص الشرقي، مثل نعيمة عاكف وسامية جمال وتحية كاريوكا. وتعرف أجيال الراقصات المختلفات، وبينهن نجمات السبعينيات، مثل سهير زكي ونجوى فؤاد، وتحب ما تسميه جملا من رقصات فيفي عبده.

قالت له إنها لم تدرك أبدًا سر ولعها بالشرق منذ فترة مراهقتها. كان كل ما له علاقة بالشرق يفتنها. الموسيقى، أصوات الغناء التي لم تكن تفهم معناها، صور الحريم العتيقة التي شاهدتها في كتب مصورة ولوحات الفنانين الفرنسيين، وكتب المستشرقين. وصفت له النساء الشرقيات بالحسية، وبالجمال الفطري، الذي رأت فيه جمالا يختلف تماما عن مقاييس الجمال الغربية. قالت له إن عواطفهن تظهر من خلال أجسادهن، ولم تعرف كيف تفسر ذلك. قالت إن هذا هو جوهر فهمها لفكرة الرقص الشرقي. ليس الأمر تعبيرا عن طقس لحب الحياة، بل لون من إظهار الجمال الباطني للروح عبر حركات الجسد. وحين زارت المغرب أضافت لأسباب الفتنة عوامل أخرى، مثل صخب الحياة وعشوائيتها، خفة ظل الشرقيين، والحياة المرتجلة التي تبدو مثل حياة البوهيميين.

كان الرقص مدخلها إلى الشرق. وجدت أن جسدها يطيعها في تقليد حركات الجسد في أدائه للرقصات الشرقية، التي كانت تشاهدها في أفلام مصرية قديمة، أعارتها إياها سيدة فرنسية من أصول مصرية. وبعدها قررت أن تسافر إلى المغرب والجزائر، ثم القاهرة ودمشق.

وتكررت زياراتها للقاهرة حتى اعتادت الحياة فيها، لأنها تلّبي طموحها في توفر فرص الرقص الشرقي، فظلت تتردد عليها أكثر من غيرها.

مرت صورة "بيرجيت" على خياله، مرورًا عابرًا، لتقوم الذاكرة بتسليم هذه الصورة لأخرى، وظلَت تلح على رأسه مثل حدث غامض، لا يعرف كيف يبرره حتى لذاته.

قبل وصوله إلى شتوتغارت لأول مرة، دبر أمر إقامته مع صديق ألماني كان قد تعرف عليه في الأقصر، التي وصل إليها في زيارة سياحية مع صديقة له. كان موسيقيًا شابا من برلين، حصل على منحة تفرغ لإنجاز عمل موسيقي في شتوتغارت، وبموجب تلك المنحة امتلك فرصة الإقامة في بيت الفنون، الذي أخذ يحفظ اسمه طويلا: "كونس شتوفتنج"، بناء عتيق من ثلاثة طوابق يقع أعلى هضبة من الهضاب المنتشرة في شتوتغارت، مجاورًا عشرات الأبنية التي تتناثر على المرتفعات التي تقود إليها الشوارع الأسفلتية الممهدة، ويضم عدداً من الغرف لإقامة الفنانين، تتوافر فيه قاعات لعرض الأعمال الفنية أو التدريب على العزف الموسيقي، والندوات أو الأمسيات الشعرية، وغيرها من الأنشطة.

ولأن ماتياس؛ صديقه الألماني ذاك، حصل على فرصة لإقامة عدد من الحفلات الموسيقية الصغيرة في بعض الضواحي والمدن القريبة من شتوتغارت، فقد دعا رشيد ليقيم في غرفته خلال الشهر الذي سافر خلاله، حين عرف منه بموعد قدومه إلى ألمانيا.

توقف أمام الباب الخشبي العتيق الذي انفتح على دَرَجٍ حجري، يبدأ من بعد الآرش الذي يغطي المدخل، مثل البوابات التاريخية العتيقة، ويرتقي صعوداً إلى المبنى الأبيض الأنيق، الذي تعلو

طابقه الأخير طبقة مخروطية من القرميد. لاحظ فيما كان يرتقي الدرجات العتيقة، المحاطة بالشجيرات الصغيرة، أُصُص الورود الموضوعة أمام نوافذ المبنى من الخارج والتي تزينها مجموعات من الورود متباينة الألوان، التي يلعب اللون القرمزي فيها لون البطولة.

وصل إلى قمة الدرج الحجري العتيق، فوجد إلى يمينه بابًا معدنيًا حديث الطراز، يبدو مصقولا ومطليًا بطبقة من مادة لامعة باللون الأحمر. أطلّ من كوّة زجاجية تتوسط الثلث العلوي من الباب، فشاهد رواقًا صغيرًا أرضيته من خشب لامع يكتسي بطبقة من لون خشب البلوط البيج الفاتح، تقع قريبًا من جدار يمثل أحد حديّه منضدة تناثرت عليها كتيبات وكتالوجات، لكن الباب كان موصدًا، وبدا جليًّا أنه لا يمكن أن يُفتح سوى من الداخل.

تلفّتَ حوله متحيراً مما ينبغي عليه أن يفعل، حتى سمع نداء من صوب نهاية جدار المبنى الواقع على يمينه، التفت فوجد ماتياس، يلوح له من بعيد.

توجه إليه ضاحكا، ثم قال له بالإنجليزية التي كانت وسيطا بينهما:

أين أنت يا رجل؟ لقد ظننت أنني وصلت إلى متاهة.

ضحك ماتياس، قائلا:

لا لا، أنت لم تر شيئا بعد.. المتاهة تبدأ في الداخل!

تعانقا وتبادلا التحايا، وعندها لاحظ رشيد أن الساحة الخلفية للمبنى لها مدخل آخر. ابتسم بينما يتأمل ثمار الكستنة المختفية داخل الجيوب الأرجوانية ذات الأهداب الدقيقة، المتناثرة على امتداد أرض الفناء؛ بعد أن نأت بحملها فروع الأشجار.

قال:

لديكم باب خلفي بلا دَرَج وتركتني أصعد كل هذه الدرجات؟

ضحك ماتياس، قائلا:

اعذرني يا صديقي، لكن على الأقل الآن لديك معرفة بكل المداخل والمخارج.

ضحك رشيد وهو يستدعي كلمة المتاهة التي ذكرها له ماتياس قبل لحظات.

اتجها إلى الباب الخلفي للمبنى، وارتقيا خمس درجات صغيرة حجرية أنيقة، قبل الوصول لباب آخر.

دلفا من الباب، فوجد رشيد قاعة صغيرة، أرضيتها من الخشب المصقول اللامع، وإلى يسارها درج مغطى بطبقة جلدية مضلّعة، لها لون رمادي، وفي الواجهة كان هناك باب آخر.

تأمل الجدار الأبيض، الذي تناثرت على جزء منه وريقات ومنشورات وإعلانات مثبتة على عدد من اللوحات الخشبية، المخصصة لتعليق الأوراق، وبجوارها عدد من صناديق البريد الرمادية الصغيرة الخاصة بقاطني الغرف المختلفة.

أشار ماتياس إلى الباب المواجه، وقال:

هذا الباب يقود إلى مكاتب مديرة المكان ومساعديها. هم يحضرون في الصباح فقط، أو في المساء في حال افتتاح أي أنشطة فنية، أو معارض. هناك قاعات كبيرة مخصصة للأنشطة.

ثم اشار إلى الدَرَج الذي كان يمتد أمامهما صعودًا، قائلاً:

هنا المبنى السكني، تعال لترى غرفتك.

وبعد أن وضع قدمه على الدَرَج توقف ماتياس فجأة، والتفت إلى رشيد كمن تذكر شيئًا، قائلاً:

ولكن أين أغراضك؟ أين حقيبتك؟

ابتسم رشيد، قائلاً:

قلتَ لي إنني لن أحتاج إلى شيء إذا جئت لزيارتك في شتوتغارت.

بُهت ماتياس، وظهرت على وجهه ملامح ارتباك مفاجئ.. فضحك رشيد قائلاً:

ها قد بدأنا، الألمان ليس لديهم روح الدعابة.. أنا أمزح معك يا رجل.. أغراضي تركتها في غرفة الفندق.

ضحك ماتياس ضحكة مرتبكة، ولكنها لم تستطع أن تزيل آثار الجديّة من على ملامح وجهه، وكأنه لايزال متشككًا مما يقوله رشيد، فقال:

فندق؟ أي فندق؟ ألم أقل لك ألا تذهب إلى فنادق وتأتي إليَّ مباشرة.

ابتسم رشيد، ثم قال:

في آخر لحظة قلت إنك ربما ستحتاج لتوديع صديقتك، وبالتالي سيكون وجودي...

ضرب ماتياس ظهر رشيد وهو يضحك:

لا يا رجل، ألفريدا غادرت قبل يومين إلى هامبورج.

- عظيم، كما توقعت إذن، ولكن بصدق أقول لك؛ أنا فضلت

بالفعل أن أقيم يومين في الفندق أولاً لأتعرف على المدينة قبل أن آتي إلى هنا.

أوكي، تعال الآن لتعرف مكان غرفتك.

صعد ماتياس ومن خلفه رشيد، الذي راح يتأمل المكان الصامت صمتًا مدويًا، كما قال لنفسه. وصلا إلى الطابق الأول، وكان عبارة عن بهو فسيح تتوزع الغرف حوله.

ثم صعدا إلى الطابق التالي. كان المكان مظلما، لكن مصابيح متوهجة بإضاءة ساطعة سرعان ما أومضت تلقائيًا، كلما تقدما مرورًا أمام حسّاسات الضوء التي تعمل على توفير الطاقة. توقفا لوهلة ليلتقطا أنفاسهما. في الواجهة كان هناك باب مفتوح على غرفة مضاءة بإضاءة شاحبة، فأشار له ماتياس قائلا إن هذا هو المطبخ وإن به كل الأدوات اللازمة، وأضاف إنه خصص له ركنًا له في الثلاجة وضع له فيه بعض الأجبان والمربى والحليب، فشكره رشيد وهو يربت على ظهره بمحبة.

كانت الردهة الفسيحة مستطيلة الشكل، يتوسطها سور مربع، يصنع ما يشبه المنور، يطل على الطوابق السفلية والعلوية، ومن حوله تتوزع الغرف. إلى اليسار رأى بابين لغرفتين متجاورتين. وإلى يمين المطبخ رواق ضيق يقود إلى غرفة أخرى اتجه لها ماتياس، ثم طلب منه أن يتبعه.

بعد أسبوع، وكما دوّن رشيد ذلك بدقة شديدة على صفحاتي في وقت لاحق، من دون أن يغفل أي تفصيلة مما جرى من فرط اهتمامه بهذه الواقعة؛ كان يجلس في المطبخ مساء بمفرده، يضع بجواره على المائدة كتابًا يقرأ منه، ويقضم قضمات متوالية من

شطيرة جبن في خبز "باجيت" سميك، بينما تداعب أنفه، هبّات رهيفة من عبق القهوة الذي يفوح من القدح، وتميزه، للحظات، عن مزيج النكهات والروائح النفّاذة التي تبدو كأنها طافية في فراغ المطبخ، مزيجًا من غمامة شمّية مبهمة؛ كان من الممكن تمييز أكثرها نفاذًا ممثلاً في ثلاثي الزنجبيل والقهوة والبرتقال. وسوف يستعيد هذا العبق كلما دخل المطبخ لاحقا في شقة يوديت.

لمح بطرف عينه شخصًا يتحرك في الردهة، التفت إلى يمينه، فلاحظ طيفًا خاطفًا لفتاة تسير في اتجاه غرفته. وعلى الرغم من إحساسه بجمالها الفاتن، فإنه حاول ألا يبدو مهتمًا أكثر مما ينبغي؛ حرصًا على روح الحرية والخصوصية التي لاحظها منذ وصوله إلى ألمانيا. لكنه انتبه إلى أن الفتاة كانت تتجه صوب غرفته، فترك ما تبقى من الشطيرة على المائدة، ونهض خارجًا من المطبخ. أضيئت الأنوار الساطعة في البهو الخارجي إثر خروجه، واسترعى انتباهه أنّ مرور الفتاة لم يتسبب في إضاءة المصابيح الضوئية كالمعتاد.

انتابه الشك في أن ما رآه لم يكن سوى "تهيؤات". عاد إلى المطبخ. تناول ما تبقى من شطيرته، وشرب القهوة، ثم أشعل سيجارة، وخرج باتجاه غرفته. وقبل أن يصل لها، لمح الفتاة، مرّةً أخرى، وهي تهبط من على الدرج.

استطاع هذه المرة أن يميزها بوضوح، كانت ترتدي فستانًا قصيرًا بلا أكمام، بلون الكراميل، محبوكًا على جسدها الرشيق محددًا تفاصيله، كاشفًا ساقين جميلتين ربيلتين، فيما انسدل على ظهرها شعرها الذي يمتزج لونه بين درجتين من البني والبرتقالي، الذي تجلى واضحا في أطراف الخصلات التي تنسدل حتى أسفل ظهرها. كأنها

الحد الفاصل بين الخصر النحيف، والأرداف البارزة بلا تَهَدُّل أو امتلاء.

تراجع خطوتين، ووقف مترددًا، ثم حسم أمره، واتجه صوب الدَرَج، حيث رأى الفتاة وهي تهبط قبل لحظات، وتأكد من أنه ينصت لقرع خطوات قدميها المدفونتين في حذاء أسود ذي كعب عالٍ.

مال بجذعه محاولاً أن يعرف موقعها على الدَرَج، ولاحظ أن الطابق السفلي توهج بالإضاءة، ما يعني أن هناك من مر به، فهبط عدة درجات أخرى بحذر، لكنه لم يجد أحدًا. توقف وأنصت، لكنه لم يسمع شيئًا. وكان المكان خاليًا وصامتًا كالعادة. استمر في النزول حتى الطابق الأول، ودار دورةً كاملة حول البهو، وتعمّد أن يقترب قليلا من بابي الغرفتين الموجودتين على يسار الدَرَج، لكنه لم يتمكن من أن يميز صوتًا لأحد في أي من الغرفتين.

استعاد صورة الفتاة مرة أخرى، فأسرع بالهبوط إلى الطابق الأرضي، وتلفت يمينًا ويساراً فور وصوله إلى مدخل المبنى، فلم يجد سوى الأوراق والملصقات المعلقة على الجدار. تأمل الباب الداخلي الذي يفصل المبنى السكني عن قاعات الإدارة والعروض الفنية. اقترب منه بحذر. أمسك بمقبضه، وأداره ببطء، لكن الباب لم يستجب له. حاول مرة أخرى بقوة أكبر، لكن النتيجة لم تختلف عن سابقتها.

أظن أن رشيد حين بدا يكتب ملاحظاته عن المتاهة كان قد بدأ يشعر بحسه الأدبي ويكتب التفاصيل بنوع من الولع حتى أنه تذكر كيف أحس بلسعة السيجارة بين إصبعيه، واكتشف أنها تكاد تقترب

من نهايتها، فتلفت حوله، مدركًا أنه تجاوز بالسير في المبنى الذي يُمنع التدخين في غير غرفه الداخلية والمطبخ، فأسرع عائداً صوب الباب الرئيس الذي يقود للفناء الخلفي، وفتحه بسرعة ثم ألقى بعقب السيجارة على الأرض الإسمنتية المجاورة لدرجات السلم التي تقود للحديقة الخارجية، وتنشق نسمة الهواء الباردة. تأمل فروع أشجار الكستنة القريبة من المبنى، التي بدت له مثل أشباح مبتسمة في الظلام، ثم عاد مرة أخرى إلى الداخل، وانتظر الباب الذي يُغلق ذاتيًا ببطء، حتى سمع تكّة الإغلاق النهائية فعاود صعود درجات السلم.

عندما بلغ الطابق الأول وسطعت الإضاءة، سمع ما يشبه همسًا لصوت نسائي. فتوقف وأنصت بتركيزٍ بالغ. حدّد موقع الصوت إلى جهة اليسار، اكتشف ممرًا صغيرًا له مدخل في منتصف المسافة بين بابي الغرفتين الواقعتين في تلك الجهة.

اقترب وتأمل الممر، فوجده ينتهي بباب رمادي معدني. توجه إليه، ثم عالج المقبض فانفتح الباب. وجد ممرًّا مُعتمًا، ينتهي بباب مشابه لذلك الذي فتحه للتو.

ظل الممر معتمًا، لكنه تقدم باتجاه الباب وفتحه، ليجد رواقًا مضيئًا بإضاءة شاحبة لم يعرف مصدرها. تلفت يمينًا ويسارًا فلمح بابين معدنيين ينتهي بهما الرواق من طرفيه.

قرر السير إلى اليمين، لكنه بعد بضعة خطوات، التفت خلفه، حيث الباب الذي ينتهي به الطرف الآخر من الرواق، وعاد متجهًا إليه. لم يكن هناك سوى الجدران البيضاء والأرضية الخشبية.

فتح الباب بمجرد أن وصل إليه، وأطلّ منه على الداخل. وجد عددًا من الممرات الزجاجية، تبدأ متوازية كأنها مداخل لأروقة تحدها جدران زجاجية من الجانبين. فكر قليلا متحيرا بين الأروقة المتعددة أمامه، ثم اقترب بحذر حتى وضع قدمه على مدخل الرواق الأوسط، شاهد عدداً من صوره معكوسة على الزجاج المكسو بالمرايا. اقترب ونظر إلى لوح منها، فشاهد نفسه يقف بجوار نفسه. ابتسم لنفسه، فابتسمت إليه. لوّح لها فلوّحت عبر المرايا. أعاد النظر أمامه، وظل يسير فيما يراقب أشباحا تشبهه تظهر وتختفي كلما تحرك.

ظل يسير بحذر بين أروقة المرايا، تطارده أشباحه مرة، ويطاردها مرات، يرى ظهره أمامه، وعندما يلتفت خلفه يحييه وجهه بابتسامة مخطوفة، حتى فقد القدرة فجأة على تحديد المسار الذي ينبغي له أن يسير فيه، وتبين له أنه لم يعد يعرف أين هو.. لا يعرف بداية الطريق التي يسير فيها ولا منتهاها.

كلما استعاد ذكرى المتاهة راودته مشاعر غامضة حول تلك الخبرة الغريبة في حياته. ومع ذلك كان يشعر بالنشوة. نشوة استعادة الذكريات الجميلة أو الغامضة. النشوة التي كان يستدعيها من ذكرياته مع برجيت الفرنسية، ثم حين أصبح مصدرها الوحيد لاحقا عيني يوديت الزرقاوين.

أما أنا فقد أدركت معنى الشعور بالنشوة، كلما انتهى هو من كتابة فصل من فصولي، لأن ذلك كان يعني امتدادي في رحلة النضج والاكتمال فصلا جديدا.. عمرا جديدا.

توقفتُ فجأة عن استعادة أفكاري عن رشيد الجوهري، بعد أن أحسست بالفتاة السمراء وهي تلتقطني فجأة من على الكومود. كانت

أنهت حمّامها، وبدت أجمل حين عقصت كتلة شعرها الكالح اللامع الرطب في كعكة ضخمة، أظهرت جمال وجهها ذي الملامح الرقيقة. وارتدت "شورتا" أبيض وبلوزة بلا أكمام باللون نفسه، وانتعلت شبشبًا خفيفًا وخرجت من الغرفة.

26

خرجنا معاً، حيثُ حملتني الفتاة بين يديها. وسارت في رواق طويل، أرضيته الخشبية مفروشة بموكيت أزرق باهت اللون، تتناثر القمرات على جانبيه. كانت تسير بحذر حتى وصلت إلى أحد الأبواب، وطرقت بأناملها عليه بخفة. انتظرتْ قليلا، لكن أحدًا لم يرد. فكررت طرقات خفيفة بغضاريف أصابع يدها، ولم يستجب أحد.

عادت من حيث جاءت، وسلكت الاتجاه الذي قدمنا منه، وهي تتأمل أبواب القمرات، وأرقامها، ثم انحرفت فجأة في مدخل صغير، يقود إلى ممر آخر تتواجد به مجموعة مختلفة من الغرف.

ترددتْ لوهلة، ثم توقفت أمام أحد الأبواب، طرقَته طرقًا خفيفًا، وبعد لحظات أطل وجه مهندس الصيانة، شريف. ابتسم عندما رآها، ومن دون أن ينطق بكلمة دعاها للدخول بإيماءة مرحبة من رأسه وابتسامة غامضة. ابتسمت له بدلال، ودلفنا الغرفة معا. مدت له يدها الممسكة بي. تأملني بحبور، ثم شكرها، فقالت له إنها ستعيرني إليه فقط، لأن عليها أن تعيدني إلى صاحبي قبل أن ينتبه للأمر.

لم يبد مقتنعا بما قالت، لكنه قلّب في الأوراق قليلا، ثم طلب منها أن تجلس على كرسي صغير يقابل فراشه، راح يتأملني مرة أخرى، وشرع يقرأ من عند العلامة التي تركها قاسم بين الصفحات، بعد أن ارتمى على فراشه بحبور.

"كانت الأصوات التي بدأت تتسلل إلى سمعي مزيجًا من وقع خطوات، وهسيس أصوات بشرية تمنعني من تحديد اللغة التي يتهامسون بها، بل إنني حتى لم أتمكن من التأكد مما إذا كانوا رجالاً أم نساء. لم أستطع تحديد الجهة التي تأتي منها الأصوات بدقة، إذ بدت كأنها قادمة من خلفي، لكني إذ أستدير بجسمي، يعم الصمت فجأة أو يتهيأ لي أنها قادمة من الجهة التي كنت ألتفت إليها قبلاً.

العتمة قدر الأنفاق. وإحساسي بالزهق والخوف بلغا حدًا لا يُحتمل، فضلا عن فقداني التام لمعنى الزمن، أو القدرة على التكهن بالمواقيت، وعلى التمييز بين الصباح والمساء، بين الليل أو الفجر، بل وحتى إذا كان ما أمر به الآن عودة أم تقدما في الزمن.

راودني إحساس بأنني معلق في برزخ، بين الحياة وبين الموت، حتى تمنيت العودة إلى مدينة الأنفاق، بل إلى مدينة الظلام نفسها لو تطلب الأمر.

توصلت إلى أنني يجب أن أقعي على الأرض وأتحسس التربة؛ فلربما تبيّنت آثار أقدام طارق أو أي شخص آخر ممن قُدّر لهم اجتياز هذه المتاهة. لكني لم أتبين شيئا، فنهضت بينما كان صوت نداء غريب ذكرني بصوت نقّار الزجاج يتناهى لسمعي. توجهت صوب مصدر الصوت وأنا أضع يدي أمامي، أتحسس الفراغ مثل الأعمى،

متوجسًا وحذراً وخائفًا من الارتطام بعراقيل الظلام التي قد تقطع طريقي فجأة.

وبينما أخذت أمشي في هذا الاتجاه بتصميم، كانت الأصوات تزداد وضوحًا، وكان الحرف الأول من اسمي جليًّا في نداء الشخص الغامض، ومع ذلك لم أكن متأكداً. ما سمعته هو كمااااااال، وحينما تكرر النداء سمعته كأنه طلاااااااال، ولم يكن أي منهما يشبه اسمي إلا قليلاً.

انحرفت جهة اليسار حين تبينت وضوح الصوت، وتخلصت من ترددي وعدم قدرتي على التوازن، ومشيت مسرعًا، لكني أحسست بأنني أفقد توازني، وقبل أن أتمالك نفسي وجدتني أهوي في حفرة، أو بالأحرى في بئر عميق. إذ رحت أتهاوى، وأنا أصرخ بفزع هيستيري مجنون، بلا توقف، حتى ارتطمتُ أخيراً بالأرض، ولكني عاودت الصراخ من فرط الألم الذي انفجر في قدمي إثر السقطة المباغتة"

* * *

توقف شريف عن القراءة، ثم أعاد التقليب في صفحاتي، مرة أخرى، بينما كانت الفتاة تتأمله بترقب وهي تتحسس بأطراف أناملها هالة الشعر المعقوصة أعلى رأسها.. قال لها:

يبدو أنني يجب أن أحتفظ بهذا الدفتر حتى الغد على الأقل، أحتاج إلى وقت أكبر للقراءة حتى أنتهي منه.

ابتسمت الفتاة، ثم تأملته للحظات، وقالت وهي تحك إبهام يدها اليمنى بسبابتها:

هذا سيغير الاتفاق.

ضحك شريف، ثم نهض من على الفراش، واتجه إلى الدولاب الخشبي الصغير المجاور للباب، وفتحه، ثم عبث بيده بين بعض الأغراض، وخرج بحافظة جلدية، فتحها وتناول منها مبلغًا من المال، بالدولارات. اقترب من الفتاة. ومنحها الأوراق المالية فتناولتها من يده، ثم نهضت، قائلة:

اتفقنا.. ولكن حتى الصباح فقط، سأمر عليك لآخذها منك غداً.

هزّ رأسه لها متفهمًا، وقال:

وماذا عن بقية الاتفاق؟

ضحكت ضحكة مرتبكة، وقالت له:

ليس لديّ مشكلة، لكن ما الذي يجعلني أثق في أنك ستنفذ ما اتفقنا عليه.

أشار إلى النقود التي في يدها، وقال:

نفذت أول بنود الاتفاق، كما ترين فلماذا لا تثقين بي إذن؟

تلفتت حولها، وتقول:

ألن يعطلك ذلك عن قراءتك لهذه الأوراق؟

ابتسم لها، قائلا:

لا أعتقد، بالعكس ربما سيجعلني ذلك أكثر تركيزا في القراءة.

ضحكت ضحكة طفولية وبلهاء، ثم قالت:

- ألا يوجد لديك ما نشربه إذن؟

يا إلهي! بدا واضحا أنهما قررا أن يمارسا الحب. كم هذا غريب! أن أجد نفسي الآن بين يدي من لا أعرف، وأراقبهما وهما يمارسان الجنس.

ويبدو أنه لم يكن أمامي مفر من ذلك، ولعل الفائدة التي يمكن أن أحصل عليها في هذه الحال، أن أفهم قليلا مما يدور حولي، فمن المؤكد أن هذين الشخصين سيفسران لي بشكل أو آخر الدوافع التي جعلتهما يختطفاني، وما يدبره كل منهما على هذه السفينة التي أتمنى بالفعل أن تنهي رحلتها بالوصول إلى رشيد على أي نحو.

ما كان موضعًا لاهتمامي هو الحوار المبتسر الذي دار بينهما بعد أن انتهيا. تبين لي أنها إثيوبية وليست صومالية. انتقلت إلى الصومال هربًا من مشكلات الحرب الأهلية في إثيوبيا مع أهلها. اضطرت أن تعيش حياة لا ترضيها، إذ أوقعها قدرها في يد رجل صومالي أراد الزواج بها، لم تستطع أن تعيش معه طويلاً، فهربت منه، وعاشت حياة عبثية لفترة، لم تنجح في الوصول إلى أهلها أو شقيقتها، حتى وقعت في النهاية في يد قرصان صومالي وعدها بالمال مقابل أن تكون محظيته في رحلاته. وافقت، لأنها كانت تريد أن تخرج من الصومال بأي طريقة. عرفت قبل أيام من لقائها بالقرصان الصومالي أن شقيقتها دبرت طريقة للخروج من مقديشيو والانطلاق إلى أوروبا.

لكني، بحدسي الروائي لو شئتم، شعرت أن ما تقوله الفتاة ليس كل الحقيقة. كان ثمة حذر واضح في تعاطيها مع شريف. حتى جسدها الذي سلمته له، بدا لا يستجيب له إلا بصعوبة. كانت باردة. ولهذا فكرت بأنها تكذب عليه أو على الأقل لا تقول كل الحقيقة.

قد تقولون عني إنني التي أكذب، فمن أين لي أن أرى؟ وأنا مجرد رواية ملتبسة الهوية، ما بين دفتر مكون من بضعة أوراق وفكرة مكتوبة في أحشائي، لكن قولوا ما شئتم، فربما أكون بمنطقكم عمياء، لكني في الحقيقة بصيرة. حدسي ومعرفتي يمثلان جزءا من حواسي التي أترجمها وفق ما يمكن لكم أن تفهموه.

لكن ما لم أتمكن من معرفته هو السبب الذي جعل المهندس شريف يستخدم هذه الفتاة لتحصل عليّ من قاسم. هل كان يتصورني أوراقًا سرية يمكن له منها أن يفهم شيئا يخص قاسم؟ أم أن قاسم فاتحه في احتياجه لمساعدته، ويريد هو أن يستوثق من صدق ما يقوله له؟

عندما خرجت الفتاة من الغرفة، كان شريف لايزال عاريًا، دخل إلى الحمام واغتسل تحت المياه، ثم خرج مبتلاً، وأخرج منشفة من دُرج صغير ملتصق بالفراش. عندما انتهى من تجفيف جسده ارتدى زيًا رياضيًا، وأخرج سيجارة من علبة سجائر "روثمانز كانت موضوعة على الكومود المتاخم للسرير بجواري مباشرة، ثم خرج ليدخن في الخارج.

تمامًا كما كان رشيد يفعل في الفترة التي كان يذهب فيها إلى يوديت في شقتها في شتوتغارت. كانت تستأجر شقة مع زميل سكن، يقتسمان الغرفتين المتاحتين بها. ولهذا السبب فضّل رشيد أن يقيم في البداية في بيت الفنون، حتى يجد حلاً للسكن.

لم يكن مسموحاً له بالتدخين داخل الشقة، ولذلك فعادة ما كان يذهب الى الشرفة ليدخن. وكانت تلك فترات الاسترخاء والتأمل. التي كان يستعيد فيها شذرات من حياته في مصر؛ أحلامه التي ضاعت، وبدائلها التي ظلت دومًا بالنسبة له مبتسرة، لم يمكن لها أن تعوض

الحلم الحقيقي الوحيد في حياته، والخسارة التي ظلّت كجرحٍ باطني دفين في أعماقه لا يندمل، وبسببه ارتسمت على وجهه ملامح حزن غامض نبيل، كما وصفته يوديت مرة.

في تلك الشُرفة، خلال فترات التدخين التي كانت تطول أحيانًا، كان يجد متسعًا من الوقت، ليتأمل أحواله في ألمانيا، ويستعيد ما حدث له في متاهة بيت الفنون، التي ظلت عصيّة على فهمه لفترة طويلة، حتى أنه اضطر أن يتعامل معها على أنها حلم، على الرغم من أنه كان واثقًا تمامًا مما حدث.

يتذكر جيداً مثلاً أنه عاد بعد الجولة المتاهية إلى المطبخ ووجد يولاندا؛ الفنانة الألمانية الشابة التي تسكن في إحدى الغرفتين المتجاورتين قريبا من المطبخ، جالسة مع صديقها الهولندي الذي يقيم معها في غرفتها. وضعا قدحين ممتلئين بالنبيذ على الطاولة الكبيرة التي تتوسط المطبخ ويلتف حوله اثني عشر مقعدًا، لكنهما اختارا الجزء البعيد عن الباب بجوار الجدار، واستبدلا الإضاءة الساطعة للمصابيح الاعتيادية في سقف المطبخ بإضاءة ثريا تتوسط السقف على شكل كرة تمتلئ بمصابيح صغيرة ملونة تشبه ثريات الديسكوهات، مما منح المكان طابعًا رومانسيًا.

تسببت هذه الإضاءة في زيادة إحساسه بالتشتت. ولحظة رؤيته العاشقين الشقراوين النحيفين جالسين في هذا الجو الرومانسي ارتبك وانحرف باتجاه غرفته. لكن يولاندا أصرّت على أن يجلس معهما، وأن يشاركهما كأسًا من النبيذ، وأيّد الشاب الهولندي الأشقر؛ صاحب البشرة المحمرة والوجه المبقع ببقع حمراء خفيفة، دعوة فتاته لرشيد، وهو يشير له بأريحية وترحاب إلى كرسي قريب منهما.

ابتسم رشيد لهما محرجًا، لكنه هز رأسه بطريقة حاول بها أن يعبر عن امتنانه لدعوتهما له. تناول علبة سجائره التي كان تركها على المائدة قبل قليل، فيما نهضت يولاندا متجهة صوب الحوض الرخامي الذي تتراص بجواره مجموعة من الكؤوس والأكواب بأحجام مختلفة. اختارت كأسا التقطته بإبهام وسبابة، ممسكة به من عنقه الزجاجي النحيل، وعادت به إلى موضع جلوسها. أخرج رشيد سيجارة وقدم العلبة للثنائي، الذي تقبل كل منهما سيجارة.

بدأ الحوار بينهم هادئًا ودوداً، ومتحفظاً، بسبب إحساس رشيد أنه قطع خلوة رومانسية لعاشقين، لكن بساطة يولاندا، وأسئلتها المتوالية لرشيد عن مصر، جعلته يتجاوز تحفظه، وهو ما أدى إلى أن الحوار الثلاثي سرعان ما اكتسى ببعض خفة الظل والحميمية بعد الكأس الثاني، وكان الفتى الهولندي ذو الوجه المبقع، يضحك بصخب على كلمات رشيد عن بعض مشاهد ساخرة للحياة في مصر، والتي كانت تصله عبر ترجمة يولاندا لكلماته، فيما يصمت رشيد متأملا الفتاة الجميلة، ذات الشعر القصير، والعينين الخضراوين، مراقبا تعبيرات وجهها وابتسامتها، وهي تنقل، بالألمانية، ما يقوله لصديقها.

حكت يولاندا عن مشروعها الذي تعمل عليه، وكان عبارة عن مشروع فني يجمع بين التشكيل والفوتوغرافيا، يتناول موضوع دورة الحياة.

أبدى رشيد إعجابه بالفكرة، وحين سألته عن المشروع الذي يعمل عليه، ابتسم وقال إنه مجرد بديل لصديق موسيقي لديه جولة فنية لمدة شهر.

سألته: ماتياس؟

نعم هل تعرفينه؟

نظرت إلى صديقها وابتسما معا، ثم قالت:

لا يوجد شخص لا يعرفه هنا.. كنا نستيقظ يوميا على صوت الكلارينيت عندما يبدأ بروفات التدريب في غرفته..

هل تسكن في نفس الغرفة؟

ضحك رشيد، وقال:

نعم في نفس الغرفة، لكني لا أجري أي بروفات. أنا زائر فضولي ومتشوق لمعرفة الكثير عن المجتمع الألماني، وعن هذا المكان.

فكر رشيد أن يسألهما عن المتاهة التي رآها قبل قليل، يرتشف رشفة من كأس النبيذ، ولكن خاطراً داعب ذهنه بأنه لو أخبرهما بما شاهده فلن يفيداه. كان التقى فتاة أخرى تسكن في الغرفة المجاورة ليولاندا، وسألها عن حارس المكان لأنه كان يريد أن يضع ستائر في الغرفة، وإزاء نظرتها المندهشة أوضح لها أن النوافذ الواسعة في غرفته لا تغطيها ستائر، مما يضطره للاستيقاظ مبكراً عن موعده كل يوم. لكن الفتاة، ذات البشرة الخمرية الجميلة والشعر الأسود، والتي لم تكن جميلة على أي نحو، ابتسمت له ابتسامة لا مبالية، وهي تؤكد له أنها تسكن في المكان منذ ثلاثة شهور، ولم تسمع يوما عن وجود حارس للمكان.

27

هاهو شريف قد انتهى من تدخين سيجارته، وعاد إلى الغرفة. أغلق الباب وخلع الشبشب، وألقى بنفسه على السرير، ثم تناولني من على الكومود وعاد ليتصفحني.

"فتحت عينيّ، فوجدتني نائمًا على أرض حجرية صلدة، نظرت إلى الأعلى فرأيت الهوّة السحيقة التي وقعت فيها. لكني لم أستوعب مكاني لوهلة، كأنني في حلم، أو كمن يستيقظ في مكان جديد، بعد سفر، فيفقد القدرة على الوعي بانتقاله إلى مكان جديد لدقائق. كنت مرهقًا، لكني لم أتحرك من مكاني، خشية أن تكون تلك السقطة المروعة قد أصابتني بكسور أو جروح.

حركت رقبتي إلى اليسار، فرأيت على امتداد نظري بهوًا حجريًا شاسعا ينتهي بباب خشبي واسع، تدخل منه أشعة الشمس. أغلقت عيني وفتحتهما، لا أكاد أصدق أنني أرى ضوءًا طبيعيًا، حُرمت منه على مدى الوقت الذي مضى في مدينة الأنفاق.

وكأن رؤية الضوء أصابتني بمس من جنون نهضت فجأة، عازما أن أفعل ذلك بقوة لأتغلب على أي آلام يمكن أن أشعر بها. وقفت

ولم أشعر بأي آلام باستثناء الشعور الحارق قليلا في جانب من ظهري. وحالما بدأت أخطو أولى خطواتي تبين لي أن كاحل قدمي اليسرى تعرض للالتواء، إذ انتفض بالألم، ومع ذلك تبينت قدرتي على المشي، بشرط عدم تحميل ثقل جسدي على القدم اليسرى قدر الممكن، فأصبح الألم محتملاً. ولكني كنت أشعر بصعوبة ذلك.

خرجت أعرج، مثل زومبي، باتجاه الضوء الساطع فيما كانت نشوة غريبة تداعب صدري، وتملأ روحي بالحبور، وبإحساس بالسعادة بدت مبرراته غامضة تماما.

عندما خرجت من البهو المغلق، ووقفت أمام المدخل شعرت بضوء قوي وساطع يغشى كل شيء من حولي حتى أغمضت عيني. وابتسمت حين تداعى لذهني أنني أصبحت لا أطيق رؤية الضوء مثل الخُفّاش.

نظرتُ إلى الأعلى فوجدتني في أخدود عميق بين جبلين شاهقين يحيطان كل شيء، لكني لم أتمكن من رؤية قمتيهما، إذ لاح لي أنهما يعانقان السماء. وفي محيط الرؤية بدت الجدران المحيطة بالمكان من حولي كأنها تصنع دائرة واسعة، ثم تضيق في مجال رؤيتي للأمام، لتشكل ما بدا لي طريقًا لم أجد بُدّاً من التقدم نحوه. مشيت بخطوتي العرجاء أحاول أن أسترق السمع لأي صوت في هذا الصمت الرهيب الذي أحاط بي من كل صوب.

كانت حجارة الجدران بلونها الرمادي القاتم ملساء وخالية من النقوش أو الزخرف، ما منعني من التكهن بطبيعة المكان. وبسبب فضولي كان لا بد لي أن أتحامل على نفسي أكثر، لكي أخب في المشي سريعا حتى أعرف إلى أين يمكن أن تقودني تلك الطريق التي

كانت تضيق تدريجيًا، فيما تبدو مضاءة بوهج طبيعي تحجبه الأشجار. ضوء غريب غامض المصدر، لا يمكن التكهن بمصدره.

بعد فترة من المشي، بطريقة الزومبي، لاح لي مدخل لبوابة ضخمة، سرعان ما شرعت معالمها تتضح تدريجياً. مدخل حجري واسع، وعلى طرفيه امتشق عمودان متجاوران، فيما تدلّت على الجدار والأعمدة فروع أشجار ذات وريقات خضراء كبيرة، وبينها لاحت سُعف نخيل تداخلت مع فروع شجيرات باهتة، بينما احتلت المساحة الخالية بين طرفي المدخل الحجري بوابة خشبية مكونة من ضلفتين كبيرتين، كانتا مفتوحتين على اتساعهما.

توقفت أمام البوابة وحواسي كلها في حالة تأهب كامل، ولم أسمع شيئاً أو ألحظ حركة من أي نوع في مجال بصري. بعد المدخل مباشرة لاحظت مجموعة من الغرف أو البيوت المتجاورة على جانبي الطريق. بدت الغرف كأنها أبواب مقابر أو زنازين. تأملت الطرف العلوي لكل منها، فاكتشفت أن ارتفاع اللاحق يعلو سابقه بسنتيمترات قليلة، كأنها متوالية أبواب ترتقي صعوداً، حيث كان الممر الفاصل بين صفي الغرف أو المقابر، المتراصة بالتقابل أيضا، يمينا ويسارا، يتخذ اتجاهاً متصاعداً للأعلى، ولكن بشكل تدريجي.

كان الألم في قدمي قد اشتد، مع ذلك لم أتخيل أن بإمكاني أن أتوقف لأستريح في هذه الطريق الغامضة على الامتداد أمامي. قررت أن أجلس على الأرض في ركن المدخل، ولاحظت أنني أتنفس بسرعة، وكانت بعض قطرات العرق قد تكثفت على جبهتي ووجنتي.

بدأت أشعر فور جلوسي بالدوار، والعطش، وبتقلصات الجوع المريرة. أصابني ذلك بالجزع. وعاودتني أسئلتي عن سر اختفاء طارق

فجأة على هذا النحو حالما تركني في هذه المتاهة. هل كان يعلم شيئا عمّا سوف يحدث لي؟ أم أنه فقدني في عتمة المدخل إلى مدينة النساخ و لم يعرف عن سقوطي في تلك الحفرة التي قادتني إلى هنا؟

لم يعد أمامي إلا أن أنطلق متكشفا الطريق الممتدة أمامي، فمن المستحيل أن أعود من حيث جئت. لا أظنني سأتمكن من الصعود مرة أخرى. فكيف سأتمكن من تسلق جدران ذلك البئر العميق، كما لا يمكن لي أن أجلس هنا، أو حتى في ذلك البهو المغلق، منتظرا الفرج، بلا طعام أو ماء.

وهكذا نهضت. وضعت قدمي المصابة على الأرض لأختبر مدى قوة الألم، ولاحظت أنه خف نسبيا. ومع ذلك قررت ألا أرهق الكاحل المصاب قدر الممكن، مفضلا السير كما ثعلب عجوز أعرج. لكن الإحساس بالخوف جعلني متردداً في النظر إلى النوافذ الخاصة بغرف المقابر، والتي كانت جميعا مشرعة، لكنها مغلقة في الوقت نفسه بعدد من القضبان الحديدية المتعامدة على بعضها البعض.

ومشيت وأنا أتمنى من قلبي أن ينتهي هذا الممر الطويل بأي شكل. فيما بدأت الهواجس عن أرواح خفية أو أشباح تقطن تلك الغرف قد خرجت بالتتابع من مقابرها، وتتسلل خلفي، ثم هبّت على ذهني عاصفة مفاجئة جلبت معها كل صور المقصيين خلف القضبان، المصابين بأمراض معدية وبالأوبئة العتيقة التي كانت تقضي سابقا على قرى كاملة، المساجين المخفيين خلف أسوار المعتقلات، في زنازين ضيقة خانقة، والمجانين المنبوذين، خلف جدران المشافي النفسية، أو المارسيتانات، بسبب اختلال الكيمياء في المخ، والتي جعلت منهم شرًّا يجب اجتنابه، أو حتى لمجرد مخالفتهم لقواعد

الانضباط العقلية التي تحددها مجتمعات وتجعل منها معـــايير الحـــدود الفاصلة بين ما هو عقلاني وما هو لاعقلاني.

تواردت على ذهني صور ووجوه غريبة، تبتسم ابتسامات كريهة من خلف أسنان مشوهة. وجوه بعيون زائغة، وضـــحكات بلـــهاء، وأخرى بوجوه تمرح فيها البلاهة، بعيون تـــدور في مآقيهـــا قلقـــا وذهولا، ولم أجرؤ على الالتفات حولي أو خلفي. كانت عضـــلات جسدي كلها متصلبة، ونفسي تحدثني بالإصرار على المشي، خوفـــاً من أن يصيبني الشلل؛ بسبب قوة مشاعر الرعب التي كانت تتـــراكم داخلي.

ولا أدري إذا ما كنت استمعت لصوت ضـــحكة هيســـتيرية متواصلة بصوت أجش، أم كان ذلك محض خداع ذهني. سرت قُدُمًا بخطوات أسرع، ما أعاد تفجير الألم في كاحلي المصاب. حاولت أن أخفف من سرعة خطواتي. لاحظت اشتراك شـــخص آخـــر مـــع الضاحك الأول، بضحكة لا تقل هيستيرية.

بدأت في الركض بشكل تلقائي، من دون أن ألقـــي بـــالا لألم قدمي. وسرعان ما راحت الضحكات الهيستيرية تتحول إلى كرة ثلج قوامها كتلة أصوات مجنونة، راحت تكبر إثر حالة من العدوى الـــتي كانت تتناقلها أصوات أخرى لكائنات لم أعرف إذا ما كانوا مـــن سكان تلك المقابر، أم مجرد أرواح شاذة تطوف في هذا الشق الفسيح الذي يفصل بين الجبلين.

وبالرغم من إحساسي بالبلاهة والغباء من فكـــرة الـــركض، والهروب مما لا أعرف إلى ما لا أعرف، لكني كنت فقدت أي قدرة على التفكير المنضبط.

أصبح الموقف مسخرة حقيقية، إذ بدت الضحكات المتوالية كأنها مقطوعات لأصوات لا يمكن معرفة ما إذا كانت تخص أشباحا طائفة، أم أرواحا هائمة ضالة. لا يعرف المرء أكانت تخص بشرا، أم ذئابا عاقلة، تقعي على ذيولها وتخبط كل منها بأيمنها على كفوف الآخر.

بدأت أتبين أن هذا الممر الجنائزي لاحت له أخيرًا نهاية. وكان ذلك كفيلا بأن يجعلني أقفز بضعة قفزات كوثّاب رياضي. لكنني، وبسبب الآلام المبرحة التي داهمت كاحلي فجأة، وجدتني أتوقف. كان إحساسي بالخلاص يجعلني أستعيد كل طاقتي. أحسست بأنه لا يمكن لي مغادرة هذا المكان بهذه الذكرى المليئة بالرعب والخوف. استدرت لأواجه كل ما عبرته مرتعبا، كي أنفي رعبي لذاتي، مقاوما كل مخاوفي ومستعدا لمواجهة أي شيء.

توقفت كل الأصوات فجأة. اغتنمت الفرصة وألقيت بطرف عيني نظرة خاطفة إلى إحدى النافذتين المجاورتين لي، لكني لم أر أحدا يقف خلفها كما كنت أتصور. مشيت خطوة واحدة ثم توقفت، والتفت خلفي، فلمحت وجها شبحيا يطل من إحدى النافذتين. لم أتمكن من رؤية سوى عينين مرتعبتين واسعتين. أجفلت. ولكن الوجه الشبحي اختفى فجأة بمجرد التفاتي إليه.

ورأيت بوابة مماثلة لتلك التي دلفت منها إلى هذا المعبر الجنائزي المقيت، ولم يعد هناك من بد أو مفر للخروج من هذا القفر الموحش البغيض.

* * *

توقف شريف عن القراءة، وبالرغم من أنه بدا مستغرقا في ما قرأ، لكن شعوره بعدم الفهم جعله يعود لعدد من صفحاتي السابقة ويقلبها، يتصفحها، وتجري عيونه على السطور، يقرأ منها قليلا ثم يتقدم للأمام، كما لو كان يبحث عن شيء بعينه.

ثم سرعان ما استولى عليه النعاس. فنهض بعد أن وضعني بجواره على الفراش، ثم اعتدل ليغلق إضاءة الأباجورة المجاورة، وسرعان ما غابت الغرفة في العتمة.

28

من عتمة إلى أخرى، ومن قمرة آمنة في عرض البحر إلى أخرى تفيض بالمخاوف والشكوك، ومن يد قرصان فاشل؛ لعله الآن في قبضة قوات خفر السواحل الدولية والقوات البحرية، إلى يد قاسم الذي لا أعرف عنه شيئا. وها أنا الآن أقعي أسيرة، في غرفة رجل أشد غموضا من كل من عرفت هنا. لا أعرف ماذا يريد مني أو من قاسم؟ وهل سيعيدني لتلك الفتاة الإثيوبية السمراء بالفعل أم أن لديه خططا أخرى؟

كان المفترض أن أكون اليوم كتابا منسوخا في آلاف النسخ، يتكاثر قرائي، يعرفوني، وأعرفهم، ومن خلالي تصلهم أفكار مختلقي، رشيد الجوهري الذي أصبح اختفاؤه لغزا لا يبدو لي أنني سأتمكن من حل غموضه لو استمر سير الأمور على النحو الذي تسير عليه.

كما لو أن قدري أنا أيضا أصبح معلقا بقدره. أو كأن سيرتي، على نحو أو آخر، تعكس جانبًا من سيرته. هو الذي أراد أن يكون رحّالة، فانطلق إلى ألمانيا، وهناك فاجأته الأسئلة عن الهوية، والتاريخ، والتعايش، فكانت الرحلة القدر الذي جعله يعيد تأمل حياته كلها.

ظل ما حدث له في بيت الفنون لغزًا، وبالرغم من أنه التقى بالصدفة في شرفة الطابق الثاني فتاة بولندية جميلة، عرف منها أنها ابنة حارس المكان، وتحدث إليها متأملاً جمالها الصارخ، فيما يحاول التأكد مما إذا كانت هي نفس الفتاة التي رآها على السلم، والتي لم يتمكن من التحقق من هويتها. قال لها إن إحدى المقيمات أخبرته بأنه لا وجود لحارس للمكان. ضحكت الفتاة، وقالت له إن الحارس هنا مسؤول فقط عن رعاية الأماكن العامة، مثل القاعات السفلية ومكاتب الموظفين. وليست له علاقة بالمقيمين وغرفهم. وهو مسؤول بالكاد عن توفير القهوة والخبز في مطابخ الطوابق المختلفة، وهذا كل شيء. فهم منها إذن أن أفرادا كثرا يمكن لهم أن يأتوا للعيش بالمنزل لشهور ولا يصادفون هذا الحارس الافتراضي، أو ربما يلتقونه صدفة ولن يعرفوا هويته.

وبالرغم من لقائه بهذه الفتاة مرة أخرى فيما كانا جالسين على كرسيين متجاورين في يوم مشمس على غير عادة تلك الفترة الخريفية، التي كان البرد قد بدأ يداهم فيها أجواء شتوتغارت، فيما توقع الكثيرون هطول الثلوج مبكرا، وعرّفته باسمها: أنيسكا، فإنه لم يتمكن من التأكد من كونها تلك الفتاة الشبحية التي تجلت له قبل أن يدلف المتاهة أم لا.

كانت تمتلك لغة إنجليزية سليمة، وفسرّت ذلك بقولها أنها تدرس الآداب الإنجليزية. أخبرته أنها تعمل نادلة في أحد المقاهي، لتؤمّن عيشها، ولأنها تفكر في الانفصال عن أهلها قريبًا، لأن الحياة المشتركة مع أهلها، في عمرها هذا، لم تعد تناسبها، كما أنها لا تعد وضعا طبيعيا بين أقرانها وقريناتها في مثل عمرها.

تردد مطولا في أن يحكي لها تجربته في تلك المتاهة، لأنه بعد عودته وسهرته مع يولاندا وصديقها الهولندي في المطبخ المشترك في تلك الليلة، بدأ يتعامل مع ما رآه بوصفه مجرد حالة نفسية، أو خداع بصر بسبب الإرهاق، والضغوط الشديدة التي تعرض لها في القاهرة خلال فترة إجراء أوراق السفر، وإنهاء معاملاته، ووداعه لأطراف العائلة، وعلى رأسهم أمه، التي لم تتقبل فكرة سفره بعيدا عنها، وبكت طويلا، وهي تندب حظها السيئ.

لكنه لم يستطع إغفال المفارقة بين تأكيد أنييسكا أنها ابنة حارس بيت الفنون، وبين نفي يولاندا لوجود حارس للمكان من الأساس.

الحاسم في عدم تصديقه للأمر كله أن الفتاة التي رآها في تلك الليلة امتلكت شعرا طويلاً جميلاً ينسدل على ظهرها ويمنح جمالها لونا من المهابة. أما هذه الفتاة أمامه، فهي ذات شعر صبياني قصير، صحيح أنه بدا مصبوغًا بلون برتقالي جميل، لكن لم يكن من الممكن أن تكون قصّت شعرها خلال ذلك الأسبوع بالصدفة.

قال لها: "هل تعرفين أن شعرك جميل جدا؟ أقصد أن قَصّة شعرك هذه تمنحك مظهرًا عصريًا ورقيقا".

ضحكتْ، فانحفرت غمازتا وجنتيها لتضفيا جمالاً إضافيًا إلى ملامحها، وقطبت بين حاجبيها قليلا وهي تضحك، مما جعل الجزء العلوي من قصبة أنفها يتقلص قليلاً، فيما تكرمش الجلد المحيط بالجزء العلوي من قصبة الأنف، ما أدى إلى انتباهه لأرنبة أنفها ذات التكوين الدقيق، التي انغرس فيها فص ذهبي رقيق أضاف لجمالها ألقا وجاذبية إضافية، لكنها لم تقل له سوى كلمة شكراً بالألمانية.

حينما التقى يوديت، بعد عودتها من رحلة عمل في برلين، تناسى أمر تلك الليلة الغريبة، وحاول أن يلقي بنفسه في التجربة الجديدة، بعيدا عن ذكرى تلك الليلة. أن يرى بقدر الممكن، المجتمع الألماني الحقيقي. وبالرغم من أن يوديت كثيرًا ما كانت تقول له إنها ليست المثال النموذجي للشخصية الألمانية، وإن شتوتغارت نفسها، أيضًا، ربما لا تعبّر عن ألمانيا التي تمثلها برلين أو هامبورغ مثلا، فإنه لم يلتفت لمقولاتها تلك. كان يريد أن يجرّب مذاق الأطعمة الألمانية، وأن يراقب الألمان في نزهاتهم في شارع "كونيغ- شتراسه"، وأن ينصت للغة التي تفيض بالعذوبة والنعومة حالما تلهج بها ألسنة أهلها وهم يشكرون بائعا في محل، أو نادلة في مقهى، أو يتبادلون بها نكات أو دعابات مرحة، على عكس انطباعاته العامة عن المزاج الألماني الكئيب. أراد أن يتعرف على مذاقات البيرة التي تميز الجنوب، وأن يتمكن من التمييز بين ألوانها المختلفة من الذهبي الفاتح الخفيف، مرورًا بتلك الذهبية المعكرة التي تختلط مرارتها بمذاق لاذع مميز، وتدريجيًا وصولا إلى مذاق البيرة السوداء، المُرّة، الثقيلة، التي تعد علامة المذاق القادم من الجنوب. كما أراد أن يزور الغابات التي عدها أحد برز مظاهر خصوصية المكان بكل إحالاتها الذهنية من الغموض والرومانسية والفطرية والتعقيد والجمال الطبيعي.

قبل عودة ماتياس من رحلته الموسيقية بثلاثة أيام، مرت يوديت عليه في غرفته بلا موعد مسبق. كان جالسا إلى الكرسي الوثير المكسو بالقطيفة الزرقاء. يقرأ كتابًا لهرمان هسّه، فيما يواجه النافذتين العريضتين اللتين تحتلان جانبا كبيرًا من الجدار المطل

على الجانب الخلفي للمبنى، حيث يقع المرآب المحاط بحديقة صغيرة. وبين الفينة والأخرى ينهض ليتأمل أشجار الكستنة التي كانت فروعها وأوراقها قريبة من نافذته، ويدقق النظر في ثمارها ذات الأهداب اللينة، سواء ما ظل معلقا في فروع الأشجار، أو تلك التي كانت تتناثرعلى أرض الحديقة.

سمع طرقات خفيفة على الباب، واندهش قليلاً، فمن غير المعتاد في هذا السكن أن يطرق أحدٌ باب الآخر. فتح الباب. وجد وجه يوديت بابتسامتها الهادئة، وهي تعقص شعرها في ذيل حصان صغير كعادتها، فابتسم لها، وارتسمت على ملامح وجهه دهشة فرحة بوجودها أمامه بلا موعد مسبق.

تبادلا القبلات واحتضنا بعضهما بعضا حضنا سريعا، بينما كانت تتأمل الغرفة الصغيرة التي احتوت منضدة صغيرة لصق الجدار أسفل النافذة المواجهة للباب، وفراش صغير في أقصى اليسار، ودولاب صغير للملابس مقابل المنضدة، بينما في أقصى يمين الغرفة استقرت أريكة صغيرة مخملية، لونها كحلي، إلى يمينها منضدة صغيرة، وإلى يسارها كرسي وثير، يستخدمه رشيد للقراءة عادة.

قالت له: هذه الغرفة تحتاج إلى بعض الورود أو النباتات، أنت هنا في شتوتغارت.

معك حق، ولكن ما علاقة ذلك بشتوتغارت؟

ابتسمت له، وقالت:

سوف أصحبك إلى مكان سيتيح لك أن ترى شتوتغارت كلها تقريبًا، وبعدها سنتوجه، إذا رغبت طبعا، إلى منزل

أحد الأصدقاء، دعانا على العشاء في منزله، لذلك عليك أن تستعد بسرعة وسوف أشرح لك كل شيء عن شتوتغارت في الطريق.

وقبل أن يعلق بشيء، قالت له:

سأذهب إلى المطبخ لأعد لنفسي بعض القهوة حتى تنتهي.

عندما خرجا من المصعد، الذي كان يتخذ طريقه صعودًا ليصل إلى قمة برج التلفزيون بسرعة كبيرة، كانت يوديت تسير أمامه، لتقوده إلى الممر الخارجي الدائري في قمة البرج، والمخصص لمن يريد أن يطلّ على المدينة من الزوار. تأمل رشيد الكتابات المخطوطة على الجدار الدائري المحيط بالمصعد. أغلبها أسماء عشاق عابرين، خطّوها على الجدران، وتركوها ذكرى للعابرين.

ببلوغه الممر الدائري، المحاط بسياج معدني، ليقف عنده الزوار، سبقه بصره ليلقي نظرة على شتوتغارت القابعة في أسفل البرج بأمتاره التي تتجاوز الـ 450 مترا.

امتد المشهد أمامه، مثل غابة من التلال تحيط بالمدينة، التي تسقط في قلب الغابة بمبانيها المتناغمة، بأسطحها القرميدية المخروطية، التي تتناثر في المساحة الشاسعة التي تكّون مساحة المدينة، فيما تتخللها غابات الأشجار إلا قليلا.

قال لها:

- مدينة صغيرة جميلة.

ابتسمت له ولم تعلّق، وهي تمسك بطرف السياج المعدني، وتتأمل المدينة بسعادة. فسألها عن رحلة برلين. قالت باقتضاب إنها كانت رحلة عمل مرهقة، ثم تنشقت الهواء النقي البارد، وأغمضت عينيها الحالمتين، ثم قالت:

يبدو لي أنني لا أشعر بأنني على قيد الحياة سوى حين أعود إلى شتوتغارت.

كانت تتأمل المدينة بعينين عاشقتين، لم يكن قد حظي هو نفسه بعد بمثل تلك النظرة العاشقة.

ولن يستعيد نظرتها تلك إلا بعد شهور عديدة، حينما يدرك مدى تشبثها بالبقاء في شتوتغارت، كأنها سمكة لا يمكن لها أن تعيش سوى في بحيرتها الأليفة.

قالت له:

هل ترى الأشجار؟

رائعة، لم أعتقد أن هناك مدينة يمكن أن تكون بها كل تلك المساحات الخضراء.

لهذا قلت لك إن الغرفة تحتاج إلى نباتات.

ضحك لها، كمن أدرك ما كان غائباً عنه.. تأملته للحظات، وقالت:

ليس فقط بسبب الأشجار.. هل لاحظت أن أغلب النوافذ تتراص خارجها أُصُص تحتوي ورودا أو نباتات ملونة مختلفة؟

هز رأسه مؤيدًا، فيما يتأمل المدينة من البرج الشاهق، محاولا أن يتعرف على موقع وسط المدينة، التي بدت مكشوفة لقلة اللون

الأخضر بها. وتجول بعينيه مرة أخرى ليتأمل قلب أو مركز المدينة، حيث بدت أسطح بناياتها خالية من قبعات القرميد التي تعتمرها أغلب المباني التقليدية، متبينا أنها مناطق العمارة الحداثية في المدينة.

بعد أن أنهيا جولتهما في أعلى البرج، وفور خروجهما من المصعد أسفل البرج تلكأت يوديت عن التوجه إلى السيارة، وهي تتأمل مرجًا أخضر يحيط بالمبنى. أحنت رأسها تتأمل الحشائش القصيرة، بتركيز بالغ، كأنها تبحث عن حلية ذهبية فقدتها في المكان. سألها: "ما بك؟ عما تبحثين؟".

انتبهت له بشكل درامي، كأنه أيقظها من النوم، وابتسمت، ثم قالت:

أبحث لك عن الحظ.

ابتسم لها قائلا:

أي حظ؟

لم ترد عليه، ولكنها عجلّت خطواتها قليلاً وهي تنظر إلى الأرض بتركيز، مثل قصّاصي الأثر، حتى انحنت فجأة، مائلة بجذعها، مادة يدها إلى قنيصة لا يراها سواها، ثم عادت إليه بعد لحظات وهي تمسك بنبتة صغيرة خضراء لها أربع وريقات، بالكاد كانت تمسك طرفها الدقيق بالإبهام والسبابة.

قالت له: يا إلهي أنت محظوظ!

وقف رشيد يتأملها هي والوريقة بابتسامة دهشة وساخرة، وهو يداعب شعر رأسه الثقيل بإحدى يديه، فاستدركت:

خذها مني واشكرني أولا.

أمسك بالنبتة وتأملها قليلا، فقالت له:

هذه نبتة برسيم بأربع وريقات، والمعتاد أن تكون وريقاتها ثلاثًا فقط، لكن بعضها، يمتلك أربع وريقات أو خمسا، وهذه لا يجدها إلا شخص محظوظ. وفي شتوتغارت كلها لن تجد أحدا يستطيع العثور على نبتات الحظ هذه مثلي.

ابتسم لها، ثم ضحك ضحكة قصيرة، فهزّت كتفيها، ثم قالت بنبرة تدّعي السخرية الممزوجة بالشفقة على الذات والاستنكار معا:

لكم منحتُ الحظ للآخرين، ولم أتلق منهم الشكر أبداً.

تأملها لوهلة، ثم أغرق في الضحك، فبادلته ضحكة طفولية، ثم أشارت إلى أحد المواضع، وهي تقول له:

تعال لأريك الموقع الذي تعيش فيه من هنا.

في الطريق إلى منزل صديق بوديت، كان رشيد يتأمل بناء البرج وهو يبتعد تدريجيا، وقال لها:

بناء غريب، كأنه شخص يقف على ساق واحدة نحيلة، بينما ينتفخ صدره.

ضحكت بوديت، ثم قالت:

لا تذكرني، فهذه واحدة من مآسي حياتي. عشت سنوات طويلة من طفولتي أبكي كلما مررت مع والديّ من أمام البرج.

ابتسم لها مندهشًا، بتعبير بدا لها أنه يريد تفسيرًا سريعا، فقالت:

كنت مغرمة بالبُرج في طفولتي، لأنني لاحظت أنه يسير معنا دائما كلما كنا نمر من أمامه بالسيارة، وكنت أخبر والدتي بأنني سعيدة بأنه يصحبنا. وفي إحدى المرات سلك أبي طريقا بعيدًا عن البرج، وعبر زجاج السيارة الخلفي

كنت أراه يبتعد خلفنا ولا يصحبنا كالعادة. فلما أخبرت أمي بملاحظتي قالت لي إن البرج المسكين له ساق واحدة، ولا يستطيع أن يمشي كثيرًا. وعندما سمعت ذلك بكيت وأخذت أصرخ، قائلة "آه أيها البرج المسكين".. وهكذا، كلما مررنا من أمام البرج لاحقا، كنت أبكي بكاء مريرا وأنا أتذكر أنه يقف على ساق واحدة، فأصرخ "أوه أيها البرج المسكين ذو الساق الوحيدة". وأظن أن أمي لم تندم على انفصالها عن والدي لاحقا، بقدر ما ندمت على إخباري بحكاية البرج ذي الساق الوحيدة هذه.

انفجرت قهقهات رشيد، بينما كانت يوديت تتأمله بطرف عينيها وهي تقود سيارتها. وعندما تمادى في الضحك قالت له بنبرة صوتها الهادئة:

إيه! لا تتمادى في السخرية من ذكريات طفولتي البائسة.

ضحك بقوة، وهو يتأمل زرقة عينيها.

عيناها اللتان وصفهما بأنهما عينان شعريتان، واستدعى الوصف نفسه وهو يسرد في روايته، التي أجسدها، وصف بطل روايته كيان لعشيقته سديم.

أظنني لا أمل من استدعاء رحلته لألمانيا وحياته فيها، لأنها المكان الذي بدأت فيه فكرة تخلُّقي.. وربما مكان ميلادي.

29

عندما استيقظ شريف، أدهشني أنه التفت لي مباشرة ووضع يديه عليَّ بمجرد أن فتح عينيه، ليعاود القراءة من دون أن يبدأ أي نشاط آخر، باستثناء السيجارة التي أشعلها في مكانه على الفراش. سحب منها نفسين متتابعين، ثم أطفأها بسرعة، ونفث الدخان، وعاد إلى صفحاتي:

"حين خرجت من ذلك الدرب الذي أسميته ممر المقابر، تنفست الصعداء، رغم تزايد شعوري بالإعياء. بدت الطريق بعد انتهاء الممر، كممشى ممهد بالحجارة، وبعد خطوات عدة لاحظت أنني أسير بين منطقة جبلية شاسعة، كأنني معلق، في تلك البؤرة بين السماء والأرض. ولكني لم أفهم سر إحساسي ذاك، إلا بعد أن مشيت مسافة أخرى ربما تزيد على 500 متر، حتى لاح لي من بعيد بناء ضخم أشبه بالحلم، كأن غلالة كثيفة من الضباب أحاطت به وجعلت تمييز تفاصيله أمراً بالغ الصعوبة.

حينما اقتربت أكثر اكتشفت أن البناء يبدو جزءًا من مدينة كاملة، كنت أراها من مكاني الذي يعلوها قليلاً، لكن ما أذهلني

وجعلني أبدأ في الشك في كل ما يحدث حولي، أنني تبينت أنها مدينة معلقة في فضاء الفجوة العملاقة بين الجبال التي تحيط بنا. ومن بعيد لاح لي جسر خشبي عتيق يبدأ من حيث أسير، وينتهي إلى أحد مداخل المدينة المعلّقة.

بدأت أشعر بالخوف، فلا أنا أعرف ما هي هذه المدينة، ولا أستطيع العودة من حيث أتيت.

خالجني إحساس جارف بالحنين إلى مدينة الأنفاق، وإلى سديم ونقّار الزجاج، وشعراء القاطرات، وكُتّاب النصوص الممنوعة. وأصبح العالم الذي كنت أشعر بالاكتئاب من وجودي فيه بسبب العتمة المستمرة، هو العالم الذي أتمنى من كل قلبي العودة إليه في الحال.

جلستُ على الأرض منهكا. أسندت ظهري على الجدار الجبلي الصلد، وغبت في ذكرياتي. تذكرت سديم، وأمسيات الشعر، وليالي النسخ في عربات المترو، ونيرد غريبة الأطوار، والفنانين البوهيميين، الذين حوّلوا جدران الأنفاق إلى جداريات ضخمة رسموا عليها كل ما يمكن تخيله. استعدت جلسات مقاهي عربات المترو التي كانت تفيض بالنقاشات الصاخبة في الشعر والأدب والفلسفة والفكر والموسيقى والسينما.. وبالضحك الصافي من قلوب كانت تشعر بأنها تمارس حريتها بعيدا عن أي وصاية أو رقابة لأول مرة في تاريخ حياتها، أيا كانت أعمار أصحابها.

تذكرت الليلة التي ذهبت فيها مع نقار الزجاج وسديم إلى كهف أطلق عليه مرتادوه اسم "كهف الشيطان"، وكان بمنزلة مساحة تقام فيها نقاشات حرّة حول الأفكار الجدلية والفلسفية بلا

قيد، وتشهد جدالاً فلسفياً يشترك فيه مجموعات من شباب وفتيات وفنانين وغيرهم، بعضهم يتبنى فكرة الإلحاد، بناء على قراءات موسعة في تاريخ الأديان والفلسفة والتصوف والفقه.

وبينهم من يتبنى أفكار المؤمنين، ليزيد من حماس المتناقشين، أو يقدم أسئلة يحاول أن يصل بها إلى الأفكار الأولى التي أسسها الرواقيون الإغريق حول مفهوم الكون. وبدا نقّار الزجاج مبهوراً في ذلك اليوم، شأني أنا وسديم، ليس لطبيعة الفكرة، ولكن ربما لأنها المرة الأولى التي يشهد فيها أي منّا نقاشًا عامًا عن أفكار كان الجهر بها في مدينة الظلام كفيلا بأن يذهب بصاحبها إلى السجن أو المشنقة أو القتل على يد صبي تافه لم يقرأ حرفا في حياته.

خرج نقّار الزجاج منتشيا، ثم ابتسم وقال لي: "حرام عليكم يا عالم. أنا عايز لوح إزاز أضرب دماغي فيه دلوقت علشان أتأكد إني صاحي فأضفت ضاحكا: "أو علشان أعمل دماغ" وقهقه ضاحكا، وتبعناه بسيمفونية ضحك شبيهة. وسرنا إلى أحد المقاهي الأخرى، بينما كنا نناقش كثيرا مما أثير في كهف الشيطان. كان نقار الزجاج يرى أن البعض ممن شاركوا في النقاش مجرد جهلة استعراضيين، لكنه أشار إلى اثنين من المشاركين كان كلامهما أكثر ترابطا ومزوّدا دوما بمرجعيات، قائلا إن أفكارهما فعلا مبنية على ثقافة واسعة.

سمعتُ صوتًا نبهني، واستعادني مما كنت مستغرقًا فيه إلى الزمن الراهن. التفت حولي وأنا أسمع صوت صراخ أو نداء؛ كان صداه يتردد في المكان ولا أتمكن من تمييزه. لكني بعد لحظات تأكدت أن الصوت يناديني بالاسم.

نهضت ونظرت صوب المدينة المعلقة على مرمى البصر، لكن الضباب منعني من تمييز أي شخص. وسرعان ما بدأ الصوت الذي أحسست فجأة بأنه صوت سديم يختلط بأصوات أخرى لم أتمكن من تمييزها، لكن اسمي كان جليًّا هذه المرة في النداءات الممتدة: "كيااااااان.. كياااااان"

سمعت صوتا غليظا يلفت انتباهي لضرورة العبور أعلى الجسر. توجهت إلى النقطة التي يبدأ عندها، ونضوت عني كل إحساس بالتردد، ووضعت قدمي على الجسر، وبدأت رحلتي إلى المدينة المعلقة.

كان المكان رطبًا، ولفحة من هواء رطب لا أعرف مصدرها تضرب وجهي بين آن وآخر، وكنتُ أطرق بقدمي ألواح الخشب المتراصة المتعاقبة، التي تشكل جسد الجسر، بخطوات حذرة، مرتبكة ومتوترة، لكنها كانت تقربني، خطوة بعد أخرى، من المدينة المعلّقة.

عندما وصلت لم أصدق عينيّ وأنا أرى سديم واقفة في استقبالي. كان وجهها في تلك اللحظة يعني لي العالم كله تقريبًا، ضربت روحي موجة عاصفة من سعادة لم أحسب أنني كان من الممكن أن أشعر بها يوما.

من خلف سديم لمحت بعضًا من الوجوه التي كنت رأيت كثيرًا منها في مدينة الأنفاق. لكن سديم أمسكت بيدي، وهي تقول لمن حولها: "شكرا يا جماعة، بس أكيد هوا عايز يرتاح دلوقت"

مشينا متجاورين، ودخلنا من مدخل حجري فرعوني أفضى بنا إلى مساحة شاسعة، كأنه ميدان فسيح في مدينة. أشارت إلى أحد

الدروب المتفرعة من الميدان وسرنا متجاورين، يلتفت كل منا للآخر، بين الفينة والأخرى، فنبتسم، ثم نعاود المشي صامتين"

* * *

توقف شريف عن القراءة، ثم أخذ يقلّب صفحاتي، ثم يعود إلى حيث كان يقرأ ليجري بعينيه على السطور ويتوقف. وفي النهاية أغلقني. ووضعني على الفراش بجواره، وانصرف إلى الحمام.

حينما خرج ارتدى ثيابه متأهبا للخروج من الغرفة. سمع طرقات على الباب، وحين فتحه وجد الفتاة الإثيوبية التي كانت أخبرته بأن اسمها ميهريت.

ابتسمت له وهي تقرب وجهها منه بدلال، فيما اعتلت عينيها العميقتين نظرات لا تخلو من الحسية.. فابتسم لها شريف، وقال:

ليس لهذه الأوراق أي أهمية.

هل ستعطيني إياها إذن؟

ابتسم لها بسخرية، ثم صمت للحظات، وقال:

سأعطيك إياها بالفعل، لكن ليس الآن، بل في الليل. تعالي لتأخذيها قبل أن تذهبي للنوم.

اختفت ابتسامتها بطريقة مفاجئة وكافية لأن يلاحظها، فقال لها:

لا تخشي شيئا. أنا لا أخلف وعودي، لقد منحتك ثمنا لهذه الأوراق، واكتشفت أنها لا تعني لي شيئا، ولن أطلب منك المال الذي أعطيته لك، لأني أعرف مدى احتياجك له، لكني فقط أطلب منك أن تأتي لزيارتي في الليل.. مثل ليلة أمس.

أوه، هذا ما تقصده. يمكنني أن آتي إليك بلا مقابل لو أحببت.

ابتسم لها، قائلا:

شكرا لكرمك، لكن ليكن هذا اتفاقنا، تأتي إليّ هذه الليلة، نقضي الوقت معا، وتتصرفي ومعك أوراقك.

تأملت وجهه للحظات كأنها تحاول أن تقرأ مدى جديته وعناده. فهزت رأسها بتفهم وقالت:

أوكي.. ليكن ما تريد. اتفقنا. سأمر عليك ليلا.

هذا رائع. ولكن أرجو أن تستمري في حذرك. لا يجب أن يراك أحد هنا، وخصوصا القبطان، لأنني عندها لا أضمن ما يمكن أن يحدث.

ابتسمت ابتسامة حاولت أن تخفي بها مشاعرها حيال ما شعرت به من تهديد في هذه الجملة، وهزّت رأسها له مرة أخرى، وأدارت له ظهرها وخرجت.

30

لم يعد يعجبني هذا الوضع "المسخرة". وبدلاً من التفكير في مصيري مرة أخرى، وما يريد ذلك الشخص المريب أن يفعل بي أو بقاسم أو تلك الفتاة، قررت أن أتناسى كل ذلك، وأن أغرق في ذاتي هربًا من كل ما يحدث حولي هنا.

"استيقظت من النوم لأجد نفسي في حجرة تضيئها الشموع. بدا الفراش من تحتي وثيرًا بدرجة جعلتني أظن معها أنني في حلم لم أستيقظ منه تماما بعد. لم يكن في الغرفة أي شيء آخر سوى الفراش. أنصت فلا أسمع سوى صوت خرير مياه يأتي من الخارج. أخذت في استعادة وعيي تدريجيا. تذكرت أنني دخلت هذا البيت الفخم مع سديم، حيث أخبرتني أن النسَّاخين قد خُصصت لهم بيوت وحجرات مجهزة بكل ما يلزمهم، ولكني لا أذكر شيئا آخر.

ناديت على سديم فلم ترد. وبالرغم من تشوقي لرؤيتها، وفضولي لمعرفة حقيقة هذه المدينة، ساورني شعور بالراحة والهدوء النفسي. ما كان يقلقني إحساسي بأنني غادرت عالما للأبد. لكني في المقابل كنت أشعر بين الفينة والأخرى أن المأساة الحقيقية ما يحدث

في مدينة الظلام. حاولت أن أتخيل وفقا لما استمعت إليه من أقوال القادمين منها إلى الأنفاق، ما كانوا يحكونه. وتخيلت المدينة وقد أصبحت قفرا مرعبًا، ممتلئة بأكوام القمامة والنفاية، وبحشود الفقراء. مدينة لا يرتع فيها سوى الجهل والمرض. وانقطعت أسباب اتصالها بالعالم الحديث. شعرت بالضيق الشديد والكدر، فتوقفت عن هذه التداعيات السخيفة وتقلبت في الفراش، مستعذباً الإحساس بالراحة بعد ليالٍ من النوم في عربات المترو، وأركان الأنفاق الصلدة المتعبة.

نهضت واعتدلتُ جالسا على الفراش، شعرت بأن عضلاتي كلها متيبسة، وأحسست بالألم في مواضع متفرقة من جسدي، ذكرتني بالآلام التي تبعت الضرب الشديد الذي تلقيته على يد أنصار المتكتم قبل هروبي إلى مدينة الأنفاق. لكن إحساسا عاما بالسكينة والأمان لف روحي. كانت الغرفة رطبة وتفيض بعبق يشبه الياسمين. تأملت السقف الشاهق والجدران الحجرية، ثم عدت أتأمل الغرفة، لم يكن بها سوى هذا الفراش.

أتاني صوت خافت لخرير مياه، يوحي بأن ثمة نبعا قريبا في الخارج، أو ربما نافورة تسقط فيها المياه. التقطت أنفي رائحة جسدي المتعرق، وشعرت بأنني أحتاج إلى الاغتسال بأي وسيلة. ولكني تذكرت المخطوطات التي تركتها في الأنفاق فجأة فأجفلت. كيف سأحصل عليها؟ وإذا كنت فقدتها فهل يعني ذلك أنني سأعيد نسخ ما ضاع مني؟ وانقلب مزاجي في لحظة. وراودتني الرغبة في التدخين. نهضت، فصرخت من الألم، وتذكرت كاحلي المعطوب. تماسكت وسرت بهدوء حتى وصلت إلى ردهة صغيرة تنتهي بها الغرفة، وتقود إلى الباب. وجدت فتحة باب صغير إلى يساري في

تلك الردهة، فأدركت أنه يقود إلى الحمام. خلعت ثيابي على الفور ودخلت الحمام. وجدت مغطسا يشبه بانيو عتيقا ممتلئا بالماء، فلم أتردد وغطست بجسدي عاريا، وشعرت بسعادة غامرة وأنا أدلك جسدي، محاولا التخلص مما علق به من أوساخ.

وخرجت من المغطس مبتلا، ولم أجد ما أجفف به نفسي، فأخذت أنفض المياه من على جسدي، وأتراقص مثل كلب يحاول أن يخلص جسده من المياه، ثم ارتديت القميص والبنطلون.

خرجت من الغرفة فوجدت بهوا كبيرا، أرضه مبلّطة بالحجارة، تتوزع به أرائك صغيرة وتحيط به مجموعة من أُصُص كبيرة تحتوي كل منها على شجيرة صغيرة وارفة. بجوار واحدة من الأرائك وجدت منضدة صغيرة عليها بعض الأوراق. توجهت إليها فوجدت الجزء من مخطوط دون كيخوت الذي نسخته سديم. وسقطت قطرة مياه من رأسي المبتل على الورق، فأسرعت أزيلها بإبهامي، ورحت أطوف بعيني في المكان، بحثًا عن باب للخروج.

* * *

في المساء، عندما طرقت ميهريت الباب وفتح لها شريف الباب بحذر، دلفت إلى الحجرة بسرعة. ارتسمت ابتسامة غامضة على وجهها. رد لها شريف الابتسامة بمثلها، ودعاها للدخول.

كنت أترقب أن تمتد يد الفتاة إليّ في أي لحظة كي أعود إلى قاسم. ولكن بدلا من ذلك امتدت يد شريف إلى ردف الفتاة يداعبها، وبينما كانت توسع من ابتسامتها له، بدت كأنها قررت أن تتمنع. حاول مرة أخرى وثانية، وشعر أن غنجها المفضوح يغلف حالة من

التمنع الأنثوي العنيد. عندما شعر بذلك لمّح لها أن ما يطلبه منها له ثمن كانا قد اتفقا عليه. لكنها بلهجة لم تخل من الغموض أوضحت له أن القواعد اختلفت. وحالما تمادى في الاستهانة بما تطرحه، ابتعدت عنه قليلا، وحدّقت في عينيه بشكل مباشر، وقالت بنبرة واضحة:

أنا أحتاج إلى هذه الأوراق، وقد دفعت لك الثمن بالأمس وانتهينا.

بدأت نبرة صوته تعلو قليلا للتعبير عن رفضه لطريقة حديثها. ابتسمت له، ثم قالت بنبرة خافتة ناعمة كأنها عشيقة في حالة غرام:

انتهى الأمر. لقد عرفت موضوع سكان الغرف السفلية.

ورغم أن شريف بدا رابط الجأش تماما بينما يسألها عما تقصد، إلا أن الفتاة تمكنت من أن تلمح في عينيه تعبيرا خاطفا بالاهتزاز.

وفي النهاية أصر على طردها من الغرفة، ومن دون أن تحصل عليّ. فما كان منها إلا أن أعلت صوتها قليلا، وهي تقول له:

كان عليك أن تصدقني حينما قلت لك إن الخطة تغيرت.

قبل أن يرد عليها فوجئ بطرقات عنيفة على باب غرفته. نظر إلى الباب، ثم وجّه نظرة غاضبة لم تخل من الدهشة إلى ميهريت، وتحرك غاضبا ليفتح الباب، فوجد أمامه قاسم، وجها لوجه.

اندفع قاسم إلى داخل الغرفة، وبدا أنه لم يكن مهتمًا بشريف أو الفتاة ميهريت، بقدر اهتمامه بالبحث عني، حيث كان يتجول بعينيه في الغرفة حتى وجدني ملقاة على الفراش، فبدا وكأنه قد تنفس الصعداء.

تظاهر قاسم بالهدوء، على عكس شريف، الذي كانت عيناه تبرقان بالغضب. وبحسم طلب منه أن يتحدثا معا في هدوء. وطلب من ميهريت أن تتركهما معا.

بدا وكأنه قد وقع أخيرا على ورقة يمكنه بها أن يطلب مساعدة شريف، من جهة، وأن يساومه بها في الوقت نفسه ليحصل عليّ، مؤكدا له أنه لم يكن في حاجة لأن يشك فيه من الأساس.

أخيرا ابتسم شريف ابتسامة متذاكية، وهو يعرف أنه إزاء صفقة لا يفهم تفاصيلها، لكنها استولت على كل اهتمامه، فتلفت حوله وطلب من قاسم أن يخرجا من الغرفة، في كل الأحوال ليستكملا الحوار على سطح السفينة. لكن قاسم أشار إليّ مبتسما وهو يقول: كما تريد، ولكني لن أخرج من غرفتك من دون هذه الأوراق.

أشار شريف إليّ، قائلا: تقصد الرواية؟ لطيفة على فكرة.. أنا كنت عايز أستمتع بقراءتها، صاحبها كاتب موهوب على فكرة.

ضحك قاسم، وقال له:

ما هو ده السبب اللي علشانه أنا عايزك تساعدني.

وهكذا خرجنا معا، وكنت أشعر أنني أخيرًا أصبحت في أمان. شعرت أن قاسم أنقذني من مصير غامض.

بعد حوار طويل ساد بينهما، لعلني لم أتمكن من فهمه بشكل كامل، كنت أحاول أن أرى الأمر من بعيد، كأنني عين من عيون الساتالايت العملاق الذي يراقب العالم. وربما لن يكون بإمكان هذا القمر الصناعي أن يراني، لكن المؤكد أنه سيكون قادرا على التقاط سطح هذه السفينة المجهولة، التي تسير إلى وجهة مجهولة يديرها قبطان مجهول، ويعيش في ما يشبه غرفة قبو في قاع السفينة

جماعة من المساجين، الذين لا أعرف من هم، ومن له المصلحة في ذلك.

على مياه البحر الهادر إذن، كانت السفينة المجهولة تمخر إلى المجهول، كأنها سفينة من سفن الحمقى الأسطورية القديمة، التي كانت تخرج بالمجانين إلى أعالي البحار لتعزلهم عن عقلاء المدن، لتلقي بهم في تيه البحر، أو تيه مدن أخرى، خوفا من انتقال عدوى الجنون، ليكون قدرهم الحياة في تيه أبدي.

31

عاد قاسم إلى غرفته، فوجد ميهريت جالسة على أرض الغرفة، تسند رأسها على السرير. حيّاها، وطلب منها أن تنام على الفراش إذا رغبت، لكنها شكرته، وقالت له: "لم أنم على فراش منذ زمن طويل. أصبحت معتادة على الأرض". ثم ابتسمت واستطردت: "أمنا الأرض". فضحك، ثم اتجه الى الدولاب وأخرج منه أغطية للفراش، طواها وفرشها على الأرض، ثم قال لها طالما أنها مصرّة فسوف يناما على الأرض معا. شكرته، قائلة إنها لا تريد أن تسبب له أي إزعاج. فقال لها إنه لا يأمن عليها الآن مما قد يدبره لها شريف أو غيره.

أشار الى الثلاجة الصغيرة وطلب منها أن تأكل ما تريد، لكنها تمنعت، قائلة إن التوتر الذي تشعر به يجعلها تعاف الأكل. ابتسم لها، ثم اتجه إلى الثلاجة وأخرج تفاحة ناولها إياها، ثم أخرج زجاجة مياه صغيرة سكب منها قليلا من المياه في كوب موجود أعلى الثلاجة. مد يده لها بالزجاجة، موضحا أنه لا يملك في الغرفة سوى كوب واحد، فتناولتها وشربة جرعة من المياه، ثم تنفست في راحة.

ألحّت عليه أن ينام على الفراش مرة أخرى، لكنه ابتسم لها، ثم قال: "هل تخافين مني؟" ابتسمت وبدت مندهشة من السؤال، ثم قالت له: "بالعكس تماما.. أنا فقط مشفقة عليك من النوم على الأرض".

التهمت التفاحة بنهم، ثم استلقت على الفراش. تمدد بجوارها. وضعت يدها على صدره. أمسك يدها برفق، ثم أبعدها. وضع يديه أسفل رأسه، وعاد يتأمل السقف. قالت له إنها فقط ترد إليه الجميل، فابتسم وقال لها إنها لا تحتاج لرد الجميل، لأنها كشفت له أيضا سرّاً خطيرًا مما يجري على متن السفينة ولا يدري أحد عنه شيئًا.

حدّقت في سقف الغرفة كأنها تتذكر شيئا، ثم التفتت إليه وهي تضطجع على جنبها، قائلة:

هل تعرف أن أعز أصدقائي في جيجيجا وأديس آبابا كانوا مثليين؟

رفع رأسه، والتفت إليها مندهشا. ابتسم لها ابتسامة إعجاب، لم تفهم مغزاها، ولم يعلق رغم ذلك سوى بسؤال عابر:

أين؟

في جيجيجا؟

وما هي جيجيجا هذه؟

البلدة التي وُلدت فيها وعشت حتى الثانية عشرة من عمري، قبل أن أنتقل إلى أديس آبابا.

ولماذا تعتبرينهم أصدقاءك الأعزاء؟

حسنا، أولا لأنهم كانوا فعلاً يشعرون بمشاعري بشكل دقيق. وطبعًا لأنني كنت أتعامل معهم وأنا أعلم أنهم لا

يطمعون في جسدي، مثل آخرين كثيرين. كنت أقول لهم إني أتمنى أن يكون كل أصدقائي من المثليين.

ابتسم لها قائلا:

أنت الآن بالنسبة لي حكيمة فعلا. ويمكن أن أضيف إليك أن المثليين هم الذين يحكمون العالم.

ضحكت قائلة:

دعك من المبالغات.

أنت تذكرين لي ملاحظاتك عن المثليين، لأنك تعتقدين أنني مثلي؟ أليس كذلك؟

ليس تماما. لا.

هل تشعرين بالإهانة لأني لم أقبل عليك، تتصورين أنني لم أجدك جذابة؟

ابتسمت له، ثم قالت:

ليس بالضبط.. قد يبدو هذا مهينا بالفعل، لكني لست في وضع يسمح لي هنا أن أفكر في مثل هذه الأمور. أنا فقط أردت أن أختبرك.

واتبعت كلماتها بضحكة مرتبكة، فقال لها:

عليّ أن أعترف لك عموما أنك ذكية وحساسة.

ابتسمت له ابتسامة عبّرت بها عن ارتباكها من إجابته الملتبسة.

تذكرتُ الآن أن رشيد الجوهري لم يحتك كثيرا بالمثليين، ولم أكن أعرف أن أحد أصدقائه القدامى مثلي من قبل. لكني أذكر بالتأكيد، وفقا لما ذكره في مذكراته، ولأسباب أخرى، دهشته الشديدة

حينما عرفّته يوديت على شخص مثليٍّ، بعد أن قابله، قال ليوديت ضاحكا:

لقد بدأت أغير فكرتي عن المثليين تماما بعد لقائي بصديقك.

ضحكت قائلة:

طبعا جيروم أفضل شخص يمكن أن تقابله في حياتك.

أومأ إيماءة من يتفهم الأمور، لكنها أدركت خبث إشارته، فأطلقت ضحكة صاخبة وهي تلكزه في كتفه بقبضة يدها، قائلة:

لا تسيء فهمي، لقد كان يحب النساء عندما وقع في غرامي.

كانت يوديت قد أخبرته في الليلة السابقة بأنهما مدعوان على العشاء عند "أحد أقرب أصدقائي وفي الطريق، بعد أن قهقه على حكايتها مع برج التلفزيون ذي الساق الوحيدة، قالت له: "أريد أن أخبرك بشيء، صديقي جيروم مثليّ، ويقيم الآن في شقته مع صديقه، أو بالأحرى عشيقه يان".

أومأ رشيد برأسه متفهما، فنظرت إليه، وبدت مترددة لوهلة، ثم قالت:

حسنًا، كان صديقي قبل أن يصبح مثليًا.

ماذا؟ هل كنت على علاقة به؟

علاقة طويلة، استمرت نحو سبع سنوات.

ثم؟

لا شيء، كنا قد انفصلنا، وبعد عام من انفصالنا أخبرني بأنه يشعر بميول حقيقية لجنسه، وأنه لا يستطيع تجاهل الأمر.

غريب.. وهل كان طبيعيا معك؟

ابتسمت ابتسامة خبيثة، وسألته:

ماذا تقصد؟

أقصد الجنس طبعا.. هل كان طبيعيا معك؟

جدا.

- هذا لغز؟

إطلاقا، هذا ما حدث. وهو الآن على علاقة مع يان منذ عامين ويعيشان معا، وهما سعيدان جدا.. هذا هو الأمر ببساطة.

والأمر مقبول من الجميع هنا؟

طبعا.. هذه حرية شخصية.. لكن الأجيال القديمة لا تستوعب مثل هذه الأمور. عائلته لا تتقبل الأمر حتى الآن.. وهذا أدى إلى الاختلاف بينه وبينهم.

شعر رشيد ببعض التوتر حالما صافح كل من جيروم ويان، لكنه سرعان ما تجاوز الأمر حين بدآ يتحدثان. أبدى جيروم شغفا بالتعرف على الحضارة المصرية. ورشيد كان يجيبه عن أسئلته بسعادة.

ثم نظر جيروم إلى يوديت، قائلا:

لن أسامحك على زيارتك لمصر من دوني.

ذكرته بأنها أخبرته بالرحلة أكثر من مرة، ودعته لرفقتها، وأنه اعتذر بسبب مشاغله.

ومن دون أن يشعر أحد كان رشيد يرقب يان وجيروم، ويحاول أن يلاحظ أي لمسة حميمية بينهما، لكنهما كانا يتصرفان بشكل

عادي تماما، مثل أي صديقين أو رجلين. جيروم كانت له ملامح ذكورية وسيمة، بجبهة عريضة وشعر أشقر خفيف انسحب حتى بداية الرأس إعلانا عن صلع مبكر، وله عينان عسليتان ذكيتان.

بدا جيروم شخصا مريحا لرشيد. مهندس مثقف، واثق من نفسه، يعرف جيدا في مجال تخصصه، بما فيه الجانب التاريخي لطريقة بناء شتوتغارت. شغوف بالتفاصيل، بما فيها انطباعات رشيد عن الألمان، وعن شتوتغارت، لا يعدم روح المرح.

في طريق العودة أطرق صامتا يفكر، ويستعيد تفاصيل الأمسية، من دون أن يخبر يوديت بما يفكر فيه. ويتساءل عن طبيعة العلاقة الجنسية بين جيروم ويوديت، ثم بين جيروم ويان. هل جيروم هو الموجب؟ وهل هناك جانب نفسي للعلاقة بين المثليين؟ إذا كان الرجل كما يقال من المريخ والمرأة من الزهرة، فهل يكون التفاهم العقلي والوجداني بالتالي بين رجلين مثليين، توافرت لهما سيكولوجيا عشق نفس الجنس، أفضل عاطفيا لهما من علاقة أحدهما بالجنس الآخر؟ وهل هذا شأن امرأتين مثليتين أيضا؟ أم أن الغيرة هنا ستكون مضاعفة في علاقة امرأتين ببعضهما بعضا؟ أظنه كرر هذا الأمر أكثر من مرة، وأكد ليوديت أنه بدأ يفهم التفاهم العاطفي بين المثليين، لأنه يظن أن الرجال أكثر تفاهما بشكل عام، فإذا نشبت بينهم علاقة، فلا بد أنها ستحظى بالفهم الذي قد لا يحظى به رجل وامرأة في علاقة. ضحكت يوديت وعلقت قائلة إنه يبالغ، لكنه أصر على رأيه. قالت له: لكن حياة رجلين أو امرأتين معا عموما تظل أصعب كثيرا. هنا أومأ لها مؤيدا، ثم أوضح لها أن الأمر في بلاده يعد جريمة، بينما في ألمانيا يمكن أن تبدو جنة الحرية.

غفت ميهريت وارتفع صوت تنفسها المنتظم، بينما بدا قاسم أرقًا. كانت وعدته أن تحكي له حكايتها، ولكنها من شدة الإرهاق نامت قبل أن تنطق بكلمة.

نهض قاسم وأمسك بي، ثم عاد إلى موقعه على اللحاف بجوار ميهريت، وبدأ يقرأ:

"عندما خرجت من هذا المكان وجدتني في باحة حجرية واسعة، بينما تناثرت بعض الشجيرات التي بدت كأنها خرجت من بين الحجارة وتفرعت إلى شجيرات صغيرة.

كان المكان ساطعا بضوء النهار. نظرت لأعلى فاكتشفت أن المكان يبدو ككهف جبلي له كوّة عالية في أعلى جبل ما. بدا الأمر عصيًّا على الفهم. انتقال في الزمن؟ ربما. فلا يمكن أن يتصور أحد أن مخبأ سريًا في الأنفاق يمكن أن يفضي إلى هذه المساحة الشاسعة، التي تبدو كأنها جزء من الطبيعة الحية.

كيف يمكن للأنفاق الأرضية الخانقة، المعتمة، أن تقود إلى مثل هذا الفضاء الجديد؟ هواء نقي، وإضاءة طبيعية، وخرير مياه من مكان مجهول. أصابت روحي حالة من الصفاء. ولكني فوجئت بأن المكان خاليا. كأنني أعيش وحيدا حيث لا يعرف عني أحد. لا صوت لأي كائن بشري في الأرجاء. وسديم اختفت، كأنها لم تكن سوى امرأة الحلم، طيف حنون، طافت معي في سماء حلم ليلي، ووصلت بي إلى هنا، ثم اختفت.

تداعت الأفكار في ذهني؛ الأسئلة عن المكان الذي وصلت إليه، والكيفية التي وصل بها قبلي النسّاخون الهاربون إلى هنا، وبينهم

سديم. تذكرت نقّار الزجاج وناصر، وتمنيت أن يكونا قد وصلا إلى هنا بشكل أو آخر. وتناثرت لقطات من ذكرياتي مع المتكتم وأعوانه. وأمي وأبي وشقيقتي. أين هم الآن؟ هل مازالوا يحتملون الحياة في مدينة الظلام؟ هل يمكن أن يكون قد أصابهم مكروه بسببي. شعرت فجأة بنذالتي لأني لم أفكر في الاتصال بهم، لعلني كان من المفترض أن أخرج من الأنفاق يوما للاطمئنان عليهم وإبلاغهم عن مكاني. وشعرت بثقل روحي. وبنوع من اليأس. فإلى متى سأظل أعيش هكذا معلّقًا بين السماء والأرض؟ وهل يمكن أن نحتمل الحياة في دهاليز الأرض وأعماقها؟ وهل سننجح في نسخ كل ما ينبغي أن ننسخه فعلا؟

كانت شقيقتي قد بدأت مشروعا للهجرة إلى كندا قبل فترة، وتمنيت من قلبي أن تكون قد نجحت في مسعاها، ولعلها في تلك الحالة تستطيع أن تصطحب معها أمي وأبي لتنقذهما من الحياة في مدينة الظلام البائسة.

عاودت التفكير في ما سمعته من تطورات في مدينتنا المسلوبة. أليس من المحتمل أن تكون هناك قوة شعبية ما قد تشكلت لتواجه المتكتم وأعوانه؟ لكن ماذا لو لم يحدث ذلك؟ هل يعني ذلك أننا سنعيش هنا للأبد: ننسخ وننسخ، بلا توقف، حتى نموت تباعا، بينما من المحتمل أن تكون الأمور هناك في الأعلى قد اختلفت، أو تغيرت للأفضل. لا يمكن أن تستمر الأمور على هذا النحو. التاريخ يقول ذلك، عندما يتأكد البشر أن حياتهم وموتهم سواء، يفقدون الخوف، إذ لا يعود لديهم ما يفقدونه، ويشحنهم اليأس بطاقة الحياة للوقوف في وجه الطغيان.

لكن أليس رهان الكاتب الشبح على أن يمثل بالمعرفة القوة اللازمة لإعادة بناء ما هدمه أولئك المخربون هو البديل الطبيعي أو ربما المناسب لمواجهة قوى متخلفة ورجعية وظلامية كتلك التي تتحكم في مقاديرنا هناك في الأعلى؟ لكن كيف؟ ما أهمية المعرفة أمام القوة الغاشمة، والسلاح والعنف، والكراهية المقيتة التي زرعها المتكتم في قلوب أتباعه تجاه كل من يختلف معهم؟ كيف يمكن للمعرفة أن تواجه الجهل، الذي لا يعترف أساسا بالمعرفة؟ أليس الموت الآن خياراً أمثل؟ الارتياح من هذه المعاناة؟ ومن حياة المطاريد والهاربين اللاجئين للكهوف، مثل الخفافيش؟ أليس الموت أفضل من مهانة الحياة في أنفاق كئيبة بلا مأوى خاص أو سكن، كأننا مشردون يفترشون الأرض للنوم كيفما اتفق، وبحيث يبدو تناول الطعام والنظافة من الرفاهية التي ليس من السهولة أن يحظى بها المرء هنا.

سرت شاردا، حتى أنني لم ألحظ المكان حولي بدقة، ولكني أفقت من شرودي أخيرًا على صوت نداءٍ رجولي أليف. وسرعان ما أدركت أنه صوت ناصر. و لم أصدق أذني.

توقفت والتفت حولي. وبالفعل ظهر ناصر قادمًا من إحدى الزوايا الجانبية. كان الشيب قد غزا شعر رأسه الغزير ولحيته الخفيفة. وتجلت التجاعيد الخفيفة حول طرفي عينيه. اقتربت منه في حذر، لكني وجدته يتقدم باتجاهي بحماسة مبتسمًا، وصافحني بقوة، ثم، وإزاء ملاحظته لترددي، أقبل يحتضني ويضرب ظهري بقوة.. ثم نظر إليّ وقال:

إنت زي ما انت يا كيان. ما اتغيرتش.

ضحكت وقلت له:

يمكن ملامح وشي ما اتغيرتش، بس أنا أكيد اتغيرت

نظر لي كأنه يتذكر شيئا، ثم قال:

إنت لسّه زعلان مني؟

لا إطلاقا طبعا. إنت عارف أنا باقدرك إزاي يا ناصر.

نظر لي، ثم ضحك بقوة، قائلا:

بس سبحان الله، اتنين من بتوع رقابة المتكتم يقابلوا بعض في رحاب النساخين؟!

ضحكت قائلا:

معاك حق، ولو إن أي حاجة الواحد ممكن يشوفها أكيد مش ممكن تكون بقوة غرائبية أجو اء المتكتم.

أطلق ضحكة مدوية وهو يهز رأسه مؤمنا على الكلام.

حكيت له عن العجائب التي مررت بها منذ خروجي من الأنفاق حتى وصولي هنا، فضحك قائلا إن ما تعرضت له عجيبة أخرى لا تقل عن عجائب أجواء المتكتم، وشرح لي أن الوصول إلى هنا تم بسهولة شديدة له ولمجموعة أخرى من النساخ. وأشار إلى الكوّة العلوية، موضحًا أن هناك درجات سلّم داخلية تقود إلى أعلى هذا الجبل، وفي النهاية يوجد دَرَجٌ آخر يقود إلى هذه الساحة.

نظرت إليه متشككا، ثم أغرقت في الضحك، حتى تذكرت نقار الزجاج. أردت أن أسأل ناصر عنه، لكني أدركت أنني لا أعرف اسمه حتى هذه اللحظة. وأن اسم نقار الزجاج هو الاسم الذي اتفقنا عليه أنا وسديم. سألته عن أسباب الانتقال إلى هذا المكان، فظل صامتا لوهلة، ثم قال: أعتقد أن الأمر الآن أصبح جديا بشكل كبير

ووصف لي ما عرفه عما يدور في مدينة الظلام، حيث استقرت سلطة المتكتم تماما، وأصبح أنصاره يعيثون في كل مكان.

كان ما يحكيه يقترب من الخيال. الأمر الذي بدأ بمصادرة الكتب وحرقها في مرحلة أخرى، ومنع الأفلام انتقل لاحقا إلى الحفلات والأغاني، ثم إلى المقاهي التي يختلط فيها الشباب ثم انتقلت حمى فريق من المتكتمين الذين كانوا يقومون بحملات مصادرة محال أفلام الفيديو، والمكتبات وإزالة الصور التي تظهر فيها أي فتيات، بدأوا بنقل مصادراتهم من الصور إلى الواقع. يتجهون إلى أي فتاة ترتدي زيا يعتبرونه مخالفا ويتحرشون بها، وأحيانا يعتقلونها، ثم أقاموا حملات تمنع الاختلاط بين الشباب في المقاهي والشوارع والمجمعات التجارية.

بدا ناصر غاضبًا، رغم أنه حافظ على نبرة متوازنة خالية من الانفعال. وصمت قليلا قبل أن يقول إنه يشعر بالندم لأنه لم يفكر في أن يحوّل مواجهته لهم في بدايتها في شكل حملة ضخمة بدلا من الاكتفاء بعمله الفردي الذي انسحق تماما في النهاية، على حد وصفه، تحت قطعان الأتباع المغيبين عقليًا وروحيًا.

قلت له:

والآن؟

صمت للحظات، ثم أوضح لي أن الكاتب الشبح قرر تصعيد المواجهة مع المتكتم، بحيث يتم تقسيم كل من قرر في استعادة الفكر والحياة عن طريق إعادة النسخ هنا، إلى فريقين، الأول يواصل العمل هنا من أجل تعجيل فكرة الحفاظ على تراث الفكر والفن، والآخر سيقسم إلى فرق عمل تتسلل إلى مدينة الظلام لعمل جلسات قراءة

سرية، لتأكيد أهمية المقاومة والأمل، ثم أوضح أن الطريقة التي ستتم بها عمليات المقاومة هذه سرية وليس مسموحا له أن يوضح أي تفاصيل بخصوصها، ثم أضاف ضاحكا أنها في النهاية يمكن أن تعتبر جلسات قراءة سرية.

سألته إن كان هذا ممكنا، فابتسم وقال:

أنت كنت معايا في معقل التخلف، وعارف كويس إن كان فيه ناس كتير أدركوا الخرف العقلي اللي يتمتع بيه شخص شايف وجاهة في فكرة أنه يكون رقيب على اللي المفروض الناس تشوفه أو تقراه. وفي النهاية مجتمع المتكتمين لما كنّا فيه كان مجتمع محدود فما بالك، في مجتمع كبير، أو في مدينة شاسعة زي مدينة الظلام؟

قبل أن أرد بشيء قال إن هناك في المدينة اليوم مئات التجمعات التي تقضي فيها الفتيات الليل ساهرات ليرقصن ويمرحن. وفي شقق أخرى يعرض الشباب فنونا من السينما والمسرح وتدور نقاشات. وحتى الأغنيات لها مكان.

نظرتُ إلى ناصر بدهشة فحدجني بنظرة ساخرة موضحًا لي بسخريته المعتادة أنني سأكون شخصًا شديد السذاجة، إذا تصورت أن كهوف الفن والشعر والعري والحب المتاحة في مدينة الأنفاق هي المأوى الوحيد لمثل كل من يرتادها ممن يولون حريتهم أولوية تفوق أي شيء آخر

الفارق الوحيد - كما أوضح لي- أن ما يمارسه الناس هنا بحرية غير مسبوقة يمارسه الناس هناك بكثير من السرية والحذر، وهذا في حد ذاته يقدم لهم لذّة مضاعفة رغم الخطر الذي قد يتعرضون له.

تساءلتُ في نفسي عما يقصده الكاتب الشبح بخطوة كهـذه، وبدا ناصر وكأنه ينصت لخواطري، إذ وجدته يقـول إن الخطـورة أصبحت مضاعفة من خلال شكوك تراود الجميع عن تمكن بعـض أنصار المتكتم من اختراق جماعة النساخين. وأضاف إن المشكلة هنا ليست فقط في تهديد المشروع بالتدمير، ولكن الخطورة الأكبر تتمثل في سيادة روح الشك بين فريق النساخين بما سيؤثر سلبا على عملهم بالتأكيد.

وقبل أن يتركني ناصر بسبب انشغاله، أخبرني أنه سيمر عليّ في المساء لكي يوضح لي بعض التفاصيل حول اجتمـاع مزمـع مـع النساخين قد يحضره الكاتب الشبح"

* * *

كان صوت الفتاة الإثيوبية يرتفع بين آن وآخر، خلال نومها، ويتسبب لقاسم في التشتت. فيتوقف عن القراءة ويتأملها بشفقة حتى تتقلب أو ينتظم صوت تنفسها. ويعود للقراءة. في النهاية تمكن منه التعب وناوشه النعاس حتى وقع أسير النوم فجأة.

32

أمضى قاسم الصباح في الغرفة بين النوم واليقظة، بسبب القلق، وعندما استيقظ وجد ميهريت جالسة على الأرض قريبا منه، كأنها تتأمله. لاح له وجهها، رغم آثار النوم، جميلا ورائقا، وشعرها رطبا مبتلا بالمياه، وقد جمعته في ضفيرة وأمسكت بها تداعبها في هدوء.

كان مهتما بأن يسمع منها كل شيء. الطريقة التي وصلت بها إلى السفينة، وحدود علاقتها بشريف، والأهم أن يفهم طبيعة المجتمع السري الموجود في قاع السفينة، والذي يبدو أن القبطان لا يعرف عنه شيئا.

تناولا إفطارا خفيفا من الفاكهة، وبعض المخبوزات التي كان طلبها من المطعم. وتمنى لو أنهما تمكنا الخروج من القمرة إلى سطح السفينة، لكنه تردد، وطلب منها أن تأتي لتتمدد بجواره على الفراش، ليكونا أكثر راحة.

حكت له الفتاة حكايتها بالتفصيل، وكلما توقفت عن الحكي وهي تنظر إليه بتشكك، خوفا من أن يكون ممتعضا مما تصورته ثرثرة، بادرها بابتسامة متفهمة وهزّ رأسه لها لتكمل ما تحكيه.

وبمرور الوقت، كانت تشعر باحتياجها للحكي، كأنها تريد أن تخرج ثقلا عن صدرها، ظل جاثما لسنوات، وآن أوان التخلص من عبئه. أما قاسم فلأسباب أخرى غير ما أعلنه لها بدا شغوفا بما تقول وبطريقة حديثها، وبما وصفه لنفسه، قائلا: "نظرة عينين بريئتين وصادقتين، كما لم أعرف مثلها من قبل"، إضافة إلى شغفه بطريقة نطقها للإنجليزية، ضاغطة على حرف التاء، وضامة للحروف المتحركة خصوصا حرفي O و W بشكل بدا له شيقا.

ورغم ذلك، وعلى الرغم من أنه تقريبًا لم يتدخل ليستفسر عن شيء، حتى ما بدا له غامضًا، مثل أسماء القبائل وبعض المناطق التي ذكرتها، فأنا أفضل أن أحكي حكاية ميهريت بطريقتي أنا؛ بأسلوب رواية تعرف أن السرد جزء أساسي من الحكي، لكنه لا بد من أن يحظى بلمسة الفن؛ أي بالأسلوب كما كان رشيد يفضل الكتابة أيضا.

قالت ميهريت، وقد أكدت صدق حدسي بأن ما قالته لشريف لم يكن سوى بعض المعلومات المضللة:

"ولدت على يد قابلة، كانت قبل ذلك راهبة في الكنيسة الصغيرة التي تقع في بلدتنا الصغيرة، جيجيجا، Jijiga، وأخبرتني أمي في وقت لاحق، أن تلك السيدة المحترمة استطاعت أن ترى شيطانًا يمر في محيط طيفها الجسدي في توقيت قريب من وقت ميلادي، وتمكنت من طرده، فيما كان يطوف بين عالمي الموت والحياة، وأنها حين نجحت في ذلك أخبرت أمي بحبور أن تستعد لاستقبال طفلة صغيرة، ملاك لن يتمكن الشيطان منه.

اختارت القابلة لي اسم ماري، لكن أمي وأبي، حيث كنا نعيش في منطقة تتعدد فيها القبائل وبعض الصوماليين والمسلمين، فضلاً

أن يسمونني اسما حبشياً، من بين الأسماء المفضّلة لدى قبيلة أمورو، ووقع اختيارهم على اسم "ميهريت"، الذي يعني بين معان أخرى، الوردة المتفتحة".

كانت ميهريت ممددة على الفراش، بجوار الجدار المطلي بلون كريمي أنيق، تتأمل سقف القمرة، كأنها تقرأ منه ما تحكيه. وتمدد قاسم بجوارها، واضعا كفيه أسفل رأسه، لكنه، بين الفينة والأخرى يلتفت لها، يتأملها خطفا، ليتأكد من إحساسه بأنها كانت تحكي ما تحكيه عن شخص آخر. وليس عن نفسها. ربما بسبب نبرة الحياد التي كانت تتحدث بها، واستمرار هذه النبرة طوال الحكي، مهما بدا ما تحكي عنه مؤثرًا، مدهشًا، حزينًا، غريبًا أو حتى طريفًا.

أما أنا فسوف أحكي عنها متنقلة بين ضميرين، وبين مناطق بعيدة، دوري أن أريها لكم، ولكن لننصت أولا إلى هذه الوردة المتفتحة التي، كما قالت:

ظلّت تعيش "بين جدران بيتنا الخشبي، والسور المحيط به، المبني من الحجارة، لا أعرف شيئا عما يدور في الخارج. كانت كل البيوت تخشى من هجمات الضباع التي كانت تطوف في الأنحاء من حولنا وخصوصا في الليل. بل كانت المدينة كلها تغرق في الهدوء تقريبًا مع حلول بشائر الليل، ويعود الجميع إلى منازلهم مبكرا لهذا السبب.

وبسبب خوف أمي لم يكن مسموحًا لي بالخروج، حتى في الصباح، مثل شقيقي الذي كان يكبرني بأربعة أعوام، وكان يأتي مساء كل يوم، ليحكي لي مغامراته، إما في المدرسة البدائية التي كان يذهب إليها ليتعلم اللغة الأمهرية، وبعض مبادئ الحساب، أو

عند الجيران، بينما قررت أمي أن تستدعي إحدى صديقاتها، التي كانت قد نالت حظّا وافرًا من التعليم قبل الزواج للبيت، لتعلمني

أوضحت ميهريت بعد فترة أن مسألة التوقف عن الذهاب إلى المدرسة لم تكن فقط لمجرد خوف أمها المعلن، لكنها عرفت لاحقا أن الأب الذي اضطُر للعمل على بعد نحو مائتي كيلو من جيجيجا، لم يكن يمتلك ما يكفي من نفقات لتعليم ابنه الأكبر وشقيقته معاً، فاكتفى بتعليم هينوك، متأكدا أنه سوف يأتي في القريب زوج، ليطلب منه ميهريت، لتعيش معه، ويوفر لها ما لم يتمكن الأب من توفيره لها.

ومع ذلك، ورغم أنها عرفت أن الضباع لم تكن السبب الحقيقي، أو الوحيد، لتفقد فرصتها في تعليم نظامي، فقد ظلت تكره الضباع. وتتمنى حقا أن تجد فرصة لمواجهتهم. أن تصرخ في وجوههم بلا خوف، وأن تطاردهم بالشعلات التي تخيفهم.

لكن حتى مطاردة الضباع أصبحت مجرد وهم، أو كابوس لا ينبغي التفكير فيه، عندما تعرض شقيقها لمأساة، عندما قرر أن يواجه الضباع مع صديقه هاكيم (صوب لها قاسم الاسم قائلا حكيم، فابتسمت حين فشلت في نطق الحاء، ثم استطردت)، المهم أنهما عُرفا بين أقرانهما بأنهما مغامران، لا يهابان شيئا.

كان أخي هينوك يحكي لي يوميا مغامرة من مغامراته، وبينها أنه مرّة قرر أن ينتقم من المدرس الذي كان يترصده، وقام بضربه بعصاه الخرزان على ظهره حتى تسلخ. ورغم أن أمي منعت المدرس من الحضور إلى منزلنا، وأكّدت لأبي أنه إذا أراد أن يراه فليذهب إلى المقهى، أو يزوره هو في بيته، لكن يبدو أن هينوك لم يكتف

بهذا، وقرر أن ينتقم بطريقته الخاصة، فذهب مع هاكيم إلى بيت الرجل. كان بيتا خشبيا بسيطا، مثل أغلب بيوت قريتنا، لكنه كان مسوّرا بسور خشبي فقط، وليس بالحجارة مثل بيتنا، ومن هناك تسلل كل من هينوك وهاكيم إلى كوخ صغير كان المدرس يحتفظ فيه بثلاث بقرات يربيها، ليستفيد من ألبانها، ثم أخرجا من طيّات ثيابهما محلولا ممزوجًا بالفلفل والملح، وقام هينوك بسكبه في مؤخرة البقرات المسكينة، ثم انصرفا هاربين.

كنت أظن أن مثل هذه المغامرات هي أقسى وأخطر ما يمكن أن يقوم به شقيقي المجنون هينوك، وتحديدًا موضوع البقرات، وبالرغم من أن المسألة مرّت لأن أحدًا لم يستطع التوصل إلى الفاعل، رغم مشاهدة كل من هينوك وصديقه قريبا من موقع الحادث، فإنها ظلت ماثلة في ذهن الجميع، وخصوصا في أذهان أبي وأمي والمدرس.

حتى جاء إليّ يوما مرتعبا، خرجنا الى فناء البيت وحكى لي أنه قرر مواجهة الضباع مع هاكيم، وأنهما انتظرا مرور الضباع قريبا من أحد الجسور، التي يفترض أن تمر بها الضباع عادة. وكانا قد تأهبا وتدربا على عدد من الحركات البهلوانية المصحوبة بالأصوات المخيفة لمواجهة الضباع وإخافتها. لكن ما لم يحسبا حسابه أن كل ما فعلاه أثار رغبة الضباع في الهجوم عليهما، وليس الخوف منهما.

عندما حكى لي هينوك، هذه الحكاية شعرت بالخوف الشديد، وهرعت أركض إلى المنزل، ونمت بجوار أمي وأنا أرتعش، بينما أصوات الضباع تطاردني.

شعرت بأنني سأفقد هينوك في أحد الأيام، بسبب مغامراته، كنت أتخيل أن الضباع تمكنت منه ونهشته ثم التهمته وأصبح مجرد ولد صغير في بطن الضباع، كما كان أهلنا يقولون ليخيفونا، فما كان مني إلا أن أوشيت به لدى أمي. وبالرغم من الذعر الذي ظهر على ملامح أمي، لكنها تماسكت وصمتت، ولم أفهم لماذا أو ماذا دبرت.

في اليوم التالي طلبت أمي من إحدى خالاتي أن تأتي لاصطحابي إلى منزلها، وقالت لها إنها إذا تأخرت في المرور عليها لتصطحبني للبيت، فبإمكاني أن أبيت مع الخالة وقد كان.

في الصباح، عندما عدت إلى البيت كانت هناك رائحة خشب محترق، وآثار دخان أحسست بأنها مثل أشباح تلتصق بالجدران. سألت عن هينوك. أخبرتني أمي بأنه مريض بالحمى في غرفته، ومنعتني من الدخول إلى غرفته حتى لا تصيبني العدوى! وطوال الليل كنت أسمع سعال هينوك المتقطع كلما غفلت عيني. وأخذت أبكي لأنني لا أفهم ماذا حدث لهينوك، ولماذا هو مريض. وكلما راودني الشعور أن وشايتي به لدى أمي قد تكون لها علاقة بما يحدث له، كلما زاد بكائي الذي حرصت أن يكون صامتا بلا صوت حتى لا تستيقظ أمي.

صمتت ميهريت فجأة، فالتفت إليها قاسم. كانت تنظر إلى السقف كما كانت. وحالما رفع رأسه ليتأمل وجهها، وجد مقلتيها مغرورقتين بدموع منحت عينيها السوداوين بريقًا غامضًا. سألها عما بها. لكنها لم تجبه بشيء. فقط أشارت بيدها إشارة، فهم منها أنها لم تعد قادرة أو راغبة في الحديث. وشعر أنها ربما

استعادت بعض الذكريات القاسية. أحسَّ بأنها ربما لا تحتاج إلى أحد بقدر ما تحتاج لوحدتها. فأخبرها بأنه سيخرج ليحضر القهوة من المطعم ويعود.

وفور أن أغلق الباب خلفه، نامت على جنبها وقربت ركبتيها من صدرها في وضع الجنين، ثم بدأت تبكي بحرقة، وتنهنه مثل طفلة صغيرة.

بكت حتى أصابتني بالحزن، ما جعلني أفكر في الهروب أنا أيضا إلى ذاتي.

"عدت من حيث أتيت، مندهشا من الهدوء الذي يعم المكـــان. باستثناء أصوات خرير المياه، ولكن لقائي بناصر أمدني بنـــوع مـــن السكينة. تأملتُ جدران الجبل التي تحيط بـــي، والباحة الواسعة التي أقف فيها، وبدا لي أن المكان في الأساس بـــني تحـــت الأرض، وفي امتداده وجدت هذه الكوّة العلوية التي كانت منفذ الضوء والهـــواء النقي والشمس، والمطر ربما. كانت هناك على امتداد الجزء الســـفلي من الجبل شجيرات صغيرة نضرة، تنمو عشوائيا، لكنـــها شـــديدة الخضرة، وبعضها يتسلق جدران الجبل.

قبل أن أصل إلى المنـــزل الصغير الذي نمت فيه ليلـــة أمـــس، وجدتُ سديم أخيرًا. كانت تقف أمام الباب، ترتدي وشاحا برتقاليا ربطته حول عنقها، وأسدلته على صدرها، فبدا كفستان مـــن دون أكتاف، ولكنه لا يطول أكثر من منتصف فخذها، وارتدت بنطلونها الجينـــز الذي شحب لونه قليلا من كثرة استعماله. وعقصت شعرها في كرة صغيرة خلف رأسها.

ابتسمتُ بسعادة حين لمحتها ولوّحتُ لها. ابتسمتْ لي وهي تثبّت نظارتها على عينيها. قالت لي إنها اضطرت للاختفاء من أجل أن تغسل ثيابها، وانتظارها تجف. ابتسمتُ لها وأنا أتخيلها عارية في انتظار جفاف الثياب.

كانت تمسك في يدها قميصين أخريين، ودلفنا معا، إلى داخل البيت الذي لفحتني برودته. أبديت لها دهشتي. فقالت تكييف طبيعي، ثم وضعت القميصين على أريكة خشبية قريبة من المدخل. ودخلت إلى المطبخ وعادت بإبريق معدني تفوح منه رائحة القهوة، وكوبين زجاجيين صغيرين، وصبت فيهما القهوة، ووضعتهما أمامنا على الأريكة.

سألتها عما حدث وعن أسباب اختفائها في مدينة الأنفاق. قالت لي إنها بحثت عني عندما بدأت أصوات النفير الصاخبة تدوّي في المكان، حيث كانت قد جاءت لاصطحابي إلى هنا، ولكنها لم تجدني. قالت لي إن النفير كان إشارة تحذير للنساخين من هجوم محتمل من قبل أتباع المتكتم. ولأن أغلب الموجودين كانوا يعرفون معناه فقد اختبأوا في بعض المخابئ المعروفة لهم في الأنفاق. بينما قاد ناصر فريق النساخ إلى طريق عبر نفق ضيق يصل إلى هذه المدينة. البعض ضل الطريق، لأنه لم يفهم الإشارة مثلك وهناك آخرون لم يظهروا هنا بعد. والبعض من غير الناسخين التحقوا بنا وانضموا إلينا هنا. صمتت للحظة كأنها تتذكر شيئا، ثم أردفت "إلى مدينة المخطوطات" التي نوجد بها الآن.

أوضحت لها أنني التقيت بناصر، فبدا على وجهها الاهتمام، وسألتني إذا ما كان قد شرح لي شيئا بخصوص اللقاء. فهززت رأسي وأنا أتذوق الرشفة الأولى من القهوة المُرّة بالنفي. فصمتت. سألتها أن تشرح لي، فقالت إن الأمر معقد، لأن الاجتماع المقرر اجتماع

مصيري. هناك عمل تم إنجازه لكن هناك أيضا خلافات بين النساخين، عن طريقة إنجاز الأعمال، وهناك أشياء أخرى ستطرح في ذلك الوقت.

تأملت وجهها للحظات، كانت قد فقدت الكُحل الذي تضعه حول عينيها، ويبرز جمالهما، ولكن رموشها الطويلة ظلت تمنح العينين هذا الأثر العميق.

يجب أن نأكل شيئا، قالت. أحضرتْ كيسًا من البرتقال، وقشرّت لي واحدة، بسرعة وحرفية وبلا سكين، ثم مدّت لي يدها بها. تناولتها مبتسمًا باهتمامها، وقسّمتها لنصفين ففاح العبق الحمضي، بينما كنت أمد يدي لها بنصف البرتقالة. هزّت رأسها، قائلة إنها سبقتني، فألححت عليها. فطلبت أن أتناول هذه أولا، وعادت تنهمك في تقشير واحدة أخرى، وقد قطبت جبينها، وظهرت علامة 111 مكونة بثلاث تجعيدات متوازية في منتصف المسافة الحاجبين الثقيلين.

أمسكتْ بآخر فص من فصوص البرتقالة، وكان مهترئًا، تسيل منه عصارته ووضعته أمام فمي بحيث لم يعد أمامي مفر من التهامه. أمسكت بيدها والتقطت الفص بفمي، ثم قربتُ يدي الممسكة بيدها، وبحركة سريعة مصصت إبهام يدها المغطى بعصارة البرتقال. أبدت دهشتها وهي تجذب يدها بحركة تلقائية، وفغرت فاها، ثم ابتسمت، ولكنها لم تنطق بشيء. وضعت الإبهام نفسه في فمها، بغتة، وامتصت ما علق به من لعابي، وهي تحدق في عيني بنظرة أحسست فيها أن سواد نني عينيها يمسدان جسدي كله بحسية طاغية"

* * *

كان صوت نهنهة ميهريت قد خفت، وبدا لي أنها عادت للنوم. وعندما عاد قاسم للغرفة، ووجدها غافية، وضع القهوة على المكتب الصغير متعدد الأغراض في زاوية الغرفة، وبهدوء اقترب منها. ولاحظ وجهها، وأدرك أنها كانت تبكي. همس باسمها، لكنها لم ترد. علا صوت تنفسها. فأمسك بقدح القهوة الذي يخصه، وخرج مرة أخرى من القمرة في هدوء.

33

تُرى أين ذهب رشيد الجوهري؟ هل أفلت من أولئك الذين كانوا يطاردونه؟ ومن هم أساسًا؟ أشعر كأنني طفلة فقدت أبويها وتعيش في كنف أبوين آخرين، لا تعرف عنهما شيئا، ولا تعرف مكان أهلها أو كيفية العودة إليهما. ضياع في عرض البحر.

نفس إحساس رشيد في الفترة التي شعر فيها بالاغتراب الشديد في ألمانيا. لم يكن لديه تبرير محدد لذلك الشعور.

لكن شيئًا غامضًا بدأ يبث فيه هذا الإحساس، ربما كانت أوهامًا. كان في جلساته وحيدًا في انتظار يوديت بينما تكون في عملها، في الفترة التي سبقت حصوله على عمل، يجلس ليدخن سجائر الحشيش، ينصت للموسيقى ويشرد لساعات. ينتبه لتداعيات ذهنه وذاكرته على لقطة مر بها أثناء وجوده في المترو، لاحظ فيها أن شابا ألمانيا حدجه بنظرة لم تعجبه؛ فيها شيء من النفور. ربما لا يلاحظها أحد، وربما تكون غير مقصودة، لا تعدو كونها نظرة شاردة لرجل لا ينتبه لتقلص ملامح وجهه الواجمة، لكن ذهن رشيد كان يضّخم تلك النظرة ويجعل منها عملا عدائيا يوّلد لديه إحساسا بندمٍ حارق أنه لم يوجه لكمة لذلك الفتى.

أحيانا أخرى كان يلتقط عبر ذاكرته، التي تتوالى فيها الصور والأفكار مشتتة، صورة لرجل سكير اعترض طريقه يطلب نقودًا، ويقول لنفسه إن ذلك المشرّد اختاره من بين الألمان، عن قصدٍ وتعمد، لأنه يعلم أنه غريب عن المكان.

حتى عندما تذكر الفتاتين المراهقتين اللتين استوقفتاه من أجل أن يستعيرا منه سيجارتين، لأن عمرهما لا يسمح لهما بشراء سجائر، استعاد ابتسامتهما، اللتين عدّهما آنذاك ودودتين، ليرى في طلبهما، في لحظة تداعي الذكريات، جانبا نقيضا، يعبر عن الاستغلال.

لكنه توقف تماما عن التفكير في أي شيء آخر، حينما برقت كلمتان قالتهما يوديت عابرًا، واستوقفتاه للحظات لكنه لم يفكر فيهما كثيرًا قبل تلك اللحظة.

كان منذ وصوله إلى شتوتغارت، وخلال الشهور الثلاثة الأولى قد أطلق شعر رأسه، حتى أصبح أشبه بهالة تحيط برأسه. وكنوع من التغيير ينسجم مع ظرف وجوده في ألمانيا، ارتاح لهذه الحالة، وربما أيضا بوعي خفي كان قد قرر الاقتصاد، لأنه سمع أن عملية قص الشعر مكلفة بعض الشيء، وحين عرف من يوديت أنها كانت تستخدم ماكينة لقص شعر صديقها السابق، عرض رشيد عليها أن تقص شعره. ابتسمت ونظرت إليه للحظات تتأمل شعره، ثم داعبته بأناملها، وقالت: لا أظن أنني سأتمكن من ذلك، فلم أعتد على قص الشعر الإفريقي من قبل، ثم تأملت شعره مرة أخرى وقالت بتلقائية: وحتى الصالونات، ستجد أن بعضها متخصص في قص الشعر الإفريقي. يمكنني أن أرافقك ذات مرّة لأتعلم ذلك.

صفعته الكلمة، رغم أنه حاول أن يبتسم حتى لا تظهر عليه ملامح الانزعاج، كأنه يواجه هذه الهوية لأول مرة في حياته.

إفريقي؟ كان يهمس بالكلمة لنفسه بلا صوت؛ كأنه يرددها للمرة الأولى في حياته. لم ير نفسه إفريقيا في أي يوم من الأيام. كانت بشرته قمحية، منحته طوال عمره الإحساس بأنه من أصحاب البشرة البيضاء، ثم أن المصريين يا أخي ليسوا أفارقة. فكيف تراني يوديت إفريقيا؟!

تتابعت على ذهنه بعض المعلومات التي راودته الرغبة في التثبّت منها عن كون أصل الحضارة الفرعونية بدأت على يد أهل النوبة، بسبب ما حاول البعض إثباته من قدم تاريخ مملكة النوبة القديمة.

تساءل وهو يستدعي ما قرأه ذات يوم بلا كثير من الاهتمام: هل يحاول الغربيون إثبات أن أصل الحضارة المصرية القديمة هم أصحاب البشرة البيضاء في وادي النيل، لتأكيد ابتعاد أصحاب البشرة السمراء من أهل إفريقيا عن أي أصل للحضارة؟

لم يشعر أن ذهنه بالصفاء الذي ييسر له الاستغراق في استدعاء ما قرأ عن الخلافات التاريخية عن أصل الحضارة، وإصرار الغرب على اعتبار بدايتها تعود إلى الإغريق، الأوربيين، وليس في مصر. والتمهيد المستمر للفكر والفلسفة باعتبار أن أهل أثينا القدامى هم من أنشأوها.

لكنه، حالما نهض من على الفراش باتجاه شرفة المطبخ، مخدّر الجسد، مشوش الذهن، كان يهمس لنفسه كلمات عن عقدة التفوق. وكأنه بذلك كان يلخص إحساسه تجاه المجتمع الألماني.

ولعل تلك اللحظة كانت إعلانًا خفيا لتوتر علاقته بيوديت على مر الأسابيع اللاحقة. كان ينصت لكلماتها بحذر، وينتبه إذا شعر أنها تفوّهت بكلمة تقصد منها إشارة تهين العرب، أو تنتقص منه شخصيًا، وإذا حدث فإنه يرد عليها بعنف شديد، وكانت هي تحاول أن تمتص غضبه، على أساس من إحساسها بالضغط الذي يواجهه، بسبب عدم حصوله على فرصة عمل، وإحساسه بالوحدة بسبب تغيبها ساعات طويلة في عملها. لكن ذلك لم يكن ينجح إلا قليلا.

كانا قد شاركا جيروم وصديقه، وسيدة فرنسية عرفته يوديت عليها، بوصفها إحدى أقرب صديقاتها، وفتاة في أواخر العشرينيات ذات قامة طويلة رشيقة، شقراء، كانت تزاملها في العمل، ثم رفيق سكنها، وهو شاب هادئ خجول قليل الكلام، وفتاة أخرى ذات شعر أسود طويل، ترتدي بنطالا ضيقا، وتزرع في طرف أنفها فصّاً ماسيًا رقيقًا، عرف لاحقا أنها صديقة الشقراء الطويلة، وبينهما علاقة غرامية. وأخيرا انضمت فتاة كُردية شابة بعينين سوداوين جميلتين وشعر أسود كالح. ولحق بها صديق بريطاني بعد فترة من التحاقها بهم.

كانوا قد طلبوا طبقا من المشويات المنوعة، تكفي الجميع، توسط منضدة المطعم الطويلة، أمام رشيد الذي كان يجلس مجاورا ليوديت، وعندما وضع النادل الطبق الضخم، سقطت من طرفه قطعة لحم قريبا من رشيد، فالتقطها الأخير ليعيد وضعها في طبق المشويات، فوجد يوديت تخطفها من بين يديه قبل أن تصل إلى طبق المشويات، وتضعها أمامه في صحنه الخالي، وهي تبتسم له،

وكأنها توضح له قاعدة من قواعد الإتيكيت لا يعرفها. خفق قلبه بعنف، وأحس بالتوتر، معتبرا أن تصرفها به شيء من الإهانة.

وخلال الجلسة التي كان الجميع يتحدث خلالها بالإنجليزية، مراعاة لوجوده، ظل واجما، ينتزع الابتسامة بصعوبة لمجاملة جيروم أو السيدة الفرنسية ذات الشعر الرمادي، أو الفتاتين الصديقتين.

وحالما عادا إلى البيت انفجر فيها غاضبًا، موضحا أنه يحب أن يتصرف على طبيعته، وبحرية تامة، وبلا تقيد بأي أعراف أو تقاليد أيا كانت، وأنه كان يفضل أن تلاحظ ما فعل وتخبره همسا بملاحظتها، أو حتى تنتظر لتوجه عنايته لملاحظاتها لاحقا. وأن تصرفها هو الذي يخلو من اللياقة.

لو أردتم أن تروا رشيد بعيني، لصورته لكم بأنه في تلك اللحظات، وما بعدها كان يبدو مثل طفل يستبد به الغضب..

ولكن مهلاً، فلم يكن هذا رأي يوديت على الإطلاق، ولعلها لاحظت ما لم أتمكن أنا من التقاطه، لأنني لم أشهد الحدث، ولكني بفضل العلاقة الممتدة بيني وبين رشيد كصنيعة لأفكاره، وبفضل الإنصات لذكرياته، التي كان يكتب جزءا منها على سبيل الاحتشاد لكتابة هذه الرواية.

تأملته يوديت قليلاً، ثم ابتسمت ابتسامة فرحة، وسألت سؤالا، بدا رغم نبرة الاستفهام الجلية، فيه لون من إقرار معلومة.

حسناً حسناً.. هل تشعر بالغيرة حقا؟

بوغت رشيد من السؤال، وحدق بها مندهشا، لكنها لاحظت أن عينيه اللتين تحدقان بها تراوغان وهو يبدو متبرما بسؤال مضاد:

- ما علاقة الغيرة بما نتحدث فيه الآن؟

لماذا لا تقول إنك لا ترتاح لتعليقات ذلك الشاب، الذي أبدى إعجابه بي، بدلا من كل هذه المراوغات؟

أصر رشيد على أن يتجاهل ملاحظتها، وتأكيد أنها تقوم بتغيير الموضوع، لكنها اقتربت منه، وأصرت أن تجعله يحدق في عينيها، ثم استخدمت نبرة ناعمة، وهي تذكره ببعض ما قاله الشاب صديق الفتاة الكردية الذي جلس معهم قليلا، وانتبه إلى يوديت حالما وصفت نفسها بالقدرة على تناول "الكونياك" في أي وقت، فالتفت إليها الفتى الذي تبين لاحقا أنه بريطاني يتردد على شتوتغارت من أجل صديقته ذات الأصول الكردية، ثم قال:

أوه، لدينا هنا امرأة نارية.. هنا امرأة ملتهبة.

احمر وجه يوديت، وهي تقول له ردا على تعليقه، محاولة إخفاء إحراجها:

بالتأكيد أنا امرأة نارية، ألم تزر شتوتغارت من قبل؟

ضحك الفتى البريطاني، ثم قال محاولا أن يزيد من استفزازها:

زرت شتوتغارت كثيرا، لكني لم ألتق بفتيات من سكان شتوتغارت، لأدرك مدى كونهن ناريات إلى هذا الحد.

كان رشيد يود أن يعبر عن نفسه، لكنه أمسك نفسه، لأنه من غير المقبول أن يدافع عن فتاته، خصوصا أن علاقتهما لم تكن معلنة بعد، إضافة لأنه لم يكن متأكدا إذا ما كان تدخله سيزيد من إحراج يوديت أم لا.

ابتسمت يوديت، وهي تقول له محاولة استعادة رباطة جأشها.

يبدو أن لديك الكثير لتعرفه عن شتوتغارت.

ابتسم لها ابتسامة خبيثة، وقال:

سيكون من دواعي سروري أن أتلقى ذلك على يديك.

وقبل أن ترد رفع كأسه باتجاهها، قائلا:

نخب فتيات شتوتغارت الناريات.

ولمّا رفع الجميع كؤوسهم لاحظ رشيد أن الفتى البريطاني كان يحدق في عينيها بطريقة أثارت حفيظته وحنقه.

ويبدو أن أحدا لم يشعر بغيرته سوى يوديت، التي ربتت على كفه، بعد أن وضعت كأسها مباشرة، كأنها تؤكد له أن تلك ليست سوى دعابات عابرة.

لم يشعر رشيد بالراحة، رغم أنه بالتأكيد كان سعيدا باكتشاف غيرته عليها، لكنه كان حساسا من إبراز هذا الجانب الشرقي لها.

اغتصب ابتسامة لم تنجح في إزالة آثار الغضب من على وجهه، فاقتربت منه أكثر حتى أصبحت عيناها الزرقاوان هما كل ما يمكن أن يراه تقريبا. لم يتحرك. أمسكت وجهه بكلتا يديها، وأعادت القول بنبرة من التقط شيئا لا يراه غيره:

أنت تشعر بالغيرة من أجلي يا حبيبي؟

نظر لها مستنكرا، لكن ابتسامة غامضة غافلته، فيما يرد على سؤالها بآخر:

من قال هذا؟

ألم تر وجهك لمّا كان ذلك الفتى البريطاني يتحدث إليّ؟

لم يرد عليها وإن اتسعت ابتسامته.

في الفراش ناما راضيين، وانتهيا من فعل الحب، وظلا عاريين. أولته ظهرها فاحتضنها ملتصقا بها حتى الصباح.

34

تركَنَا قاسم معا: ميهريت لذكرياتها الحزينة، وأنا لذاكرتي التي تحاول إعادة رسم ملامح رشيد، في قمرةٍ تشعر كلتانا فيها بالغربة. وحينما عاد كانت ميهريت لا تزال نائمة، كأنها كانت قد سهرت لأيام، وأخيرا وجدت الفرصة للنوم.

أمسك قاسم بي، بعد أن تبين نوم ميهريت، وجلس على أرض الغرفة، وبدأ يستعيد ما قرأ، ثم انتقل بعينيه يقرأ بنهم:

"عندما خرجتُ مع سديم قاصدين اجتماع النساخ، سألتها: أين الناس؟ أين النسَّاخ الهاربون؟ ابتسمت لطريقة السؤال، ثم قالت، أنا اخترت أن أقيم هنا، لأن هذا المكان المدهش بدا لي طبيعيا، أما تجمع النساخين وأماكن النسخ، وإقامة النساخين، والتي سنذهب إليها الآن، فمختلفة تماما.

مشينا حتى خرجنا من الساحة الواسعة، التي يحيط بها الجبلان، وبدآ جانباها يقتربان من بعضهما بعضا، فيضيق الطريق الذي يفصل بينهما، حتى وجدت أننا نسير في أخدود ضيق انتهى بواجهة من الحجارة الصلدة، تبين لي عندما رفعت نظري أنها ضلع ثالث للمنطقة

الجبلية التي تحيط بنا، وتبين لي عدد من الدرجات الحجرية التي ارتقيناها بسرعة، فوصلنا إلى فوّهة مدخل في قلب الجبل، دخلت منها سديم وتبعتها مباشرة، وهناك ارتقينا عدة درجات، ثم مشينا على مسطبة حجرية، لأكتشف أننا دخلنا مدينة سحرية شاسعة لم يكن لي أن أتخيل وجودها يوما.

قالت لي سديم إنها ستتجول معي في المدينة لاحقا، وانتحت بي إلى اليمين من مدخل خفي، فوجدت نفسي في قاعة طويلة تتوسطها منضدة تتوزع حولها الكراسي، ويتسع جانباها لما يزيد على 30 شخصًا. كانت القاعة مضاءة بعدد كبير من المشاعل الضوئية والمصابيح الزيتية المعلقة على الجدران، جعلت المكان ساطع الإضاءة.

جلسنا متجاورين في منتصف المنضدة الطويلة، وبحيث كان وجهنا للباب. بدأ توافد النساخ، الذين كنت أراهم جميعا لأول مرة. بدأ الحضور بشاب ذي شعر مشعث، ذقنه المشعرة تكاد تكوّن لحية خفيفة، يرتدي قميصًا أزرق بكاروهات، وبنطلونا "جينز"، ثم تبعه رجل أسمر يضع نظارات طبية بإطارين دائريين، ترك أيضًا شعره الخفيف مشعثا كيفما اتفق، من دون أن ينجح في إخفاء الجبهة العريضة التي كشفت عن بداية صلع سيتمكن من كامل الرأس في وقت معلوم، لكنه كان حليق الذقن، يرتدي بدلة "جينز كحلية، ثم تبعهما رجل بدا في أواسط الخمسينيات، يغزو الشيب شعره. وجهه نحيل وعيناه مشاكستان ضيقتان، يرتدي قميصًا وبنطالا أسودين واسعين، يكاد يختفي داخلهما. بدا نحيلا إلى درجة بروز عرق أزرق نافر في رقبته، سرعان ما ينتفخ إذا تحدث بصوته الأجش وبكلمات تتناثر من فمه، بسرعة جعلتني أعتقد أنه لا يتحدث

العربية، فقد كانت نصف حروف الكلمات مبتورة، وبسبب سقوط أسنانه كانت مخارج الحروف تجعل الكلمات ملتبسة، بالإضافة إلى أنه كان يستمر مطولا في الحديث حتى ينقطع نفسه، لكنه يستمر في الكلام إلى أن ينقطع صوته.

ثم ظهرت سيدة أربعينية تضع نظارة طبية أنيقة، بجوارها فتاة شابة نحيلة طويلة الوجه، بينما كانت عيناها تتحددان بهالتين داكنتين تحيطان بهما.

ورأيت بعدهما مباشرة ناصر، الذي تجول بعينيه في المكان، وابتسم حين رآني، ثم جلس في الجهة الأخرى في مواجهتي. لكزتني سديم في ذراعي وهي تومئ باتجاه الباب، فظننت أنها تلفت انتباهي إلى دخول كبير النساخين، لكني وجدت نقّار الزجاج، يلج من الباب، مبديا دهشته من أن مدخل المكان بلا أبواب، كأنه تأكد بسعادة أنه ليس بابًا زجاجيًا، فبدأت أشارك سديم الضحك، وعندما التفت إلينا ورآنا، حرك يده باتجاهنا ملوحا بها، ومهددا لنا في الوقت نفسه راسما ابتسامة ماكرة، فأفلتت منا ضحكات صاخبة لفتت انتباه الحضور إلينا. وجلس نقار الزجاج في أول مقعد واجهه، والأول من الطرف المقابل لنا.

دخلت فتاتان أخريان معا. دققت النظر في وجه الأولى، فاكتشفت أنها نيرد، ولكنها لأول مرة لم تكن عارية. ارتدت شورتا "جينز"، و"تي شيرت" أبيض، بدا جليّاً أنها لا ترتدي تحته مشد الصدر، وكانت لاتزال تتمتع بروح المرح، حيث دخلت على المكان، وهي ترفع يدها بدورق من الفخار، وتهتف بنخب وزعته على الجميع. ولم أفهم كيف كانت تحافظ على لون

شعرها المصبوغ باللون الأحمر، أو كيف تحافظ عليه قصيرا ومصففا بهذه العناية. وكيف تحتفظ بالكحل الذي يبرز جمال عينيها خلف عدستي نظارتها الطبية الأنيقة؟ أما رفيقتها فكانت تبدو شابة خجولة، شعرها بني قصير، وبشرتها بيضاء شاحبة، وتضع نظارتها الطبية على عينيها وتثبتها كل لحظتين في توتر. وقد جلستا كلتاهما بجوار سديم.

وأخيرا دخل ثلاثة أشخاص معًا، يرتدي كل منهم بذلة رسمية، لونها أخضر باهت، تعلو قميصا أبيض. بدوا كهولا من موظفي إحدى الجهات الحكومية، وقد نال الشيب مما تبقى من شعر رؤوسهم.

كنت أحاول تخمين هوية رئيس النساخين، أو "الكاتب الشبح"، من بين الحضور، لكني لم أنجح. سألت سديم، فهزت كتفيها تؤكد عدم معرفتها. وبعد لحظات ولج القاعة رجل أربعيني مصفف الشعر، يضع نظارة سوداء على عينيه، ويرتدي بذلة سوداء بالغة الأناقة. ابتسم محييا الجميع عند دخوله، ثم جاء إلى أقصى طرف المنضدة إلى يميني وجلس إلى طرفها.

اندهشت من مظهر كبير النساخ، وأناقته المبالغ فيها. وقلت لنفسي إنه بلا شك لا يمكن أن يكون من بين المقيمين في الكهوف هنا، ولا بد أنه يجد ممرات سرية يتحرك بها خارج الأنفاق والعودة ليضمن الحصول على ما يكفل له هذه الأناقة.

تأملته بنظرات مختلسة، متوقعا أنه سوف يزيح نظارته الشمسية الداكنة في هذه القاعة المضاءة بالمصابيح الزيتية، لكنه لم يفعل، بل وضع أمامه مجموعة من الأوراق وراح يتصفحها.

بعد دقائق سمعت أصوات تأوهات وهمهمة، وكانت تأتي من جهة نقار الزجاج. التفت باتجاهه فوجدت شخصًا آخر أنيقًا تمامًا، طويلا بشكلٍ لافت، بجسد ممشوق كمجند على أهبة الاستعداد لدخول ميدان الحرب في أي لحظة. يرتدي بدلة رمادية وقميصًا أسود ورابطة عنق سوداء، ينبثق من سترته الأنيقة، التي يختال لونها في الضوء بين الرمادي ودرجة من درجات الأخضر الزيتي، رأسه الضخم الذي تعتليه جبهة واسعة، عظام الوجنتين البارزتين قليلا دون أن تمنع إحساس الناظر باتساع الوجه وانبساطه كانت تمنح الوجه مهابة خاصة، فيما كان قد رسم ابتسامة اختفت تحت شاربه الأنيق الخفيف الذي يختلط فيه لونه بين الأسود والأبيض فيمنحه هالة من كثافة اللون الرمادي المائل للبياض.

أدار الرجل رأسه، وكأنه يتأكد من وجود الجميع، ثم هز رأسه وأومأ إيماءة خاصة للرجل ذي النظارة السوداء، فحيّاه الرجل بإيماءة من رأسه، كشفت في الوقت نفسه عن الاحترام. أدركت أن كبير النسّاخ ليس سوى الرجل الذي دخل لتّوه وليس الرجل ذي البذلة والنظارات السوداء.

اختار الكاتب الشبح الطرف الآخر من المنضدة، وجلس بجوار نقّار الزجاج، الذي تقلصت ملامح وجهه حتى بدا وكأنه سيفرغ ما في بطنه، ثم أخذ يرتعش قليلا، قبل أن ينهار على الأرض مغشيا عليه. نهضنا جميعا، فأشار الرجل صاحب السترة الرمادية لنا إشارة فهمنا منها أنه يمنعنا من الحركة، ثم أشار إلى الفتاة التي تجاور سديم ونيرد، فنهضتْ واتجهتْ صوب نقار الزجاج، حاولتْ حمله لكنها لم تتمكن، فألقتْ به على الأرض، وثبتت نظارتها التي انسدلت من على

أنفها، ثم دارت حوله وأمسكت بساقيه، وجرته بصعوبة إلى خـــارج القاعة. فأسرعت نيرد تنهض لكي تساعد الفتاة.

أتانا صوت الرجل صاحب الجبهة المهيبة جهوريا فخما، رخيما في الوقت نفسه كأنه مذيع مخضرم. قال: إن عملية النسخ التي بدأت قبل فترة بدأت تحقق الكثير من أهدافها، وأن ما تم نسخه من الكتب التي أقرت للنسخ حتى الآن تعد إنجازا مرموقا، ثم أوضـــح أن هـــذا الاجتماع مقصور على النساخ الجدد، إذ إن القدامى منـــهمكون في عملهم بعد أن تبين مدى جديتهم وإخلاصهم. وأضاف أنه دعانـــا لهذا الاجتماع، ليتأكد من مدى جدية من وقع عليه الاختيار منـــا في الاستمرار في هذه المهمة بالشكل الأمثل، وتوضيح التفاصيل الخاصة بالنسخ والمراجعة.

دخلت الفتاة ذات النظارة الطبية بمفردها من دون نقار الزجاج أو نيرد، فتوقف الكاتب الشبح للحظة، كأنه ينتظر عودتها لمكانها، ثم عاود الحديث موضحًا أنه بالإضافة لذلك يرغب في نقاش عدد مـــن المستجدات التي ظهرت أخيرًا، والتي جعلته يقرر توفير هذا المكـــان للنسخ وحفظ المنسوخات، حتى يتبين ما نفعله في المستقبل.

سأل الحضور إذا ما كانوا يرغبون في الاستفسار عن شيء قبل أن يبدأ في توضيح مهام النسخ وكيفية عملية مراجعتها. أشار الشـــاب ذو الشعر المشعث والقميص الكاروه، فجاء صوت الرجل آذنا له بالحديث.

علق الشاب، الذي عرّف نفسه باسم زاهر، قائلا:

إيه الجدوى من عملية النسخ، إذا كانت بتحصل هنـــا في أنفاق تحت الأرض، في نفس الوقت اللي المتكتم وأنصـــاره فوق بيْحوّلوا المدينة إلى خرابة حقيقية؟

حلّ الصمت، والفتى الذي لم يكن يعرف أين يذهب بعينيه، بعد أن أنهى السؤال بدا عليه الارتباك للحظات حتى طرق كبير النساخين المنضدة بأصابع يديه طرقات هينة، فوجدنا الرجل ذا النظارة السوداء يتكلم، قائلا:

ناقشنا هذا الأمر سلفا، ونحن هنا لسنا مشغولين بما يجري هناك في الحقيقة؛ لأننا نعلم تفاصيله، ولدينا يقين بأن مواجهته قبل الانتهاء من مشروع النسخ أو إنجاز الجزء الأكبر منه، على الأقل سيؤدي لتشتيت قوانا، لأننا لو خسرنا المواجهة المباشرة مع المتكتم وأنصاره سنكون قد خسرنا كل شيء.

عقّب زاهر وهو يشمّر كُمّ قميصه الأزرق ذي المربعات الصفراء:

طيب ليه ما نقسّمش الناس اللي جم هنا في الأنفاق لمعسكرين، مجموعة تنسخ، ومجموعة تواجه فوق.

جاء صوت الرجل، قائلا:

ما طبيعة المواجهة التي تتصورها؟

مش عارف بالظبط. ممكن تكون وقفات احتجاجية في ميادين، أو تكوين مجموعات من شباب عنده استعداد للوقوف أمام فرق المتكتم اللي بتهاجم المسارح أو البيوت والحفلات الخاصة.

وهل لو تمكنا من ذلك، جدلا، فهل سيحقق ذلك لنا نجاحا؟

أكيد، وحتى لو ماقدرناش، على الأقل هنكون وجّهنا رسالة للمتكتم وأنصاره إن فيه ناس عندها استعداد

للمقاومة، وإنهم ممكن يواجهوه هُوّا وأعوانه حتى لو بالقوة.

صمت الرجل لوهلة، ثم سأل الحضور إذا ما كان لديهم رأي في هذا الشأن، فتدخل الرجل ذو النظارات والسترة الجينز الكُحلي، بعد أن عرَّف نفسه باسم منصور، قائلاً، وبلغة عربية فصحى سليمة:

لو سمحتم لي، أنا أعتقد أن جانبًا أساسيًا من أهمية المهمة الفاضلة التي نقوم بها هنا تحت رعاية كبير النسَّاخين، هي أن تظل تراكم، ولا ينبغي لها أن تتشتت تحت ضغط أفكار المقاومة.

وقبل أن يتم الرجل كلماته قاطعه فجأة الرجل الخمسيني النحيل صاحب عروق الرقبة النافرة، قائلا في حماس:

أنا بصراحة مع إننا نوقّف مشروع النسخ ونطلع دلوقت حالا نجمع بعضنا، إحنا مش قليلين، نقف ونهتف ضد المتكتم الجبان الرجعي، ونفهمه إن مدينة الظلام لازم ترجع لاسمها الحقيقي وتبقى اسم على مسمى. مش معقول مدينة عظيمة مليانة فن وأفكار وناس رايقة وسينما ومسرح تبقى مجرد مقلب زبالة! إحنا مش ممكن نقبل بالفاشية والتخلف دول للأبد. وبعدين المشكلة إن الكتب اللي اتمنعت دي كلها كانت موجودة بس ماكانش فيه حد بيقراها، وده اللي سهّل مهمة الراجل الحقير اللي قاعد يفسد في المدينة فوق ده.

كانت هذه هي المرة الثانية التي يعيد فيها كلماته بعد أن تدخل الحضور لتوضيحها، استجابة لطلب الرجل ذي النظارة السوداء،

ومن قبله كبير النساخين، بسبب صعوبة فهم كل الكلمات لأنه كان يتحدث بصوتٍ متعب حتى يختنق، ويبح صوته دون أن يتوقف عن الكلام ولو حتى لأخذ نفس. فأعاد الرجل النحيل الكلمة مرتين. وفي كل مرة كانت الكلمات والجمل تختلف تماما عما سبقها، وتتردد فيها كلمة حرية وقانون وديكتاتورية وتعسف.

نظر إليه الرجل صاحب الرأس المهيب أو كبير النساخين، نظرة متفحصة ولوّنها لاحقا بتعبير أبدى به تفهمه لحالة الرجل، وسأله إن كان يرغب في تناول بعض الماء، أو تناول الشراب الموجود أمامه، فشكره الرجل النحيل بعدة كلمات، وانتبه إلى المشروب، فعبّ ما في الكأس الموضوعة أمامه مرة واحدة.

عاد الرجل ذو السترة الرمادية، ليطلب من منصور أن يكمل فكرته معتذرا له على المقاطعة نيابة عن الرجل النحيل، مشيرا إليه باسم الأستاذ، فصحح له الرجل النحيل، قائلا:

اسمي فارس حضرتك.

فجاء صوت الرجل، قائلا:

إذن يا أخ فارس من الآن وصاعدا أرجو أن يكون الكلام في اجتماع النساخين بالفصحى، لأننا نواجه صعوبة أحيانا في فهم بعض الكلمات، كما أن السيدة لطيفة هنا في الجوار - فالتفتنا إلى السيدة الأربعينية ذات النظارات التي تجلس بجوار الفتاة النحيفة ذات الهالات السوداء، فوجدناها ممسكة بقلم وأوراق، وهي تسجل ما يدور على ما يبدو - تجد صعوبة في تسجيل بعض الكلمات العامية متعددة الدلالات.

وقبل أن يرد فارس، أو يعقب، أشار الرجل إلى منصور أن يكمل، فقال الأخير:

أعود وأؤكد على أن المشروع الذي يتم هنا في الحقيقة هو مشروع مثالي؛ لأنه من جهة يؤكد أن ضمير هذه المدينة الفكري والعلمي لايزال يقظا، وأن تأسيس طرقا للكيفية التي تتحول بها قراءة هذه المخطوطات في المستقبل

* * *

عند هذه النقطة توقف قاسم عن القراءة، إثر سماعه لصوت غامض، كأنه نفير. ورغم أنه لم يكن صوتا حادا، لكنه منح الإحساس بأنه صوت عميق وغريب. لدرجة أن الفتاة ميهريت استيقظت هي أيضا أخيرا، وتلفتت حولها كأنها لوهلة لم تكن تدرك أين هي. ابتسم لها قاسم، ثم وجم بسرعة حينما سمع صوت النفير مرة أخرى.

أما ميهريت، رغم ملامح الإعياء وعدم الانتباه التي ارتسمت على وجهها، فقد راحت تنصت للصوت بانتباه، ثم قالت:

هذا صوت حوت يغني.

ابتسم قاسم، لكن الأصوات بدت له غريبة، كأنها ألحان حزينة تصدر متباعدة عن أبواق معدنية، أو آلات نفخ.

قال لها:

تقصدين أنه يغني بالفعل؟ هذا الصوت أقرب للبكاء.

نعم صوته حزين، لعله يغني أغنية حزينة.

وغامضة.

- نعم.

قال لها إنه سيخرج ليستطلع إذا كان القبطان قد رصد هذا الحوت بالفعل، ومدى خطورته.

كان قاسم لايزال ممسكا بي بين يديه، غافلا عني بسبب انشغاله بالصوت الغريب والعميق، الذي كان يبدو أعلى حدّة ووضوحا من على سطح السفينة. لم يكن الصوت يصل إلى أذنه فقط، بل يشعر أنه يخترقه كأنه يخرج من وسيط روحي لتنصت له الروح.

مشى في الرواق الذي ينتهي به الدَرَج، قاصدًا مقدّمة السفينة، وهناك رأى القبطان واقفًا بالفعل بجوار عدد من مساعديه، لم يكن شريف من بينهم. توجه إليهم وحياهم. كان القبطان في هذه اللحظة قد تناول منظارًا معظّمًا من أحد مساعديه وراح ينظر من خلاله للأفق. كان صوت الريح وارتطام المياه بمقدمة السفينة المندفعة يشوش المكان بنوع من الوشيش الصاخب، فيما يلفح الهواء الرطب الجميع، وبين الفينة والأخرى أخذت مجموعات من النوارس تحوم قريبا من المياه. ظل الرجل يتأمل البعيد، حتى لحظة أشار فيها إلى مساعديه نحو بقعة بعينها للأمام. توقع قاسم أنه يشير إلى موضع الحوت.

أنزل الرجل المنظار ومنحه لمساعده، وتحدث إليه بكلمات مقتضبة لم يسمعها قاسم. التفت إلى قاسم، فبادره الأخير سائلا عمّا إذا كان هذا الصوت بالفعل صوت حوت، فابتسم له القبطان مندهشًا، ثم هزّ رأسه مؤيدًا صحة توقعه، ثم أوضح أنه أمر لا يدعو للقلق.

التفت قاسم باتجاه الأفق أمامه، محاولا أن يرصد حركة الحوت، لكنه لم ير شيئا. عاد رؤوف، ليوضح أنه ربما يكون حوتًا أحدب يريد أن يتعرض قليلا للهواء والضوء ليتنفس.

وبلا مبرر التفت قاسم خلفه، فرأى شريف واقفا من بعيد ينظر إليه، لكنه أدار وجهه بمجرد أن رأى قاسم ينظر إليه. شعر قاسم بالتوتر. لم يكن يود إطلاع القبطان على الأمر حتى يتأكد من حقيقة ما يفعله شريف في السر.

تابع حديثه مع القبطان عن الحيتان، محاولا أن ينشط ذاكرة رؤوف حول المواقف التي يمكن أن يكون قد سبق أن واجه فيها حيتانا. حاول الأخير أن يستدعي إلى ذاكرته شيئا لافتا، لكنها خانته. وسرعان ما استعاد بعض ما تناقله زملاء له ممن عملوا في الملاحة عبر المحيطات، وأخذ يروي له قصصا مما سمعه.

التفت خلفه مرة أخرى فلم يجد شريف، وتذكر على الفور ميهريت، فاعتذر للقبطان عن قطع الحديث، وهرول عائدا إلى الغرفة. فتح الباب فوجد الغرفة خالية كما توقع. شعر بالغيظ، ووصف نفسه بالغباء الشديد، لأنه ترك الفتاة متناسيا الخطر الذي يتربص بها، وخرج من الغرفة بسرعة باحثا عن الدرج المؤدي للجزء السفلي من السفينة.

سار بحذر، في رواق ضيق محصور بين جدارين معدنيين، حتى انتهى الرواق ببوابة معدنية ملساء. أصاخ السمع فلم يتمكن من أن يسمع شيئا من فرط الضجيج الناتج عن صوت المضخات والمحركات، الذي كان يعلو من حوله هادرًا.

توصل أخيرا إلى كوّة مستطيلة واسعة نسبيًا، أدخل رأسه فيها، فأدرك أنها تقود للأسفل. اتكأ على مدخلها، فلفحت وجهه هبّة من هواء ساخن. انتبه إلى أنه لم يزل يحملني في يده، فوضعني داخل قميصه، وبدأ يهبط على الدرج المعدني موليا ظهره للخلف، لأنه لم

يجد شيئًا يمسك به، وكان الضجيج قد بلغ حدا شعر معه بالتوتر، فيما كانت روائح شحوم محترقة تنفذ لأنفه.

وصل إلى نهاية الدرج، في مكان شبه معتم، فتوقف لوهلة حتى تستطيع عيناه التكيف مع الإضاءة الكابية في المكان.

وقبل أن يتحرك شعر بحركة غريبة خلفه، فالتفت، ولكنه قبل أن يستدير ليرى ما يحدث، داهمته ضربة قوية على رأسه، صحبها على الفور ألم شديد، وإحساس بالدوار، ثم أظلمت عيناه، ووقع مترنحا على الأرض.

35

ارتفع قاسم عن الأرض وأنا معه، ليوضع على كتف رجل يرتدي تي شيرت رمادي عطن مبتل بالعرق، وسار بنا إلى ممر ضيق، أعقبه وقوف لم يتعد زمنه عدّة لحظات سمحت له أن يدفع بابًا معدنيًا انفتح على مساحة خالية تفيض بها روائح زيوت وشحوم. ألقى الرجل بقاسم إلى الأرض، غائبًا عن وعيه، من دون أدنى قدرة على تمييز ملامح أو هيئة الرجل الذي ألقى به هنا، أو صوت أقدامه الثقيلة المتجهة إلى خارج الغرفة، ولا أن يلتقط ذلك الضجيج المكتوم، الذي بدا شبيهًا لصوت محرك عملاق تدور تروسه بقوة وسرعة، ولعلها تتسبب في حركة هذه السفينة كلّها على سطح المياه. وبالتأكيد ما كان له أن يشعر أو يرى جسد ميهريت الذي كان مكوّمًا في ركن الغرفة الصغيرة.

حينما تأكدت ميهريت من خلّو المكان من الخطر، اقتربت من قاسم وتحسست جسده المنهار، وهي تنادي عليه هامسة: "صديقي.. صديقي ولما لاحظت أنه لا يرد عليها اقتربت من وجهه حتى اطمأنت لأنه لايزال يتنفس، فراحت تمسح على وجهه. وبعد هنيهة رددت ترنيمات هامسة، كأنها دعوات مقدسة أو تعويذة إثيوبية عتيقة، تستجدي بها تخفيف الألم عن قاسم واستعادته لوعيه.

تمددت بجواره والتصقت به، وشرعت تردد نغمة هامسة كأنها ترنيمة أو أغنية تهدهد بها نفسها، وتتشبث بجسد قاسم، فيما راحت ذاكرتها تلتقط لقطات متوالية، رأت الطفلة السمراء الصغيرة النحيلة، وهي تدخل إلى غرفة شقيقها الأكبر هينوك، ورأته ينشج نشيجا متواصلا غريبًا، ولا يسمعها عندما تنادي عليه. الطفلة الصغيرة على الأرض باكية، من أجل شقيقها. اقشعر جسدها، وكأن الذكرى تعود بنفس الألم والمشاعر القديمة. ولكي تهرب من الألم تترك لخيالها العنان، لكنه لا يرحل سوى لصورة الفتاة السمراء النحيلة الجميلة، صاحبة العينين شديدتي الالتماع والضحكة التي كانت تؤثر في من يراها أيًّا كان، جالسةً على أرض غرفة أخرى أكثر ترتيبًا بعد أن انتقلت العائلة إلى أديس آبابا. ولكنها كانت قد فقدت شقيقا غاليا، بعد أن انضم إلى قوافل المتمردين الصوماليين ضد الحكومة العسكرية الشيوعية التي انقلبت على الإمبراطور هيلا سيلاسي، وتسببت في ثورة الشباب ضدها، وبينهم شقيقها، الذي أردته قنابل طائراتهم قتيلا في الصحراء، قبيل وصوله إلى حدود جيبوتي مع مجموعة المتمردين الصوماليين المسلمين.

تذكرت وجه الجدة العجوز "سِتْ آيت"، كما تناديها. الوجه الأسمر الذي تمكنت من التقاطه عبر مخيلتها، امتلأ بأخاديد وكرمشات جعلت منه خارطة لزمن لم تعرفه ميهريت، لكنها سمعت عنه. ورغم قسوة الزمن مُجسَّدا في ما فعل بوجه ست آيت، فإنه لم يؤثر في براءة العينين السوداوين، اللتين اختلط سوادهما بصفرة المآقي، وهي تحكي لها قصصًا عن الضباع، التي كانت تحوم حول القرية، بحثا عن الصغار الشاردين والماكرين والآثمين، وفي الليالي

اللاحقة كانت ست آيت تحكي لها الحكايات التي رددتها الفتيات المارقات، وهن داخل بطون الضباع!

استدعت الوجه الأسمر الجميل الطيب، وهي تحكي لها، بصوتها الأجش الذي يحتفظ، مع ذلك، في نهاية الكلمات وحروف الهاء بحيوية ورنّة ناعمة غريبة، عن عروس النيل الإثيوبية الفاتنة، التي كانت تلقي بنفسها إلى النهر الخالد، لتضحي بنفسها شكرًا وامتنانا باسم شعب الحبشة، على ما يفيض به النيل من خير لإثيوبيا التي صارت به من أخصب أراضي العالم. وتذكرت ما كانت مخيلتها تستدعيه كلما تذكرت عروس النيل الإثيوبية، وهي تحاول أن تتقمص روحها وتتساءل هل كانت ترسم ابتسامة قبل أن تلقى للقاء عريسها؟ أم تلقى لقاع النهر خائفة ومذعورة؟

تذكرتْ هدهدات الجدّة العجوز لها قبل النوم، لتستدعي لها ملاك النوم. فمن دون ملاك النوم لم يكن للطفلة أن تنام. كانت روحها تفيض بصوت الجدّة ويتوحد بصوتها، وهي تهدهد نفسها قبل أن تغيب في نوم متقطع. وكلّما غلبها النعاس كانت ترى في أحلامها المتقطعة المبتسرة أمها، وشقيقاتها، وابنها الذي لا تعرف عنه شيئًا. ابنها الذي كان ثمرة التمرد والزواج بأميركي إفريقي، وقعت في غرامه، وانتهى الزواج بمشكلات الاختلافات والأولويات المتعارضة، ثم سفر الأب إلى أميركا، مخلّفا مفاجأة مروّعة باصطحابه للابن معه، ومن دون معرفة ميهريت التي تسبب ذلك في اقترابها من حافة الجنون.

وكمن تذكرت أمها بغتة، راحت تردد نداء هامسا "آماي، آماي"، الكلمة التي افتقدت سماعها من ابنها، رغم أنها قطعا كانت

ستعلّمه أن يقول لها "مام" أو "مامي"، وليس "آماي". وفكرت أنه ربما حالما يتذكرها أينما كان الآن، فلعله يردد أيضا في ظلام الليل نداءه عليها: آماي.. آماي.

لكنها كانت تدرك في الوقت نفسه أن الوصول إلى ابنها الآن بات أمرًا بالغ الصعوبة، فقد بدا جليًّا منذ الاعتداء على قاسم، أن شريف سادرٌ في غيّه تجاههما، وكان عليها أن تكشف لقاسم ما اكتشفته، ممثلاً في تورط شريف في استخدام السفينة ومن عليها لأجل عملية تهريب لمجموعة من المسافرين غير الشرعيين، من شباب الريف والفقراء، وبينهم إفريقيان، مقابل مبالغ ضخمة حصل عليها، والآن وقد انكشف أمره، فإن مواجهة محتومة لاحت بشائرها. ولو أن القدر الوحيد الممكن الآن للنجاة من هذه المأساة يتمثل في محاولة الهروب، فكيف يمكن لها الهروب في عرض البحر؟

قرص بطنها الجوع، ولعنت الحظ الذي يلاحقها بالجوع، وراحت تتمنى لو أنها في مكان ما الآن يتاح لها فيه أن تتناول وجبة أثيوبية من لحم الـ "كِتْفو الحار تلفها في خبز الانجيرة المالح مع قليل من جبن الماعز، ثم أحست بغباء الاندياح خلف شهوة الجوع، فحاولت أن تُخرس خيالها الجائع، فيما كانت لمحات وروائح من مطبخ الأم تلح على ذاكرتها الشميّة كوسواس قهري لحوح. من الزِجِنْ إلى التِبْس، وألوان أخرى من اللحوم المغموسة في البهار الحار.

في النهاية أخضعت ذهنها لإرادتها فور أن تذكرت ملامح الشباب الذين رأتهم في غرفة صغيرة قريبة من غرفة المحركات. الوجوه التي ذكرّتها بالعديد من الأقارب والمعارف الذين عرفت

بقصص رحلاتهم إلى أوروبا، عبر السودان إلى ليبيا، ولم تسمع عنهم شيئًا بعد ذلك، باستثناء قصص من وُجد منهم ميّتًا في صحراء ليبيا الحارقة، وبعضهم حتى لم تمهله الضباع فرصة الوصول إلى حدود السودان، فضلا عمن سمعت عنهن من فتيات إثيوبيات اضطررن أن يبعن أجسادهن لجنود الحدود الإثيوبية السودانية مقابل العبور إلى حياة جديدة بعيدة عن الفقر وقلّة الفرص. جنّة بعيدة بينهم وبينها الحدود والصحاري وقوافل البدو وتجّار البشر، والموانئ البعيدة التي يُعد الوصول إليها الخطوة الأخيرة في تيه لا نهاية له.

تذكرت وجوه صديقاتها ومسارات حياتهن، لتقارن بين حظوظهن وحظها الذي تصفه بالتعيس. كلهن كنَّ يرددن أنهن لا يرغبن في الرحيل عن إثيوبيا، وأنهن لو امتلكن الاختيار، أو الظروف التي توفر لهن العيش الكريم في بلادهن، لما قررن السفر. بعضهن سافرن إلى بيروت، أو أبوظبي ودبي للعمل كنادلات في المقاهي والمطاعم، والبعض منهن، قدّمن طلبات هجرة إلى دول الهجرة في أميركا، وكندا خصوصًا، وبعضهن اختفين، وعرفت لاحقا أنهن التحقن بشبكات دعارة في الدول اللائي سافرن إليها. لم تكن بينهن من استكملت دراستها الجامعية. أغلبهن عملن مبكرًا بعد الدراسة الثانوية مباشرة.

حين ستتوافر لها الفرصة للحديث مع قاسم عن ذكرياتها سوف تتذكر كل هذه التداعيات قبل أن تضيف، قائلة: "لهذا السبب لا تمتلك أي من أولئك الفتيات فرصة للزواج من شباب ميسور الحال من الطبقات العليا في إثيوبيا، ممن أصبحوا أساتذة في الجامعة، أو من أبناء طبقات رجال الأعمال، فهؤلاء أبناء طبقة لا يمكن لهم إلا

الزواج من بنات طبقتهم، الجميلات، الأنيقات، اللائي يمتلكن سيارات فارهة، ويقمن مع عائلاتهن في فيلات فخمة أو شقق فاخرة، ويقضين أوقات فراغهن مع عشاقهن في الملاهي الليلية الصاخبة، والحانات، ودور السينما التي تعرض أفلام هوليود، فثقافتهن الرفيعة تمنعهن من التشبه بالطبقات الأقل، التي تتردد على دور السينما لمشاهدة أفلام نيللي وود النيجيرية أو الأفلام المحلية الحبشية التي تشبه الأفلام الهندية في ميلودراميتها".

عادت لتضغط بأناملها على كتف قاسم لكي يستيقظ، لكن جسده كان قد استسلم تماما، أو فضّل الهروب من الألم، ربما لكي يصبح قادرًا على مواجهته. ولم تتماد حين اطمأنت لانتظام أنفاسه، فبقيت ممددة بجواره حتى غلبها النعاس.

وكالعادة لم يكن ممكنا لي أن أفعل شيئا سوى العودة إلى ذاتي.

"حينما حاول فارس أن يقاطع منصور للمرة الثانية تدخل الرجل ذو النظارة السوداء بحسم، طالبا من فارس عدم التحدث إلا عندما يُطلب منه ذلك. وبدأ فارس فاصلا جديدًا من الكلمات التي تدفقت من فمه، دون أن تصل واضحة للآذان. لكنهم استطاعوا أن يميزوا بضعة كلمات من بينها الحرية والديمقراطية والفاشية، وإن بدا نطق الشين فيها سينًا، بسبب مشكلة الأسنان الساقطة من فم فارس.

دخلت نيرد في تلك اللحظة، وهي تمسك بنظارتها في إحدى يديها، وطمأنت الجميع على نقار الزجاج، مؤكدة أنه تعرض لهبوط بسبب قلّة الأكل. ولاحظت التوتر الحادث بين فارس والحضور،

فانتقلت بهدوء إلى جانب فارس ومالت عليه قليلا، وقد تهدلت خصلات شعرها القصير الأحمر على جانب وجهها، ولاح للناظرين مطلع نهديها، فاقترب فارس منها يوضح لها موقفه همسًا، لكنه كان مسموعا للجميع. لمحت نيرد نظرة كبير الخطاطين المعاتبة، فطلبت من فارس أن يصطحبها للخارج للحديث على انفراد، فاستأذن فارس من الحضور، قائلا إنه مضطر لقطع الحديث لتوضيح أمور للسيدة وهو يشير باتجاه نيرد، التي كانت قد سبقته إلى الخارج. هزّ رئيس الخطاطين رأسه له كمن تخلص من هم ثقيل، والتفت إلى منصور يطلب منه الحديث.

بدت ملامح الضيق على وجه منصور متجلية في تحرك مقلتي عينيه، المصغرتين بفعل النظارة المقعرة، بشكل متوتر، وصمت لوهلة كأنه يستعيد أفكاره، ثم قال:

كنت أقول إن هذا المشروع القائم على إعادة نسخ الكتب التي منعت بواسطة المتكتم، مشروع نبيل، يؤكد على أن الضمير الفكري والعلمي لهذه المدينة التي ننتمي إليها لايزال يقظا، لكني في الوقت نفسه أشعر بأنه من دون وجود ضمانات لإتاحة هذه المعرفة للجمهور العادي سوف يجعل الأمر يبدو وكأنه مشروع نخبوي. مشروع هدفه هو المعرفة من أجل المعرفة في ذاتها، بناء مخزن للمعرفة أو بالأحرى إعادة نسخه، لكن هذه المعرفة عندما توجد في مخازن الأرض هنا، من دون أي إمكانية لأن ينتفع بها الجمهور العادي، فما الجدوى منه؟ ثم ما الخطة التي تقف وراء المشروع؟ ما طموحه؟ كم كتابًا سيتم نسخه وما

الأولويات؟ وما حدوده الزمنية؟ وكم من الطاقات البشرية سوف يحتاج إليها مشروع كهذا؟ هذه أسئلة مهمة لأي شخص يمكن أن ينضم إلى مجموعة الناسخين في الحقيقة، حتى يدرك الجميع مدى جدّية المشروع. بالإضافة إلى التكلفة التي سيتكلفها المشروع بتوفير الأوراق والأجهزة والمساحة اللازمة للكتب المنسوخة، وهذا كله في النهاية كلام في العناوين العريضة، فإذا ما وجدنا أن هناك إجابات مقنعة لكل تلك الأسئلة سوف تظهر فورا أسئلة أخرى فنية عن الكيفية التي يتم بها عمل الناسخين ورقابة هذا العمل على مستويي الكيف والكم معا، بما يتضمنه ذلك من ضمانات مسؤولية التدقيق في النسخ.

عندما انتهى منصور هز كبير النساخين رأسه، والتفت إلى السيدة لطيفة، ليتأكد من انتهائها من تسجيل ملاحظاته، ثم أدار رأسه بين الحضور، باحثًا عمّن لديه تعليق أو استفسار آخر، فطلب ناصر الكلمة، وبمجرد أن له الرجل بالحديث، سعل للحظات وأخذ يعبث في شعر لحيته البيضاء الكثة، كأنه يحاول أن ينظم أفكاره، ثم نظر إلى سقف الغرفة بعينيه العميقتين المحاطتين بكرمشات جلد وجهه، ثم قال:

أنا أسعدني بطبيعة الحال تعليق الشاب هناك، الأخ زاهر على ما أذكر..

فالتفت إليه الشاب مؤيّدًا، ومؤكدا لصحة الاسم، بهزّة من رأسه اهتزت معه كومة الشعر الكثيف المشعث التي يحملها فوقه، مؤكدا صحة اسمه، فاستطرد ناصر قائلا:

كما أسعدني تعليقي الأخين فارس ومنصور، وهذه التعليقات الثلاثة رغم بعض الاختلافات في تفصيلاتها تبدو لي كأنها تصب في اتجاه واحد، ولو أن ما يحركها في الحالات الثلاث يبدو لي مختلفا. لكني في الحقيقة ومن موقع معرفتي التامة بمشروع المتكتم ومستقبل هذا المشروع الذي يبدو أخلاقيا في شعاراته، بينما في جوهره يهدف ليس لقتل مصادر المعرفة فقط، بل والالتفات لاحقا إلى حامل المعرفة بإعاقته، لأنه مع المضي قدما في مصادرة المعرفة ستتحول عملية القراءة نفسها إلى عملية نادرة إذا ما استمرت الأمور على ما نسمع، لذلك فإنني أخشى أن مطالب المواجهة أو المقاتلة بقدر ما تبدو براقة وأخلاقية بقدر ما قد تكون مشاركة فعالة في مشروع المتكتم، أي أنها قد لا تصب إلا في ميزان خطة المتكتم في حرق المعرفة، من دون أن يشعر أصحاب الدعوة، مثل أصدقائنا النبهاء هنا؛ فارس وزاهر ومنصور.

وأبدى منصور اعتراضه بهزّ رأسه، وهو يحمحم بأصوات غامضة، فيما أخذ زاهر يشب برأسه ناظرا إلى ناصر، فأشار الرجل ذو السترة الرمادية لهما أن يلتزما الصمت، ثم أومأ لناصر ليستكمل كلامه، فاستطرد قائلا:

إن أي إيقاف لمشروع نسخ الكتب المصادرة، والذي أعتقد أنه إعادة إحياء للمعرفة الإنسانية من دون مبالغة، سيكون من شأنه تعريض مدينة الظلام لسقوط لا تقوم لها قائمة من بعده. والحقيقة أننا نعرف جميعا أن هناك بالفعل عمليات

مقاومة سرية تتم في مدينة الظلام ضد استبداد المتكتم وأتباعه، حتى لو لم تكن مباشرة، لكن دلالاتها أقوى، لأن هناك، وكما يفيدنا موفدونا، بؤرا سرية تمارس عملية قراءات شعرية في البيوت، وقراءات لأعمال فكرية وروائية بعضها صامتة وبعضها يتم بالقراءة الجماعية والنقاش، وهناك مجموعات أخرى تعرض أفلاما، وأخرى تقيّم احتفالات مدنية حرّة يؤكد فيها الحضور قدرتهم على الحياة التي يريدون أن يعيشوها مهما كانت المخاطر، وفي هذه التجارب المنهجة ما يفوق في الأهمية دور المقاومة المكشوفة التي لن تؤدي إلا إلى تشتيت جهدنا وتركيزنا، والاستغراق في معركة محسومة سلفا، لأننا في النهاية، ومهما كان عددنا، لا نملك سوى اليقين في المعرفة. لا نملك سلاحا ولا قدرات قتالية، ولا قِبَل لنا بمواجهة وحشية المتكتم وأتباعه. لذلك فأنا أفضل الاستمرار في النسخ حتى يترسخ المشروع من جهة، ولكي يتم التأكد من قدرتنا على حمايته، من جهة أخرى، وهذا ما ينبغي أن نفعله. ولو كان زاهر والشباب الذين يمثلهم يمتلكون طاقة وقدرة فليحتفظوا بها للمشاركة في الحفاظ على المكتبة الوليدة التي تكونت هنا، والتي قد تتعرض يوما لمصير المعرفة في مدينة الظلام لو تم اختراقها بشكل ما.

أبدى كل من منصور وزاهر رغبتهما في التعقيب على ناصر، إلا أن عودة فارس ودخوله لقاعة الاجتماع متحمسًا وهو يجاور نيرد ويضع يده على كتفها العاري، قد فوّتت على منصور وزاهر الفرصة، بسبب

انتباه الجميع لفارس الذي كان قد التقط الجملة الأخيرة التي نطق بها ناصر فأخذ يردد جملا مبهمة غائمة بصوته المتعب ونفسه المقطوع، مما دعا الرجل ذا النظارة السوداء لتحذيره من أنه قد يُمنع من استكمال حضور الاجتماع إذا استمر منهجه على هذا المنوال.

وبدا كبير النساخين متبرما، بسبب إحساسه بنوع من الغيظ لإصرار رجل لا يجيد الكلام على الثرثرة بكلام لا يسمعه أحد. وإزاء حرص فارس على الحضور للنهاية على ما بدا من استجابته فقد أخذ ينحني بطريقة ساخرة ومتتابعة أولا للرجل ذي النظارة السوداء، ثم لصاحب السترة الرمادية؛ معتذرا بطريقة بدت كأنها سخرية مبطنة من الموجودين.

رفعت نيرد يدها فور عودتها إلى مكانها، طالبة التعليق، فسمح لها. قالت:

أنا في الحقيقة عايزة أقول إن..

صدرت همهمة من جانب فارس، فعلا صوت الرجل ذي النظارة السوداء فورا، ناقلا غضبه من فارس إلى نيرد، قائلا:

نرجوك يا نيرد أن تتحدثي بالفصحى بقدر الممكن كما اتفقنا جميعا هنا. وبما أننا هنا نعرف باسم الناسخين، وبما أن اللغة التي ننسخ بها هي العربية الفصحى، فلا أظن أن هذا الطلب صعبًا.

هزت نيرد رأسها تأكيدا لتفهمها، واستطردت:

نعم سيدي الرئيس سوف أفعل. (كانت تستخدم بنبرة صوتها الناعمة لهجة بدت بها مثل أجنبية تحاول أن تتحدث بالفصحى، ومع ذلك كانت لغتها سليمة). أنا ملاحظتي

فقط تتعلق أنه برغم اتفاقي الكامل مع ما قاله السيد منصور وقد استمعت إلى الجمل الأخيرة منه، لكنني أرجو أن يُوضع في الاعتبار أن يتم تشكيل بعض الفرق الصغيرة من جماعة الناسخين، ليقوموا بالاشتراك في الاجتماعات السرية الخاصة بالقراءة في مدينة الظلام، على الأقل كنوع من التضامن، ومنح الناس من المعارضين للمتكتم الشعور بأننا لسنا بعيدين عنهم وأننا نشاركهم معاناهم أيضا.

سمعنا صوت طرقات حذاء متعاقبة لخطوات سريعة في الخارج، قبل أن تدخل سيدة أربعينية جميلة، تضع نظارة طبية أنيقة وقد عقصت شعرها البني الطويل بالطريقة الإسبانية، وهي ترتدي تي شيرت أصفر وبنطلونا "جينز ضيقا كشفا بضاضة جسدها. ابتسمت للحضور، واعتذرت عن تأخرها في حضور الاجتماع من بدايته، ثم تحركت حتى وصلت إلى المقعد المجاور لناصر

تأملها الرجل ذو النظارة السوداء، ثم بدأ يدوّن ملاحظة في الأوراق أمامه، وعاد ينظر باتجاه نيرد، التي أضافت:

كنت فقط أقول إن جانبا مهمّا من الدور الذي يجب أن يقوم به النساخون هو المشاركة في المقاومة الفعلية، عبر تأكيد حضورهم في مدينة الظلام، وزيادة مساحات القراءة وبالتالي مساحة الاهتمام بالمعرفة.

تدخل الشاب الجالس بجوار كبير النساخين طالبا الكلمة، فأشار إليه الرجل فقال:

أعتقد أن فكرة الأخت المتحدثة معقولة، ولكن لا أظن أن هذا هو دور النساخين، نحن نحتاج إلى عمل مباشر وقوي،

مثل تكوين تجمعات أو عمل مسيرات تؤكد للناس أن هناك معارضة قوية وحقيقية للمتكتم، وأن الردع والقمع لا يمكن أن يمنعنا من التعبير عن اعتراضنا على قتل معرفتنا.

وهنا تدخل فارس، وكأنه يستكمل فكرة زاهر، قائلا:

صحيح وأنا موافق على الفكرة دي.. إحنا ثقافتنا مش قليلة ووراها تاريخ طويل ولازم نقف كلنا ونهتف ضد القمع ونفهمهم إن إحنا مش قليلين.. يا عم يلعن ميتين أم الخونة.

ابتسم كبير النساخين، وقبل أن يبح صوت فارس، الذي تبين للجميع أنه غير قادر على تنظيم نفسه أثناء الحديث كالعادة، وبسبب عدم التزامه بالفصحى، وأشار له قائلا:

خلاص فكرتك واضحة يا أستاذ فارس.

ورفعت السيدة ذات "التي شيرت" الأصفر يدها تطلب الكلمة، وقالت:

أنا في الحقيقة للأسف ما تابعتش النقاش من أوله، بس..

قاطعها كبير النساخين، قائلا:

أرجو بداية أن تعرفي نفسك للحضور، وألفت انتباهك أننا اتفقنا على النقاش هنا باللغة الفصحى من أجل تسجيل محضر الاجتماع بدقة.. تفضلي.

قالت:

تمام، اسمي سناء، وحضرت إلى هنا مع مجموعة النساخين، وما أود قوله أني أؤكد على كلام نيرد، لأن المقاومة لا تكمن فقط في بناء مدينة المعرفة المفقودة، وهو الدور الذي نقوم به هنا، ولكن يمتد الدور للتبشير به في مدينة الظلام،

والاختلاط بالناس ممن يقاومون خطة المتكتم في تجهيل المجتمع، ولو كان ذلك سرّا، لأن هذا من جهة أخرى سيتيح لنا أيضًا أن نتعرف على المجموعات التي ستمكننا من معرفة حجم مؤيدينا والداعمين لنا من خارج مجتمع النساخين.

ثم تدخل منصور، بعد أن اعتدل في جلسته وتأكد من إحكام نظارته على أنفه، قائلا:

أريد أن أعقب على ما قاله الأخ ناصر منذ قليل، من أن البؤر السرية للقراءة التي تحدّث عنها ستظل سريّة، ولن يكون لها أي دور في المواجهة، وسيظل هذا المشروع الخاص بالنسخ هنا أيضًا مستمرًا، وربما إلى ما لا نهاية، لكن سيظل بلا جمهور، وبالتالي من دون فاعلية، لأنه أيضا عمل سري، لا أحد يشعر به، بينما فكرة المقاومة تعتمد على المواجهة، وبصراحة لا ينبغي أن نتناسى أن مشروعا يقوم على القمع لن يتوقف إذا استمر خضوع الناس للقمع، وعدم إظهار أي رغبة في المواجهة، والثورة على هذه الحالة الظلامية التي تُفرض على مدينة كاملة من قبل قوى ظلامية ومتخلفة تريد فرض سيطرتها على المدينة بالجهل، والحصول على الهِبَات التي تمنحها لها جهات مستفيدة من ذلك.

رد ناصر فورا، من دون انتظار إذن من أحد، قائلا:

ما يتحدث عنه الأخ منصور ومن قبله أغلب الأفكار التي طرحت، مع تقديري لها جميعا بالطبع يبدو وكأنها لا تستوعب تماما الدور الذي نقوم به هنا، وهو في الحقيقة

عمل سري، وهذه السرية هي التي تكفل استمراره حتى الآن، وأي مخاطرة ستؤدي طبعا إلى انهياره، لأن خروج أفراد من هنا للمقاومة باسم جماعة النساخين سيمثل خيوطا لإضعافنا، من خلال الاعتقالات أو القتل أو حتى الوصول إلينا من خلال الأفراد الذين قد يتعرضون للاختطاف أو الاعتقال للحصول منهم على معلومات أو تفاصيل ما يدور هنا، وهذه جميعا مسائل خطيرة.

احتدم النقاش بعد ذلك، وتداخلت أصوات منصور وفارس وزاهر، في اعتراض واضح على ما يقوله ناصر، باعتباره نوعا من التخوين للموجودين، وبسبب التباس ما قاله مع شكوكهم بأنه يعني احتمالية أن يكون بينهم من يمكن أن يصبح يوما عميلا لصالح المتكتم ضد النساخ.

وعبثا، حاول ناصر التوضيح أن ما يقوله لا يتعلق بالموجودين، بل بالمتحمسين لمثل هذه الأفكار للمواجهة، وخصوصا أن بعض من يعيشون في مدينة الأنفاق ممن أصابهم التعب والملل قد ينقادون لأي فكرة من هذا القبيل، أملا في العودة لحياتهم الطبيعية أو حتى للتخلص من المتكتم لاستعادة هذه الحياة، وهذا كله مشروع آخر لا علاقة له بإعادة بناء منظومة المعروفة المسلوبة كهدف رئيس للنساخين هنا.

ومع تدخل نيرد وسناء في النقاش والجدل، وحفاظا على نظام النقاش الذي تحول في بعض الأوقات إلى معارك كلامية لا يُنصت فيها طرف للآخر، طلب رئيس النساخين التوقف عن النقاش، لاستكماله في وقت لاحق، لكنه طلب مني ومن سديم أن نعلق على النقاش، فقالت سديم:

أنا شخصيا، لا أستطيع أن أخلط الهدف الذي أتيت من أجله هنا وهو النسخ والالتزام بتنفيذ المهام الموكلة لي، وبصراحة كنت أتوقع نقاشا فنيا عن ضوابط النسخ وجداول العمل وتوقيتات الإنجاز، وأظن أن الجدل الذي شهدته القاعة اليوم يوضح أن البعض هنا يخلط بين دوره في مدينة الأنفاق كمكان للحرية المطلقة يفعل فيها المرء ما يراه، وبين وجوده هنا في مدينة المخطوطات كملتزم بعملية النسخ بين فريق النساخ.

وأمنتُ بدوري على كلام سديم، قائلا:

إن هذا النقاش بالفعل كان يصلح خلال وجودنا في الأنفاق، وبعدها يذهب كل فرد ليفعل ما يشاء، لكني هنا أفترض أن دوري الأساسي هو النسخ. ولا يمكن لنا أن نضحي بمثل هذا المشروع من أجل مواجهة لا نعرف إلى أين يمكن أن تؤدي بنا. لكني، أؤيد اقتراح السيدة سناء بانضمام من يرغب من المقيمين في مدينة الأنفاق للعمل السري المقاوم في مدينة الظلام، ولكن ليس هذا دور النساخين في تقديري.

هز كبير النساخين رأسه تفهما لكلماتنا، ثم طلب رفع الجلسة، بعد أن نظر إلى الكهول الثلاثة الذين كانوا يراقبون ما يجري من دون أن ينطقوا بحرف خلال الاجتماع. وحين أومأوا معا موافقين أكمل كلماته، موضحا أن الاجتماع اللاحق سيكون في اليوم التالي في الموعد نفسه".

36

لـن يـتمكن قاسـم مـن قـراءة هـذه السـطور التـي اسـتعدتها قبـل قليل إلا بعد عدّة أيام. فقد عانى من الإعياء الشديد بعد الإغماءة التـي تعـرض لهـا، وطالـت فتـرة غيابـه عـن الـوعي، ممـا ضـاعف من إحساس ميهريت بالخوف، ليس فقط على فقدانه الوعي بهذا الشكل المستمر، ولكن بالأساس لإحساسها بالعجز وعدم قدرتها على فعل شيء، خصوصًا أنها حاولت أن تعيده إلى الوعي بشتّى السبل.

لكنها لم تفقد الأمل، وحتى نجحت في النهاية، وهتفت لنفسها وهـي تلهـث مـن فـرط التـوتر والجـزع: "أخيـرًا.. كـدت أن تقتلنـي يا رجل".

بدا قاسم في اللحظات الأولى التي استعاد فيها وعيه مشتت الذهن، لا يدرك أين هو، حتى إنه لم يتعرف على ميهريت لوهلة، ثم بدأ يشكو من ألم شديد في رأسه، رغم اهتمام ميهريت به، وخلعها للتي الشيرت الذي ترتدي لكي تعقص به رأسه، ومحاولتها للتخفيف عنه بكل السبل، حتى إنها كانت تهدهده مثل الأطفال وقتما يبدي الرغبة في النوم هربًا من الصداع الذي كان يفتك برأسه.

وربما لولا انفتاح الباب الذي انزلق عبره طبق بلاستيكي صغير ممتلئ ببعض الفاكهة وزجاجة مياه كبيرة، لما تعافى. فقد كان لتأثير المياه والفاكهة أثر إيجابي كبير في استعادته نسبيا لعافيته، وكذلك لميهريت التي كاد الإعياء أن يفقدها وعيها. وبحلول عدة ساعات أخرى عاد فيها إلى النوم، استيقظ في حالة جيدة، وتعرف عليها، وسألها أن تخبره بما حدث.

كانا جالسين على أرض تلك الغرفة الصغيرة المقبضة، شبه المعتمة، التي لا توجد بها نوافذ، ويتدلى من سقفها مصباح إضاءة صغير، وتفوح فيها رائحة الشحم، وهما لا يعرفان شيئًا عن مصيرهما.

ذكرّته بما حدث منذ دخل أعوان شريف إلى غرفته لكي يختطفانها إلى هنا. وأضافت أن حظّها أفضل من حظه، إذ لم تتعرض لأي اعتداء من قبلهم. وحكت له كيف جاء محمولا على كتف أحدهم وهو فاقد الوعي ورأسه تنزف.

وضع يده على بطنه وتحسسني. وكمن عادت إليه ذاكرته تنفس في ارتياح. ولكنه لم يخرجني من مكاني. كأنه يخشى أن يفقدني مرة أخرى.

استند إلى جدار الغرفة وقال كمن يحدث نفسه:

ليس في تلك الأوراق أي شيء يمكن أن يدلنا على طريق رشيد للأسف.

ظلت ميهريت صامتة، وبعد لحظات جاءه صوتها:

رشيد من؟ وما هي هذه الأوراق التي كادت أن تضيع حياتنا؟

هذه قصة طويلة.

ضحكت ميهريت، قائلة:

وهل تعتقد أنني في عجلة من أمري؟ ليست لدي أي مشاوير أو مواعيد لعدة ساعات قادمة.. أو ربما لأيام.

ابتسم لها ساخرًا، ثم قال:

معك حق.

ثم صمت للحظات وقال بطريقة لم تخل من دراما، وهو ينظر لأرض الغرفة:

لقد دمرت أعز أصدقائي.

نظرت إليه بدهشة وقالت بنبرة تساؤل انفعالية وتلقائية:

ماذا؟

هذه هي الحقيقة.. انظري.. هذه الأوراق التي أحملها الآن (وربت على مكان وجودي أسفل قميصه) كان من المفترض أن تكون وسيلتي للعثور على صديقي رشيد الذي أحكي لك عنه، لكنها للأسف مجرد رواية، لم أجد فيها أي شيء يمكن أن يساعدني في الوصول إليه.

وكيف حصلت عليها إذن؟

أنا موجود الآن على ظهر هذه السفينة لهذا السبب.

وحل الصمت مرة أخرى، فتململت ميهريت، ثم قالت:

أنا بالفعل لا أفهم شيئا. عموما أنت لست مضطرًا لأن تحكي لي أي شيء لا ترغب في أن تحكيه.

تنهد قاسم وظل صامتًا لوهلة وبدا في حيرة، وكأنه لا يعرف من أين يبدأ الحكاية. وربما لأنه لا يجد مبررا لأن يحكي لها أسرارًا

يبدو أنه قد ورّط فيها صديقه، وهذا يعني بالتأكيد تورطه هو ضمنيا.

عندما استمر الصمت، قالت له:

- لا بأس، ورغم أنني أجد نفسي معك هنا، بسبب أوراقك أو أوراق صديقك، لكني لا أظن أن معرفتي بأمر هذه الأوراق سوف يغير مصيري.

ويبدو أنها في الوقت نفسه لم ترغب في المزيد من الضغط عليه، فقالت:

على أي حال.. يمكنني أن أحكي عن نفسي، إذا رغبت.

ابتسم، قائلا لها:

صدقيني أنا أشعر بأنني مشوش. لا أظن أنني في حالة ذهنية جيدة. هذا كل ما في الأمر.

ثم كمن تذكر شيئا فجأة وضع يده على جيب قميصه العلوي، فارتطمت بعلبة السجائر. وأخرجها شبه محطمة. أخرج منها سيجارة وهو يتنفس الصعداء، ثم تمتم لها قائلا:

إذا لم نختنق من دخان السيجارة في هذه الزنزانة البشعة فقد يتحسن مزاجي قليلا على الأقل.

ضحكت ميهريت ضحكة صاخبة، وقالت له:

لقد نجحت في إضحاكي رغم هذا الظرف البائس الذي نمر به، ولذلك فسوف أحكي لك أنا قصتي.

كان قد أشعل سيجارته مبتسما، وهزّ رأسه لها وهو يطفئ عود الثقاب الذي أشعل به السيجارة، نافثا الدخان باتجاه رأس الثقاب، ليتأكد من انطفائه. وسعلت هي عندما استنشقت رائحة الدخان، لكنها مدّت يدها إليه قائلة:

أعطني سيجارة حتى أشاركك عملية الانتحار اختناقا.

ضحك وهو يمد يده بعلبة السجائر التي انتزعتها من يده، وهي تمثل دور المدمنة وتضع السيجارة في فمها، ثم تطلب منه أن يشعلها لها.

وفور أن نفثت دخان سيجارتها عادت تسعل مرة أخرى. صمتت كأنها تسأل نفسها من أين تبدأ، لكنها كانت متأكدة من شيء واحد، وهو الرغبة في الحكي بصدق كامل عن نفسها، وربما على عكس سنوات طويلة قضتها إمّا صامتة أو غامضة. كانت تريد أن تحكي له قصّتها التي يمكنني أن أصيغها على النحو التالي:

"بالرغم من المآسي المستمرة التي عرفها في حياته، أعتقد أن هينوك شقيقي، كان له تأثير على كل منا، أنا وشقيقتيّ. في كل الأحوال حينما اختفى من حياتنا، بعد أن كان والدي يعوّل عليه في أن يساعده، أصبح في وضع يحتم عليه أن يستمر في الإنفاق علي أنا وإخوتي الآخرين بمفرده، وغالبا من دون أي مساعدة مأمولة من هينوك.

أمي التي لم تكن تقرأ وتكتب، كانت تصّر على تعليمنا، حتى لو اقتضى الأمر أن تلجأ لبعض بنات الجيران اللائي قطعن شوطا في التعليم، لكي يأتين إلى بيتنا في المساء ويعلمنني القراءة والكتابة بالأمهرية، ومبادئ الحساب، كما أخبرتك. كانت أمي تصر على أن أقرأ أمامها ما أتعلمه. وتهز رأسها باهتمام وهي تنصت لي. وكان هذا دافعا لي للتجويد وتأكيد معرفتي باللغة الأمهرية. بعد سنوات طويلة سأدرك أن أمي كانت تخفي عني أنها لا تجيد القراءة أساسًا (ضحك قاسم طويلا عندما سمع تلك اللقطة)، مع ذلك فبمجرد أن

أصبح عمري 16 عاما، بدأت أمي تبحث لي عن زوج.. زوج؟ لي أنا؟ لماذا يا آماي؟

لم أرغب في الزواج بصراحة. كنت أشعر أنني مازلت طفلة. ومن جهة أخرى كان تمرد هينوك المستمر على أساتذته ثم على حياته معنا وانضمامه للعمل الثوري والسياسي، الذي لم أكن أفهم منه شيئا، له دور في إحساسي بأهمية الاستقلال. أعتقد أنني كنت أضع باستمرار نموذج هينوك أمامي كمثل أعلى. لكن طبعا وضعي كفتاة لم يسمح لي بما سمح به لهينوك. وفكرت أن الوسيلة المثالية للاستقلال، غير الزواج، هي الانتقال من قريتنا الفقيرة إلى مدينة أخرى، وطبعا كنت أسمع عن أديس آبابا الأعاجيب. كنت أريد أن أعمل موظفة في محل، أو نادلة أو أي عمل مماثل بمقابل يمكنني من العيش ومساعدة أمي وأبي أيضا. والدي في النهاية كان موظفًا صغيرًا في بلدية مركز بلدة بعيد نسبيا عن قريتنا، يحتاج إلى قرابة ساعتين يوميا ذهابا ومثلهما إيابا. ورث مع أشقائه قطعة أرض، كانوا يشتركون في زراعتها، لكن وجوده خارج القرية أغلب الوقت لم يكن في صالحه، فإنتاج المحصول القليل عادة ما يتم اقتسامه بين إخوته من دون علمه، وغالبا، ما يتركون له من نصيبه الفُتات، ليس عن تقتيرٍ أو سوء نية، بل لأنهم كانوا يرون أنه يمتلك دخلا آخر يمكنه أن يحسّن به أحواله. ولأن الجفاف كثيرًا ما كان يقضي على محصول السنة، إضافة إلى أن الأرض في النهاية لم تكن مناسبة لزراعة محاصيل يمكن أن توفر دخلا كبيرًا مثل القهوة، بل بالكاد تصلح لبعض الخضراوات التي يمكن بيعها في الأسواق القريبة من قريتنا.

أردت أن أعيش حياتي. كما فعل هينوك، أيًّا كانت النتيجة، أو الثمن الذي سأدفعه. لم أرغب في أن أعيش حياة أمي، ولا الحياة التي يريدونها لي، مع زوج من العائلة، سيكون في عمري تقريبًا، وبعد عام أو اثنين نكتشف أننا مجرد طفلين لا يصلحان، ليس فقط للزواج، بل لا يصلحان لشيء، ثم أجد نفسي في صباح أحد الأيام امرأة مطلّقة، ولديّ طفل أو أكثر، سوف أضطر غالبا لأن أتولى رعايته أو رعايتهم، وسيختفي الأب كما يحدث غالبا ولن نسمع عنه شيئا بعد ذلك. لم أرغب في تكرار هذا المسلسل الذي شاهدت الكثيرات من أبناء عمومتي وخالاتي وهن يمثلنه باقتدار وببساطة، لكنه كلفهن حياتهن، أو اضطرهن للسفر للعمل خادمات أو نادلات في الخليج ودول أخرى، مقابل فُتات، لكي يوفرن لمن يعلن حياة كريمة، بينما يتركن تربيتهم إما للجدّات أو لشقيقاتهن".

صمتت قليلا لتستجمع أفكارها، ووضعت يدها على الزجاجة البلاستيكية التي تتوسطهما، ثم عادت لتقول:

"كانت لدى عمتي الكبيرة ابنة طموحة، من حسن حظها أنها كانت تريد من صغرها أن تتعلم وتصبح طبيبة. هذا طموح يفوق الخيال في قرية مثل قريتنا، بل حتى في أديس آبابا نفسها، قد لا تجد أكثر من عدة طبيبات يمكنك أن تعدهن على أصابع يديك.. بصراحة يمكنك أن تعد الأطباء أساسا، فما بالك بالطبيبات؟ المهم أنني لا أعرف من أين أتت تلك الفتاة بهذا الطموح أو الإرادة. اختفت لسنوات ثم عادت وهي طبيبة مرموقة بالفعل، تعلمت في الولايات المتحدة، وعاشت هناك مع زوج إثيوبي لكنه حاصل على الجنسية الأمريكية.. باحث مرموق.

كانت تبدو لي بعيدة تماما، كأن حياتها معنا في القرية كانت مجرد حلم يتذكره الفرد ولا يصدق أنه حدث. مع ذلك فقصتها لم تفارق خيالي. ولكني كنت أعرف أنني لا يمكنني حتى أن أستكمل تعليمي. لكن ما كان برّاقا بالنسبة لي هو فكرة السفر إلى أميركا والحياة هناك".

ثم صمتت فجأة. وطال صمتها، وقاسم الذي كان يسند رأسه على الجدار، محدقا في أعلى بقعة من الجدار المواجه له، مال برأسه باتجاهها، متسائلا عن سبب صمتها، فوجدها شبه شاردة.

أسندت رأسها على الجدار. كانت قد حلّت شعرها فأصبح هائشا حول وجهها ومنسدلا على كتفيها، وكانت في جلستها المقرفصة قد ثنت ركبتيها وأحكمت القبض على وضعهما بذراعيها المتعانقين حول ساقيها العاريين. وفي الانحناءة الهينة التي أمال بها قاسم رأسه باتجاهها انتبه إلى الهالتين اللتين أحاطتا بعينيها، وأصبحتا أكثر دكنة. سألها عما أصابها فجأة. ولكنها لم ترد. فظل بدوره صامتا، وفكر أن يشعل سيجارة أخرى. وحين مدّ يده لها بسيجارة أخرى امتنعت وربتت على يده، ثم قالت كأنها تحدث نفسها:

هل سمعت يوما عن سينيدو؟ سينيدو تاديس؟

رمقها بنظرة جانبية، وحين أحس بجدية السؤال تردد في أن يسخر من السؤال واكتفى بإصدار صوت عابر من بين شفتيه:

لا.

بالتأكيد لا تعرفها. لكن هذه الفتاة هي الأخرى لم تكن أقل طموحا من بنت عمتي، لكن قصتها مع الأسف من أكثر القصص التي تأثرت بها، رغم كثرة ما سمعت من قصص

مؤثرة، فحياتنا كلها مآسٍ كما ترى. ابتعدت عن الفقر والخوف وعن مشكلات الفتاة في القرية وأهونها الزواج في عمر لا يتجاوز 14 عاما، وأرادت أن تحقق حلمها في التعليم ووصلت إلى الدراسة بجامعة هارفارد، تخيل؟ ومع ذلك فقد اصطحبت معها سوء الحظ. لا أخفيك أن سينيدو أخافتني من فكرة السفر لأميركا. أو ربما من فكرة السفر والوحدة. أن تعيش في مكان تشعر فيه أنك غير مرغوب فيك. ربما هذا وهم هي التي خلقته لنفسها ودمرت به حياتها. المهم سوف أحكي لك حكايتها لاحقا، إذا أردت، لأنها حكاية غريبة جدًا، خلاصتها أنها اتهمت بقتل زميلتها في السكن وكانت فتاة آسيوية، جمعت بينهما علاقة صداقة في البداية، ثم شابها نوع من الشك، أو إحساس من سينيدو بأن صديقتها تتعالى عليها، الحقيقة أن القصة التفصيلية للموضوع كما تداولها الإعلام ظلت غامضة، ولا يفهم منها بالضبط هل تعرضت سينيدو لمرض نفسي بسبب الإحباط والغربة في أمريكا؟ أم أنها بالفعل تعرضت لسوء المعاملة من صديقتها. المهم أنها قصة تعيسة وحزينة جدا، لكن أهميتها في حياتي أنها جعلتني أقرر أن أنتقل محطة واحدة فقط وهي آديس. ولكن....

وقبل أن تكمل الجملة سمعا صوت خطوات تقترب من الباب فخرست، وارتفع صوت تنفسها من الخوف. أما قاسم فقد نهض واقفا وأطفأ السيجارة التي أشعلها وهو في حالة تحفز.

37

فُتح الباب، لكن ميهريت وقاسم اللذين كانا يحدقان معًا صوب الباب المفتوح بنظرات امتزج فيها الخوف بالأمل لم يتمكنا من رؤية أحد. وسرعان ما تبيّنا قزما غريب الهيئة له شارب غليظ ينسدل على شفتين صغيرتين متضخمتين، يرتدي بنطالا رخيصًا باليًا وقميصًا رماديًا ملوثا ببقع منتشرة في أرجائه، ثم فوجئا بشريف يقتحم الغرفة ويقف أمام الباب متحديًا. نهضت الفتاة وهي تشعر بالخوف ووقفت خلف قاسم الذي كان قد اقترب من الباب ووجد شريف أمامه وجها لوجه، فبادره قائلا:

هادفّعك تمن اللي انت عملته ده غالي جـ....

قاطعه شريف فورًا:

شششششش. أنا مش جاي أسمع محاضرات منّك أو من..

دي مش محاضرة.. ده وعد.

الوعد تاخده إنت مني.. أنا عايزك تعرف إنك بعد ما عرفت سرّي ما بقاش قُدامي غير أني أخلص منك إنت والبِتّ القحبة اللي معاك دي.

نظر له قاسم بتحدٍ، ورسم ابتسامة ساخرة، ثم قال:

- هتبيعنا مع البشر اللي انت مهرّبهم؟

اقترب منه شريف، وأطبق بيده على رقبته بقوة، فشعر قاسم بالاختناق، وقرر أن يوجه له لكمة، لكن شريف تفاداها، ثم دفعه بعيدا عنه، وبصوت ناله التهدج قال صارخا:

- شوف يا حبيبي.. أنا في إيدي أعمل حاجات كتير. أكتر مما تتخيل. أولها إني أبلّغ الشرطة عنك باعتبارك مهرب مخطوطات. يعني بتبيع آثار البلد. فماتمثلش عليّا الدور. أنا بس حبيت أطمّنك إن الليلة دي آخر ليلة ليك معانا إنت والقحبة اللي معاك دي.

وقبل أن ينطق قاسم بشيء خرج شريف فجأة، وحلّ محله الفتى العملاق، الذي سدد إلى قاسم نظرة محملة بالاستفزاز والاستخفاف، ثم أغلق الباب.

اقتربت ميهريت من قاسم واحتضنته من الخلف، وهي تسأله عمّا قاله شريف له. لكنه لم يرد عليها بشيء. استدار واحتضنها، ثم ربّت على كتفها وطلب منها أن تهدأ.

كان قاسم مندهشا من تأخر اكتشاف القبطان لاختفائه، ومحتارًا في ما قصده شريف. هل سيقتلهما بالفعل؟ أم أنه يدبر لهما أمرا.

سأل ميهريت:

أخبريني.. ماذا شاهدتِ هناك بالضبط؟

أين؟

في تلك الغرفة التي قلت لي إن بها مجموعة من المهاجرين غير الشرعيين.

لا شيء، كنت أمر في رواق شبيه بالممر الذي يصل إلى هذه الغرفة حين وصلت إلى السفينة.. وتسللت إلى مكان قريب من هنا بحثا عن مخبأ آمن لا يمكن لأحد أن يراني فيه. سمعت صوت سعلات وآهات مستمرة ومريعة، فتوقفت عن الحركة واختبأت. بمرور الوقت اكتشفت أن الصوت لشاب مريض نال منه المرض حتى أصبح ميئوسًا من شفائه. ولا يبدو أن أحدًا قدّم له علاجًا. وفيما بعد جاء رجلان أظن أن ذلك الشخص العملاق الذي ألقى بنا هنا كان واحدًا منهما، حملا الشاب، الذي بدا ساكنًا تمامًا بين أيديهما، وخرجا به. ولم أفهم ما يقوله الشباب المصريون من رفاقه، فقد ظهر عليهم الفزع وأخذوا يتهامسون بكلمات كثيرة. وعندما قررت الهروب في الليل، مررت أمام الغرفة واكتشفت أنها ممتلئة بالبشر. شاهدني أحد الأفارقة. أدركت أنه حبشي أيضًا. أخبرني أنه قطع رحلة من الحبشة إلى السودان ثم مصر، لكي يصل إلى شواطئ إيطاليا. وفهمت منه أن هناك شخصا على السفينة يقوم بهذا العمل مع بعض التابعين له من بحّارة السفينة.

صمت قاسم قليلا، ثم قال:

لا أفهم كيف يكون بإمكان هذا الفتى التافه أن يقوم بمثل هذه الأمور، مستخدمًا سفينة كهذه ومن دون علم القبطان؟ من يدري؟ هل تصدق أن أمرًا كهذا سيتم من دون علم القبطان؟ لا شك أنه متورط. هناك أموال طائلة تموّل هذا النشاط.

ظل قاسم صامتًا لوهلة، وهو يفكر في ما قالت، ولكنه لم يجد نفسه قادرا على تصور تورط رؤوف القطان في هذا الأمر. ومع ذلك وضع احتمالا لإمكانية ذلك، ثم شرع يتساءل عن مصير هؤلاء الفتية كأنه يحدّث نفسه، صاغ السؤال وراح يكرره بوتيرة واحدة، كأنه يهرب بالسؤال من أسئلة أخرى أكثر خطورة، تسيطر على ذهنه، عما ينتظره الآن، وعن مصيره ومصير رشيد. ولم يكن لدى ميهريت إجابة على سؤاله.

وإزاء شدّة إحساسه بالتوتر، طلب منها أن تعود لتكمل له حكايتها، ويبدو أنها أيضًا كانت تجد في ذلك حلا قد ينزعها من الهواجس التي سيطرت عليها بعد الحوار العنيف الذي دار بين قاسم وشريف.

صمتت قليلاً، وبدت كأنها تحاول أن تستعيد نفسها، ولكنها لم تقل شيئًا. وبعد مرور فترة من الصمت، تناهى إلى سمع قاسم صوت خافت مختنق ومبحوح، سرعان ما تحوّل إلى لحن غنائي له طابع إيقاعي لا يخلو من الشجن. راحت ميهريت تشدو، فانتشى قاسم بالغناء، بجمال صوتها الذي كان مفاجأة بالنسبة إليه، وبالنظرة التي كانت تحملها عيناها العميقتان السوداوان.

غنّي يا ميهريت إذن، غنّي لأيامك الماضية الحزينة، وامنحي صوتك الجميل نبرة الأمل في مستقبل تسعين إليه على متن هذه السفينة المجنونة، التي يبدو أنها حتى الآن لم تمنحك أملا ولا سعادة. ودعيني أعود إلى ذاتي، بالأحرى إلى كاتبي وخالقي الذي يبدو أنني لن أعرف له طريقا بعد الآن:

"الخوف؟ مم تخافين؟".

تساءل رشيد وهو ينظر إلى يوديت، بينما كانا يجلسان متقابلين في مطعم وبار صغير، فيما تناثرت أمامهما صحون صغيرة ضمت عشاء خفيفا وكوبي بيرة طويلين كما الشائع في أغلب المطاعم والحانات في شتوتغارت.

كان لايزال مندهشا ومصدوما من جملة قالتها له قبل أن تتحدث عن الخوف. قال لها عابرًا إنه لا يرى ما الذي يمكن أن يسبب الهموم لشابة جميلة في ألمانيا، ربما باستثناء البحث عن وسيلة جديدة لعمل ثقب لسُرّتها أو أنفها، أو البحث عن حمية تحافظ بها على رشاقتها. وبوغت بيوديت، مستخدمة نبرة تعبر عن الغضب والجدية، لكنها تنطلق لتقول له بصرامة أنه يتحدث عما لا يعرف:

> هل تظن أننا مجتمع مرفه؟ ولا يعاني من صعوبات؟ ربما، لكن هناك معاناة يومية. أن تبحث عن عمل مؤقت لأطول فترة ممكنة حتى تتمكن من سداد إيجار شقتك، وأن تصبغ الشعر الأبيض في رأسك لتُكمل صورتك الجميلة الطبيعية في المجتمع المرفه، وأن تجد دخلا يضيع نصفه في الضرائب وما يتبقى بالكاد يجعلك تعيش يوما بيوم. هذه كلها أشياء تصيبني بالخوف.

صمت رشيد مبتسما ابتسامته الهادئة، بالرغم من أن كلمة "خوف" أفزعته قليلا. لكنه رفع حاجبيه مستنكرًا ومندهشًا، ثم اعتذر لها، موضحا أنه بالتأكيد يعرف أن كل مجتمع لديه مشكلاته، لكنه يقارن معاناة أفراد هذا المجتمع بمجتمعات أخرى تواجه مشكلات أكبر بكثير، والفقر فيها يفوق التصور.

أبدت يوديت تفهمها لكنّها أصّرت على أن المقارنة في كل الأحوال ليست في محلها، لأن فهم خصوصيات وتفاصيل معاناة أهل أي مكان هي التي تتيح تأمل وفهم ظروفه الحقيقية.

نحن لدينا عمال من دول أوروبا الشرقية عاشوا واستوطنوا وهؤلاء لديهم معاناة، ولدينا شباب ترك حياة متقشفة في ألمانيا الشرقية وجاء إلى الغرب ويحاول أن يتعايش، وستجد لدينا هنا من يرى أن وجود هذا الألماني الشرقي في الغرب يمثل عبئا إضافيا على الغربي وفرصه في العمل. نحن لدينا أتراك مهاجرون يريدون أن يعيشوا كالألمان في ما يتعلق بالحقوق، لكنهم في الواجبات ليس لديهم نفس الحماس. ويريدون أن يفرضوا ثقافة جاؤوا بها من بلادهم علينا. ويجعلونا نشعر بالخجل من أن نسمع عن ألماني يمارس العنف دفاعا عن الشرف، أو عن مسلمين يأتون للعيش هنا وبدلا من الانخراط في ثقافة المجتمع وتأكيد تنوعه، يريدون أن يفرضوا قيما تخصهم، من دون مراعاة لما بذلته هذه البلاد من معاناة من أجل أن تصبح الحرية الشخصية مسألة مقدسة ودليلا عمليا على مفهوم الحرية في ألمانيا ككل. وهذا أيضا يجعلني أشعر بالخوف. الخوف من المستقبل. من استنزافي في عمل يومي شاق لا يدر عليّ أكثر من دخل أعيش به حياتي اليومية، ولكنه لا يؤمن لي المستقبل الذي أحلم به.

هكذا كانت بداية الحديث عن الخوف، لكنها لن تعود للحديث عنه مرة أخرى إلا بعد أن تأتي سيرة الموسيقى في حوار لاحق لهما.

في الليلة التي دار بينهما ذلك الحوار كانت يوديت قد عادت من رحلة العمل التي قضتها في برلين، والتقيا للمرة الأولى. واعتبر كل منهما أن تلك الأمسية هي بداية التعارف الحقيقي بينهما. كانت الليلة التي قضياها معا في الأقصر أشبه بحلم، وكانت الفترة الطويلة التي انقضت بين تلك الليلة وبين رؤيتهما لبعضهما بعضا لاحقا في شتوتغارت، جعلتهما يشعران بأن اللقاء الأول بينهما يبدأ الآن. وكانت أولى انطباعاته هو ذلك الحس الميلودرامي الذي أبدته يوديت. وربما الرغبة في الشكوى. ابتسم لخاطرٍ دار في ذهنه باعتباره شخصا جاذبا للمآسي. وحين جاء إلى ألمانيا على أمل أن يودّع الحِسّ الميلودرامي الذي كان سمة لأغلب علاقاته العاطفية، والتي لم تنج منها حتى علاقته بكل من سلمى وراوية. راوية التي كانت في فترة الجامعة لاتزال تبحث عن نفسها، وترى في قضية المرأة وسيلة للشكوى من كل ما يمر به يومها منذ خروجها من البيت وحتى عودتها يوميا. التحرش اللفظي، وتحرش العيون التي تستبيح جسدها، في الغدو والرواح. سطوة الأب، ثم سطوة الأم، والأخ، وبعدهم سطوة أساتذة الجامعة، واستظراف بعض المعيدين، في محاولات مكشوفة ولزجة للغزل أو التحرش أحيانا.

أما سلمى، فبالرغم من تعقّلها وتخلّصها مما كان يسميه أمراض المرأة المصرية وأوّلها الغيرة، والهشاشة العاطفية التي تحوّل العلاقة من شراكة إلى ابتزاز، إلا أنها كانت شخصية اكتئابية متقلّبة المزاج، مع فارق وحيد ميّزها عمن عرفهن قبلها، تمثل في رغبتها التامة في العزلة عن العالم حين يغزوها الاكتئاب. كانت تعتزل

العالم وتجلس في شقتها تقرأ وتشاهد أفلاما تحبها، لتقاوم الإحساس بالنزعات المدمرة التي كانت تصحب حالات الاكتئاب.

وهاهو الآن أمام امرأة جميلة وهادئة، لصوتها رنّة عاطفية ناعمة يشعر معها أنها تحتضنه بالكلمات، لكنها فجأة تكشف عن لوعة وأسى وحس درامي مبالغ فيه في مواجهة العالم. لاحقا، وبعد احتسائهما عدة كؤوس من البيرة، والتعليق على بعض الأغنيات التي كانت تتسلل إلى أسماعهما كلما توقفا عن الحديث. سألها عمّا تفضل أن تشاهده عادة في التلفزيون، فأخبرته بعفوية "مسلسل الجريئة والجميلة" The Bold and The beautiful، وصرخ على الفور: "مش ممكن"، ثم سألها:

الألمان يشاهدون هذه الترهات؟!

لا أعرف، لكنّي أتابعها ولا أعرف ما يفعله بقية الألمان! وهي ليست ترهات بالمناسبة.

ابتسمت فهز لها رأسه مؤيدا، وإن غلّف ابتسامته بإيحاء بالسخرية. ومن دون أن يعلق حدّث نفسه، قائلا: "طبعا، أنا كده عرفت الحس الميلودرامي ده جاي منين".

في تلك الأيام، كان لايزال مقيما في بيت الفنون، في غرفة صديقه ماتياس، ولم تكن لديه أي مشاعر حقيقية تجاه يوديت بعد، وكذلك الأمر بالنسبة لها.

38

استمرت ميهريت في الغناء، فيما كانت ذاكرتها تلتقط من ماضيها صورًا ومشاهد، بعضها ستحكيه لقاسم حين تستعيد هدوءها قليلا. كانت تترك صوتها يخرج ناعمًا دافئًا وجميلا إلى أذن قاسم، مضفية بنبراتها الأنثوية الحنون والحسية معا، على الزنزانة الصغيرة، مساحة من الحميمية بدّدت الانقباض الذي أصاب قلبيهما منذ أن ألقي بهما على أرضها الخشبية.

كان ذهنها يرحل في الزمن، مُستلِبًا أطيافا من روحها حلّقت بعيدًا، إلى زمنٍ آخر، إلى وجه الأم "بِسْرات"، التي ورثت ميهريت جمالها عنها؛ الأنف الصغير الدقيق، والشعر الطويل المصفّف دائمًا، والعينين الكالحتين العميقتين، والجسد الممشوق والخصر النحيل المنسدل على الكفلين الممتلئين قليلا.

الحكايات التي كانت تهدهدها بها بِسْرات؛ الأم التي ورثت بدورها عن أمها؛ جدة ميهريت، تراثا من القصص الشعبي؛ اختزنته من أجل أبنائها: هينوك وميهريت ونيجيست وألماز، وها هي تستخدم الحكايات مرة بعد أخرى لميهريت، حين كانت تجد صعوبة في استدعاء النوم، لكي تبعد بها ذهنها عن مخاوفها من الضباع، ومن

الساحرات الشريرات المتربصات بالفتيات الجميلات، وتعيد حكي القصص المستلهمة من التراث الإثيوبي الذي تأخذ فيه الحيوانات دور البطولة التي تفيض بالحكمة. استعادت ميهريت أيضا صورة البيت الفقير الذي كانت تتصوره بخيال طفولتها بيتا جميلا حتى وصلت أديس آبابا، واكتشفت أن ما كانت تسكن فيه ليس إلا سكنًا متواضعًا فقيرًا. كما استدعت الأيام التي كانت تتذكرها مشوشة لولا حكايات أمها وهينوك لاحقا عنها. كانت الأم تحكي تلك الحكايات بوصفها أيام الشقاء والتعاسة التي غيرت حياة الإثيوبيين، فأضافت للفقر الدم والعنف والارتياب والمعارك الطاحنة. أما هينوك فكان يحكي نفس الحكايات من منطلق الثوري الذي راحت كل آماله الثورية في بلد أكثر تحضرا وعدلا أرجاء الريح.

حكى لها، كما أخبرت قاسم، عن الأيام التي غزت فيها قوات الجيش الصومالي بلادهم، بعد وصول الماركسيين للحكم بعد الثورة على الملك هيلا سيلاسي. مشاهد الرعب والقتل في الشوارع للجميع، والدبابات التي كانت تحيط بهم من كل اتجاه، والحيرة التي جعلتهم لا يعرفون هل يهربون إلى مدينة هرار القريبة كما فعل الكثير أم ينضمون إلى مخيمات اللاجئين في حماية الجيش الإثيوبي؟ الدموع التي لا تسيل في عيني هينوك كلما تذكر مشهد السيدة المذهولة التي ظلّت جالسة على المقهى، تحدّق في الأفق مثل عجوز عمياء، وأمامها على المنضدة الخشبية الصغيرة كوب شاي لا تمّسه، بينما يعبث حولها طفلان صغيران لا يفهمان شيئا مما يجري من رعب. وحين رآها هينوك انتابته حالة من عدم الفهم أيضا عن سر النظرة الشاردة التي لا تشبه نظرات الأحياء لتلك السيدة المذهولة ذهولا

مفجوعا عن كل ما يدور حولها. سأل صديقه نادل المقهى، فأخبره بأنها قررت أن تهرب خارج المدينة من شدة الفزع، فاصطحبت الطفلين، وتركت ثلاثة آخرين من أطفالها الأكبر عمرا، ولكنها فشلت في الخروج من جيجيجا، وحين عادت وجدت أطفالها الثلاثة مقتولين.

ارتجف صوت غناء ميهريت الحزين في هذه اللحظات وغصّت بالبكاء. لكنها تماسكت. حاولت أن تبتعد بذهنها عن ذلك الزمن الذي كان استدعاؤه يذكرّها بقرصات الجوع الذي اعتصر أحشاءهم جميعًا مرارا وتكرارا، حين لم يكن لديهم خيار آخر سوى حساء العدس ذي اللون البني، هو ما كان من الممكن الحصول عليه، ملّونًا بلون المياه الملوثة التي لا يمكن الحصول على غيرها من أجل النظافة والطهي والبقاء على قيد الحياة.

انتقلت ميهريت إلى أديس آبابا لكي تنقذ حياتها ومستقبلها بالتعليم، وكانت تتساءل دومًا إذا كان ما عاشته يمكن أن يُدرَج في تعريف الناس لكلمة "حياة". كانت تقول لنفسها: "هل الهروب من الموت هو الحياة؟". حين كانت تسأل الأسئلة لشقيقتيها الأصغر نيجيست وألماز، لم تكن لديهما إجابة، فقد كانت كل منهما تشعر بأن أمهما عاشت وتنقلت من قريتها إلى جيجيجا ومرت بالأهوال ونجت وأنجبت العائلة. كانت نيجيست ترى أنها لا يمكن لها أن تتخلى عن حياتها قريبا من أمها، أما ألماز فلم تحسم الأمر، وإن أبدت إعجابها دائما بميهريت وطموحها.

لم تقنعها المبررات التي كان بعض أصدقائها العالمين بتاريخ البلد عن القَدَر الذي جعل بلادهم فريسة لقوى عالمية جشعة دأبت

دوما على خيارين لا ثالث لهما: إما أن تدير ظهرها لمشكلاتهم تماما، وإما أن تموّل الحروب والنزاعات وتذّكي القتال بين القبائل المتنازعة.

كان هينوك يقول لها إن الولايات المتحدة التي قررت أن تساعد الصومال في حربها ضد إثيوبيا بسبب الاتجاه الماركسي الذي اعتنقه النظام الجديد، جعل إثيوبيا تلجأ إلى الاتحاد السوفييتي، وقد قامت روسيا فورًا بمد إثيوبيا بمساعدات عسكرية فاقت في عام واحد ما حصلت عليه إثيوبيا من أميركا في 30 عاما. لكن روسيا كانت تفعل ذلك وهي تموّل، في الوقت نفسه، وباليد الأخرى، الجيش الصومالي الذي يحارب إثيوبيا!

حين حكت ميهريت هذه القصة إلى قاسم في هذه الغرفة (الزنزانة)، نظر إليها واجمًا. فبالرغم من معرفته بتاريخ التدخل الغربي في إفريقيا كلها، إلا أن هذا التناقض المذهل في موقف الروس جعله يهز رأسه لها، متعجبا وكأنه لا يصدق ما تقول.

نجح الغناء في الهروب بها من واقع الغرفة البائسة التي وجدت نفسها سجينة بها مع قاسم، إلى عوالم أخرى، لم تكن بالضرورة عوالم حالمة وسعيدة، بل ربما كانت قاسية وبعيدة، لكنها بالتدريج؛ ومع إصرارها على الغناء انتقلت لحالة من الصفاء النفسي النسبي التي لم تكبح الشعور بالوجل والخوف، بل هدهدت روحها أيضًا.

كانت ذكرياتها قد عبرت ذلك كله إلى آديس آبابا: أيامها الأولى في آديس، العمل كنادلة لكي تنفق على نفسها، قصص الحب العابرة مع شباب من عمرها تقريبا، البهجة بانتصارها الشخصي، بالاستقلال وبالحياة في مدينة حقيقية يمكنها فيها أن

تذهب مع صديقاتها إلى السينما، أو إلى أحد المسارح التي تقدم عروضا موسيقية شعبية، والتنزه في المدينة، التردد على المقاهي، ومن قبيل الفضول التردد على مقاهي القات، وزيارة الكوافير لعمل التصفيفات التي تناسب شعرها الطويل الثقيل الناعم، والذي يمثل تصفيفه بالنسبة لها حالة من الهوس. مثلها في ذلك مثل زميلاتها وصديقاتها وغريماتها في الشباب والجمال. التعرف على شباب مختلف قليلا عن شباب قريتها، يقرأون الشعر، ويتحدثون عن السياسة، ويعيدون تذكر الملك هيلا سيلاسي وما أنجزه للبلاد في التعليم والبنية التحتية بعد تحرير إثيوبيا من الاستعمار الإيطالي. وربما لذلك كانت صورته في كل مكان، في المقاهي، وبعض المحال، وفي البيوت. ويقارنون عهده بعهد الشيوعيين الذي كان بالنسبة للكثيرين عهد الحروب والمجاعة والاعتقالات اليومية. قالت لقاسم إنها كانت قد تعرفت على شاب إثيوبي من طلبة الجامعة الذين درسوا الزراعة وتخصص في الدراسات البيئية. أخبرها أحد طلاب الجامعة تلك عن شقيقه الأكبر الذي قرر الالتحاق بالجامعة فقط لأنه سيسكن في سكن داخلي يمنع عنه قوات الجونتا الذين كانوا يلاحقون الطلبة في الشوارع ويشتبهون في الجميع. كانت آديس بالنسبة لها هي مدينة هيلا سيلاسي بامتياز.

تذكرت ظهور جون في حياتها؛ الشاب الأميركي الأسمر، الطويل النحيف الذي أعجب بها من أول نظرة، والذي بدأت معه رحلة حياة مختلفة. التعرف على أجواء الملاهي الليلية، والسهرات. التعرف على ثقافة أخرى كانت تسمع عنها أو تشاهدها فقط في التلفزيون. إتقان الإنجليزية والقراءة بها. كانت أخيرًا قد وجدت صيغة

جديدة لمعنى الحياة. لم تكن الحياة إذن هي الفرار من الموت: غدرًا بأنياب الضباع أو قتلا برصاصات الجيش، أو جوعًا، أو حسرةً على الأهل والأصدقاء الذين راحوا ضحايا الهرب المستمر من الموت، لهذا السبب أو ذاك.

مع جون أخذت الحياة شكلا مختلفًا. أصبحت الحياة تعني الاستمتاع بها، وإيجاد معنى لكل لحظة تمر عليها. أدركت أن الهروب من الموت ربما فطرة وغريزة، لكنه بقاء على قيد الحياة، أما كيف "تعيش" الحياة؟ فهذا ما تعلمته مع جون. تلّقت على يد جون هذه المعاني الجديدة لمتع الحياة: الموسيقى والرقص، والغناء والفرح، الأكل الجيّد، والمذاقات المختلفة لمطابخ مختلفة، القراءة والتعلم. السفر من أجل مشاهدة العالم. الحياة! يا إلهي! كم كنت عمياء حين عشت وأنا أعتقد أن الحياة هي الهروب من الغدر المتربص في كل مكان. وقالت لجون بابتسامة:

"نعم يا حبيبي.. الحياة جميلة معك.. الحياة تعلمني وأنا معك كلمات لم أعرفها من قبل.. الحياة تعني الأمل والمستقبل".

توقفت ميهريت عن الغناء. واتسعت ابتسامتها فجأة، فالتفت إليها قاسم، الذي كان قد حلّ العصابة التي يربط بها ذيل الحصان المعقوص به في خلفية أعلى رأسه. وأخذ يهز شعره الذي انسدل حول وجهه. سألها عن أسباب ضحكها، فنظرت إليه، ثم عادت تضحك مرة أخرى، فابتسم وظلّ منتظرًا في فضول حتى تنتهي من الضحك. تماسكت أخيرًا، وقد تحولت ضحكاتها الى ابتسامة منحت وجهها جمالا إضافيا، أبرز لقاسم أن جمالها الهادئ حين تلتمع عيناها بدموع الضحك وتتسع حدقتهما يغدو جمالا وحشيًا لافتًا.

قالت: "بعد أسابيع من تعرفي على جون، قال لي إنه يرغب في التعرف على إثيوبيا، وأنه حصل على إجازة لمدة أسبوع من عمله، ويريد أن يقضيها معي في عدة مدن في إثيوبيا بعيدا عن أديس. لم أكن متأكدة من إمكانية حصولي على إجازة، لكني نجحت في الحصول على إجازة من عملي وأخبرته أنني سأرافقه، قال لي إنه يريد الذهاب إلى هرار، ليزور منزل الشاعر الفرنسي آرثر رينبو. استأجر سيارة وسائقها، وبدأنا الرحلة في الفجر، وعند الظهيرة، وبعد أن استرحنا في مقهى صغير على الطريق، وعاودنا السير، كدنا نتعرض لحادث سير، ولحسن الحظ أن السائق الذي لم يتوقف عن تخزين القات منذ انطلقنا من آديس، أحسن التصرف، لكننا فوجئنا بانفجار أحد إطارات السيارة. وكادت السيارة أن تتقلب، لولا حسن تصرف السائق مرة أخرى وسيطرته على الموقف. توقفنا والتقطنا أنفاسنا ونحن لا نصدق أننا نجونا. استجمعنا شجاعتنا بعد أن كنا نحسب أنفسنا في عداد الأموات. كانت السيارة لحسن الحظ سليمة تماما باستثناء الدولاب المنفجر الذي أخبرنا السائق بأنه سيغيره في بضعة دقائق. لكنه فوجئ ونحن معه أن السيارة ليس بها إطار احتياطي. وكاد جون أن يجن. السائق المجنون أخذ يهدئه، قائلا إن هذه أمور بسيطة وعادية وإنه سيجد أي مساعدة بسهولة من أي سيارة عابرة. بل وأخرج له، من كيس صغير كان يحتفظ به في جيب بنطاله، بعض القات، ناصحا إياه أن يقوم بتخزين القات لتهدأ أعصابه وحتى يجد حلا للمشكلة.

صمتت ميهريت قليلا، ثم أخذت تعدل خصلات شعرها من على جبينها وتمشطها بأصابعها على رأسها، وابتسمت قائلة:

هنا كانت المفاجأة التي لم يتوقعها أحد. ففي مثل تلك الحالات كان من الممكن أن نخشى من الضباع أو الحيوانات الشاردة من غابات قريبة، خصوصا أن الطريق كان يقع قريبا من منطقة أحراش. لكننا فوجئنا بعد قليل بظهور عدة رؤوس من بين الأحراش القريبة من الطرق. وبحذر ظهر أصحاب الرؤوس وأخذوا يقتربون باتجاهنا، وانفرجت أسارير السائق برؤيتهم، وأخذ يشير لهم بسعادة.

وعندما اقتربوا منّا بحيث أصبحوا في مدى البصر، أدركت أنهم ينتمون لقبائل بدائية قديمة، لأنهم كانوا يأتزرون بمآزر جلدية تغطي خصورهم، ويتقلدون قلادات من العاج على رقابهم، وبدأت أشعر بالوجل. وحين رأيت السيوف التي أظهروها من خلف ظهورهم عندما اقتربوا منا تحول الوجل إلى خوف هيستيري. وقبل أن نتمكن من فعل أي شيء، فوجئنا بهم يحيطون بنا، وبينما أمسك بي أحدهم وابتعد بي وقيد حركتي بعد أن أسقطني إلى الأرض تكالب الآخرون على كل من السائق وجون، وسمعت صراخهما الغاضب، خصوصا جون الذي أخذ يكيل لهم الشتائم ويقاومهم. حتى اقتربت حافلة من الطريق في تلك اللحظة. ففوجئنا بشباب القبيلة يركضون. ويبدو أن سائق الحافلة قد انتبه إليهم فأوقف الحافلة وأخذ يطلق الرصاص من مسدس لا نعرف من أين أتى به. بعد أن صعدنا الحافلة جاء السائق وأخذ ينظر إلى قضيب جون وهو يقول ضاحكا: عليك أن تصلّي كثيرا فقد أفلتَّ أنت وقضيبك منهم.

ابتسم له جون من دون أن يفهم ما يقصده، فشرح لنا السائق أن أولئك الفتيان من قبيلة "أدال"، وهي قبيلة لا تزال تخضع

لتقاليد توارثتها عن أجدادها تقضي بأن أي شاب يرغب في الزواج عليه إثبات رجولته لقبيلته وامرأته المستقبلية. لذلك فالمهر المطلوب من أجل أن تقبل به العروس وأهلها ليس نقودا ولا غنائم، بل مجرد قضيب رجل بالغ ينتزعه من أحد رجال قبيلة معادية.

ابتسم لها قاسم مندهشا فبادلته الابتسام، ثم أضافت:

نعم، صدقني. لكن شباب القبيلة أصبحوا سيئي الحظ منذ توقف الحروب القبلية، وأصبح عليهم بالتالي أن يسافروا إلى قرى بعيدة عن قريتهم، ويتخفون في الأحراش انتظارا لحوادث الطريق بين السيارات والحافلات، ويختارون شخصا يتعرض للإصابة، فيقومون بالانفراد به ليقطعوا قضيبه ويعودوا به معلقا أعلى عصا يمسك بها العريس الشاب، ويدور بها على بيوت القرية كلها، ليثبت لهم أنه جدير بالفتاة التي سيتزوجها.

ضحك قاسم وهو يرسم بملامح وجهه تعبيرًا عبّر به عن دهشته، فأغرقت ميهريت في الضحك، وأضافت:

كان جون يضحك أيضا حين سمع ذلك من سائق الحافلة، وقال لي إنه كان يظنهم مجموعة من المثليين حين رآهم يتحلقون حوله ليخرجوا قضيبه من البنطلون، فضحكت طويلا.

ابتسم قاسم وهو يرسم تعبيرا متحفظا قليلا، فأدركت ميهريت أنها لم تنتبه في دعابتها لاحتمال أن اعترافه بأنه مثلي قد يكون صحيحا، فاعتذرت له، قائلة إنها لا تقصد شيئا، فضحك قائلا:

هذا أنا وهذه طبيعتي، لا تهتمي.. ولكن ماذا فعلتم بعد ذلك؟

احتفلنا ليلتها بسلامة قضيب جون.

شخر قاسم ضحكا، وهو يقول لها إنها ليست هيّنة كما تبدو، فابتسمت له وقالت:

لا أظن أن أي فتاة في مكاني كان يمكن لها أن تفعل شيئا آخر.

أشعلا سيجارتين أخريين، وسألها قاسم عن وصف بيت رامبو، فقالت:

بيت جميل، مكون من ثلاثة طوابق كلها من الخشب، والطابق العلوي يتخذ عمارة مستلهمة من حضرموت، ملون بألوان بنيّة جميلة. حين تراه تشعر بأنك غادرت إلى زمن آخر، إلى عصر آخر، وتكاد تشم روائح المستعمرين القدامى. في داخل البيت العتيق شاهدنا معرضا للصور، أغلبيتها لرامبو ولشخصيات كثيرة من إثيوبيا، بينها "راس ماكونين"، حاكم هرار آنذاك وصديق رامبو، وهو أيضا والد الإمبراطور الذي سيحكم إثيوبيا بعد ذلك هيلا سيلاسي.

صمتت للحظة، كأنها تتأكد من متابعة قاسم لها، ثم أضافت:

تعرف هي مدينة قريبة من الصومال، وهاجر إليها الكثير من اليمنيين، وبدأت تجارة القهوة منها، لذلك لها طابع خاص، بالإضافة إلى الجبال التي تقع أجزء منها في الصومال القريب، بها أبواب كبيرة من الحجارة غالبا..

أقصد تلك البوابات التاريخية (أشارت بكلتا يديها وهي تحاول أن ترسم شكل البوابة بحركة متماثلة من كلتا اليدين)، ثم أضافت: المهم أنها تحيط بأبوب خشبية للمدينة مبنية بطرز البيوت في اليمن لو بإمكانك تخيلها، وكذلك الأسواق الشعبية والمساجد، لها طابع عربي، وأغلب سكانها من المسلمين، ولذلك كان انطباعي دوما أنها لا تشبه مدينتنا جيجيجا رغم أنها تقع في الجانب القريب من الصومال أيضا.

هذا يعني أنها تختلف عن آديس آبابا مثلا؟

آديس مدينة كبيرة لها طابع عصري، ربما لأنها تأثرت أكثر بالطابع الإيطالي. هناك مقاه ومبان كثيرة في أديس تبدو إيطالية الروح والشكل.

ساور ميهريت الإحساس بنوع من الهدوء النفسي والاطمئنان لقدرتها على استدعاء هذه الخواطر والحكايات لتبتعد عن المخاوف التي تشعر بها، وتذكرت أنها ظلّت لفترة طويلة بعد زواجها من جون، وقبل الانفصال، تهدده عندما تغضب منه، قائلة إنه إذا لم يصمت فسوف تستدعي له شاب من قبائل الآدال. وكان ذلك كفيلا بإيقاف غضبه، وتحويل الموقف من التوتر إلى هدنة، ابتسمت وأسرت لقاسم بما تذكرت فضحك. كانت تشعر بنوع من النشوة، لأنها أحسّت أنها تمكنت من التسرية ليس فقط عن نفسها، بل وعن قاسم أيضا.

بعد أن انتهت من تدخين السيجارة، اتكأت على مرفقها، وأسندت رأسها على فخذ قاسم، مريحة إياها بين الفخذ ومطلع

الجذع، فأخذ قاسم يداعب شعرها الثقيل الناعم، بينما كان عبق جسدها يتسلل إليه تدريجيا، مزيج من رائحة تمزج العرق بعطر خافت شاحب. وظل صامتا وهو يتأمل سقف الحجرة، مُنحيّا عينيه عن المصباح شاحب الإضاءة المعلق في منتصف سقف.

39

ظل قاسم صامتا، لأنه، كما سيشرح لها لاحقا، كان يتأمل ما قالته واكتشف أنها تعرف التفاصيل والأسماء، ليس كمثقفة بالتأكيد، بل كصاحبة وعي لم يكن يتوقعه. وربما لذلك شعر أن بإمكانه أن يحكي لها وهو واثق في فهمها لما يمكن أن يقوله. لكنه حين قرّر أن يتكلّم أخيرًا سمع صوت أنفاسها المنتظمة، تأملها من موقعه فألفاها قد غطّت في النوم، فاعتدل ببطء حتى لا يوقظها، وفتح أزرار قميصه، ثم أمسك بي وأطلقني أخيرًا من محبسي بين ظهره والقميص. تأملني مرّة أخرى لوهلة وهو يتحسس غلافي الجلدي الأزرق. قلّب الصفحات قليلا، ثم عاد للقراءة:

"بعد أن خرجنا من الاجتماع بقينا قليلا في صحبة ناصر، وبحثنا عن نقّار الزجاج، حتى وجدناه جالسًا قريبا من موضع غرفة الاجتماعات، وهو يدخّن شاردًا. ابتسم حين رآنا، وأخبرنا بأنه يبدو مريضًا، لكنه تحسن بعد أن تناول بضعة أقراص أعطته إياها الفتاة التي صحبته للخارج. سألنا عما دار في الاجتماع فأخبرته عن التفاصيل، فهز رأسه مندهشًا من بعض الآراء التي انتقلت من فكرة ما يجب أن

يفعله النساخون إلى كيفية مواجهة المتكتم. وسأل نقار الزجاج ناصرًا عن جدوى وجود أشخاص كهؤلاء في اجتماع مخصص لآليات النسخ وبحث كيفية الحفاظ على المنسوخات. قال له ناصر إن أمورًا كهذه كانت متوقعة، لأن الكثير ممن هربوا إلى الأنفاق كانوا يرغبون في التعرف على مشروع النسخ عن قرب، والبعض من دون اهتمام حقيقي التحق بالمشروع بعد أن سمع عن المميزات المتاحة للنساخ من مقرات للسكن وتواجدهم في بيئة أكثر أمنا من الأنفاق.

استمر النقاش لفترة، ثم انسحب ناصر وبعده نقار الزجاج، بينما خرجنا أنا وسديم إلى خارج المنطقة الكهفية المخصصة لغرف عمل النساخ ومقرات سكناهم.

تمشينا قليلا أنا وسديم، ونحن نعلق على ما دار في الاجتماع، وعن الشخصيات التي حضرت الاجتماع، ثم قلت لها:

أغرب حاجة الواحد شافها إن الموجودين في الاجتماع دول ما اعتقدش إن عندهم أي نية لتطوير المشروع أو حتى المشاركة فيه. مش ممكن يقوّموا مشروع طموح زي مشروع الكاتب الشبح. معقول دول النساخين؟

لا طبعا، وعلى فكرة إنت خدت بالك من التلات رجالة اللي لابسين بدل غريبة؟ دول أساسًا المسؤولين عن رفع تقارير عن كل النساخين ومدى قدراتهم في المشاركة للكاتب الشبح. الاجتماع ده معمول علشان يفرز ناس وصلوا لمدينة النساخين لأسباب تانية، الكاتب الشبح كان عايز يكشفهم. بالمناسبة، أنا عندي ليك مفاجأة بالليل.

- مفاجأة إيه؟

ضحكت سديم، ثم قالت:

يا ابني باقول لك مفاجأة.. صحيح الذكاء لا دين له!

ابتسمتُ و لم أعقّب، إذ رحت أحاول توقع المفاجأة، وبدت سديم قادرة على قراءة ما يدور في ذهني حين أردفت قائلة:

ما تحاولش تعرف أو تتوقع المفاجأة. تعالى ناكل دلوقت حاجة ونريح شوية.

لم يطل وقت راحتنا طويلا، قبل أن نخرج من تلك الدار الغريبة التي اختارها سديم لنا سكنا، وانطلقنا من حيث جئنا في الطريق إلى الكهف الفرعوني الذي يضم مأوى النسّاخ. لكننا قبل الوصول إلى المدخل بقليل انتحت بي سديم يمينًا، فوجدتُ زقاقًا حجريًا، مثل أخدود بين جبلين عملاقين، كانت الحجارة إلى اليمين واليسار شبه بيضاء، وربما يعود ذلك لانعكاس الضوء القادم عبر السماء بعيدا، وحين سرت قدما تبينت أنها أقرب للون الرمادي، بينما الأرض الصلدة تأخذ لون التراب، وبعد عدة خطوات انتبهت إلى ارتفاع صوت الوشيش الذي يشبه خرير المياه، الذي كنت أستمع إليه من تلك الدار. أمسكت سديم بذراعي تتأبطها وهي ترسم ابتسامة غامضة.

كنا ملتصقين ببعضنا بعضا حتى يمكننا أن نسير في هذا الأخدود من دون أن نرتطم بالجدران الحجرية. وكلما توغلنا قُدُمًا كلما ارتفع صوت الوشيش. توقفتُ للحظات، ونظرت إلى أعلى فوجدت السماء تبدو بعيدة كأنها فرجة زرقاء تمثل قمة الجبلين اللذين كنا نسير في حماية جداريهما.

أخيرا وصلنا إلى ممر آخر إلى اليمين، لكنه كان معتما. ترددت في السير متمهلا حتى أتمكن من أن أرى موضعا لقدمي، فكانت

ذراع سديم سباقة إلى انتزاعي من ترددي، لتحثني على السير لصيقا بها، وسرعان ما لاحظت وهجًا يضوي في أفق الرؤية؛ بدا كأنه كتلة من أشعة بنفسجية تتوهج من مصدر مجهول في الأفق.

بعد خطوات قليلة أصبح الوشيش قويا، بحيث تأكد لي وجود نبع مياه قريب منا. ولم يكن أمامي سوى الانتظار حتى أرى ما تريد سديم أن تريني إياه.

وجدت الأرض تحتنا تأخذ ميلا لترتفع بنا تدريجيا عن مستوى السطح الذي كنا نسير فيه، حتى وجدتني أمام فتحة مربعة الشكل كأنها محفورة في هذه الجدران الداخلية للجبل، ومنها ولجنا إلى بسطة مسطحة ممهدة نسبيا، وبعد خطوات قليلة أخرى، توقفت معقود اللسان. كانت البسطة تمتد حتى ما يشبه، من موقعنا هذا؛ نافذة حجرية تطل على مشهد لم يسبق لي أن رأيته من قبل. كأنه شلال من المياه التي تسقط من نبع خفي، تتسرب مياهه من مخابئ صخرية، وتتلون بلون قرمزي يميل للون البنفسج أكثر من الوردي. اقتربنا تدريجيا بينما كان صوت الشلّال يتصاعد حتى أصبح الآن قويًا، ومع ذلك فلم يكن ضجيجًا مزعجًا، بل على العكس، كان الصوت يبعث نوعا من الهدوء النفسي والغبطة. نظرت إلى سديم فوجدتها ترسم ابتسامة واسعة على وجهها، فأمسكت بكف يدها وشعرت بنعومة كفها البض. اقتربنا تدريجيا من حافة النافذة الحجرية، فوجدت أمامي بحيرة مياه ينعكس عليها الضوء ذو اللون القرمزي من حيث لا أعلم، وتتجدد مياهها بسبب المياه المندفعة من الشلال.

ثم رأيت سديم تخلع ثيابها مرة واحدة. باغتتني المفاجأة وبهتني جمال جسدها الرشيق النحيف البض، لكنّها بدأت تخطو باتجاه

الحافة موليةً إياي ظهرها وكفليها، وطلبت مني أن أفعل مثلها، فتشجعتُ متحمِّسًا وألقيت ثيابي بجوار ثيابها، ووجدتها فجأة تركض وتقفز في البحيرة بلا سابق إنذار، ففعلت مثلها بلا تردد. ألقيت بنفسي في المياه القرمزية التي لوّنتنا بلونها، وأخذت سديم ترفع صوتها بالضحك، بقهقهات طفولية متوالية وهي تخبط ذراعيها في المياه. كانت المياه أقرب للدفء منها إلى البرودة. وكنت أشعر بسعادة أن تغمرني المياه بعد أيام طويلة من الحياة بلا استحمام. بالإضافة إلى هذا الشعور الاستثنائي بالتحول إلى كائن قرمزي يسبح بجوار امرأة قرمزية، في مياه باللون نفسه. قلت لها معلقا إننا يجب أن نأتي لنعيش في هذه المغارة لأننا نحتاج إلى شهور من النظافة، فقهقهت ولم تعقّب، وشرعت تسبح مثل حورية تلعب في المياه برشاقة وهي تزيح خصلات شعرها السوداء المبتلّة عن وجهها بين آن وآخر.

لم يكن من الممكن أن يخطر على بالي وجود مثل هذه البحيرة القرمزية، أو هذا الشلال داخل هذه المنطقة الجبلية، لكن ها هو الواقع يستمر في مفاجأتنا دائما بما يفوق الخيال.

تذكرت الحلم الغريب الذي كنت قد حلمت به منذ زمن بعيد، حين كنت أقود الشاحنة العملاقة، واستدعيت ملامح فتاة الحلم البعيد، كما تهيأت لي في تلك الشاحنة. هل كانت تلك الفتاة تبشرني بوجود سديم في حياتي؟ هل تكون سديم هي فتاة الحلم الغريبة؟ أليست ملامحهما بالفعل قريبة من بعضهما بعضا، حتى لو كانت بشرة سديم عاجية وليست برونزية كما كانت تلك الفتاة؟! ولكن حقًا ماذا يعنيني الآن من سؤال كهذا؟ على الأقل حتى لو لم تكن

سديم هي فتاة الحلم، أليست هي الآن فتاة حلمي الذي تجري وقائعه في الواقع وأنا يقظ تماما؟

كانت لاتزال تسبح مثل حورية فاتنة، وابتعدت قليلا، ثم أخذت نفسًا عميقًا، وغطست برأسها حتى اعتلى كفلاها المياه لثوانٍ ثم اختفيا وتبعتهما الساقان ثم القدمان. لم أكن قادرًا على الغطس، فبقيت منتظرًا، لكنها تأخرت عن الصعود للمياه مرة أخرى. توقعت أنها ستقترب منّي وتُمسك بقدميّ في أي لحظة، لكني لم أشعر بها قريبة مني على أي نحو. فتنشقت الهواء لآخذ نفسا عميقا، وغطست بحثا عنها. فتحت عينيّ محاولا رؤيتها تحت المياه لكن لم يكن لها أي أثر.

ورحت أدفع نفسي للأمام قليلا وأنا تحت المياه، ولكن من دون أن أرى شيئا، وسرعان ما شعرت أنني سألفظ أنفاسي، فصعدت إلى السطح بسرعة. ولاهثا رحت أتنفس، مقاومًا الألم الذي أطبق على صدري، بينما أحاول الحفاظ على توازني. اقتربت من جدارٍ جبلي على حافةٍ من حواف البحيرة لكي أمسك به وألتقط أنفاسي. رحت أنادي عليها بأعلى صوتي، وكنت أشعر أن صوتي يبدو خائراً ضعيفاً بسبب وشيش المياه المتساقطة من الشلال، والتي لا أعرف من أي مصدر شيطاني تتدفق علينا على هذا النحو. أنصتُّ ولم يأتني أي رد. لكني بعد قليل سمعتُ صوتها ينادي عليَّ. كان الصوت ضعيفا مشوَّشًا بصوت مياه الشلال المتدفقة بلا انقطاع. تمكنت أخيرًا من إدراك أنها عبرت الجهة الأخرى من الشلال، فتنفستُ الصعداء، ولم يكن أمامي إلا أن أفعل مثلها. فغطستُ عابرًا إلى الجهة الأخرى من حيث تتساقط مياه الشلال.

صعدتُ لأعلى ورفعت رأسي بعد أن أحسست بأنني عبرت المياه المنهمرة من الشلال والتي كانت تعيق سرعتي باتجاه الجهة الأخرى من الشلال، ووجدت سديم تستند على جدارٍ قريب، عاتبتها فضحكت، رأيت نهديها وكانا جميلي التكوين، لهما حلمتان بارزتان بشكل لافت؛ تطفوان على ثدأتين واسعتين. أخفت ثدييها حين لاحظت أنني وقعت عليهما ببصري. التفت أمامي فاكتشفت أن الشلال يُخفي نفقًا مائيًا مسقوفًا يُفضي إلى كوّة واسعة بدت من بعيد كأنها مضاءة بضوء القمر.

أخذنا نتراشق بالمياه بعد أن أدركت أنها كانت تتلاعب بي. ثم غصت في المياه وتسللت إليها وأمسكت بكاحلها، فنبذت يدي بدفعة من قدمها. عاودتُ إمساك كاحلها، ثم ساقها وصعدت بيدي قليلا إلى فخذها، فابتعدت عني ملقية نفسها في المياه. وحينما عدنا إلى البحيرة استكملنا مرحنا الطفولي حتى تمكن منّا الإنهاك. صعدنا إلى البسطة الحجرية التي انزلقنا منها إلى البحيرة، وبمجرد أن جلستْ منهكةً وهي لاتزال عارية، وقبل أن تلتقط ثيابها، أسرعت أجلس بجوارها ثم أمسكت بذراعها وجذبتها نحوي. تأملتني بعينيها الشعريتين السوداوين بنظرة محبة، فاقتربت منها ملتمسا شفتيها النديتين وأنا أشعر بوجيب قلبي من دون أن أميز كثيرا إذا ما كان ذلك وجيب الإنهاك أم وجيب الحب"

40

التفت قاسم إلى ميهريت، إثر سماعه لهمهمات مبهمة. رآها غافية. توفزت بحركة مباغتة هينة، وسرعان ما علا صوت تنفسها المنتظم. تأملها قليلا. فطن إلى أنها تحلم. بدت له في نومها جميلة كطفلة. ابتسم لها، ثم التفت لي مرة أخرى وتابع القراءة:

"قالت لي سديم إنها خلال وجودها في الفترة التي سبقت حضوري إلى مدينة النساخين، تمكنت من التجول واستكشاف المكان جيدا. وأخبرتني أنها وصلت إلى المقر الرئيسي للنسخ، الذي قد ننضم إلى العاملين به، والأهم من ذلك أنها عرفت مكان المكتبة.

مكتبة؟

مش هاقدر أحكيلك أي حاجة إلا لما تشوف بعينك.

لم أفهم شيئا و لم تنجح أسئلتي الفضولية من الوصول إلى شيء. كان علينا فقط وفقًا لخطتها أن ننتظر حتى يحل الليل، وبعد ذلك تبدأ رحلتنا إلى المكتبة في الليل.

ولأسباب أمنية محضة، ولتعهداتي بشرفي أمام سديم، بعدم إفشاء موقع المكتبة، لن يكون متاحا لي أن أصف الطريق إليها، لكني سأبدأ

من حيث وجدنا أنفسنا أمام مدخل حجري كالعادة، مضاء بمصابيح طبيعية عُلّقت على جدران الرواق الطويل الذي تسللنا إليه محاطين بالصمت وبشبحي ظلالنا التي كانت تصحبنا على الجدران كلما تجاوزنا مصباحًا من مصابيح الإنارة.

ووفقا لتعليمات سديم كنّا نمشي على أطراف أصابعنا تقريبًا، حرصًا على ألا يرانا أحد، فكما تبينت لاحقًا كان الطريق الداخلي إلى المكتبة يمر أولا على قاعة النسّاخين، التي لم يكن بإمكاني أن أتخيلها في أكثر أحلامي شطوحًا.

بدت القاعة مثل كهفٍ باطني امتلأ سقفه بتشكيلات رسوبية صخرية أضفت على القاعة حسًّا فنيًا، وبدت نوازل الحجارة التي تجمدت وكأنها ستائر صخرية بين صفوف الأرائك الممتدة بالعشرات والتي يجلس إلى كل أريكة منها ثلاثة نساخين على الأقل، أمامهم المخطوطات التي يقومون بنسخها، وتلك التي يقومون بالنقل إليها. بدوا برؤوسهم المنكبّة على مكاتبهم الخشبية وأيديهم التي تتحرك على الأوراق، مثل رهبان في محراب كنيسةٍ عريقة، يمارسون صلواتهم أو يدرسون لاهوتهم على أخلص ما يكون الإخلاص. ارتدوا جميعا قفاطين زرقاء على أثواب بيضاء، ربما لكي لا تتسخ ملابسهم من الأحبار، أو تأكيدا لروح الفريق والالتزام. وانتشر البياض في اللحى، وتناثرت شعيرات بيضاء من تحت أغطية الرأس الملحقة بالقفاطين. بدا المكان مهيبا، يوحي بالقداسة.

حاولت أن أعد الرؤوس، وبلغت 147 رأسا، وكان أقل من نصف الموجودين تقريبا، حين قطعت سديم انشغالي بالعد، إذ أشارت لي تدعوني لنسير بمحاذاة الجدار المتاخم لنا، والذي كان

يقودنا إلى ممر حجري يصعد بنا تدريجيا، كأننا نرتقي مُرتقى سلالم. ومن منتصف المرتقى الذي لم يكن مسيّجًا بسور، أتيح لي أن أرى إلى يساري، مسقطا علويًا للقاعة التي بدت كخلية نحل يعمل من بها بصمت مهيب، وبدأب أثر في لدرجة أنني أحسست بقشعريرة مفاجئة تسري في جسدي، ربما بسبب تأثري بجلال الحالة التي بلغوها. واستمررنا في الصعود حتى اختفوا عن أنظارنا، وأدركت أن المكتبة تشغل طابقًا كهفيًا علويا، يماثل في مساحته القاعة اللانهائية التي يشغلها النساخ في الأسفل.

سرنا في عدّة معابر حجرية مفتوحة على بعضها بعضا بمنافذ مستطيلة بلا أبواب، قبل أن نصل إلى كوّة واسعة أشبه ببوابة مقوّسة، ومنها عبرنا إلى المكتبة في الليل.

كان المشهد عصيًا على الوصف، ولو سؤلت ألف مرة فور دخولي لهذا المكان أن أصفه لأخفقت ألف مرة في الإجابة، ولكني سأستعين بما كتبته في وقت لاحق في غرفة الكتابة الملحقة بالدار التي آوتني وسديم:

"المكتبة في الليل، تؤوي ساكنيها، من كتب ومخطوطات، مغوية إياهم بالسكون الذي يغمرهم بالسكينة، أن يتخلوا عن الحذر، فيشرعوا في التحليق، بأجنحة قوامها ما يضمّونه على صفحاتهم من قصصٍ وآثار وفكرٍ وعلم، من اقتراحات وتهاويم. تعلو أصوات الفكرة والسرد، وتتناوش الفرضية مع نقيضها، ويقسو المبدأ على التحليل الذي يرد ببرود العقل على القسوة صاعًا بصاع، حتى يعود المبدأ إلى صوابه، ثم يعلو صوت الفلسفة فجأة أمام فرضية من فرضيات العلم، موضّحًا أن الثغرة لاتزال تحتاج إلى مزيد من

التمحيص، ويرد العلم غيظا على صوت الفلسفة بتهم السفسطة، لكن المنطق الفلسفي الذي يستفيد من الفرض المسبق منتظرا العلم دومًا أن يلحق به، يصمت حتى يعود العلم إلى صوابه ثم يذكّر بما افترضه صوت الفلسفة من قبل، بالسبق الدائم للافتراضات المنطقية، حتى قبل أن يغدو العلم علما، ومن قبل أن يُثبت العلم صحة كثير مما جاء في فرضيات الفلسفة عن أصل الوجود وموقع الأرض في العالم والكون. ووسط هذا الصخب تغادر شخصيات متوها للتعرف على أقدار الآخرين الذين خلقوا بمصائرهم سرديات أخرى، تتعالى أمنياهم بتبدل أحوالهم أو تتكبر أناهم حين يجدون أن قدر سردهم كان أكثر رفقا بهم من سرد آخر بطش بسواهم من دون رحمة.

كانت الجدران تضم رفوفًا حجرية وُضعت بها لفائف عدة، بينما كان البهو الرئيس مقسّمًا إلى شبكة من الصناديق الخشبية التي تظهر في بعضها مجلدات جلدية بألوان مميزة، كأنها دفاتر ضخمة أنجزت فيها عمليات النسخ، وبعضها بدت كنسخ وحيدة من كتبٍ مثلت مصادر النسخ.

أمام تلك الكتب كان بإمكاننا أن ننصت فنسمع همسات غامضة. كأن لكل كتاب حكاية:

الكتاب في مكتبة الليل يغدو ناجيا من مصير مأساوي ما، أنصت فأفهم أن هذا الكتاب قد نجا من يد قارئ كسول لا يمتلك الشغف اللازم لفعل قراءة ما يتضمنه، بينما أفلت آخر من يد رقيب شكّاك مريض بهوس جنون الريبة، فيما أطالع كتابا ثالثا أفلت من محرقة كتب لم ينج منها عدد كبير آخر من رفاقه. وحتى صمت بعض الكتب بدا كأنه تعبير عن الإحساس المزري بالإهمال،

والتنقل بين أيدي العابثين الذين لا يدركون المعنى الحقيقـــي لفعـــل القراءة.

لا تنام الكتب أثناء النهار بطبيعة الحال، لكن الأحـــلام الملهمـــة والأشباح عادة ما تستيقظ في الليل، ولهذا يفيض المكان بالأشباح بعد غروب الشمس، كما يقال. كنت أمشي كالمسحور، يسلّمني صـــوتٌ لآخر، وبينما أنصت لمقولة من مقولات سيتمبريني، أحد أبطال الجبـــل السحري لـــ "توماس مان"، يأتيني صوته فخيما: "العالم ينطوي علـــى صراع بين مبدأين، السلطة والقانون، الحريـــة والاســـتبداد، الخرافـــة والمعرفة، ومبدأ الحفاظ ومبدأ التقدم لا يمكن وقفهما. ويمكن تحديـــد واحد من حيث المبدأ الشرقي، والآخر من حيث المبدأ الأوروبـــي، وكانت أوروبا أرض النقد والتمرد والنشاط لتحويل العالم، بينما تجسد القارة الآسيوية الجمود والاسترخاء" يأتي الرد فورا من الاستشـــراق لإدوارد سعيد، موضحا سوء تقدير ما ذهبت إليـــه مركزيـــة الفكـــر الأوروبـــي، ثم سرعان ما يتعالى صوت أمارتيا سن، موضحا الأوهام التي يروجها الغرب عن تخلف الشرق وزرع هذه البذرة في ذهنيته.

في الليل، هنا، كانت الأشباح لها أصوات، وإلا فمـــا تفســـير الهدير الذي سمعته، وتبيّنت أنه يجسّد صرخات الحرافيش الثائرين على فتوّاقم، التي تناهت بعدها أصوات الصيحات الغاضبة المحملـــة بـــألم الفقر والمهانة لجموع الثائرين، قادمة من "قصة مـــدينتين" لتشـــارلز ديكنـــز، وفيما يأتي صوت حكاية من حكايات دون كيخوت الذي يصارع الأوهام بمساعدة صديقه الأحمق، أو مساعده سانشو، سرعان ما يخطفني صوت رخيم، أنصت له فإذا بـــي أستمع إلى رغبة عشيق الليدي تشاترلي الرافض لكل مظاهر البرجوازية عن إرادة حقيقية.

لم تكتف أصوات أشباح مكتبة الليل بصيحاتها وصراخها وهمساتها وأشواقها ودموعها وآهاتها، ومعارفها ويقينها وأوهامها، بل راحت تدعوني للاقتراب، كلما توقفت أمام مصدر من مصادر أصواتها.

لم أتمكن من معرفة الطريقة التي صنفت بها المكتبة، وكنت أهرع إلى الصوت مسلّما نفسي لديفيد هيوم في بحثه عن الحقيقة الأخلاقية، بعيدا عن الأفكار الباطنية، رافضا التأمل الباطني باعتباره وسيلة يتوصل بها إلى الطبيعة الإنسانية. فيسرع صوت ديكارت لاستدعائي، موضحا أن ما يرفضه هيوم تمكن هو به من الوصول إلى أن الإنسان ذو طبيعة مفكرة في الأساس ويوجد باعتباره شيئاً مفكراً، وما الجسد الإنساني سوى ملحق بالعقل.

أدركت أن المكتبة من دون تصنيف واضح قد تصبح جزيرة معرفة طافية. متاهة لا بداية لها أو نهاية. وهكذا أخفقت في تحديد موقعي فجأة. و لم تكن سديم بجواري، ولا شك أنها ضلّت الطريق بدورها في هذا التيه، الذي لم يكن أي منا يملك له تصنيفًا أو خارطة طريق

هذا ما كتبته عن تلك الرحلة المتاهة، لكن الأحداث التي سبقت الوصول إلى سديم والعودة من حيث جئنا قد تحتاج إلى عدّة رسائل، لأن المكتبة – المتاهة على ما يبدو أرادت أن تكشف لنا عن وجوهها العديدة.

المكتبة كمكان، تبدو كمدينة تحتاج إلى خارطة لتتعرف على دروبها وأزقتها، وتميز بين أحيائها المختلفة، والمناطق التي عادة لا يسلكها زائر المكتبة في رحلة واحدة، وربما قد لا يحتاج لزيارتها البتّة

يومًا. المكتبة كوطن، كقرية كونية أو كمدينة عالمية، تتجاور فيه أفكار البشرية، ينجذب أحدها للآخر أو يتنافر ويتصارع.

المكتبة كجزيرة معزولة، تطفو من دون أن يشعر بها أحد، لكنها تتوافر على سبل الحياة، مثل أرضنا الطافية في موقعها في الفضاء لا تسكن لحظة ولا نشعر نحن بشيء من دورانها المحموم المتعاقب.

المكتبة كطيف يدخلها الآمنون، والفضوليون، فتستبقيهم للأبد، ولا يخرجون منها، حتى لو خرجوا بأجسادهم فسوف تصطحبهم بأطيافها، مبقية، من دون علمهم أو إرادتهم، طيفا من أطيافهم لديها، فيفقد الزائر جزءا من روحه في المكتبة من دون أن يشعر، مقابل ما اصطحبه معه من أطياف سكانها. والأهم من هذا كله أنني أدركت خطورة ما تمكن الكاتب الشبح من أن يحققه، فبهذه المكتبة التي تشبه الأساطير، يقول لنا إن المكتبة عقل، يواجه الخرافة والظلم والظلام والخواء الروحي. المكتبة هنا كانت بمنزلة وسيلة للبقاء، للتأكيد على كذب المتكتم وأنصاره، وترسيخ سلطة المعرفة أمام سلطة الجهل، سلطة حرية المعرفة أمام سلطة الرقيب وكذبه.

كانت المكتبة تعلي صوت المعرفة موجهة اتهامها للرقيب الكذاب بجرمه الساطع، تقول له بفصاحة، قولا واحدا: إن ما تنفيه عن العالم من معرفة، أيها الرقيب، يا مانع الفكر والمعرفة، يا خانق الأفكار، ومطفئ الأضواء، موجود شئت أم أبيت، حتى لو تهيّأ لك أنك بمنعك له وإحراقه قد غيّبته من الوجود.. المعرفة ستظل ماثلة موجودة ومتراكمة، لأنها حقيقة الكون والوجود، شاء من علّمك السحر أم لم يشأ".

المكتبة بما تحويه من المعرفة بدت صرخة حق، توجه كلماتها ساطعة إلى الرقيب المتكتم، قائلة: إن كل كتاب تعرض للطمس والنفي والحرق موجودٌ هنا ليشير إلى كذبك أيها المتكتم المدعي، معلنا وجوده من جهة، ومشيرا إلى الجرائم البشعة التي تمارسها أيها المتكتم بدم بارد. المكتبة هنا تعلن للعالم أن الرقيب هو المجرم الحقيقي لا المعرفة، ولا الحياة بكل ما فيها. كنت أردد هذه الكلمات كأنني أرى أمامي وجه المتكتم، فقد بدت المكتبة لي هنا حضورًا راسخًا يذكرني بماضيَّ المخزي كرقيب تائب.

لكننا لم نعرف أبدًا كم يومًا قضيناه في المكتبة، أو كم مر علينا من زمن؟ أحيانا نظن أننا لم نقض بها سوى ساعة على أكثر تقدير، وفي أحيانٍ أخرى، يساورنا الشكّ بأننا قضينا فيها دهرًا.

استمر قاسم في القراءة طويلاً حتى بلغ هذا الجزء من متني، ثم بدأ يشعر بالنعاس. تأمل الفتاة التي استغرقت أكثر وأكثر في النوم، وبدت من بعض الهمهمات التي كانت تُصدرها بين آنٍ وآخر أنها غرقت في أحلامها أيضًا. تحرك قاسم قليلا حتى يتيح لظهره أن يتمدد بعيدًا عن الجدار الذي كان مستندًا عليه، بحيث أبقى رأس ميهريت على فخذه، ووضعني تحت رأسه، وفصل بيننا بذراعه التي اتكأ عليها وغطّ في نوم عميق، لم يكن يحلم أنه سيراوده قبل بضعة ساعات مضت.

41

ألا توجد حلول وسط؟ أليس بينكم عاقل غير متطرف؟ هكذا رحت أردد لأولئك الذين تناقلوني بين أيديهم على ظهر هذه السفينة حتى أصبحت أشعر بأنني لقيطة. فهم إما يتناقلونني بحماس أو يتركوني وحيدة. يغفون ويحلمون، بينما أبقى أسيرة مخاوفي من مستقبل مجهول، وحيرتي إزاء غموض مصير كاتبي رشيد الجوهري.

ولكن مثلي لا يمكن لها أن تواجه أقدارها إلا باستعادة ماضي مبتدعها، أو تكرار متنها واجتراره. وهكذا عدتُ مرة أخرى إلى سيرتي، سيرة رشيد الجوهري الذي أبدعني، فسيرته، بشكل ما، تمثل جانبًا راسخًا من هويتي.

ظلّت المتاهة التي عرفها في بيت الفنون تلّح على ذهنه باستمرار، وأظن أنه حين كتب عنها في مكتبة الليل التي يتضمنها متني، كان يريد أن يعيد تأمل فكرتها. ربما لأنه بدأ يشعر بأنه يعيش متاهة لم يعد يعرف أولها من آخرها. كانت أحلامه في الحياة في مجتمع مثالي قد جعلته يزداد نفورًا من القيم السائدة في المجتمع.

كان يقول لسلمى إن المجتمع أصبح مزيّفًا بشكل لم يعد من الممكن التعايش معه. النفاق أولوية أولى لمن يرغب في الترقي

وتحقيق طموحاته في الحياة. والناس حين يتحدثون لم يعد ممكنا تمييز الجانب المزيف من الجانب الحقيقي في ما يقولون، بل وفي شخصياتهم. كان يزعجه أن يجلس منصتًا لشخصٍ يتحدث لساعة كاملة بلا توقف، ليذكر فيها بطولاته الوهمية وقدراته المتوقدة في كل شيء منذ خروجه إلى الشارع واحتياله على الناس، في الطابور وقيادة السيارة، والحصول على فرصة عمل، أو قصص انتصاراته المرعبة في إغواء السيدات المغرمات به باستمرار، أو قدرته على إزاحة الخصوم عن طريقه.

وسلمى التي اعتادت الرد بكلمات مقتضبة جدًّا، على عكس كل من عرف من السيدات، قالت له مبتسمة ابتسامة ساخرة من أداء الصديق الذي يحكي عنه:

فهلوة.

فهلوة وشطارة فعلا، المجتمع بقى غرقان في الوساخة، لدرجة إنه بقى يسمّي الوساخة أسماء شيك تضفي شرعية على وساخته.. فهلوي، شاطر، أرزُقي، علشان يخفي الصفات الحقيقية.. استغلالي وضلالي وكداب وحرامي.

كان ذلك خلال العام الذي انتهت فيه علاقته بسلمى. كانت تشعر بأنه أصبح عصبيًا بشكل مفرط، وحسّاسًا بشكل مبالغ فيه لكل ما تقوله، ومنتقدًا لها وللعالم. ازدادت حالات الاكتئاب

التي كانت تغرق فيها، أما هو، وبعد الكثير من محاولات الاعتناء بها في اكتئابها، راوده الشعور بأنه غدا مثل إسفنجة جافة، أخذ يمتص من الكآبة واعتلال المزاج ما يفوق طاقته، حتى تشرّبهما بدوره من دون أي نجاح يذكر في انتشالها من براثن الاكتئاب.

وبالتدريج تبين لهما استحالة استمرار علاقتهما على هذا النحو ووصلا معًا، ومن دون المزيد من الدراما للاقتناع بأن الحياة بينهما أصبحت مستحيلة.

مع ذلك كانت آلام الانفصال عن سلمى لا تُحتمل. لم يكن يتوقع ذلك. لاحقه طيفها أينما ذهب. وتراكمت مشاهد حياتهما معا، وتكثفت حتى باتت طنينًا يدوّي في رأسه بلا توقف. تحوّل جسده إلى كتلةٍ عصبية يكاد لا يطيق الثياب التي يرتديها، ولا أن يلمسه أحد، كأن جسده تخلى عن كل ما يحمي جهازه العصبي. يأتي الليل فيرتعب، لأنه يعرف أن طنين رأسه سوف ينفرد به، مُحيلا حياته إلى جحيم، مقلّبًا إياه في لهيب الأرق، ونيران الذكرى. التفاصيل تلاحق رأسه، وتدوّي بصخب: كلمات، كلمات، كلمات، بصوتها، يرددها وعيه اليقظ بشكل يكاد أن يُفقده صوابه، ولا يستطيع إيقاف تدفقها. مشاهد تتلاحق على مخيلته لهما معا. تستدعيها الذاكرة الفرهة المتوقدة: في مقهى، مطعم، على شاطئ، في الطريق، في ملهى ليلي. ضحكات وإيماءات، حزينة وضاحكة. وابتسامات صامتة حنونة، وأحضان متبادلة في منتصف الطريق، أمام المارة. لا يتمكن من النوم إلا بعد إعياء تام، فيقع مستسلما لسلطان النوم، وحين يستيقظ سيكون وجهها أول ما ينتبه عليه، فيقفز قلبه في هلع، وتنتابه نوبة من نوبات الخوف المداهم، الذي يسببه الإحساس بأن يوما آخر من عذاب الذكريات وألم الفراق سيبدأ من جديد.

لجأ إلى المهدئات، ومضادات الاكتئاب، وبالتدريج، تحسنت حالته نسبيا، وإن لم يفقد رغبته المستمرة في العزلة، وإحساسه بعدم قدرته على التعاطي مع الآخرين، حتى بدأ يشعر بعد فترة بأنه

أصبح متبلد الأحاسيس. كان يشرد بالساعات من دون شعور بمرور الوقت. ثم أقبل على النوم بضراوة، كأنه يحاول أن يعوّض شهور الأرق التي أنهكت جسده وأعصابه. وانتهز رغبة جسده الجائع نوما، لكي يتوقف عن تناول العقاقير المهدئة.

وفي النهاية قرر أنه يحتاج إلى بداية جديدة. ألقى بنفسه في علاقة مع بيرجيت، الراقصة الفرنسية التي تعرف عليها بالصدفة في إحدى الحفلات، وفي اليوم التالي كانا قد تواعدا على اللقاء، وبدآ علاقة، انغمس فيها بكل حواسه هربًا من طيف سلمى.

كانت بيرجيت امرأة غريبة، تحب الرقص الشرقي حد الغرام، لا تعرف من أين يأتيها هذا الولع الشرقي كما أسمته لرشيد. حين رآها وهي تفتح له باب الشقة التي كان قد دعي إليها لقضاء سهرة مع صديق فرنسي، وجد امرأة بيضاء بضّة لها عينان عسليتان وخضراوان في الوقت نفسه، توقع أنها إيطالية، أو من إحدى دول أوروبا الشرقية، وحين عرّفته باسمها؛ "بيرجيت"، مصحوبا باللثغة الفرنسية الشهيرة، سرعان ما أدرك خطأ توقعاته. تبين أنها ليست فقط مجرد مولعة هاوية بالرقص الشرقي، بل وتدربت على الرقص على يد واحدة من أشهر راقصات فرنسا. قالت له أن اسمها ثريا، وحكت له عن قدرتها على نقل مفهوم الثقافة التي تجعل من جسد الراقصة الشرقية وعاء للمشاعر، وتحول حالة الرقص إلى روح لها فلسفة خاصة، تمزج عبر تموجات الجسد بين الألم والغواية والحب واللعب. قالت له إنها تزوجت مغربيًا، وزارت المغرب لكي تغذي ولعها الشرقي، وهناك، خصوصا بعد زيارة الأسواق والقصبات العتيقة والمرور بالأزقة ودروب طنجة التاريخية المنتقلة عبر الزمن،

وقعت في غرام البلاد وأهلها. لكن حياتهما لم تستقم في النهاية، وانفصلا.

بعد فترة أوحى إليها ولعها الشرقي بالسفر إلى القاهرة. قالت له، وكانت قد تعلمت الكلمة من مصري تعرفت عليه في باريس وحاولت تهجئة الجملة بعربية ركيكة "ندهتني النداهة".

أرادت أن تبدأ حياة جديدة، ولم تعرف كيف أو أين، لكنها اهتدت إلى القاهرة، وفي الرحلة الثالثة التقت برشيد. ووجدت في هيئته الشابة وابتسامته الحالمة طيفا رأته في أحلامها عن الشرق. واستمرت علاقتهما لفترة، لكن اضطرارها للعودة إلى باريس، بين آن وآخر، جعل رشيد يفكر أنه أيضا يريد أن يبدأ حياة جديدة.

رشيد الحائر القلق كما دوّن ما أصبح جزءًا من هويتي التي طمست لاحقا بحذفه لها من على صفحاتي، ولا أعرف لماذا، سعى للحصول على فرصة عمل بعيدًا عن القاهرة. شرم الشيخ أو الغردقة. لكن الفرصة جاءته في الأقصر. ولم تكن لديه مشكلة في النهاية. أكد لنفسه أن ما يهم في الأمر أنه سيتعامل مع أجانب لهم ثقافة مختلفة، مع أشخاص عمليين وواقعيين، يتعاملون مع الحياة بلا زيف أو تكلّف أو تعقيدات.

أما علاقته بالمتاهة، فقد بدأت في معبد الكرنك، كان يتجول في أرجاء المعبد، الذي تحدى الزمن، وهو يخب فيه قُدُمًا، يتأمل موجوداته من الأعمدة والجدران والتماثيل والبناء الضخم: ماثلا وشاهدا، فأصبح، مثل سفينة نوح حجرية طافية على طوفان الزمن.

كان يتأمل الأعمدة الحجرية الضخمة، التي تمثل جانبا أساسيا من هوية المكان، يتأمل النقوش، ويعود إلى الكتب التي يحملها بين

يديه، ثم يترك نفسه لرحلة عشوائية في أرجاء المكان، ليجد نفسه فجأة قد عاد إلى حيث بدأ، بينما كان يظن أنه ابتعد عن تلك البقعة. يبتسم وهو يقول لنفسه إن الأجداد يؤكدون حياته في متاهة، حتى بعد أن ترك القاهرة بكل عبثية الحياة فيها، لكن ما لفت انتباهه هو الكيفية التي كان يلتفت فيها لوجه زائر من رواد المعبد العتيق، مارا خلف أحد الأعمدة الحجرية، ثم ظهور الوجه، مرة أخرى، في لقطة مثيلة خلف عمود آخر وفي توقيت مختلف.

معرفته بيوديت بدأت وهو يراقب الوجوه. وعادة لم يكن يرى الوجه الواحد أكثر من مرّة، لكنه حين شاهد وجه يوديت بالصدفة المحضة في ثلاث مرات، وفي أيام مختلفة، أكد لنفسه أن رؤية وجه واحد في ثلاث صدف متوالية يستحق أن يتحول من الصُدفة إلى حتمية القدرية، ولذلك لم يتردد أن يعرض عليها خدماته كمرشد سياحي، واكتشف أنها في جولة حرة في المكان، وأنها تبحث عن فوج سياحي لزيارة المعبد لترافقه.

ليلا، وبينما كان غافيًا استيقظ على وجه يوديت. لم تكن موجودة في الغرفة. لكن وجهها هو الذي حضر. بالأحرى نصف الوجه: نصف جبهة مخضّبة بالعرق، وعين زرقاء وحيدة محمّرة من فرط الحرارة، ونصف أنف صغير وأنيق، ونصف شفتين صغيرتين حادتي التكوين بزاوية شفاهية دقيقة تفصل بينهما وتحدد مطلع كل منهما لتكوّن الشفتين، ووجنة يمنى حمراء بفعل الصهد. بروفيل جانبي حي، مخضب بالعرق والدماء. بينما كان النصف الثاني المكمل للوجه مختبئا خلف عمود الحضارة القديمة الراسخ في مكانه منذ نحو 4000 عام، منتظرا يوديت كي تخفيه خلفه، ولكي يأتي

رشيد ليرى النصف الجلي من الوجه، ويثّبت اللحظة في ذاكرته، ثم يستعيدها ليلا في عتمة الغرفة الأقصرية.

لم يتمكن من النوم، وظلّ يحلم بنصف الوجه، مستعيدًا في تفاصيله جانبًا من متاهة رأى فيها نصف الوجه ثلاث مرات، قبل أن يقرر التوجه إلى صاحبته لكي يرى الوجه مكتملا ويحدّق في العينين الزرقاوين، اللتين لم يخشاهما كما هو شأنه مع صاحبات العيون الزرقاء باستمرار.

نهض من الفراش، وأشعل سيجارة وهو يفكر بأن رؤية الوجه مكتملا ليست سوى إشارة إلى أنها السبيل للخروج من المتاهة التي يعيش فيها. وفي الصباح اكتشف أيضا أنها المرة الأولى التي يحلم فيها بوجه آخر غير وجه سلمى، بعد عام كامل لم تكن أحلامه عنها تنقطع.

لكنه حين كتب عن متاهة مكتبة الليل، لم يتذكر سوى متاهة بيت الفنون، لأنها المتاهة التي لم يجد لها حلا حتى اللحظة. المتاهة التي ظلت، في وعيه، ملتبسة بين الواقع والخيال. بين الحلم والحقيقة. لدرجة أنه نسي إذا ما كان قد أخبر عنها يوديت أم لا. كان يجد فيها دوما واقعة لا يمكن أن يحكيها لأحد.

خرافة في عالم شديد الواقعية والعقلانية، وأوهام في عالم لا يعترف سوى بالحقائق. كان عليه أن يخفيها حتى يستدعيها مرة أخرى على صفحاتي في مشهد المتاهة. الحقيقة أنه كتب عن متاهات عديدة؛ فمدينة الأنفاق نفسها ليست سوى متاهة، وكذلك كان وصول "كيان" إلى مدينة النساخ، قد تم عبر متاهة بطريق ذهاب بلا عودة.

أصبحت المتاهة يقينا لديه، خصوصا بعد أن أدرك من أول حواراته مع يوديت في شتوتغارت أنها، مثله تماما، تعيش في متاهتها المحلية. متاهة حديثة متقدمة مرفهة، لامعة، برّاقة ونظيفة، لكنها في داخلها تمتلئ بأسباب تعاسة من يعيشون فيها، إما بسبب البطالة وإما لاكتشافهم أن الديمقراطية أصبحت شعارات لا تبدو حقيقة في ممارسات الحكومة، لأنها لا تستطيع مواجهة رأس المال العالمي وما يبذره في العالم من فساد، أو بسبب المهاجرين غير القادرين على الاندماج، والذين خرّبوا نقاء العنصر الأوروبي. أدرك رشيد أنهم يعيشون أزمة من نوع آخر، لكن الاعتراف بها يصبح صعبًا في داخل هذه الزجاجة البللورية اللامعة الثمينة.

لن يدرك ذلك بشكل أكثر وضوحا إلا لاحقًا، بعد أن يصادف تجارب أخرى لمهاجرين عرب، جاؤوا من متاهاتهم الشرقية تائهين ومشوّشين، رفضوا الاندماج في المتاهة البللورية، لكنهم ظاهريا حاولوا ذلك الامتزاج، عبر زيجات وعلاقات أثمرت أطفالا سرعان ما تحولوا إلى ضحايا الاختلاف الثقافي، والتقاليد. ضحايا لعبة شدٍّ وجذبٍ دامية، يتجاذب طرفاها كندّين في معركة عادة ما تبدأ متكافئة ثم تميل كفتها لصالح الأمهات، خصوصًا لو كن من طرف البلد المستضيف، بسبب القوانين التي تحمي الأمهات الحاضنات عادة، فيصبح الأطفال ممنوعين على آبائهم باسم القانون والحرية والديمقراطية، في ظلال توابع 11 سبتمبر.

وهكذا كان رشيد يرى أمامه السيناريو متكررا: الطلاق والمحاكم لصالح الأمهات الحاضنات، على حساب الآباء الذين لم يستطيعوا التخلص من تراثٍ بدا كالزيت في مياه الحضارة التي انتقلوا إليها بلا

تأهيل أو استعداد أو فهم للفجوة العميقة بين ثقافة نشأوا فيها، تغذت على الصواب والخطأ والحلال والحرام. وبين بيئة مفتوحة ومختلفة تماما. وهم لم يكونوا مؤهلين لاستيعاب هذه الفجوة. ليس هم فقط، بل ولا حتى قطرات المياه التي أرادوا أن يندمجوا بها، ممثلة في أولئك السيدات الأوروبيات المتحررات المستريبات في الشرق وأهله.

لكنه حاول تجاوز إحساسه بالمتاهة، القادم منها، أو تلك التي استقبلته بها بلد الحداثة والرفاهية. انخرط في الحياة الألمانية. بدأت يوديت تكثف خروجها معه مع مطلع الأسبوع اللاحق لوصولها من برلين. وحتى في يومي إجازة نهاية الأسبوع كانت تخطط معه للخروج في نزهات خارج شتوتغارت، أرادت أن تريه الريف الألماني. وكانت تلك فرصة جيدة لكي تبدأ علاقتهما التي أرادا أن يوثقانها.

تجوّلا في غابات قريبة من مدينة توبنجتن، قالت له إنها تلقت تعليمها في جامعتها. وأضافت كأنها تلقي على مسامعه بتعليق عابر "أغلب عباقرة ألمانيا درسوا في هذه الجامعة". ضحك وهو يتأمل حيادية وجهها الذي ارتسمت عليه ظل ابتسامة، ثم سألها عن ذكرياتها في الجامعة، لكنها لم تجد شيئا مميزا تخبره به عن تلك الأيام، وفيما كانت تسير قريبًا منه وهي تهز جذعها الرشيق الممشوق، وتتمهل في كل خطوة بحثا عن وريقات البرسيم، أو نباتات الحظ كما كانت تسميها.

بدت وكأنها تستعيد زمنا ماضيا، لأن صوتها خرج بنبرة حزينة جدا، وهي تقول له "لا أعرف لماذا كنت أشعر دوما بأنني فتاة تعيسة؟" "تعيسة؟ لماذا؟" "لا أعرف، ربما بدأ ذلك الشعور منذ مراقبتي للخلافات المستمرة بين أبي وأمي، التي شهدتها أغلب أيام

طفولتي وحتى المراهقة، حيث انفصلا لاحقا". "هذا مؤسف.. وهل أثر ذلك عليك؟". "لا أعرف، أظن ذلك.. لا أجد تفسيرا آخر.. كان أبي شخصا رائعا، كان رجلا حنونًا يجيد حكي القصص بشكل تمثيلي لطيف.. وأمي أيضًا رغم حدّتها وعصبيتها المستمرة كانت أما رائعة.. لم أفهم لماذا يكون شخصان رائعان مثلهما مختلفين بهذا الشكل".

صمت رشيد قليلا، وهو يفكر بأنها ذكرت عصبية الأم كشيء عابر، ولم يخطر ببالها مثلا أن يكون أحد أسباب انهيار علاقتها بالأب في لحظة ما، لكنه لم يعلق بشيء، واكتفى بأن يمشي بجوارها مقلدا خطوات مشيتها البطيئة، وهو يحدق في الأرض بحثا عن النبتة الغريبة، وفيما كانت لمحت حركته وابتسمت لها، استمرت في مشيتها حتى انحنت فجأة، وهي تقول: "ها نحن قد وجدنا ضالتنا"، ثم عدلت جذعها وهي تمسك في يدها بنبتة برسيم رباعية الوريقات، وقدمتها له وهي تغمض عينيها، كأنها تؤدي واجبها الذي خلقت من أجله في الحياة، وهو أن تمنح الحظ للقريبين منها. تلقّى النبتة منها، ثم قبّلها على وجنتها بسرعة. فتحت عينيها وتفاجأت من القبلة، لكنها قالت: "أعتقد أن هذه هي المرة الأولى التي أتلقى فيها شكرًا على هدايا الحظ"، فضحك رشيد، ثم قال: "أما كان من الأجدر بك أن تهدي والديك من نبات الحظ هذا ما يتيح لهما قليلا منه؟". توقفت وقالت: "هل تعرف أنني فكرت كثيرا في هذا الأمر؟ أظن أن الحظ بالنسبة إليهما كان يعني أن ينفصلا وأن يصبحا صديقين".

لم يعلّق، لكنه وقف وتنشق الهواء بعمق. تذكر والديه. كانا مختلفين في كثير من السمات الشخصية، وكان الزمن ينفخ النار في

تلك الاختلافات، لكن أمه في النهاية كانت تنتمي إلى جيل من السيدات اللائي اعتدن احتمال كل شيء، لم يكن الطلاق في عائلته أمرا محمودا. كان من الممكن للعائلة أن تتجاوز كل الخلافات، في سبيل ألا يشهد تاريخها من يوسم بسمة مطلّق أو مطلّقة. وتساءل: هل كان عدم انفصالهما سببًا لسعادتي؟ أنا أيضا أظن أنني عشت حياتي بهذا الإحساس بالتعاسة.

في وقت لاحق، حين كان رشيد ويوديت يتمشيان على غير هدى في وسط المدينة في قلب شتوتغارت، وبينما كان رشيد يلاحظ أن المكان، رغم شدة الزحام به، يبدو شديد الهدوء، كانت تحدثه عن استمرار إحساسها بالتعاسة وعن الجدية التي وسمت مراهقتها، ولحين بلوغها عمر 18 عاما: "تخيل أنني لم أشترك في حفل راقص حتى ذلك العمر؟". كان ينصت لصوتها الخافت الدافئ كما كان يصفه، مبديا دهشته، من دون أن يمنع نفسه من ملاحظة مدى الصمت الذي يحيط بهما، رغم أنهما يسيران في شارع مزدحم. أفلتت منه ضحكة، فسألته عن سبب ضحكه في نبرة استنكار، فالتفت حوله، قائلا إنه يشعر أنه يشاهد فيلما صامتا. هناك زحام وحركة ومارة، لكنهم إما يهمسون وإما صامتون. ابتسمت وهي تتذكر القاهرة وقالت: "أنت تحن لضجيج القاهرة". فقال: "تقصدين جنون القاهرة، مؤشر الصوت على أقصاه ليلا ونهارا" فضحكت وهي تقول له "صحيح يبدو أننا نغلق مؤشر الصوت هنا"

حين تسللا بعيدا عن شارع "كونيغ- شتراسه" المركزي الذي تتراص المحال والمطاعم والمقاهي على جانبيه، قادتهما أقدامهما إلى حديقة مسوّرة بسور حجري عتيق، سرعان ما تبين أنها منطقة

مقابر. كانت الشواهد متناثرة في الحديقة، بينما الحشائش الخضراء تحيط بها من كل مكان. أبدى لها دهشته، قائلا:

– لو كنت زرت المقابر في مصر لشعرت بالوحشة الشديدة.

وصف لها "مقابر الغفير الشهيرة في القاهرة، وشرح لها التناقض بين المهابة التي تصنعها الحجرات المبنية والمغلقة المتتابعة، وبين تآلف الناس مع المقابر محطمين حرمة الموت المهيبة تحت ضغط العوز والفقر، لكي يناموا بجوار حفنات من عظام الموتى.

أبدت دهشتها مما وصفه، بينما أخذ رشيد في تأمل المكان من حوله، قائلا: "لا أشعر هنا برهبة الموت كما هو الأمر حينما أزور مقابرنا في مصر. كأن الميّت هنا يذهب في نزهة لطيفة وليس إلى العالم الآخر كما هو الأمر لدينا". ضحكت وقالت: "جدتي كانت تتمنى دوما أن تُحرق جثتها عند وفاتها بدلا من أن توضع في تابوت تهال عليه الأتربة تحت الأرض.. أنا أيضا أفكر أن هذا هو الشكل الأمثل للتخلص من جثتي حينما أموت" هز لها رأسه مؤيّدا للفكرة، ولم يعلّق فيما كان يرقب سنجابًا ذا فراء كثيف يمر أمامهما، ثم يتوقف على قدميه كأنه يحييهما ويعاود القفز في المرج الأخضر المحيط.

قال لها إنها المرّة الأولى التي يرى فيها السناجب في غير أفلام الكارتون، فضحكت وهي تنظر له بدهشة وتسأل باستنكار: "معقول؟". قال: "لا يوجد لدينا هذا الكائن اللطيف فعلا". قالت وهي تحاول استفزازه: "أعرف.. أعرف، أنتم لديكم الجِمال فقط"، فابتسم وهو ينظر لها موسّعًا ابتسامته، ثم عقب عليها بسخرية: "صحيح، ونعيش في خيام في الصحراء". ضحكت وربتت على كتفه بمرح.

قالت له إن المقابر تخص بعض اليهود الذين تعاطف معهم أهل شتوتغارت، ولم يبلغوا عنهم للنازي. تأمل الشواهد والأسماء، وهو يستعيد خبرة إنسانية قام بها أهل شتوتغارت لجيرانهم وأهلهم اليهود. كان يتأمل كيفية امتلاك أولئك الذين تضامنوا لإنقاذ هؤلاء الأفراد من النازي ومن المحارق والملاحقات، وكيف أنهم كانوا يتمتعون بالحس الإنساني الذي افتقدته إسرائيل لاحقا أمام الشعب الفلسطيني.

تجوّل بين الشواهد بروية، فيما يحاول تخيل أشكال الموتى وهيئاتهم من أسمائهم المحفورة في أحجار الشواهد. أو أن يمنح لخياله الفرصة لاختراع سيناريو مشاهد الأيام الأخيرة التي سبقت وفاة كل منهم. وسرعان ما شعر أنه لم يعد قادرًا على تمييز بداية المقابر ونهايتها. وأطلّت متاهة بيت الفنون على ذاكرته، فتلفت حوله محاولا تدقيق موقعه، واطمأن حين شعر بخطوات يوديت وهي تقترب منه. وابتسم حين لاحظ السنجاب يرمقه بنظرة جانبية من موضع قريب، ثم عاود سيره إلى شؤونه.

لكن الحب أبعد عنه شبح المتاهة لفترة. الحب الذي نشب فجأة، بعد أسابيع من وجوده في شتوتغارت، وقبل أيام من انتقاله للعيش مع يوديت في شقتها المشتركة، حتى تمكنا من الانتقال إلى شقة أخرى لاحقا.

42

استيقظت ميهريت، وللحظات بدت كأنها لا تعي أين هي، أحسّت بفخذ قاسم تحت رأسها، وقد تبلل بعرق وجهها، فنهضت وهي تتأمله بحنان، وكان يغط في نوم عميق. جلست وأسندت رأسها للجدار، وهي تمسح العرق عن وجهها وجبينها ورقبتها. كانت الغرفة لاتزال مضاءة بالمصباح الصغير الشاحب، كأن الزمن فيها قد توقف للأبد. لا يمكن لمن يقبع بداخلها أن يعرف كم مر من الزمن عليه.

لمحتْ بجوار الباب صينية يعلوها طبق ممتلئ بالفاكهة، بجواره بضعة أرغفة من الخبز وزجاجتا مياه كبيرتان، فانفرجت أساريرها، لمّت شعرها وعقصته خلف رأسها، ثم أخرجت توكة بلاستيكية زرقاء من جيب الشورت الذي ترتديه وثبتّت بها كتلة الشعر المكونة من خصلات شعرها الكثيف، التي عقصتها، فأتاحت لوجهها النحيف جميل التقاطيع أن يظهر في كامل جماله رغم مظاهر النعاس والأرق، وآثار الإجهاد والأيام الصعبة، ثم نهضت باتجاه الصينية.

تناولت تفاحة وقضمت منها قضمة، وسرعان ما انتابها هاجس أن الطعام قد يكون مسموما فتوقفت كأنها تتأكد من مدى غرابة

مذاق التفاحة، لكنها تبينت أنها لا تشعر بأي مذاق غريب، فأكملت ما قضمت وازدردته باستمتاع، ثم فتحت زجاجة مياه وتجرعت ربعها، وعادت بزجاجة المياه إلى الجدار القريب وأسندت ظهرها عليه. تأملت قاسم الذي كان نائما على ظهره، ويضع ذراعه الأيمن على عينه، بينما رأسه التي تتناثر حولها كومة شعره المنكوش الطويل، لا يزال يتوسدني. كان يرتدي بنطلون جينز أسود، وقميصا أزرق بكم طويل، ولا ينتعل شيئا في قدميه الحافيتين.

كانت تتساءل كيف وضعوا لهما طعاما بعد أن هددهما شريف بأن تكون هذه الليلة هي ليلتهما الأخيرة. هل تراجعوا عن خطة القضاء عليهما؟ أم أنهم سيلقون بهما إلى البحر منفردين أو ربما مع مجموعة المهاجرين غير الشرعيين الذين ينتظرون الإشارة لكي يتجهوا لقارب أو قوارب المهربين؟

شعرت بالاطمئنان، بسبب وجود قاسم بجوارها. كانت تتخيل نفسها في حال وجودها رهينة هذه الغرفة الخانقة، وحدها فترتعد هلعا. شكرت يسوع المسيح من أعماق قلبها، لأنها لاتزال رغم كل ما تمر به قادرة على مقاومة اليأس. قالت لنفسها إنها لولا الأمل في أن تعثر على ابنها يوما، لعافت الرغبة في الحياة. كان من الممكن لها أن تتخلص من حياتها بأي شكل. وفكرت في أن اختيارها الزواج بذلك الصومالي لمجرد أنه وعدها بأن يصحبها إلى أميركا كان قرارًا انتحاريًا في حد ذاته. كان لديها استعداد لأن تفعل أي شيء يمكّنها من الذهاب للبحث عن ابنها.

شعرت ميهريت بالرغبة في الذهاب إلى الحمام. ولم تعرف ماذا ينبغي عليها أن تفعل، لكنها بحس فطري تلقائي نهضت واتجهت

صوب الباب، ثم راحت تطرقه بقوة، ففزع قاسم ونهض وهو يصرخ صرخة خوف. نظرت إليه في خجل وارتباك، لكنها عادت تقول له إنها تشعر برغبة قوية في الذهاب إلى الحمام، نهض متثاقلا وحاول أن يشذّب شعر رأسه المتناثر حول وجهه. وفكر للحظات ثم قال لها إنه أيضا يود الذهاب إلى الحمام، فابتسمت بينما انضم إليها وبدأ يساعدها في طرق الباب بقوّة.

استخدما كلتا قبضتيهما في الطرق بأقصى طاقتهما، من دون كبير أمل في أن يفتح لهما أحد. لكنهما بوغتا بالباب ينفتح فجأة، ومن خلفه ظهر لهما القزم غريب الهيئة، مسدّدًا إليهما نظرة غاضبة، من عينيه الواسعتين المحاطتين بجفنين منتفخين، فهما منها تساؤله عن سر قرعهما الباب على هذا النحو. قال له قاسم إنهما يرغبان في الذهاب إلى الحمام. تأملهما القزم للحظات من دون أن ينطق بشيء، وما كان منه إلا أن أسرع فجأة بإغلاق الباب، بينما أخذا ينظران لبعضهما البعض في دهشة وغيظ.

وقبل أن يعودا للاتفاق على معاودة طرق الباب، سمعا جلبة في الخارج، فصمتا لوهلة حتى فوجئا بالباب يفتح مرة أخرى، لكن الوجه الذي أطل منه في تلك المرة كان وجه العملاق الذي اصطحبهما إلى هنا. أشار إلى ميهريت أن تنهض معه، ثم أشار إلى القزم أن يتولى أمر قاسم. وبعد لحظات كانا قد خرجا بالفعل إلى خارج الغرفة التي بقيتُ فيها وحدي، سجينة منفردة، من دون أن أفهم هل سيصطحبانهما إلى الحمّام بالفعل أم أن مصيرًا غامضا، مثل مصير رشيد سيمنعهما عني؟ وبلون من الخوف تساءلت لماذا تركني قاسم هذه المرة قابعة على الأرض حيث كان قد استخدمني كوسادة؟

" لم يكن ممكنا على أي نحو أن أصدق أن ما مررت به اليوم يعد من صميم التجارب والخبرات الواقعية، وكنت في رحلة العودة من المكتبة إلى الدار، أمسك بيد سديم البضّة بين آن وآخر، كأنني أتأكد أنني أعيش في الواقع ولا أحلم. وكانت تظنني أداعبها فتعود لترد على كفي بضغطات رهيفة خفيّة من أناملها وبطن كفها، لا يمكن لسوانا أن يلاحظها، وحين ألتفت إليها تبتسم لي ابتسامة مرحة.

عاودني مشهد النساخ المتبتلين، ولاحظت أنهم كانوا جميعا من الرجال، فأين الناسخات؟ سألت سديم فأوضحت لي أن ما شهدناه ليس سوى جماعة واحدة من مجموعات النساخ الذين تم تقسيمهم إلى مجموعات عديدة، بعضها يكون كل من فيها بالصدفة رجالا، وأن هناك مجموعات أخرى لا يوجد فيها سوى نساء، والبعض الآخر الاثنان معا. ثم قالت لي كأنها تكشف سرًّا:

انت عارف يا ابني إن أهم واحدة في النساخين دي واحدة ست، ومسميينها إيد الحرير بسبب جمال خطها؟ والمكان اللي خليتك تشوفه امبارح بقى اسمه "معبد أنامل الحرير بسبب الست دي.

فعلا؟ يا إلهي! الاسم جميل جدًا.

وبعد ثوانٍ كنت فيها أحاول أن أتخيل تلك المرأة الغامضة، بين فريق النساخين المتبتلين الذين رأيتهم استطردت، قائلا:

مش قادر أصدق إن الراجل اللي شفناه ده يقدر يقوم بتنظيم عمل كبير بالشكل ده.

راجل مين؟

- الكاتب الشبح اللي شفناه في الاجتماع.

كاتب شبح إيه بس يا عم؟ ده كبير الخطاطين. الكاتب الشبح ما حدش فينا شافه ولا يعرف مين هوا.

شعرت بالذهول وللحظات كنت أظنها تمازحني فضحكت. التفتت إلي وابتسمت، ثم سألتني عن سبب ضحكي، فأخبرتها. توقفتْ ونظرتْ في عيني، مقسمة أنها تقول الصدق. فعدت أضحك مرة أخرى وأنا أقول بين ضحكاتي:

يعني وقاعدين بنرتعش ومحترمين الراجل الكُبَّاره المحترم وفي الآخر يطلع كبير الخطاطين؟

وقبل أن تكمل ضحكتها قلت لها بملامح حيادية تماما:

ويطلع مين كبير الخطاطين ده؟

ابتسمت ثم قالت:

شوف يا سيدي، اللي انت شفتهم دول مش كلهم نساخين، لأن النسخ بيتم الأول بالنقل من المصادر، وبعدين كل صفحة تخلص بيعيدها النساخ لحد تاني بيراجع المنقول عن الأصل، وبعدين تروح لخطاط بينسخ على المراجعة، وتعدي بعد كده على مدققين الخط والمراجعة، وكل ده في الآخر بيروح لكبير الخطاطين، اللي بيسلّم المخطوطات الكاملة مدققة ومكتوبة بخط جميل لفريق كبار النساخين اللي بيشتغلوا مباشرة تحت إشراف الكاتب الشبح.

فغرت فاهي أكاد لا أصدق ما تقوله سديم حقا هذه المرة، ولوهلة لم أعلق، وإن ظللت فاتحا فمي، حتى دفعت إبهامها باتجاهه فأغلقته بسرعة. قلت لها:

ده تنظيم سري أو عسكري.

قالت:

هوا إنت يا كيان كنت متصور من الأول إنها لعبة؟ فيه مدينة كاملة تقريبا ضاعت مننا. مدينتنا اللي اتولدنا فيها، وكبرنا فيها واحنا بنشوف ونتعلم أنها كبيرة بمعرفتها وتاريخها، بس اللي بنسمعه عنها النهارده بيخللينا نشك إن ليها أي علاقة بمدينتنا الحقيقية، متصور إن لما حد يفكر يواجه اللي سرقوها هيفكر إزاي يعني؟

كنت أفهم ما تقوله سديم بطبيعة الحال، لكن ما لم أكن أفهمه هو أن المدينة السرية لم تكن قد أقيمت في الوقت الضائع، أي في تلك الأيام التي أعقبت سيطرة المتكتم على المدينة وإظهار نواياه في إفقارها كمكان آمن بديل ومأوى للهاربين. لا يمكن أن يكون مثل هذا التنظيم الدقيق لمنظومة النسخ قد تم في عدّة أشهر. كنت أشعر أن تنظيمًا بهذه الدقة وهذا الحشد لا يمكن إلا أن يكون قد بدأ في العمل والإعداد من قبله منذ فترة طويلة جدا، بل ربما مرّ عليه وقتٌ يفوق حتى زمن وجود المتكتم وأتباعه.

لكن سديم لم تكن لديها كثير من المعلومات حول ذلك. قالت إن شكوكي في محلّها، وأضافت أن الأسباب التي أدت إلى سقوط المدينة في أيدي الصعلوك المدعو المتكتم وأتباعه كانت تلوح للجميع منذ فترة، وبينما فضّل البعض القيام بالتظاهرات والمواجهات الميدانية في الشارع، والتي انتهت بهم جميعا إلى المعتقلات، لأنهم لم يكونوا يعرفون الخطوات اللاحقة على مشروعهم، وسقوط المدينة في أيدي المتكتم الذي ادّعى أنه سينظف المدينة من الآثام، وسيثور ضد من

سبقوه ممن كانوا سببا في انهيار المدينة. فإن آخرين وبينهم الكاتب الشبح على ما يبدو كانوا يرون أن المدينة لا يمكن أن تستعيد قوتها إلا حين تستعيد المعرفة التي أضاعتها.

بس ده ما كانش حقيقي.

اللي هوّا إيه؟

المتكتم ده أفّاق، ولا يفقه شيئا الحقيقة. أنا كنت معاهم قبل ما يمسكوا المدينة. هما كانوا متعاونين مع السُلطة القديمة للمدينة.

طيّب ما احنا كلّنا عارفين.

قلت لها بعد وهلة من استعادة ذكرياتي وخبراتي معهم:

عارفة يا سديم، أنا لما بافتكر إني كنت جزء من تنظيم المتكتم باحس بالقرف من نفسي، مش لأني كنت مصدّق إنهم فعلا ناس عايزين مصلحة المجتمع، وعارفين إزاي. ده ممكن في النهاية أعتبره سذاجة مرحلة من مراحل حياتي. لكن اللي بيقرفني من نفسي فعلا إني أكون منتمي لفريق كرّس حياته علشان يراقب أفكار الناس. ودي برضو مش مشكلة. بس المشكلة الحقيقية إن مهمة المتكتم أو الرقيب بتحول الشخص لمخلوق شكّاك، مرتاب في الآخرين باستمرار، سيئ الظن، وبتدّي للشخص إحساس مزيف وساذج بالتفوق على الآخرين.

صمتت سديم لوهلة، ثم قالت:

الإحساس بالسلطة اللي بيمنحها له مكانه. إنه يقدر يمنع نَصّ أو كتاب.

ممكن، بس أنا فعلا في أواخر أيامي معاهم كنت حاسس إني يا إما مريض نفسيا، أو إني عايش في مجتمع مريض نفسيا. بتحكمهم ثورة الشك. كله بيشُّك في كله. والشَك ده بيتحول لجزء من الشخصية. أنا عارف اتنين أصيبوا فعلا بجنون الارتياب. بيشُكّوا في أي حد بيتعامل معاهم، في الشارع وفي البيت ومع أهاليهم وحتى أولادهم. طبعا كنا عارفين إن فيه توجهات مختلفة داخل المنظومة، مش فكرة أخلاقية بس، يعني فيه ناس بتراقب ما يبدو لهم طائفيًا، وناس تانية بتراقب ما يبدو لهم كفرًا، وناس بتراقب المعلومات. لكن كنت باحسّ إن كل واحد منهم بيدافع أصلا عن مصلحة تخصه، عن طائفته وطبقته وثقافته الخاصة.

حين عدنا إلى الدار لم أكن أعرف ما ينبغي عليّ أن أفعل. لم أكن متأكدًا تماما من مشاعري تجاه سديم بعد. ولكني في الوقت نفسه بدأت أشعر بأننا في الطريق لبدء علاقتنا الحسية، إن لم نكن قد بدأناها بالفعل في البحيرة القرمزية.

عاودتُ تذكر المشهد؛ وهي تخلع ثيابها كاشفة عن جسد عاجي بض، وساقين آسرتين بسمانتيهما القويتين، على عكس ما يمكن أن تقوله ملامح وجهها الجميلة. حين قفزت في الماء وفيما كان كفلاها يطيران في الهواء قبل أن يغوصا في المياه قفز قلبي من فرط إحساسي بجمال جسدها. أخفيت ذلك بسبب هيبة جمال المكان الذي ذوّب فتنة سديم في تلك اللحظة في مياه الشلالات القرمزية، وبحيرتها التي بدت كأنها معجزة سماوية ظهرت فجأة من حيث لا أحتسب.

حين عُدنا إلى الدار كان التعب قد نال منّا، تناولنا عشاء خفيفًا، وتابعنا دردشتنا حول اليوم وأحداثه الغريبة، ثم أعلنت سديم فجأة عن رغبتها في النوم، ورغم الإحباط الذي راودني، كان هناك، في أعماقي، جانب آخر يبدو أكثر ارتياحا لفكرة أننا لن نمارس الجنس، بل وربما حتى لن ننام معا. أظن أن إحساسي بالارتباك والقلق فاق رغبتي فيها، أو ربما قمع تلك الرغبة. وكانت تلك فرصتي لكي أدوّن خبرتي عن المكتبة في الليل. وحين انتهيت ناوشتني الرغبة في الخروج من الدار والتنزه قليلا. كانت استعادة أجواء المكتبة والكتابة عنها قد آثارتا خيالي، فخرجت.

كان المكان مظلما، ووشيش المياه يأتي واضحا. انتشيت بسبب إحساسي بنداوة الليل. كان أهم ما استعدته في المدينة السرية الإحساس بالزمن مرة أخرى، بوجود ليل حقيقي يتبعه نهار، بدلا من العتمة المستمرة الخانقة في مدينة الأنفاق. قررت أن أتمشى في المكان، ولمحتُ من بعيد شبحًا تهيأ لي أنه نقار الزجاج. كان يقف أمام جدار يتأمله كمن يقف أمام لوحة فنية. وحرصا على عدم إزعاجه اقتربت منه في هدوء، منتظرا أن ينتهي من تأملاته. ولما طالت وقفته قررت أن أقاطعه. ألقيت عليه التحية، فانتفض من مكانه في فزع. ولما رآني ضحك مرتبكا، قلت له:

أنا والله كنت سايبك تتأمل براحتك، بس لما الحكاية طوّلت قلت مافيش مفر إني أسلّم عليك. إنت بتتفرج على إيه؟

سألته وأنا أقترب متوقفا إلى جواره، فيما أنظر إلى الجدار الصخري، الذي لم تكن به أي رسوم أو نقوش أو ما يوحي بتأمله.. ابتسم لي قائلا:

لا مافيش حاجة، أنا سرحت شوية.

التفت إليه ثم إلى الجدار مرة أخرى، وضحكت قائلا:

سرحت شوية؟ يا راجل؟ دانا كنت بافكر أسيبك تتأمل وخايف أقطع عليك الوحي.

فضحك من دون أن يعلق بشيء. فسألته عن انطباعاته عما دار في نقاشات اليوم في اجتماع كبير الخطاطين، فبدأ يمشي ببطء داعيا إياي لصحبته. تنفس عميقا كأنه يمنح نفسه الفرصة ليستجمع أفكاره، ثم قال:

مش فاهم حاجة بصراحة.. مين الناس دول؟

لم أقاطعه فراح يؤكد أنه فوجئ بالاجتماع وما دار فيه، وبمستوى النقاش. ثم صمت قليلا وقال إنه يرى في أغلب الحضور نفس الأصوات التي تسببت بقلة خيالها في تسليم المدينة للمتكتم وأتباعه، ثم قال:

ومين الواد أبو شعر منكوش ده؟ قالك عايزين نواجههم. طيب ما تواجههم يا روح أمك. إنت جاي هنا تعمل إيه؟ تشتغلنا؟

كان نقار الزجاج قد استعاد مزاجه العصبي، وبينما كنا نسير كان قد بدأ يحدق في الأفق بغضب وهو يتحدث، رافعا مستوى نظره إلى أعلى كأنه يتحدث إلى أشباح لا يراها سواه، ولكي لا أقطع حبل أفكاره كنت أهز له رأسي مؤيدا لما يقول:

"مدينة للنساخ، واللي وصل ليها عارف إنه جاي يشارك في موضوع محدد، إنت بقى جاي تقول إيه؟ إنك مناضل؟ إنك هتحل مشاكل الكون؟ طيب ما انت كنت عايش فوق معاهم، وشايف

اللي بيحصل. وواجهتهم، بس مش شايف إنهم جرّفوا المدينة من زمان من الأفكار ومن المعرفة، وقعدوا يهمسوا في ودن الناس ليل ونهار بالكذب لغاية ما حولوهم لزومبي. وبالتالي قدروا يفرضوا سطوتهم على المدينة بسهولة. إنت بقى عملت إيه يا فالح؟ نكشت لي شعرك، وقريت لك كتابين، وسمعتْ شويّة مزّيكا، وقعدت على القهاوي تستعرض الكلمتين؟ طيب يا حيلتها ما إنت سبت الخراب حواليك وقعدت على القهوة، ودلوقت بقى جاي تخرّب المشروع اللي ممكن يبقى خميرة تواجه الموت والخراب اللي كلنا كنا السبب فيه؟

قاطعته، قائلا:

أنا معاك تماما، بس أنا كمان كده مش فاهم. إنت في مدينة الأنفاق فوق قلت لي إنك مش ممكن تشتغل في النسخ. غيّرت رأيك؟

بصراحة أنا بعد اللي سمعته امبارح ده قررت طبعا أشارك في عملية النسخ. فيه مشروع بجد، وفكرة بجد. ممكن تختلف على التفاصيل. بس المشروع محترم"

أفقت من شرودي على صوت الباب، وتنفست الصعداء حين رأيت قاسم وميهريت يدخلان الغرفة مرة أخرى، قبل أن يعاود القزم إغلاق الباب.

43

جلسا متجاورين، على الفرشة الإسفنجية الملاصقة لأحد الجدران الخشبية للغرفة، فيما انعكس ظلهما كشبحين عاطفيين متلاصقين؛ بسبب الإضاءة المتوهجة من اللمبة التي تتوسط السقف. نظر قاسم باتجاهي ووضع يده على غلافي الجلدي وتحسسه ليتأكد من وجودي، كأنه تبين فداحة ما فعله بتركي وحيدة في الغرفة.

ظلا صامتين لوهلة، ثم سألته ميهريت عمّا يمكن لها أن يفعلاه، فأخبرها بأنه لا يوجد أمامهما إلا الانتظار، ثم أبلغها بأنه يشعر أن شريف سيتردد طويلا في أن يتخلص منهما، لأن القبطان بلا شك سيبحث عنهما في كل مكان متى تأكد من اختفائهما. صمتتْ قليلا، ثم قالتْ مبتسمة:

لا أظن أنني في أكثر أحلامي وهواجسي عمّا ينتظرني في المستقبل كنت قادرة على تخيل هذا المصير. أن أكون محبوسة في زنزانة على متن سفينة لم أقصد الوصول إليها، وأن يجمعني القدر مع رجل مصري قادم من خلفية أخرى تماما، ثم أجد أن قدري فجأة أصبح معلقا بقدره.

ابتسم قاسم، وهز رأسه مؤيدًا رأيها، ثم قال:

صحيح، ولا أنا. أنا بصراحة حتى لم ألتق بامرأة إثيوبية في حياتي.

ضحكت وقالت:

الدُنيا صغيرة في النهاية.

ولكن لماذا تعتقدين أن قدرك معلق بي؟

لا أعرف، هذا ما أشعر به. أنا حقا أتمنى ألا تتركني حتى نصل إلى شاطئ.. أي شاطئ.

صمت قاسم واعتلت وجهه ملامح جديّة تقلص لها جبينه وتغضنت جبهته. تناول تفاحة من الجوار وناولها إياها، والتقط أخرى وراحا يقضمان؛ كلٌ من تفاحته كأنهما يهربان من الكلام. وحينما انتهى أشعل سيجارة بعد أن اطمأن أن العلبة لاتزال بها عدة سجائر أخرى. وبعد أن نفث الدخان، قال لها:

أعتقد أن أكثر ما قد نطمح له هو أن يلقوا بنا مع هؤلاء الشباب في البحر في لحظة الاقتراب من الزوارق التي يفترض أن يتم تسليمهم إليها.

هل سيكون لنا أي أمل في تلك الحالة في الوصول إلى الشاطئ؟

لا أعرف حقا.. الآن كل الاحتمالات لأي افتراض واردة بنفس القدر. حتى الآن نحن نستطيع أن ندخن ونأكل ونتجرع المياه ونجد مأوى. أليست هذه من نعم الله علينا؟

أغرقتْ في الضحك على الطريقة التي أنهى بها جملته، ثم قالتْ له بعد أن استعادت ملامح وجهها الحيادية:

لي رجاء واحد فقط.

ما هو؟

إذا قدّر لنا أن نقفز معا من هذه السفينة في أي لحظة ألا تترك يدي مهما حدث؟

ابتسم قاسم وهو يفكر بتلقائية "إيه يا بنتي الأفلام العربي دي؟"، لكنه قال لها الجملة بالإنجليزية: "هل تشاهدين أفلاما أجنبية رومانسية كثيرا؟".

ابتسمت وقالت:

أنا الآن أتحدث بجديّة.. أنا لا أعرف السباحة.

حدّق في وجهها مندهشا، وحاول أن يداري الانزعاج الذي مرّ خطفًا على ملامحه، ولم يعلق بشيء.

نظرت إليه، ثم قالت:

لسنا بلدا ساحليا مثلكم، نحن لدينا أنهار فقط.

وهل الأنهار عندكم ممتلئة بالرمال بدلا من المياه؟

ضحكت ولم تعلق.. بدت ملامح التعب عليهما.. ويبدو أن قاسم كان يشعر بأن جسده قد تيبس، لأنه نهض فجأة وأخذ يثني جذعه وينهض في حركة رياضية رتيبة، ثم يدور بجذعه يمينا ويسارا، ويجلس القرفصاء وينهض، بينما كانت ميهريت تراقبه بابتسامة. لكن حركته نبهتها لجسدها المنهك، بسبب النوم على الأرض، بالإضافة للظروف التي مرت بها منذ قررت الهروب من سفينة القراصنة، وحتى هذه اللحظة. وومض الألم الخفيف الذي يداهم ركبتيها بين آن وآخر، لكنها لم تفعل شيئا سوى أنها تمددت على الأرض، وأخذت تقلص عضلات ساقيها وذراعيها بمدهما بأقصى ما تملك من قوة؛ شدّت ذراعيها أعلى رأسها، ومدّت ساقيها باتجاه القدمين.

حينما جلَس قاسم على الأرض لاهثًا بعد أن استمر في ممارسة الرياضة لعدة دقائق، ظلّت ممدّدة في مكانها. وبعد وهلة من الصمت سألته إن كان يشعر بأنه أفضل، فأجابها بأنه أفضل كثيرًا، ثم استطرد، بينما الكلمات تخرج مرتعشة من فمه بسبب انقطاع نفسه، قائلا:

لكن السجائر في ما يبدو قضت على لياقتي تماما.. لا أستطيع أن أتنفس.

لفّت رقبتها لكي تتأمله من موضعها، ثم نهضت واقتربت منه.. طلبت منه أن يخلع قميصه، فنظر إليها مترددا ومندهشا، فقالت له:

ماذا بك؟ هل تتصور أنني مدفوعة عليك من شريف مثلا؟

ابتسم، ثم اعتدل في جلسته لكي يتمكن من خلع قميصه. جلس بصدره العاري كاشفا صدره الرياضي، بالشورت القصير الذي كان يرتديه. طلبت منه أن يتمدد على بطنه وأخذت تمسد له جسده، ثم بيدٍ مدربة أدهشته، شرعت تقوم بتدليك جسده وعضلاته، بدءا من الرقبة وصولا إلى أخمص القدمين.

استرخى جسده تماما، بينما أكملت هي ما تفعله بدأب وقوة وحسية وحميمية. ثم بدأت كعادتها تدندن بأغنيات إثيوبية لا يفهم منها شيئا لكن يصله منها الإحساس بمزيج من الشجن والنشوة. طلبت منه أن يخلع الشورت فرفع جسمه ليساعدها من دون أن ينبس بكلمة، فراحت تدلك له ردفيه العاريين بقوة، وتوقفت تدريجيا عن الغناء عندما خرج صوت غنائها مرتعشا قليلا، بسبب الجهد الذي كانت تقوم به وهي تدلك جسد قاسم.

تدريجيا سيذوب جليد الفردية، والمثلية الجنسية، وفارق العمر والثقافة، إذ يتمكن الجسدان من إيجاد لغتهما الخاصة، ويتماسان، بحميمية، وبحسية، كان قاسم نفسه مندهشا منها. وبعد وهلة من انتهائهما من ذروة تلاقي جسديهما جنسيا، سيناماان عاريين تدور بينهما حوارات حميمية، سيفهم منها أن ما فعلته كان وسيلة لمقاومة الزمن المتوقف بهما في هذه الزنزانة البحرية، كما كانت تسميها، وانسياقا لرغبتها المتصاعدة في النوم معه، تلبية لاحتياجات جسدها، أو ربما لأنها كانت ترغب فيه. أما هي فسوف تفهم منه أنها مرّة من المرات القليلة التي يتمكن فيها من ممارسة الجنس مع امرأة.

ثمة إحساس شفيف شمل روح قاسم آنذاك. ولم يكن بإمكانه أن يحدد سببه، هل بسبب الإحساس بوجوده مع ميهريت في غرفة مغلقة لا يعرف أحد عنها شيئا، في عرض البحر، مع الإحساس الداهم بأنه قد يواجه الموت في أي لحظة، أو لأن الجنس تمكن من تحرير ذهنه نسبيا من الضغط المستمر، ومن المخاوف والهواجس؟ لا جواب. لكن المهم أن هذه الشفافية جعلته يشعر بانتفاء الحواجز بينه وبين ميهريت. وحين سيشرع في الكلام لن يكون متأكدا من السبب الحقيقي لرغبته في الكلام أمامها بشفافية تامة، كأنها رغبة في التطهر.

ولو أني قمت بترجمة ما دار بينهما، وما دار في ذهنه، كأنه كان يضرب في جذور الذاكرة عائدا إلى التاريخ الذاتي له، لأمكن لي أن أسرده على النحو التالي:

"استيقظت حواسي لفكرة الحب ربما حينما كنت في الثانية عشرة. أحببت جارتنا وكانت في نفس عمري. لم تكن تسكن في

الجوار، بل في نهاية شارعنا. كان شارعا طويلا ينتهي بالمدرسة الإعدادية التي التحقت بها، وفي الطرف الآخر من الشارع كانت تقع مدرستها، وبالتالي كان بإمكاني يوميا أن ألتقي بها، بالصدفة، مرتين، الأولى ونحن في طريقنا إلى المدرسة والأخرى عند عودتنا. كان لقاء يشبه بالنسبة لي إيقاع الساعة. أو الطريقة التي أدرك بها أن يومًا زمنيًا مر بي. رغم أننا لم نكن نفعل شيئا أكثر من تبادل النظرات بخجل.

كان صديقي المقرب آنذاك هو رشيد. وهذا هو الرجل الذي كان سببًا لوجودي معك الآن على ظهر هذه السفينة. المهم أنه كان يجلس إلى جواري في الفصل، وكان يصحبني يوميًا أيضا في طريق الذهاب والإياب من وإلى المدرسة. وبمرور الوقت أحسست بأنه أقرب الأصدقاء إلى قلبي. كنا متفاهمين بشكل غريب. وفي المدرسة لم يكن يشاهدنا أحد إلا معا. كنت أحكي له طبعا عن علاقتي العاطفية الصامتة، بينما يحكي لي عن حكاية عاطفية ساذجة كان يعيشها في ذلك الوقت. المدهش أنني استمررت في هذه العلاقة الصامتة عامين حتى نهاية الإعدادية، بلا أي تطور، لم أتبادل معها كلمة واحدة، ولم أحاول إيجاد فرصة لأعبر لها عن مشاعري تجاهها. بينما توثقت علاقتي برشيد. بعد فترة شعرت أن وجوده في حياتي يشبه إيقاع رؤيتي لتلك الفتاة، لكن الفرق أنه كان رفيقي الذي ألتقيه باستمرار، نلتقي في فترة العصر، ونذاكر معا، وفي إجازات نهاية الأسبوع. نتحدث في كل شيء، ونشاهد أفلاما أجنبية نحبها في السينما كل أسبوع، ولنا بين أقراننا في شلّة الحي، أسرارنا، وفي الإجازات يبدأ يومي بأن يمر عليَّ في بيتنا صباحا أو العكس.

وفجأة، قبل أيام من بدء الإجازة الصيفية، أخبرني بأنه سيسافر مع أهله إلى الإمارات. شعرت بحزن غريب. أصابني الاكتئاب، ورغم وجود الكثير من الرفاق الذين كانوا يمثلون المجموعة أو الشلّة من أبناء الحي أو زملاء الدراسة، لم أشعر تجاه أي منهم بنفس المشاعر. ولن أفهم إلا لاحقا ومتأخرًا أنني كنت أحبه بالمعنى العاطفي. لم أفهم ذلك إلا بعد أن وقعت في غرام شخص آخر تعرفت عليه في الإعدادي. كان مختلفا عني قليلا، لكنه كان يعاني من وفاة أمه مبكرا، وله مزاج مأساوي كئيب. كنت أشفق عليه وأتعمد أن أتواجد معه باستمرار. وكنت أحكي له عن تلك الفتاة التي تأسرني وترافق أحلام اليقظة، وكنت أشرح له كيف أنني شبه مجذوب لنظرة عينيها العسليتين وهما تخطفان النظر إليّ بطريقة آسرة، خصوصًا أنني كنت أرى في هيئة حاجبيها المزججين بعناية غريبة بالنسبة لعمرها قيمة جمالية رهيبة. وكان ينصت لي باهتمام، ويحدثني عن تجاربه العاطفية.

على أي حال، بدأت مع مرور الوقت أشعر تجاهه بمشاعر غريبة. لا يمكن تفسيرها. كنت أشعر بالغيرة إذا خرج مع صديق آخر من أصدقائنا.

قالت له ميهريت:

لكن هذا أمر عادي. حتى الفتيات في ذلك العمر يشعرن بالغيرة على بعضهن بعضا.

أعرف طبعا، لكن هذا الأمر استمر طويلا، حتى وجدت نفسي أفقد الاهتمام تدريجيا بتلك الفتاة التي كنت مولعا بها. وهذا أيضا ممكن أن يكون طبيعيا في إطار أنني لم

أكن أعرف عنها شيئا حتى. لكن لا، بدأت أشعر بميول حسية باتجاهه. كانت مشاعر متناقضة وغريبة ومزعجة. لكني لم أقاومها في الحقيقة.

استمر قاسم يحكي، ممددا على الفرشة الإسفنجية الرّثة التي كانا يتشاركانها عاريين، كأنهما لم يعودا يعبآن بأن يقتحم الغرفة أحد. كان يتأمل حياته ويحكي كمن يستعيد سيرته، بنبرة صوته الخشنة، واضعا كلتا كفيه تحت رأسه، بينما توسدت ميهريت ذراعه، وهي تتمدد بجواره، بينما تتحسس فخذه القريب منها، بين الفينة والأخرى.

الصداقة التي صاحبتها مشاعر عاطفية، تغلبت في النهاية على مشاعره للفتاة التي كان مولعا بها، وعلى أي فتاة أخرى لاحقا. لكن هذا الإحساس المختلف كلما تمكن منه، وتبين له مدى سيطرته على وعيه ومشاعره، كلما جعله يعيش وسواسا من الهواجس النفسية، بسبب إحساسه المتقلقل باضطراب هويته الجنسية. ظل مؤرقا، من الفكرة، ولكي يتغلب على أرقه، قرر أن يدخل في علاقات عاطفية مع أول فتاة يلتقيها.

تمادى مع فتاة تعرّف عليها من الشارع. كانت توحي بأنها فتاة ليل، ولم يكن يريد أكثر من ذلك. تأكد من قدرته الجنسية معها، ومع ذلك ظل هاجس سامر، صديقه يلاحقه. وفي إحدى سفراتهم إلى الإسكندرية في الصيف، تعمد أن يبيت معه في غرفة الفندق بمفردهما، وكان يشعر بالإثارة العاطفية والحسية، خصوصا عندما يرى جسد سامر العاري. وفي الليل خلع ثيابه وذهب للنوم بجواره. وحاول إثارة سامر جنسيا، وكانت المفاجأة استجابة الأخير له.

قال قاسم إنه منذ عرف سامر لم يمارس الجنس مع شخص إلا إذا وقع في غرامه، كما حدث مع سامر، الذي لم يكن مثليا، لكنه كان قادرا على الاستمتاع مع الفتيات بنفس قدر استمتاعه مع قاسم. وبينما خرج سامر من العلاقة الملتبسة بسرعة ظل قاسم متيما بصديقه عاطفيا، حتى تيقن من مثليته الجنسية.

كان قاسم يحكي لها ما يحكيه ويستعيد في الوقت نفسه الأحاسيس المتناقضة التي مر بها، والصعوبات التي واجهها. لم يعتبر نفسه يوما مجرد رجل يرغب في الرجال، لكنه فقط يقع في حب شخص بعينه، فيرغب في أن يرافقه في كل حياته بما فيها حياته الجنسية. وكان عليه في مجتمع ينظر باستخفاف واحتقار إلى المثليين أن يخفي هويته الجنسية بكل الوسائل الممكنة. وأن يبقي علاقته العاطفية مع عشاقه سرّا.

قال لها إن تعمده البقاء في إطار دائرة طبقته الثرية جعله يختار عشاقه بعناية، تضمن له استمرار العلاقة لوقت طويل، وأن يضمن لها السرية في الوقت نفسه، والاحتياط بأن تكون هناك امرأة أخرى في حياته، حتى لا تتكشف مثليته في الدوائر القريبة منه.. خصوصًا بين أطراف العائلة.

ابتسم وهو يوضح لميهريت أن بعض الفتيات كن يشعرن بمثليته، وإن لم يصرحن بذلك إلا بعد أن أصبحت واحدة منهن صديقة من صديقاته المقربات. كانت تشعر بأنه حين يحتضنها ويسلم عليها يفعل ذلك بطريقة يبدو بها نافرا أكثر منه حميميا، أو تشعر بأنه لا يود الاقتراب منها كثيرا، وإن أمسكت بيده فسرعان ما يحاول أن يخلصها منه. عندما ذكرت له ذلك لم يكن يعي أنه فعل

ذلك قصدا أو عمدا. ابتسم لها مؤكدا أنه لا يمكن أن يتعمد شيئا كهذا، ثم أخبرته أنها كانت تلاحظ أنه يتحدث عن صديق وقع في غرامه لفترة، وكان صديقا مشتركا لهما، بطريقة غريبة، كان يبتسم طوال الحديث عنه، ويبدو ملحا في استمرار التحدث عنه لأطول وقت ممكن.

كان قاسم يحدق في سقف الغرفة، وكأنه يستدعي الذكريات ويقدم اعترافه لهذا السقف، كأنه لا يعبأ بوجود ميهريت، التي كانت تنصت بانتباه شديد، ولم تقاطعه إطلاقا.

وفي اعترافاته المستمرة هذه أوضح لميهريت أنه حين يستعيد لحظاته الحميمة مع ذلك الصديق بشكل خاص كان يشعر بأنه مغرم تماما، كانا متوافقين ويستمتعان بكل لحظة في علاقتهما الحسية، التي كان جانب كبير منها يبدأ بمداعبات مستمرة، كما أنهما كانا يتبادلان المواقع سلبا وإيجابا، على عكس اعتياده للعلاقة السلبية في أغلب علاقاته الأسبق.

قال لميهريت إنه مع ذلك الصديق الذي حرص على إخفاء اسمه، تدارك الكثير من الأخطاء التي وقع فيها في علاقاته السابقة. كان يتذكر كيف أنه كان حريصا على أن يتحدثا في الجنس بعد كل ممارسة، ما أعجب كل منهما، وما لم يعجبهما، ما كان يود أن يفعل ولم يطلبه. لم يكن ذلك جزءا من علاقاته السابقة. والأهم أن صديقه كان متشددا في ألا يقع أي منهما في أسر الغيرة، وأن يحافظا على فرديتهما وصداقاتهما مع المجتمع المشترك الذي كان يجمع بينهما.

كان قاسم يحاول أن يوضح لميهريت كيف أنه شعر بالأمان أخيرًا في تلك العلاقة، إذ تمكن صديقه من إحياء ثقته بذاته، وعدم

التعامل مع مثليته باعتبارها شذوذا أو اختلافًا مرضيًا، بل مجرد طبيعة تتماثل مع أهواء روحه وذهنيته. لم يعد يشعر أنه بمثليته سجين جسد لا يتلاءم مع علاقة مثلية، وسجين مجتمع لا ينظر إليه إلا بعين الاحتقار. كان الصديق لا يرى أن الهوية الجنسية وحدها يمكن أن تؤدي إلى علاقة مثلية عاطفية صحية، وأن هناك مشتركات كثيرة في الذوق والهوايات وطريقة التفكير أهم من الجنس، لأنها لو توافرت لأثمرت علاقة جنسية صحية أيضا.

كانت كل تلك الأفكار جديدة بالنسبة لقاسم، لكنها حررته في النهاية من الكثير من المخاوف والهواجس التي كانت تسيطر عليه.

اعتدل قاسم وهزّ رأسه، وقال لها إنه بدأ يشعر بالصداع مرة أخرى، وضعت ميهريت يدها على جبينه، وأخبرته بأنه ربما أرهق نفسه بالحديث. طلبت منه أن يرتدي ثيابه وينام حتى يتجنب الإرهاق. فامتثل لها وأدار لها ظهره ليغفو تاركًا إيّاها مرة أخرى للأسئلة والهواجس التي تلاحقها، عمّا ينتظرها في هذه الرحلة الغريبة على سفينة الحمقى، كما ستسميها هي وقاسم في وقت لاحق.

44

غريب أمر قاسم، هل كان اكتشافه المبكر لمثليته وعدم تجاوب رشيد معه سببا لانفصالهما عن بعضهم بعضا؟ لست أدري. حتى حين تعرف رشيد على جيروم؛ صديق يوديت، أبدى دهشته من الارتباط العاطفي بينه وبين عشيقه، وأخذ يتأمل فكرة التواصل العاطفي والعقلي بين رجلين في علاقة مثلية، مقارنة بالعلاقة بين رجل وامرأة. لم يبد لي أنه تذكر قاسم أو أنه جاء على ذكره ليوديت أو لأحد.

لم يذكر شيئا عن المثلية في الرواية. إحم. إحم.. طبعا أقصد بالرواية ذاتي. أقصد أن متن الحكاية التي تجسدني لا يوجد به ذكر لعلاقة مثلية، باستثناء المقتطف الذي اقتطفه من مشهد إيروتيكي يعبر فيه أحد المثليين عن علاقته بعشيقه، في فصل جولة كيان في مدينة الأنفاق، لمشاهدة أمسيات الشعر الإيروتيكي.

كانت أفكاره منصبّة أكثر على علاقات مختلطة، وأهمها علاقة البطل كيان بسديم.

كانت فكرة أن يوديت ارتبطت لسنوات طويلة في علاقة عاطفية مع شاب لم يكتشف مثليته إلا بعد انفصالهما مثارا للفكاهة

بينهما. ولكنه توقف لاحقا عن استمرار الدعابة عندما وبخته مرة على استمراره في الخوض في مسألة شخصية على هذا النحو.

ظللت مستمرة في هواجسي حتى شعرت بيد قاسم تتحسسني.. يبدو أنه كان قد استيقظ أو أصابه الأرق، وقرر أن يستكمل قراءتي:

"تناهت إلى سمعنا صوت أقدام، فالتفتنا باتجاهها. وقبل أن نتعرف على القادم سمعت صوت ناصر يقول:

إنتوا سهرانين زيي؟

حييناه، فسألنا عما يشغلنا، فأخبرته بما دار بيني وبين نقار الزجاج، فابتسم ناصر لنا، ثم أبدى اهتماما، وسأل:

هل سبق لكما زيارة المكتبة؟

ولأنني وعدت سديم ألا أذكر معرفتي بأمر المكتبة أبديت دهشتي، التي رافقت دهشة نقار الزجاج بطبيعة الحال. فابتسم لنا ناصر ودعانا إلى صحبته، ثم توقف وقال ضاحكا إن المكتبة سر كبير لا يعرف بها أحد من دون أمر الكاتب الشبح، مهددا إيانا بأن هذه الزيارة لو علم بها أحد فسوف يقتلنا. وقد أمنّت على كلماته، لأنني أعرف مدى جنونه إذا جن.

لم يكن الطريق بالتالي إلى المكتبة غريبا بالنسبة لي. ولكني كنت أستعيد التجربة كمن سبق له زيارة مكان مقدس وأتيحت له الفرصة لإعادة التجربة، بالإضافة قطعا إلى أنني كنت أراقب انفعالات وملامح نقار الزجاج بين آن وآخر. بدا واجماً وهو يرقب صفوف النساخ المتبتلين العاكفين على عملهم في صمتٍ مهيب، لا يجرح صمتهم سوى صوت حفيف الأوراق كلما قلّب أي منهم ورقة.

ويبدو أن ناصر لاحظ بدوره تعبيرات وجه نقّار الزجاج، لكنه لم يعلق بشيء، إلا بعد أن انتهينا من الجولة بين أروقة المكتبة، التي راعني أن أشباحها الليلية عادت مرة أخرى للتحليق في أرجائها، وفقد كل منا وجهته، وسار خلف صوت الشبح الذي يستهويه، في تيه لا نهاية له، حيث تثور الأسئلة وتفيض النقاشات، والصراعات، وحيث تبدو لنا الأفكار وهي ترف أعلى رؤوسنا كأنها طيور رخ عملاقة لا يراها أحد.

كان نقار الزجاج قد جلس على الأرض واجما، ثم أخذ يرتجف كأنه أصيب بالحمى، نظر ناصر إليه، ثم اقترب مني، وقال هامسًا:

ماله صاحبك كده كأنه نزل عليه الوحي؟

ابتسمت له وأنا أتأمل نقار الزجاج بقلق. اقتربت منه وسألته عما به، فأخبرني أن ما شاهده وأنصت إليه في المكتبة أصابه بالدهشة، وأنه غير قادر على استيعاب ما شاهده. لاحقا سيشرح كيف أنه لم يتخيل الجهد الهائل المنجز في تأسيس المكتبة. وتجادلنا طويلا حول فكرة أشباح الكتب، وهل هي مجرد هواجس شعرنا بها تأثرا مما طالعناه من مخطوطات وكتب، بالإضافة إلى هيئة كتائب النساخ المخلصين، أم أنها أشباح حقيقية لم يسبق لنا أن سمعنا عنها لأننا لم تسبق لنا زيارة المكتبة في الليل.

اقترب ناصر منا، وسأل نقار الزجاج إذا ما كان يريد أن يعود إلى سكنه للراحة. لكن نقار الزجاج أكد أنه في حالة جيدة، فابتسم ناصر، ليقول له إنه يجب أن يستعد للمرحلة المقبلة.

هبطنا بحذر نتحسس موضع أقدامنا على المرتقى المؤدي إلى المكتبة، في الطريق إلى البهو الفسيح الذي يضم النساخين، ولكن

ناصر طلب منا أن نتبعه، فتجاوزنا البهو بالعرض، حيث كانت إلى يميننا صفوف الأرائك التي تضم النساخ، نكاد لا نميز بداية الصفوف التي يصطفون فيها، حتى وصلنا إلى رواق ضيق مضاء بإضاءة بمصابيح زيتية، كما هو شائع هنا، محفور لها في السقف بحيث تبدو مضاءة بشكل غير مباشر.

انتهى الرواق بباب خشبي ضخم دلفنا منه فوجدنا بهوا آخر، بينما كانت الجدران قد طليت من حولنا باللون الأخضر، وكانت الإضاءة متوهجة بفعل المصابيح الكبيرة المعلقة على الجدران، ومتقاربة من بعضها البعض، وهو ما منح المكان إحساسا بالحرارة مقارنة بالقاعة الخارجية أو المكتبة. قادنا البهو إلى قاعة أصغر قليلا امتلأت بمقاعد عالية ومناضد مربعة التصميم، يجلس إلى كل منها رجل أو امرأة، وأمامهم نسخ من مخطوطات تبدو منسوخة على يد أحد الناسخين من قبل، مما أثار دهشتنا. فما الجدوى من تكرار عمل تم إنجازه إلا إضاعة الوقت؟ لكن ناصر أومأ لنا بالصمت.

اقترب من إحدى السيدات داعيا لنا أن نقترب منها بدورنا. فرحنا نتأملها. كانت سيدة طويلة ممشوقة القوام، شعرها الأسود الكاحل السواد شديد النعومة قصير كأنه شعر رجل. كانت ترتدي عفرية بلون السماء، واسعة تخفي تضاريس جسدها، وتغطي ذراعها الأيمن بكُمٍّ منسوج تقي به ملابسها من الاتساخ.

وضعت أمامها كتلة خشبية تشبه صندوقا صغيرا له قمة مخروطية الشكل، أسندت إليه المخطوط، لينسدل على الكتلة الخشبية كأنه بساط منمنم من الورق المقوى الملون، بحيث تكتب عليه كأنها في وضع الرسم. أمسكت بقلم حبر له سن ذهبي طويل، بالغ

الرهافة والدقة، وإلى جوارها تراصت مجموعة أخرى من نفس نوعية الأقلام، كانت تتناقلها إذا أرادت أن تغير لون الكتابة.

تأملتُ كف يدها البض، بدت بشرتها البيضاء ناصعة، لكن الضوء كشف الشعيرات العديدة الدقيقة التي تمرح على الكف، كاشفة عن عمرها الذي لا يمكن تقديره لو لمحها المرء من ظهرها. حتى ملامح وجهها كانت لا تكشف عن عمرها الحقيقي، لولا انتفاخ جفنيها الملحوظ، ربما بسبب ساعات القراءة والعمل.

كانت تنسخ صفحة مخطوط عتيق لم نتبين طبيعته، باللغة العربية، بخط جميل، وفي هامش الصفحة التي تنقل إليها نقلت رسمة أشبه بالمنمنمات الفارسية بدقة ورهافة وبراعة لافتة. أشار إلينا ناصر لكي نتحرك. وكان أغلب الموجودين يستخدمون الأقلام نفسها، ويقومون بالنسخ بالدرجة نفسها من الدقة والحرفية والفنية. شعرت أنني أتجول في متحف حي. تتجاور فيه آثار من التحف التي تجسد نماذج فنية ومعرفية تعبر زمنا بعيدا، مع تحف فنية تصاغ أو تختلق أمام أعيننا.

كان نقار الزجاج يتابع يد السيدة بانبهار. تأملنا الغرفة من حولنا فوجدنا رجلا آخر، لم نر من ظهره سوى عباءة العمل الخضراء التي يرتديها أغلب الموجودين أعلى ثيابهم حتى لا تتسخ، وشعر رأسه المتماوج أعلى رأسه. اقترب نقار الزجاج ليرى عن قرب ما يقوم الرجل بنسخه. وحين رآنا ناصر اقترب منا، وأخبرنا أن هذا المكان لا يدخله أحد، فهو مخصص لمن يعتبرون رهبانا في النسخ، لا حياة أخرى لهم سوى في هذا المكان، وكل منهم وصل إلى درجة من البراعة والإتقان أنهم يتولون المخطوطات التي تتسم بكثرة الرسوم أو غرابة

الخطوط لإعادة نسخها، وتلوينها. وبعد أن تركنا نتأمل الجمال المحيط بنا لوهلة، أعلن قائلا إن هذا المكان يدعى "معبد أنامل الحرير"!

دعانا ناصر للخروج فتوجهنا للباب الذي دلفنا منه، ثم قادنا إلى قاعة أخرى أصغر تراصت فيها كراس خشبية تتكون مقاعدها من ألياف متينة بلا ظهر، ودعانا للجلوس.

بدا لي أن ناصر سمع جانبًا من حوارنا عن حماس نقّار الزجاج المتأخر للانضمام إلى كتيبة النساخ، إذ سأله مباشرة عن رأيه في ما شاهده في المكتبة وبهو النُسَّاخ ثم قاعة نسخ الفنون الرفيعة.

أبدى نقار الزجاج حماسًا كبيرًا لما شاهده، وأكد أنه يختلف كثيرًا عما تصوره عن مشروع النسخ البديل لما تم إحراقه في مدينة الظلام من كتب، خلال الشهور الفائتة.

سأله ناصر عن فكرته عن النسخ، فصمت نقار الزجاج وقال: أعتقد أنها فكرة جيدة، لكن على المستوى المعرفي هي مجرد عملية نقل للأفكار لا إبداع فيها. وأوضح له أنه كان يعتقد أنه لا يمكن أن يمارس النسخ، لأنه غالبا ما سيتوقف ليسأل ويشرد، ولن يتمكن من نقل ما قد يرى أنه يحتاج إلى نقاش.

صمت ناصر قليلا، وأعاد تأمل نقّار الزجاج لوهلة، ثم سأله:

تقصد أنك قارئ محترف؟

مش بالظبط.

قارئ متمهل صاحب رؤية نقدية؟

يعني، يمكن حاجة أقرب لكده.

طيب وإيه رأيك مثلا في إيد الحرير؟

- المعبد؟

ابتسم ناصر، ثم هز رأسه متداركا للتوضيح:

نسيت أقول لكم: كل واحد من النساخين هنا ليه اسم مستعار، والاسم ده مسجّل قدامه رقم ما بيعرفوش غير الكاتب الشبح والهيئة الاستشارية للتقييم ومراقبة النساخ. "إيد الحرير" هيّا الست اللي شفتوها أول ما دخلنا قاعة النسخ الفني. والكاتب الشبح اختار اسم المكان من وحي اسمها.

هززنا رأسينا أنا ونقّار الزجاج معا، تأكيدًا لدهشتنا وفهمنا وتعجبنا من النظام المتبع، ثم قال نقار الزجاج:

نسّاخة من العيار التقيل واضح. إمكانياتها الفنية جامدة جدا.

بس؟

مش فاهم.

يعني إنت متصور إيه علاقتها باللي هيا بتنسخه؟

صمت نقار الزجاج، وبدت عليه ملامح التفكير، بينما قلت:

أظنها بتنقل عن وعي بروح النص. أنا حسّيت بنوع من التماهي بينها وبين النص اللي بتنسخه.

هزّ ناصر رأسه مؤيدًا لما قلته، ولكنه ظل منتظرًا إجابة نقّار الزجاج، الذي قال أخيرًا:

يعني ممكن أشبّها بالفنانين الشباب اللي بيقلّدوا نسخ من لوحات أصلية لفنانين كبار.

يعني المنتج اللي هيّا أنتجته أو أنتجه الشباب اللي بتحكي عنهم أصلي ولا مزور؟

بيتهيألي مزور طبعًا.

صمت ناصر للحظات، ثم قال:

إنت ركبت طيارات قبل كده؟

عقد نقار الزجاج حاجبيه، معبرا عن دهشته من السؤال، لكنه أجاب:

مش كتير.

فاكر طيب شكل المدينة من فوق؟ القاهرة مثلا من الطيارة أو أي بلد شفتها؟

أيوه.

تمام، أهي دي بالظبط القراية. إنك تشوف المدينة من فوق، يتهيألك إنك شايف التفاصيل وبتتعرف على شكل البلد بشكل عام، لكن مش ممكن تتخيل الناس ولا الزحمة ولا تفاصيل العمارة في شارع محدد، أو سلوكيات ناس عايشين في زقاق مش ممكن تشوفه أصلا.

صحيح معاك حق. بس هوا النزول على الأرض مش القراية المدققة؟

لا النزول على الأرض هوا النسخ. النص القوي هوا اللي بيبان كأنه شارع الناس ماشية فيه وشايفة تفاصيله، وقادرة تعد الحُفَر في الطريق، وتسمع وتميز الفرق بين أصوات الناس وشكلهم. النص التاني الأقل قوة بيبقى بالظبط شبه المدن من الطيارة. لكن القراءة كمان لها نفس المستويين. القارئ دايما يحلق بالطائرة من فوق، وعلشان كده الناس دايما بتعلق على ما تقرأه تعليقات غالبا لا يرى

الكاتب أنها تمس النص. لكن الناسخ لو علّق على النص هيكون تعليقه مقارب جدا لذهنية الكاتب، لأنه نزل على الأرض، ومشي على رجليه زي الكاتب وشاف بعينه، وبالتالي بيفهم قوة النص الحقيقية.

ويبدو أن نقار الزجاج مثلي كان قد بدأ يفكر في ما قاله ناصر. أظن أنه يجانب الصواب، على الأقل كانت تلك خبرتي في نسخ بعض الأعمال التي نسختها وبينها أجزاء دون كيخوت. ربما لم أكن لألتفت إلى الجانب الخاص بأن أزمة دون كيخوت الحقيقية لم تكن في كونه يختلق الأوهام ويصارعها، بقدر ما كانت الخيبات التي تعرض لها، لأنه من الأساس تخلى عن فرديته، واختار أن يكون تابعا لنموذج من وحي قراءاته وخيالاته من أحد أبطال قصص الفروسية، ولم يحاول أن يكون ذاته. وأظنني أيضا لو كنت أقرأ الجزء الذي أثار ضحكي فقط لما استمر ضحكي بذلك الشكل الهيستيري كما فعله النسخ، لأن النسخ بالفعل به نوع من إعادة صياغة الفكرة وتأملها والكيفية التي بنيت بها.

وفكرت في مستوى آخر من القراءة كنت أقوم به حين كنت أعمل رقيبا مع المتكتم، وأدركت كم كان مستوى القراءة ضحلا. لم تكن هذه قراءة من الأساس، أراني الآن مثل كلب يتشمم منديلا ملوثا بالدماء ويروح يبحث عنها، وخوفا من الفشل أمام صاحبه فهو يعود بأي أثر شبيه حتى لو كان مجرد ورقة ملونة باللون الأحمر.

أخبرت ناصر عما أفكر فيه، فضحك وقال:

معاك حق طبعا، هوا فيه مخبرين بيقروا؟ الرقيب مخبر مقنّع، يحاول أن يرتدي عباءة الطُهر والأخلاق ليخفي بها أعداء

حرية الفكر وأعداء المعرفة، وهو أولهم.

هنا سأل نقار الزجاج ناصر عن الكيفية التي يمكن بها لشخص مثله يبدو مستنيرا ومثقفا أن يكون يوما من جماعة المتكتم.

لكن ناصر اعترض على السؤال، وهو يشير لي مستشهدا بـي:

عمري ما كنت من المتكتمين، وصاحبك يقول لك.

فهززت رأسي ضاحكا، وقلت:

الحق يقال، كان مستفزًا لنا جميعًا، وأنا أظن أني توبتي من ذلك الطريق المأفون، كان ناصر هوّا صاحب الفضل فيها.

وعاد ناصر ليوضح لنقار الزجاج أنه يفضل دائما المواجهة على النقد فقط من بعيد، وكان يريد أن يدخل إلى منظومة المتكتمين، ليفهمها أولا ثم ينتقدها من الداخل ليخلخل العاملين بها، ولكي يوضح للمتكتم نفسه أن مشروعه مفضوح"

أفلتت من قاسم ضحكة وهو يردد "يخرب بيتك يا رشيد.. جبت الأفكار دي منين؟". فتحت ميهريت عينيها، ولكنها لم تتحرك من مكانها، وقبل أن تعود لمحاولة النوم مرة أخرى سألته كأنها تغمغم:

هل عدت إلى قراءة هذه الأوراق؟ هل هذه مذكرات صديقك؟

لا، هي رواية، يبدو أنه قرر أن يصبح كاتبا روائيا أخيرًا.

عمّ تحكي الرواية؟

عن جماعة من الناس هربوا من سلطة حاكم جديد قرر أن يطبق نظامًا ديكتاتوريا باسم الأخلاق.

"بوكو حرام"؟

ضحك قاسم، قائلا:

تقريبًا.

يا ربي! "بوكو حرام" هذه لو حكمتْ مكانًا لحولته إلى جحيم.

ضحك قاسم ولم يعلق، لكنه ظل محدقا في السقف، مستعيدًا أفكار ناصر عن القراءة والنسخ. كما استعاد عددا من المخطوطات التي كان قد اطلع عليها، يحاول أن يقارن الكيفية التي تم بها نسخها ومدى كون من نسخوها بالفعل قد قرأوها على نحو دقيق ومماثل تقريبا للأفكار التي أرادها كاتبها.

45

لا يبدو أن ميهريت نجحت في العودة للنوم، رغم محاولاتها. وحين نهضت بعينين نصف مفتوحتين راحت تهرش في شعر رأسها، وسألت قاسم:

هل ستلتقي بصديقك هذا؟ وهل ستساعده في نشر الكتاب؟

تأملها قاسم، وقال:

لا أعرف. أنا لا أعرف حتى إذا كنت سأخرج من هذه السفينة حيًّا.

ظلت ساهمة وشاردة، ثم قالت:

ليتني التقيت صديقك الكاتب هذا، فلربما إذا حكيت له حكايتي وكتب عنها لأمكنني أن أعرف الطريق إلى ابني يوما ما.

ابتسم قاسم، ثم قال لها بعد وهلة من التفكير:

احكي لي حكايتك إذن على سبيل الاحتياط، فمن يدري؟ لربما ألتقيه بالفعل وعندها على الأقل سيكون بإمكاني أن أحكي له حكايتك.

نهضت مقرّبة نفسها من زجاجة المياه، وشربت منها جرعة صغيرة، ثم سألته إذا ما كان لايزال يمتلك سجائر بعد، فأومأ لها رأسه، لكنه اقترح أن يشتركا في تدخين سيجارة واحدة تقليلا لاستهلاك السجائر ولنسبة الدخان في الغرفة.

أشعل لها السيجارة وأعطاها إياها. جذبت منها نفسين متتابعين ثم أعادتها له وأخذت تفكر قليلا، ثم أخذت تستعيد شذرات من حياتها، كأنها تبحث عن خيط تكمل منه القصة.

ويمكنني أن أرتب ما قالته على النحو التالي:

"أعتقد أنني كنت محظوظة أكثر من غيري. حين تعرفت على آيدا، وهي فتاة جميلة، كانت منذ صغرها معروفة بانفلاتها، وكان متوقعا أن تغادر قريتنا التي لا تناسب طموحاتها، حيث عرفنا أنها عملت في التمريض لفترة في هارار، قبل أن تنتقل إلى أديس، وهناك عملت في مقاهي القات والحانات الليلية، وكونت ثروة في فترة قياسية. التقيت بها صدفة في أديس بعد عدة شهور من انتقالي إلى هناك. رحبت بي بحميمية وبضحكات متصلة، وسألتني عن هينوك؛ أخي، وكنت أعرف أن علاقة جمعت بينهما لفترة حتى عرف أبي بالعلاقة، وذهب إليها وهدّدها بالابتعاد عن ابنها وإلا فضحها. أخي المسكين لم يفهم سر ابتعاد وتخلي آيدا عنه فجأة في تلك الأيام. وعاش محبطا لعدة أشهر.

أخبرتها عن أحواله، وحكيت لها عن حياتي الجديدة في أديس. ابتسمتْ، ثم قالت لي إنني إذا كنت ذكية بما يكفي لكي أترك جيجيجا لأبدأ حياة جديدة في أديس، فلا بد أن أفهم أن الحياة ليست سهلة، وأنني لو استثمرت جمالي لأصبحت ثرية في عدة أسابيع.

ورغم أنني فهمت ما تلمح له، لكني حاولت إظهار سذاجتي. كنت أريد أن أعيش حياة مختلفة، ولكني لم أرغب في أن أكون عاهرة. لكن آيدا لم تتركني، قالت لي:

يا فتاة.. أنت حبشية لها جمال طاغ، كل الأجانب سيرغبون في رفقتك. لا تُضيّعي الفرصة.

ضحكتُ وأخبرتُها أنني أحب أبناء وطني، فابتسمت، وقالت:

غاوية فقر. كلنا نحب أبناء وطننا، لكن الأجنبي ينام معنا ويذهب إلى وطنه، فلا يعرف عنا شيئا، ثم من يدريك؟ ألا يمكن لك أن تتزوجي شخصًا ثريًّا من هؤلاء؟ الأجنبي متفتح ومتحرر، أتفهمين ما أعني؟

آيدا واحدة من النساء اللائي يملأن الأجواء حولهن بالمرح. إذا التقيت بها تشعر أنك تعرفها من قبل. تعقد الصداقات بسرعة، على عكس الكثيرات منا، نحن اللائي نقابل الأجانب بوجوه متحفظة، نخفي ضعفنا وفقرنا خلف أقنعة من التكبر والترفع. كثيرا ممن تعرفت عليهم من الأجانب أخبروني أنهم كانوا يظنونني فتاة غامضة مغرورة بجمالها. هذا غير صحيح. أنا أعرف دوما أنني جميلة صحيح. لكني في أعماقي بسيطة ومتواضعة. وربما هذا سبب من أسباب وجودي الآن هنا في هذه الزنزانة البحرية المقبضة.

المهم أنني لم أستمع لنصائح آيدا، واكتفيت بعملي كنادلة في مقهى شهير، يرتاده الكثير من السياح، والأجانب المقيمين، وانشغلت بضرورة ادخاري ما يكفيني لكي أتعلم الإنجليزية. كنت أود إتقانها لكي أتعلم بها إذا أتيحت لي فرصة للدراسة بها ومواصلة تعليمي.

كنت أشترك في السكن مع ثلاث من زميلاتي، ميسكيرم وميستوات وفاطوما. ميسكيرم لم تكن جميلة مثل ميستوات وفاطوما، لكنها كانت تريد أن تدخر نقودًا تكفيها لكي ترحل إلى السودان. قالت إذا امتلكتُ 1200 بر، سأدفعها إلى أحد الفلاحين الذين يعملون في التهريب. وأوضحت لنا أنه بمجرد تسلمه للنقود سيتولى مهمة إدخالها إلى داخل حدود السودان. لم أفهم لماذا تريد الذهاب إلى السودان. سمعنا ألف حكاية عن فتيات ذهبن إلى هناك وتعرضن الى الاغتصاب إما على يد عسكر الحدود، وإما على يد ملاك الأراضي الذين يستقبلون المهاجرين الإثيوبيين هناك. والبعض تعرضن مع الهاربين جميعا لهجوم الوحوش الضارية ليلا، لأن هذه الرحلات غالبا ما تبدأ في منتصف الليل. وأخريات كثيرات تعرضن للاختطاف. لكنها كانت تقول إنها تعرف أن السودانيين طيبين، وسوف تبدأ هناك حياة جديدة.

ميستوات وفاطوما كانتا مختلفتين تماما. فالأولى كانت تذهب إلى الملاهي الليلية لاصطياد العشاق. كانت تريد أن تنسى الفقر بالمتعة، بالسهر والموسيقى والرقص. قالت إنها لو خُيّرت لذهبت لتعيش في أميركا. كانت تحتقر حياة الكثير من فتيات العائلة، من بنات عمومتها بل وحتى خالاتها اللائي خرجن من المدارس مبكرًا من أجل الزواج ورعاية الأبناء وأمهات الأزواج. أما فاطوما فكانت تنتظر السفر إلى أي دولة عربية للعمل هناك. قالت إن أمها لا يمكن لها أن تدبر نفقات تربية إخوتها بمفردها، بعد أن حاول الأب الهجرة إلى كينيا ومات هناك مصابا بالملاريا. تزوجت صغيرة وبعد عامين طلقت، وكان عليها رعاية ابنها. سافرت بعد عام واحد إلى

بيروت لتعمل كخادمة في أحد البيوت، ومن هناك انتقلت إلى الإمارات. وعرفت منها أنها تركت الأسرة التي كانت تخدمها وتعمل الآن نادلة في مقهى يدر عليها دخلا يكفيها.

لكن هل تعرف؟ كانت صحبة الفتيات من أجمل أيام حياتي. تشاركنا المآسي، والضحكات، وقاومنا كل شيء بالضحك والنكات. حتى عندما تعاركنا أنا وفاطوما مع ميستوات، انتهى الأمر بالضحك الجنوني.

سألها قاسم بفضول عن أسباب العراك، فقالت: كنا نتعارك كثيرا، وأحيانا لأسباب تافهة، لكني أذكر أنني وميستوات، كنا ننام في غرفة واحدة، وفوجئت بها في منتصف الليل توقظني وتطلب مني أن أنام في الغرفة الأخرى، لأن لديها صديقا في الخارج. عدت للنوم بسرعة، وأنا أشعر بالغيظ من سخافات منتصف الليل التي تقوم بها ميستوات، لكنها ألقت بي من على الفراش، وقبل أن أنهض وجدتُ شابا أجنبيا أشقر يقف على باب الغرفة، فانسحبت من الغرفة بسرعة. حيّاني الشاب بابتسامة فلم أنظر إليه أو أرد عليه. ودخلت إلى غرفة ميسكيرم وفاطوما، ودفست نفسي بجوار فاطوما. استيقظتا وسألتاني عما حدث فأخبرتهما، فنهضتا، وحين فتحا الباب سمعا ضحكات ميستوات وتأوهات الرجل الغريب فعادا للغرفة بسرعة. كنا نتميز من الغيظ، لكننا تأملنا أشكالنا بوجوهنا النائمة واضطرارنا للتواجد في غرفة واحدة بسبب جنون ميستوات، فانفجرنا في الضحك، وراحت فاطوما تتخيل سيناريوهات ما يدور في الغرفة وتلقيها علينا، فنضحك فيما نحاول ألا تنفلت أصوات الضحك خارج الغرفة. لكن بمجرد خروج الشاب الأوروبي من الشقة، خرجنا جميعا

إلى ميستوات، وانهلنا عليها ضربا، فيما هي تتهمنا بأننا متوحشات ومجرمات. ثم ألقت بنفسها على الأرض، ومثلت أنها نائمة، وقالت لنا إنها لا تريد أن تفسد متعتها. سألتها فاطوما بفضول:

هل الأجنبي يعرف كيف يضاجع إثيوبية؟

فشخرت مفلتة ضحكة، ثم انقلبت على ظهرها وهي تقول:

لا، لكني الآن أمتلك 1000 بر. هل تصدقن ذلك؟

فوقعنا من الضحك بجوارها.

كانت ميهريت تحكي الحكاية بوجه ضاحك، والتمعت عيناها. صمتت قليلا لتتأمل ضحكات قاسم المجلجلة، ثم شردت مرة أخرى، وحين عادت للكلام قالت:

عندما تعرفت إلى جون عن طريق آيدا، وبدأت بيننا علاقة كنت سعيدة بأني أعيش الحياة التي كنت أحلم بها. أعمل وأستقل بحياتي وأقع في غرام شخص يحبني بصدق. وعندما طرح موضوع الزواج، اعتقدت أنني بلغت قمة الحظ. أتزوج أميركي؟ أي أنني سأسافر إلى أميركا، ليس كخادمة أو كلاجئة، بل كزوجة مواطن أميركي، وبعد عامين سأمتلك الـ "جرين كارد"، بلا مهانة أو تعاقد كخادمة أو التعرض لمخاطر السفر على الحدود. لكن انظر إليّ الآن.. أين أنا؟ في مكان في عرض البحر، سجينة زنزانة خانقة.

هل تعرف لماذا؟ لأنني لم أتمكن من أن "أتأمرك" كما قال لي جون في بداية خلافاتنا. لأنني أردت أن أزرع قيما إثيوبية فقط في رأس ابننا وأنني لم أسمح له باستقبال القيم الأميركية التي سيعيش بمقتضاها عاجلا أو آجلا. ولم يكن هذا حقيقيا. كنت فقط أعرف أننا يوما ما سنغادر إثيوبيا، وسيعيش نيجوس في بلاد بعيدة، وكان

لا بد لي أن أزرع قيما ينتمي لها. كان جون قد سجل ابننا باسم جورج، ورفض أن يجاور اسمه بالاسم الذي اخترته: نيجوس. وعندما فعل ذلك كنت أنادي الطفل بهذا الاسم. قلت لجون إن رفضه للاسم وغضبه من مناداتي به يعبر عن احتقاره لثقافتي، وإن عليه أن يدرك أن ابننا حتى لو كان قد ولد وعاش في أميركا، فسوف يظل إثيوبيا أميركيا، وهذه هي هويته الحقيقية.

لكني لا أنكر فضل جون، لقد منحني الزواج منه فرصة التعلم، أكملت تعليمي في الجامعة، وتعرفت على أشياء كثيرة لم أكن لأعرفها من دونه. وبسبب حبه للسفر تجولنا في أرجاء إثيوبيا، وسافرنا إلى كينيا وجنوب إفريقيا. ولكن لا أعرف لماذا تغير فجأة.

قاطعها صوت صراخ في الخارج، فخرستْ. نظرت إلى قاسم الذي كان بدوره يحدق باتجاه الباب، كان هناك أكثر من صوت غاضب يتعالى في الخارج، ثم بدأت أصوات أخرى دلّت على حركاتٍ متوترة من أكثر من شخص. واستمر الأمر على هذا المنوال، حتى فوجئوا باقتراب الأصوات من الباب، وحين انفتح فجأة وجدوا شخصًا يندفع إلى الداخل ويسقط على الأرض مكوّمًا بلا حركة.

صرخت ميهريت فزعًا، بينما نهض قاسم بسرعة باتجاه الجسد الذي وقع صاحبه بلا حركة أمامه مباشرة. كان شابا إفريقيا يرتدي قميصا أخضر كالحا وبنطلونا رماديا رثًا، ولا ينتعل في قدميه شيئا، ممددًا على بطنه بلا حركة. تأمله قاسم، فأدرك أنه لايزال يتنفس. انحنى ممسكًا بكتفه، ثم قلبه على ظهره، فوجده فتى في مطلع العشرينيات طالت لحيته الخفيفة، وتلوثت بالدماء التي بدا أنها

انفجرت من فمه، بعد أن تلقى لكمات عديدة سببت سجحات عدة في وجهه. طلب من ميهريت أن تحضر له الماء، وقام بمحاولة تنظيف وجه الفتى الذي ظل نائما على ظهره غائبا عن الوعي.

كانت ميهريت ترقب الفتى في فزع، وتحاول أن تحافظ على هدوئها في الوقت نفسه رغم أنها كانت تشعر بخوف رهيب يكاد يشل أفكارها، تقلص بسببه بطنها حتى ظنت أنها ترغب في دخول الحمام بأي شكل. لكنها تماسكت. ويبدو أن قاسم أحس بها، فأشار لها برأسه وطالبها بأن تهدأ.

تركا الفتى ملقيًّا على ظهره وانتحيا متجاورين، وأسندا ظهرهما إلى إحدى جدران الغرفة، بينما أمسك قاسم بكفّها محاولا أن يبثها الهدوء. ولكنهما لم ينطقا بحرف.

ظلا يرقبان النزيل الجديد لزنزانتهما بوجل وترقب. ولم يرغب أي منهما في الكلام. كان القلق قد بلغ حده. فقد كان وجود ذلك الشاب فاقد الوعي يعني أن شريف وأتباعه سوف يقتحمان الغرفة في أي لحظة. كانت رائحة العرق تفيض من جسد الفتى الإفريقي، وبدأ قاسم يشعر بالاختناق. وأحس أنه بدأ يفقد هدوءه، فقد تسبب وجود الفتى فجأة في إحساس مداهم بالاختناق، كأنه لم يدرك وجوده محبوسا قبل ذلك. من فرط توتره بدأ يضغط على يد ميهريت بعصبية من دون أن يشعر، فالتفتت إليه، فوجدت وجهه محتقنا، والعرق ينسال من على جبهته وحتى صدغيه اللذين كشفا عن توتر فكه بضغطه على ضروسه بشكل لا شعوري.

بعد لحظات بدأ يشعر بأنه يختنق، حاول أن ينظم أنفاسه ويستنشق الهواء، لكنه تدريجيا كان يشعر أنه يلهث. أمسك صدره

بإحدى يديه وبالأخرى تشبث بيد ميهريت كالغريق. شعرت ميهريت بالجزع. وأخذت تربت عليه وتمسح العرق عن وجهه. تركت يديه ونهضت، فيما استلقى على ظهره منقلص الوجه. تلفتت حولها، وأمسكت بي، ثم أخذت تحركني بعنف أمام وجهه، جاعلة مني مروحة هوائية يدوية بدائية. وكان علي أن أتحمل هذه القسوة المفرطة على أمل إنقاذ قاسم، لكنه لم يتحسن، وبدأت عيناه تجحظان، فيما أخذت ميهريت تصرخ بهيستيرية فألقت بي، واتجهت بسرعة صوب الباب، وأخذت تطرق الباب بقوة وهي تطلب الغوث.

لكني لأول مرة، ورغم التوتر الحادث، أشعر بالمهانة من إلقائي بهذا الشكل، بجوار الحائط، وبالألم من هذا الإهمال، ولأول مرة أشعر بأنني أرغب في الغياب عن الوعي عن كل هذا الجنون الذي أتعرض له منذ التقطني قاسم لأعيش هنا على سطح سفينة الحمقى هذه.

46

تنبهت من غفوة الغضب التي قررت فيها أن أُغيّب وعيي عمّا يدور حولي. لم أجد أحدًا في الغرفة، كانت خالية تمامًا من أي مظهر للحياة. لا أثر لميهريت أو قاسم. اختفى الشاب الإفريقي أيضا، وكذلك الفرشة الإسفنجية وزجاجات المياه. لا أحد، ولا شيء. كان الصمت مطبقا، والغرفة مظلمة. هل احترق المصباح الوحيد المعلق في سقفها أخيرا؟ أم أنه أغلق؟ اختفى الصوت الجميل الذي كان يتردد في الغرفة كلما تكلمت ميهريت، أو غنت بصوتها القوي الشجي الناعم، الذي وصفه قاسم بأنه الصوت الإفريقي الناعم. قالت له إنها لأول مرة تلاحظ هذه الملاحظة. أن الصوت الإفريقي الأسمر صوت ناعم. قال لها ليست فكرة نعومة، فهناك أصوات إفريقية الأصل وناعمة مثل ويتني هيوستن أو حتى ماريا كاري أو غيرهما. قال لها لا أنت لديك صوت به قوة ولكنه حنون وعاطفي. قال لها إنها حين تغني تظهر له قارة إفريقيا في خياله ممتلئة بالأخضر.

والآن؟ أين ذهبتم بالله عليكم؟ استدعيت الأحداث الأخيرة التي سبقت غفوتي. يا إلهي هل حدث مكروه لقاسم إذن؟ وميهريت أين

تُراها ذهبت هي الأخرى؟ هل قرر مهرّب البشر التخلص منهم؟ أم أنه ألقى بهما في مياه البحر مع الضحايا الآخرين؟

لماذا لم يلتقطني قاسم معه قبل خروجه من الغرفة؟

ربما معه حق. أظنني أبدو شؤمًا عليه وعلى كل من حملني معه. رشيد طاردته عصابة في عرض البحر، حتى ألقى بنفسه وربما غرق منذ تلك اللحظة التي سقط فيها من القارب، والآن منذ أمسك بي قاسم تعرضت السفينة للقرصنة، ثم العواصف، وأخيرا وقع بدوره في يد عصابة من تجار البشر. حتى ميهريت منذ أمسكت بي لكي تسلمني لمهرب البشر شريف، وقد حلّ عليها المزيد من الكوارث. ربما لو تخلى عني قاسم كما فعل الآن لتحرر من شؤمي. لن ألومه إن كان قد تعمد أن يتخلى عني هنا.

هل كنت شؤما أيضا على رشيد؟ أنا صنيعته في النهاية، لا حيلة لي في أن يصنع الإنسان شؤمه بنفسه. لا أظنه كان راضيًا عن حياته أبداً. ما الذي كان من الممكن أن يتغير في حياته إذا أتيح له أن يستكمل دراسته لعلوم الطيران ويلتحق بالعمل في شركة طيران؟ سيقضي ثلث حياته في قمرات الطائرات وثلثها نائما، فما الذي كان من الممكن أن يفعله في الثلث الباقي من عمره؟ أظن أنه لم يكن ليجد وقتا لكي يكتبني. وربما أنه أيضا ما كان ليجد الوقت لكي يقرأ من الأساس.. أليس كذلك؟ هل كانت رغبته في التحليق في قمرةِ طائرة هي بالفعل رغبته الحقيقية؟ أصيلة وفردية؟

ألم يكن ما فعله لاحقا هو الأصيل حقا؟ حين تعلم اللغات في ألمانيا وعمل نادلا، وحين قرر أن يخوض تجارب حياتية مختلفة، وأخيرا حين قرر أن يكتب؟

أما الوهم الذي عاش به عمره فمن أين جاء به؟ من أين نبعت رغبته في أن يكون طيّارا مدنيًا؟ ألم يقل أكثر من مرة لسلمى إن هذا الحلم راوده عندما شاهد، لأول مرة في حياته، طيّارًا مدنيًّا يرتدي بذلته الأنيقة ويسير في ردهة من ردهات مطار دبي؟ أعجبت صورة الرجل وهيئته خيال رشيد الطفولي ربما. ويبدو أنها تغلغلت في خياله حتى تمكنت منه. سلب صورة الرجل واستبدل بها صورته. اعتقدَ أن هذا هو ما يجب أن يكون عليه مظهره، ثم تماهى مع الصورة المسلوبة من حلم رجل آخر، وحياة شخص آخر.

لو سألني رشيد لقلت له فورًا إن تلك الصورة كانت مزيفة، لأنها لا تنبع من ذاتك. تماما كما هي صورة الفارس لدى دون كيخوت. استمدها من قصص الفروسية وتماهى مع الفرسان، بينما لم يكن يملك ما يؤهله لأن يكون فارسا البتة، حتى الدرع والرمح والفرس، استعاض عنها بحمار هزيل، أو بغلٍ مسخ ضامر، لا أذكر، ودرع مزيّف من أغراض المطبخ، وظل يهيم عائشا في وهمه يثير الضحك والسخرية أينما حل.

أظن أن رغبة رشيد في الكتابة التي تمكنت منه وامتثل لها، بل وطوّرها، من دون أن يعتبرها أمرًا يخص أحدًا غيره هي الرغبة الأصيلة الحقيقية في حياته. تماما كما اكتشف دون كيخوت أن رغبته الأصيلة هي البحث عن العدل لا الفروسية، ولو كان قد بحث في أعماقه عن الوسائل التي يمتلكها لتحقيق العدل، لحقق شيئًا منه لأهله بدلا من الحماقات التي مارسها في أرجاء البلاد الإسبانية.

لكني أعتقد أن رشيد لم يكتشف رغبته الحقيقية هذه إلا متأخرا، فعاش ممرورًا، لا يرضى عن حاله. يدرس الفلسفة ممتعضا، ويعمل

في تجارة الموسوعات، ثم يتركها، ثم يقرر الحصول على دروس خاصة في اللغة الإنجليزية، ثم الفرنسية، ويحب فتاة فيظنها منتهى الأحلام، وأنثى العالم الوحيدة، ثم ينقلب عليها لاحقا، وبعد أسابيع قليلة يقع في غرام فتاة أخرى بالقوة نفسها.

ربما باستثناء سلمى ويوديت لم يكن قد عرف قبلهما المعنى الحقيقي للحب. أو ربما أنه قبل سلمى لم يكن عرف الحب، ولم يدرك ذلك إلا بعد انفصالهما، لذلك كان يخشى من أن تتخلى عنه يوديت لأنه عرف أنه أحبها بصدق.

تنقل بين القاهرة والأقصر والغردقة، ثم إلى ألمانيا، ومنها إلى إندونيسيا، بعد أن تعرف على آهران، الفتاة الآسيوية الجميلة، الفنانة التشكيلية، صاحبة العينين الضيقيتن المبتسمتين، والجسد الصغير والبشرة الناعمة، والصوت الهامس المثير. التي حاول بها أن ينسى يوديت بعد انفصالهما. تعرف عليها بعد أن انفصل مع يوديت، اصطحبها إلى بيت الفنون حيث كان توبياس قد أعاره غرفته مرة أخرى لمدة شهر.

بعد انتهاء الشهر قالت له آهران، إنها بصدد الذهاب إلى جاكرتا وجزيرة بالي من أجل المشاركة ببعض أعمالها الفنية هناك. قرر أن يسافر معها. اصطحبته إلى المعابد البوذية، في جزيرة بالي، حيث أعاد اكتشاف علاقة مغايرة مع الطبيعة، وروافد جديدة للسلام الذاتي، وحين استعاد توازنه، وأعاد التفكير في حياته اكتشف أنه يحب يوديت.

عاد إلى شتوتغارت، لكن يوديت قالت له إنها لاتزال تعاني أزمة ثقة، ولم تعد قادرة على الحكم على مشاعرها تجاهه. قرر

العودة إلى القاهرة. وهناك بدأ يكتشف رغبته في الكتابة بشكل أكثر احترافا. استعاد ذكرياته، وحاول كتابة قصص قصيرة، بعضها عن علاقاته العاطفية، وبعضها عن مشاهد من حياته في ألمانيا وعن الخبرة الروحية التي عاشها في إندونيسيا.

ثم قرر أن يكتب مذكراته من أجل إعادة تقييم حياته، كان قد بلغ الأربعين، واكتشف أنه لايزال يرقص على السلم.

في ألمانيا، لم يجد فرصا جيدة للعمل في السياحة، لكنه قرر أن يعمل أي شيء. عمل نادلا في مقهى لفترة ثلاثة شهور. تعرف على صحبته من المصريين الذين استقطبوه إلى المسجد، وإلى عالمهم المتناقض. أن يقتنصوا فضائل مجتمع الهجرة، مقابل العمل في ظروف سيئة، وأن يفرضوا عليه في الوقت نفسه تقاليد وأعراف بالية.

اقتنع رشيد في البداية بالأفكار، بالمقولات الروحانية التي كان شيخ المسجد السوري يرددها في خطب الجمعة. وتأثرت علاقته بيوديت التي لم تصدق ما يجري له. ولم تكن لديها القدرة على استيعابه. كانت قد عرفته متحررًا ليبراليًا، مختلفا عن الصورة النمطية للرجل الشرقي، فإذا به يتحول إلى آخر لا تعرفه. محدود الأفق، يثير معها مناقشات سياسية لكي يسب الألمان وعنجهيتهم، وعنصريتهم. قالت له إنها لا تشعر أن الأفكار التي يمور بها رأسه أفكاره هو، وأنه ينجذب لأفكار لا تخصه وأنها لا تصدق ما يقول.

لم ينتبه رشيد آنذاك إلى مدى صدق يوديت ومدى فراستها. كانت قد وضعت يدها على مكمن جرحه ومشكلاته، أنه لم يعرف ما يريده بنفسه. كان قد قرر أن يصبح طيارا من أجل صورة طفولية

داعبت خياله. لم يدعمها باحتياج حقيقي. لم يطورها إلى معنى أكبر من الصورة. في مزحة من المزح التي ابتكرتها يوديت، قالت له: كنت تريد أن تكون سائق تاكسي طائر؟ ثم ماذا؟

تنقل بين العشيقات، لأنه لم يكن يعرف ما يريد، وبالتالي لم تكن لديه صورة حقيقية عن معنى الحب. كان يدعم رغباته بقشرة خارجية من الصلابة والعناد. كانت قشرة بالغة الهشاشة، تكسرت مع أول اختبار حقيقي على يد جماعات إسلامية سياسية تستقطب أتباعا لها ممن شعروا بتهميش مجتمع الهجرة لهم، ولم يكن هذا شأنه. فقد أتاحت له علاقته بيوديت أوراقا ثبوتية سليمة، وإقامة صالحة ومشروع جنسية ألمانية. لم يكن مضطهدا. كل ما في الأمر، كما قالت له يوديت، أنه يعيش في مجتمع كفاءات ويحتاج إلى صقل لغته ومهارة العمل الذي يريد أن يعمل به في ألمانيا.

كانت تحاول أن تتفهم ما يمر به، لكنها شعرت في لحظة أنه مندوه بقوى غريبة لأفكار لا تستطيع أن تستوعبها. قالت له إنها لا تصدق أن الكلام عن العنصرية والكراهية يمكن أن يكون خطابًا روحيًا أيًا كانت ديانة من ينطق به. وحين بدأ يتهكم عليها باعتبارها مسيحية أوقفته بإشارة من يدها. كانت تجلس معه في أحد المطاعم. نهضت بعد أن وضعت نقودا على الطاولة، وقالت له باستخفاف إنها توقفت عن الذهاب إلى الكنيسة من سن المراهقة، وليس لديها استعداد أن تعود لعمر المراهقة من أجل مناقشات صبيانية كهذه.

التحق بأحد مكاتب الترجمة بعد إتقانه اللغة الألمانية. استقل بحياته. سكن مع أحد المصريين الذين زاملهم في المقهى الذي عمل به، ثم قرر أن يعمل في قيادة سيارات الأجرة. لكن يوديت اتصلت

به، طلبت اللقاء معه. ظن أنها تريد إعادة العلاقة، لكنها أخبرته أنها من منطق الصداقة لا ترى أن ما يفعله صائب. قالت له إنه ينتحر إذا كان قد تخلى عن كل آماله وأحلامه. وإن الأكرم له إذا كان قد جاء لألمانيا من أجل أن يصبح سائق تاكسي أن يعود إلى بلاده.

لم يتقبل نصيحتها، شكرها، وعاد إلى البيت وهو يغلي. كانت عبارتها تتردد في أذنه "أنت تنتحر "أنت تنتحر "أنت تنتحر كان يصرخ لنفسه، قائلا: "أنا أنتحر؟! ماذا تعرفين عني لتوصفي حالتي بأنها انتحار؟". استمر مونولوجه الداخلي مع ذاته. تأمل حياته كأن كل ما مر به فيلم سينمائي. كان يتخيل نفسه وقد وُلد في ألمانيا بدلا من القاهرة. تخيل مسيرة مختلقة لحياة بديلة رأى فيها أن أكبر مأساة يمكن أن يمر بها سيجد لها حلا، لكن الأفكار أخذت تتداعى ويغلي بها رأسه، حتى شعر أن قلبه يؤلمه. غسل وجهه. خرج من المنزل وألقى بنفسه في الشارع. راح يمشي بلا هدى، ويحاول أن يهدئ من تداعيات الأفكار، حتى وجد نفسه على أعتاب المنطقة الحمراء.

يا إلهي، ها أنا أعود من أفكاري عن ذاتي وعن مؤلفي إلى الواقع البغيض الأليم. أدركُ الآن أن الوقت أصبح بلا قيمة في وحدتي الأبدية هذه، في عتمة الغرفة الزنزانة. كأن قيمة الوقت بالنسبة لي لا تستيقظ من سباتها العميق إلا حين تتناقلني الأيدي، بالأحرى حين أنقذ من الصمت وأجد من يقرأني. نعم أظن أن الأمل في إنقاذي ربما يتحقق إذا استمررت في استدعاء متني. النص الذي يشكل هويتي.

"كان علينا أن نعود من حيث أتينا. ودّعت ناصر ونقّار الزجاج الذي باح لنا باسمه أخيرا: مرددا إياه بابتسامة انتصار: "منتصر

عدت إلى الدار. فوجدت سديم تغط في النوم. دخلت إلى الحمّام. تذكرت أنني بلا غيار داخلي من الصباح. لم أجد الغيارات في الحمام. انتهيت مما دخلت لأجله وألقيت نفسي مرة أخرى في المغطس، ثم خرجت وجففت نفسي بملابسي هذه المرة، ثم قررت أن أغسلها فوضعت القميص والبنطلون معا في المغطس، ونظفتهما بقدر طاقتي، ثم عصرتهما، وخرجت عاريا باتجاه الباب الخارجي ووضعتهما مفرودين خارج الباب. دخلت الغرفة فانتبهت إلى الفانلة والسروال الداخلي وقد وضعتهما سديم على ما يبدو على طرف السرير فارتديتهما بسرعة، وتسللتُ إلى الفراش بجوارها.

أوليتها ظهري، ونمت على كتفي الأيسر متوسدا كفي، وسرعان ما شعرت بشيء يمر على قدمي فانتفضت، وبعدها مباشرة فوجئت بيدين تمسكان بي. كانت سديم تحتضني من ظهري، وتلف قدميها على قدمي. ألصقت جسدها بي وأخذت تداعب بأناملها صدري. أدخلت يدها من أسفل الفانلة وتسللت حتى حلميّ. تحسستُ كفها البض الناعم المشغول بصدري، من دون أن أنطق بحرف. بدأ كل منا يتعرف على جسد الآخر. تجولت كفاي على ظهرها، لوحي الكتفين، قبة الرقبة الخلفية، الخندق النحيل على امتداد سلسلة الظهر، الكفلين البضين شديدي النعومة، مفرق الأرداف، باطن الفخذين، وبطن الركبة، فتحة الإست، العرقوب، بطن القدم، وأنامل القدمين.

طلبت مني أن أسترخي وبدأت دورها: مرَّرَت كفيها على جسدي برقة. تجولت كفاها على جسدي. أعادت تقريبا تكرار ما

فعلته يداي على جسدها. مررت كفيها وأناملها على تلك الأجـــزاء من جسدي الذي كان كل منها يقشعر من المرور الرهيف لأطراف أنامل يديها. تغوص كل منها في حفر صغيرة، هينة، تشقها الأنامـــل الرقيقة النحيفة، بحيث تكفي فقط لمرور طرف الإصبع، ثم ترتد كما إسفنجة عنيدة بمجرد انتهاء مرور الإصبع فيها، فيما تستكمل الأنامل الرقيقة شق ظهري بتلك الأخاديد التي لا يراها أو يشعر بها ســـواي. كل منها تصل إلى عصب من أعصابـــي، كأنها تعزف على بيـــانو خفي، تتوزع مفاتيحه على ظهري ولا تراها غير أناملها التي تعـــزف عليها حبا وحسية وشغفا، فيما يتردد النغم في أعماقي.

أنقلب بدوري، معتليا إياها ومواجها لها هذه المرة، قبل أن أبدأ جولة جديدة من توق المعرفة التي أحققها بشفتي بادئا من الـــذقن إلى الرقبة، مارا بالحفرة الصغيرة التي تفصل بين قاعدة العنـــق ومفتـــتح الصدر، تلك الحفرة الصغيرة، التي لم يعرف المريض الإنجليـــزي لهـــا اسما، ومنها إلى الصدر، الأخدود الفاصل بين النهدين، البطن والسُرّة، وصولا إلى لسان النار، حيث بدأ سعارٌ من جحيم لذتنا.. لـــذة إثم راهبين من رهبان معبد أنامل الحرير.

في الصباح استقبلت الحياة بشكل مختلف. انتـــهى إحساســـي الخانق بأنني أعيش في خندق تحت الأرض. كنت أشعر بأنني، علـــى العكس، أطفو في حجرة جبلية تطل على سطح البحـــر. في الليـــل، وبينما كنت أحتضنها متشبثا بها كغريق عثر على طـــوق النجـــاة، شعرت بأنني ولدت من جديد. كنا عاريين تماما، لا تفصـــل بيننـــا سوى قطرات العرق التي لم تمنعني عن المزيد من الالتصاق بهـــا، ولا منعتها من أن تدفع بنفسها إليّ كلما راودها الإحساس بأن شـــيطان

الافتراق، أو بالأحرى شيطان الانفصال بين جسدينا، مهما بدا طفيفا أو هينًا، قد تسلل إلى ثغرة من فراغ يفصل بين التصاق الجسدين.

تيقنت من أن شرارة الحب انطلقت هناك في تلك المغارة، المطلّة على البحيرة القرمزية، لكن يبدو أن مشاعرنا من فرط الحب تشوشت. وحين انقشع الضباب، انفجرت لذّة اكتشاف أننا وقعنا في الغرام"

* * *

لو أمكن لي الآن، مستغلة هذه العتمة وغياب البشر عني، أن أرفع صوتي، على الأقل لكي أمنع نفسي عن الغياب، والنسيان، لاستدعيت أنا أيضا شرارة الحب التي اندلعت بين يوديت ورشيد. اللحظة التي عرف كل منهما أنه قد سقط في بئر الحب، وأنه غارق لا محالة، ولا مغيث.

خرج رشيد من البوابة الحجرية الرمادية المقوسة التي لا تبرز كثيرا عن السور الطويل الرمادي الممتد كسياج يدور حول منزل بيت الفنون، حيث كان يقيم، وانحرف إلى يمينه على الرصيف، هابطًا مع الطريق المنحدر إلى الأسفل، في الشارع الذي سيحفظ اسمه بدقة حتى لا يتوه عند العودة، وهو يردده لنفسه "شتافلنبيرج – شتراسه"، إلى يمينه السور الرمادي الذي تطل من أعلاه شجيرات خضراء وارفة لامعة، بينما إلى يساره الشارع المقسم إلى حارتين للسيارات، وتتوسط كلا منهما قضبان المترو التي تسير، بجوار السيارات، وهو ما ذكّره، حينما رأى المترو لأول مرة، بشوارع الإسكندرية، خصوصا أن الجو البارد النقي في شتوتغارت، منحه إحساسا شبيها بأجواء الإسكندرية. باستثناء أن الضفة المقابلة كانت مسيّجة بالأشجار،

ومنها يمكن أن يطل على المدينة، كما يفعل حين يقف في مطبخ منزل بيت الفنون ليعد القهوة. توقف عند محطة المترو، ونظر إلى اللوحة المعلقة فوجد أن القطار الذي يقصده سوف يصل بعد ثلاث دقائق. وضع عدة يوروهات فضية في ماكينة التذاكر، وانتظر خروج التذكرة. أشعل سيجارة، ووقف ينتظر حتى وصول القطار بعد دقائق ثلاث بالفعل.

كان يقصد منزل يوديت، وعليه أن يتوقف في محطة قريبة من محطة مترو وسط المدينة التي يهبط فيها المترو في أنفاق سفلية، ومنها يأخذ قطارا آخر. اشترى تذكرة أخرى وانتظر حتى وصول القطار، وعندما انفتح الباب وحاول الدخول سمع صوتًا يناديه. التفت إلى اليمين فوجد يوديت التي كانت تركب القطار نفسه.

حينما عرفت أنه كان في طريقه إليها، رفعت يدها إليه بزهرة بيضاء التقطتها من حديقة قريبة من بيتها، وهي تقول له إنها كانت في طريقها إلى بيت الفنون هي أيضا لكي تراه. نظر كل منهما إلى الآخر في تلك اللحظة نظرة ستظل علامة في تاريخهما العاطفي، باعتبارها اللحظة التي شعر فيها كل منهما بأنه وقع في الغرام.

قالت له إن مدينة، مثل شتوتغارت ربما تكون صغيرة مقارنة بمدن ألمانية أخرى، لكن أن يلتقي اثنان يقصد كل منهما الآخر صدفة في منتصف الطريق لا يمكن أن يكون حدثا عاديا رغم ذلك. أما هو فقد شعر بأنه غير قادر على التعبير. ابتسم لها، وهو يغرز أصابع يديه في شعر رأسه الطويل الغزير، واقترب منها ليحتضنها، فيما تسلل إليه عبق الديودرانت الفاكهي النفاذ الذي كان يفوح منها، وقبّل عنقها بقبلة خافتة كأنها لمسة خفيفة من شفتيه.

اصطحبته في اليوم التالي إلى بيت العائلة، في منطقة تعرف باسم "سوننبرج"، كان يتأمل الحي النظيف اللامع، المحاط بالحدائق الشاسعة المنبسطة، والمكون من بيوت من طابقين مطلية بالأبيض، مبنية على هيئة جمالونات مخروطية الأسقف، أغلبها من القرميد، تفتتحها حدائق صغيرة تحيط بمدخل كل بيت من البيوت، بينما في الشرفات العلوية والنوافذ تتعلق أصص تفيض بالزهور الملونة، كما يشيع في أغلب البيوت التي رآها في أرجاء شتوتغارت.

لم تكن أمها موجودة، لكن جدتها العجوز كانت تجلس في الصالة الدافئة. وجد امرأة ذكية العينين، لاتزال تحتفظ بحيويتهما رغم التجاعيد الرقيقة التي تحيط بهما، حين لاحظ زرقتهما ابتسم كأنه أدرك من أين ورثت يوديت زرقة عينيها. استقبلته السيدة العجوز بابتسامة، ثم وسعت ابتسامتها لحفيدتها يوديت التي اقتربت منها، وأودعت قبلة رقيقة على جبينها، ثم أخذت تهمس لها همسات رقيقة، تسألها بها عن صحتها وأحوالها. دار حديث بين رشيد والجدة، عن شتوتغارت، والقاهرة. أخبرته أنها زارتها مرة وحيدة في شبابها. وأنها وقعت في غرامها. أخبرها أنها لو أمكن لها زيارتها الآن لما عرفتها. رسم لها صورة مقتضبة قوامها الزحام والتلوث وانتشار القمامة. كانت تنظر له، منصتة بابتسامة، وبعد أن تلقت الترجمة من حفيدتها، قالت: كان لدينا ما هو أبشع بكثير. كانت لدينا مدن مدمرة بالكامل، القمامة كانت البيوت المحطمة.

رفع حاجبيه مندهشا من تعبيره، فقالت يوديت موضحة: جدتي شهدت مشاهد مروعة في دريسدن. هز رأسه لها متفهما، وإن بدا

عليه عدم معرفة تفاصيل ما حدث في دريسدن. قالت له الجدة بابتسامة: للأسف أنا لا أجيد الإنجليزية، لكن يوديت يمكن أن تشرح لك، فقالت يوديت:

مدينة دريسدن تعرضت لأكبر قصف من نوعه قبيل انتهاء الحرب العالمية الثانية على يد قوة الطيران الملكي البريطانية وقوة طيران الجيش الأميركي في فبراير 1945. يعني يمكن القول إن ذلك سبق استسلام القوات الألمانية بفترة وجيزة.

صمتت يوديت كمن يستعيد التفاصيل وأضافت: قصف هذه المدينة يعتبر أحد أكثر وقائع الحرب العالمية الثانية دموية وإثارةً للجدل بسبب العنف المفرط الذي استخدم فيها ضد المدنيين دون مبرر، خاصةً أن الحرب العالمية الثانية كانت على وشك أن تضع أوزارها وأن هزيمة النازيين كانت تلوح في الأفق. وراح ضحية هذا القصف ما يزيد على 20 ألف شخص.

كرر الرقم مذهولا، راسما علامة دهشة ممزوجة بالألم. بينما أطرقت الجدة إلى الأرض وكأنها تستدعي الزمن البعيد وأشباحه التي كانت ثمنا مكلفا لما أصبحت عليه بلادها اليوم.

حينما خرجا للتنزه في الحي الهادئ، حكت له يوديت أن جدّتها كانت تقيم آنذاك في قرية قريبة فلم تتعرض للأذى، لكن جدّها هو الذي شهد بعينيه الجثث المحترقة من النابالم، وشاهد رجلا خرج من بيته المشتعل وهو يحمل منضدة، لكن انفجارا قريبا تسبب في عدة حرائق للبيوت المجاورة، تسببت في خلق عاصفة من اللهيب أخذت في طريقها كل شيء، وبينها الرجل ومنضدته، وألقت بهما في البيت المحترق مرة أخرى.

كان رشيد ينصت في دهشة، ولاحقا سوف يدرك أنه أينما حل في ألمانيا الملونة اللامعة النظيفة، فإن شبح الحرب العالمية، لا بد أن يطل بشكل ما على المشهد، كان يعيد تأمل الفكرة ليس كما قرأها في كتب التاريخ، بل كواقع، كحدث على الأرض يقول إن تلك الحرب دمرت ألمانيا تقريبا، وأن أغلب المدن لم تنج فيها مناطق عديدة من التدمير، وهذه هي غالبا المناطق التي تبدو أكثر حداثة في معمارها. كان كل ما يراه في ألمانيا ينطق بالكيفية التي يمكن بها مجتمع أن يحقق معجزة النهوض من أسفل ركام الحطام، ويعيد بناء مجتمع مثالي تقريبا.

استدعى لقطات من آخر الحروب التي مرت بها مصر في 1973، فلم تسعفه ذاكرته بشيء. لم يكن عمره قد تجاوز العام آنذاك، لكنه استعاد ما حكاه له الأب عن التفاصيل، وبينها بكاء الأم أياما طويلة حين علمت باستشهاد أحد أقاربها في الجبهة، وارتداء الكثير من السيدات أثواب الحداد السوداء. استعاد صور الأقارب التي تناثرت في شقق منازلهم معلقة على الجدران، يعلو الوجوه الساكنة الصامتة فيها شريط أسود كان يعرف به أن صاحب الصورة كان شهيدا من شهداء الحرب مع إسرائيل.

تذّكر أن الحرب في مصر في النهاية كانت بعيدة عن المدن، لم يتأثر المدنيون بها، لكنهم جميعا كانوا يترقبون أهلهم الذين خاضوا الحرب في الجبهة، باستثناء مدن القناة بطبيعة الحال وسيناء. مع ذلك كانت ذاكرته الشاحبة تستعيد صورا ضبابية، تعود ربما لما بعد تاريخ انتهاء الحرب. كان يرى الدبابات في الشوارع. آثار الحرب لاتزال ماثلة أمام الناس في كل مكان. بينما انتصبت أمام أغلب مداخل البنايات متاريس كأسوار مبنية من الطوب،

بالإضافة إلى كلمة "مخبأ" التي ظلت مرسومة على الكثير من جدران القاهرة حتى بعد انتهاء الحرب بسنوات.

كانت يوديت تريد أن تحتفل بحبها له بأن تريه أكثر مناطق طفولتها حميمية. قالت له إن البيوت كانت تجاورها مناطق زراعية واسعة، قريبة من الغابة، قالت له:

كنا نبني أكواخا في الغابة. أشارت إلى شجرة بعيدة، وقالت إنها اعتادت وجدتها الصعود للكوخ في طفولتها حيث كانت الجدة تحكي لها فيها حكايات عديدة وتغني لها أغنيات مازالت تذكرها جيدا.

صمتت قليلا، ثم وجدها تدندن بأغنية لم يفهم منها شيئا، إذ راحت تردد "هيدشي بومبدشي"، فابتسم وسألها عن الكلمات بالألمانية، فقالت له: Heidschi Bumbeidschi، وأضافت أنها أغنية كانت أمها وجدّتها أيضا يغنيانها لها في طفولتها، وحين استفسر منها عن كيفية هجاء الكلمتين، أوضحت له كل حرف فيهما، فأخرج نوتة صغيرة من جيبه اعتاد أن يحملها معه، وسألها عن معنى الكلمتين، فقالت له وهي ترسم قناعا من ملامح الجدية:

لا شيء، هاتان الكلمتان بلا أي معنى!

ضحك، فيما كانت تجذبه ليسيرا متقدمين باتجاه مساحة واسعة، قالت له إنها كانت تمتلئ بأشجار التفاح في طفولتها، وإنها كانت مع الصبية والفتيات من الجيران والأقارب يصعدون إلى الشجر ويسرقون التفاح ليأكلونه.

استعادا الأغنية الطفولية الألمانية، وحاول كل منهما أن يعرف ما كان الآخر يستمع له في طفولته. قطبت جبينها وكأنها تحاول أن

تستدعي ما أحبته من أغنيات في تلك المرحلة وخلال فترة الجامعة، ثم قالت:

بداية يجب أن تعرف أنني كنت أكره فريق Modern Talking.

وابتسم رشيد حين استدعى أغنيات الفريق الألماني، الذي كان يغني أغنيات بوب بالإنجليزية، واشتهر في مصر أيضا، وهز رأسه مؤيدا، وسألها عما كانت تحب فقالت:

لا أذكر جيدا، آه أظنني وقعت في غرام إلفيس بريسلي لفترة وأنا في الثانية عشرة، لا أذكر أنني أحببت موسيقى وأغنيات البوب، أحببت الروك أكثر.

صمتت للحظة، ثم قالت:

بصراحة مرحلة الثمانينيات حين أستدعيها كلها لا أشعر أنها فترة يمكن أن نطلق عليها كوول.

أيدها رشيد ضاحكا، ثم سألها إذا ما كانت قد سمعت أي أغنيات عربية، فقالت له إنها سمعت مغنية تسمى فيروز وأعجبتها، وسمعت مطربة مصرية يقال إنها شهيرة جدا، لكن لم يصل لها منها شيء، فأخذ يردد لها اسم أم كلثوم عدة مرات، وهو يضحك على الطريقة التي كانت تكرر بها الاسم خلفه كل مرة. قال لها أنها تنتمي لموسيقى الطرب العربي التي تعبر عن ذوق خاص يهتم بالجملة الموسيقية وبالجملة المغناة.

أخذتهما الموسيقى والثمانينيات إلى الكثير من الذكريات، والأسماء، والتفاهات والضحكات المرحة، والدعابات التي تذكرتها هي عن بعض ما كان الأطفال في ألمانيا الغربية يرددونه عن أطفال ألمانيا الشرقية.

قالت له:

عادة ما كنا نسخر من أن أطفال ألمانيا الشرقية لا يأكلون الموز. وكنا نصورهم بأنهم أقل تطورا.

معقول؟

صحيح نعم، كانت هناك اختلافات بالتأكيد، ربما هناك تربية تقليدية أكثر في ألمانيا الشرقية، وأعتقد أيضا أننا تقبلنا أو أقبلنا على "الأمركة" بسرعة أكبر منهم. هم ظلوا لفترة طويلة لا يقبلون على المطاعم الأميركية، مثل "ماكدونالز"، مثلا.

صمتت لوهلة، ثم استطردت، قائلة:

تعرف؟ حتى اهتماماتي التي تسألني عنها، هنا في ألمانيا لو سألت فتاة من عمري نشأ أبواها في وسط ثورة 1968 ستجدها غالبا قد اندمجت في ثقافة البوب أسرع، وربما تجدها مثلا تسمع موسيقى الميتال.

ابتسم رشيد، مبديا دهشته، وسألها:

هل يعني ذلك أن أبواك متحفظان؟

هزت كتفيها بلا اكتراث، وقالت:

لم أعد أهتم لأمرهما على أي حال.

صدمته إجابتها، لكن ما كان يصله أنه كان يشعر بالتفاهم معها بشكل غريب، كان رغم ابتعادهما الثقافي يشعر بقربها الروحي والعقلي.

بصراحة لا أعرف كيف تحول الأمر إلى الدراما، التي عاشاها لفترة قبل أن ينفصلا.

47

أشعر أن وقتا طويلا قد مر عليّ منذ تُركت وحيدة هنا في هذه الغرفة (الزنزانة). ولم يعد قاسم حتى الآن، لا هو ولا ميهريت، فما الذي يمكن أن يكون قد حدث لهما؟ هل نفذ شريف تهديده وأصابهما بالأذى؟ أو ربما تخلص منهما مع مجموعة المهاجرين المهربين في السفينة؟

لو لم يعد قاسم فكيف سيكون مصيري؟ وكيف سيكون بإمكاني أن أعرف مصير رشيد أيضا؟ هل سيكون مصيري البقاء هنا للأبد؟ أم أن عليّ أن أستمسك بالأمل؟ أليس هذا ما كان رشيد يؤمن به؟ وربما لهذا قرر العودة لألمانيا بعد كل شيء؟

استمرت علاقته بشكل جيد مع يوديت، على مدى العام الأول على الأقل، قبل أن يتعرف على صحبته من المصريين المتناقضين، الذين سرّبوا إليه إحساسهم بالاضطهاد، وبعنصرية المجتمع الألماني تجاههم. صدقهم وتبنى موقفهم بسهولة، وقرر أن يشاركهم السكن.

لم يكن الخلاف في المقهى الذي انصرفت بعده يوديت آخر فصول علاقتهما، رغم أنها شعرت بالإهانة، ولكنها منحته فرصة أخرى. كان يحبها بالفعل، وبدا ذلك في السلوك الرومانسي، الذي

بذله في تفاصيل علاقتهما، مع ذلك فوجئت بإصراره على سلوكيات عدتها غريبة، من بينها حرصه على صحبة مجموعة المصريين المتدينين، ثم التوقف عن الشراب. وهذا أمر لم يكن يعنيها، لكن ما كان يثير حنقها وغيظها بالفعل، أنها كانت تعرف جيدا أن هناك فارقا ثقافيا شاسعا بينه وبين تلك المجموعة، الذين كانوا من خريجي الجامعات، لكنهم لم يكونوا من أصحاب أي تطلعات ثقافية مثله، وبعضهم قضى عمره لا يقرأ حتى الصحيفة.

أما ما كان يؤدي لحنقها وغيظها فتمثل في تبنيه مواقف شديدة العداء للمجتمع الألماني كله، في كل تعليق له على أي أحداث عارضة تقع في ألمانيا. قالت له إنها ليست شوفينية، وإنها مثل كل الألمان تنتقد أداء الحكومة المحلية في شتوتغارت يوميا، والحكومة المركزية في برلين، لكنها تشعر بأن انتقاداته ليست لها علاقة بما هو موجود على الأرض، بل بصورة ذهنية لا تعرف من أين تبناها.

انتهى الأمر في النهاية إلى أن تقول له يوديت إنها بالفعل لم تعد قادرة على مواصلة العلاقة، وإنها تشك في أنه كان يجمل نفسه في صورة العلماني المتحرر، بينما هو شخص تقليدي ومحافظ.. قالت له:

رشيد. أنا حقا أكاد أجزم أنني لا أعرفك. لست نفس الشخص الذي عرفته.

كيف؟ هل ظهرت لي قرون الشياطين؟

راقب نفسك؟ ألا ترى كيف أصبحت ساخطا وغاضبا طوال الوقت، بل ومستفزا؟

لم يتغير شيء. مجرد أنني أصبحت أكثر وعيا بهويتي الحقيقية.

هويتك الحقيقية؟ ماذا تقول؟ وماذا عن المصريين القدماء؟ الذين علمتني عنهم كل شيء تقريبا منذ رأيتك لأول مرة أمام أحد آثارهم الخالدة وحتى اليوم؟ ألا يشكل هؤلاء هويتك الحقيقية؟

لقد اهتدت مصر للدين الحقيقي منذ دخول الإسلام؟

تقصد غزو العرب لمصر.

أنا لا أقبل بهذه الإهانة.

أي إهانة؟ عم تتحدث؟ أنت حتى لم تعد تنصت لما أقول، ولديك أقوال مقولبة جاهزة ترددها.

كان الجدال من هذا النوع يستمر بينهما مطولا، وتكرر حتى قالت له في لحظة غضب:

أنا حقا لا أعرف كيف وقعت في غرام شخص مثلك؟ شرقي ذكوري، يقبع ديكتاتور صغير في ركن من روحه.

ثارت ثائرة رشيد، ورد عليها بعنف، وتصاعد الجدل بينهما حتى تركته فجأة واختفت. أقصد أنها اختفت تماما من حياته. لم يجد لها أثر في منزلها، ولم ينجح في أن يجدها في بيت العائلة، ولا في منازل أي من صديقاتها اللائي تعرف عليهن عبرها.

كانت مشاعره مضطربة، ما بين يقينه باحتياجه الروحي، والعودة إلى درب الحياة الحقيقية في حب الله، كما أكد له الخطيب السوري أكثر من مرة، ومرافقة أصدقائه المصريين، وبين إحساسه بأنه لا يمكن له أن يعيش من دون وجود يوديت في حياته.

حين التقى بآهران في أحد البارات، تشجع وفتح معها حوارا، انتهى بسهرتهما معا حتى موعد إغلاق البار. واقترحت عليه أن يصحبها إلى منزلها. شعر بأنها ظهرت له في توقيت بالغ الدقة، فقد كان في احتياج شديد لأن يبتعد عن يوديت حتى يتأكد من مشاعره تجاهها، وكذلك أن يبتعد عن صحبته الجديدة حتى يراهم من بعيد ويعيد تقييم تجربته الألمانية كلها.

حين نجح في الاتصال بيوديت بعد أكثر من أسبوع، حذرته من أي محاولة لأن يلتقي بها، وطلبت منه أن يمر على منزلها ليأخذ أغراضه في أي وقت تكون هي فيه خارج البيت.

بدا أنها اتخذت قرارا بلا عودة. ولم يكن أمامه سوى أن يستمر في علاقته بآهران. كانت شابة ذكية، تحمل الجنسية الأميركية، لكن ملامحها تكشف أصولها الآسيوية. قالت له إن والديها من كوريا، وإنها جاءت لاستكمال دراستها في الفنون، لكنها فضلت أن تقيم في ألمانيا، لأنها وجدت في برلين مكانا استثنائيا ومُلهِمًا. أخبرته إنها ملّت من زيف الحياة في أميركا، لكنها بعد أن جاءت لزيارة إحدى صديقاتها الألمانيات في شتوتغارت، قررت أن تعيش بها لفترة حتى تنتهي من مشروع فني ارتبطت به فيها. واقترحت عليه أن ينضم إليها في منزلها ليعيش معها، حين عرفت أنه كان يقيم مع صديقة هجرته كما قال لها. اصطحبها إلى غرفته في بيت الفنون مرة، ونامت معه هناك، لكنها فضلت أن ينتقلا معا إلى شقتها.

دار بينهما حوار عن الأديان والهوية، وبسبب تلك الحوارات، انغمس في قراءة بعض الكتب عن البوذية، ثم التصوف. وحين لاحظت انشغاله التام بالأمر اقترحت عليه أن يرحلا إلى جزيرة بالي

لزيارة المعابد البوذية هناك والاستجمام. أبدى تردده، فأخبرته أنها ستوفر له ثمن التذكرة والإقامة، لأنها مدعوة إلى معرض فني هناك.

هل كانت ثمة علاقة بين اختياره لفكرة أن يكون مقر النساخين معبدا؟ ربما، أظن أنه كتب هذا الجزء مني بعد عودته للقاهرة من بالي، وقبل أن يعاود الاتصال بيوديت. يبدو أنني تشوشت ولم أعد أعرف بالضبط الآن مدى ارتباط كتابة أجزاء مني مع مواقيت رحلته بين ألمانيا ومصر. يبدو أن علي أن أعود إلى ذاتي قليلا لكي أنعش ذاكرتي:

"في الاجتماع التالي حضرت نفس الوجوه، ولا حظت اختفاء منتصر. سألت عنه ناصرا، لكنه لم يكن يعرف عنه شيئا. كانت سديم تمسك يدي في حنان، وتنظر لي بابتسامة محبة. بدت مثل عروس في صباح أول أيام الزفاف، تتحين الفرص للمس يدي أو وضع يدها حول خاصرتي. وحين جلسنا في مكاننا متجاورين وضعت يدها في جيب بنطلوني ومنه راحت تحاول الوصول إلى قضيبي، فيما تنظر أمامها بابتسامة بريئة لا يبدو عليها أنها تفعل شيئا. كنت أشعر أن العيون تلاحقنا. ولكني حاولت ألا أظهر ارتباكي.

نظرت إليها مبتسما، ورفعت حاجبي لها مسددا نظرة عتاب مبتسمة، فهصرت قضيبي ردا على نظرتي، فأخرجتُ من حلقي آهة أعقبتها بسعلات وهمية حتى لا ألفت الانتباه إلى ما تفعله سديم، فكبتت ضحكتها وهي تربت على كتفي، كأنها تخفف عني من أثر السعال!

حين اكتمل الحضور، ظهر الرجل الذي كنت أظنه الكاتب الشبح، متبوعا بالرجل صاحب النظارة السوداء. لم يحضر منتصر، و لم يسأل عنه أحد.

تولى صاحب النظارة السوداء تحية الحضور وإعلان بدء الاجتماع، موضحا أن الاجتماع وبسبب ظروف خاصة لا يمكن له إعلانها لن يستغرق وقتا طويلا، وأنه سيكون مخصصا للتصويت لمن يرغب في الانضام إلى كتيبة النساخين، أو في العودة إلى مدينة الأنفاق.

أشار فارس؛ صاحب الكلمات المتناثرة التي لا يمكن تمييز نصفها إلى أن هناك الكثير من الأمور الواجب نقاشها قبل اتخاذ مثل هذا القرار، وأن الدعوة للاجتماع جاءت بناء على اقتراح من الكاتب الشبح. لكن ناصر قاطعه قائلا: إن هناك تغيرات في الظروف، وإن المكان المخصص للنسخ يجب أن يحتوي النساخين ويغلق أبوابه لأسباب أمنية، و لم يعد هناك المزيد من رفاهية الوقت قبل اتخاذ هذا القرار.

في تلك اللحظة ظهر على الباب شخص غريب المظهر، كان شابا في العشرينيات، يرتدي قميصا "جينز" أزرق، وبنطلونا "جينز"، وشعره المشعث المغبر يكشف عن جبهة عريضة، فيما يفيض وجهه القمحي غليظ التكوين، بعلامات أشبه بسحجات التئمت لكنها تركت آثارها في الوجه. لم ينطق بشيء، لكنه فقط أشار إلى أحد الكراسي كأنه يستفسر عن إمكانية الدخول. نظر إليه الرجل ذو النظارة السوداء، ثم نظر إلى كبير الخطاطين، لكن إشارة من ناصر باتجاه الرجل جعلته يهز رأسه بالموافقة على دخول الشاب،

الذي دخل مرتبكا متعثر الخطوات، ووجد كرسيا خاليا، فاقتعده سريعا.

جلس ناصر في مكانه أمامي تقريبا، وإلى يمينه منصور، ثم فارس، وبجواره الشاب زاهر، وإلى جواري جلست سديم وبعدها السيدة لطيفة، أما إلى يميني فجلست السيدة ذات التي شيرت الأصفر، سناء، وكان عطرها الفواح يداعب أنفي، بينما جلس كبير الخطاطين كالعادة إلى رأس المنضدة من اليسار، والرجل ذو النظارة السوداء إلى رأس المائدة على يميني، حيث كنت أواجه الجدار المجاور لباب حجرة الاجتماعات. أما الشاب الغريب الذي بدا لي مثل سائق ميكروباص من حي شعبي، وقد ضلّ طريقه إلينا، فقد جلس بجوار كبير الخطاطين مباشرة، بحيث كان زاهر إلى يساره. بينما جلست نيرد في طرف الطاولة بجوار الرجل ذي النظارة السوداء، وإلى يمينها ناصر.

بدأ كبير الخطاطين الكلام بالترحيب بالحضور، ثم نظر إلى الشاب شبيه سائقي الميكروباص وسأله عن اسمه، فقال:

اسمي إبرة يا باشا.

أفندم؟

إبرة سعادتك، إبرة زي بتاعة الخياطين، أصلي باخد غرز جامدة يا باشا.

ثم صمت متطلعا لوجه الرجل ولما شعر بعدم فهمه لما يقول استطرد سريعا موضحا:

غرز بالميكروباص يا باشا يعني.. ما تفهمنيش غلط. بس لو مضايقك الاسم سعادتك قول لي يا كوكو.

ابتسم أغلب الحضور، فيما كان كبير الخطاطين يبدي دهشته ونفوره من كوكو الذي أضاف للتوضيح:

أصل يا باشا، أنا زمان كان عندي ميكروباص صغير كده، بس وحش أسفلت على حق ربنا، لما عملت بيه حادثة كنت باغني آهات.. الميكروباص ده من كتر حبي ليه سعادتك أنا لامؤاخذة يعني كنت مسميه كوكو يا باشا، قعدت أغني شهر يا باشا: "بيحسدوني عليك يا كوكو مع إنك عند بتاع الدوكو"!

ضحك أغلب الموجودين، فسأله كبير الخطاطين:

طيب يا عم كوكو إنت جيت هنا إزاي؟

مش ده الاجتماع بتاع الكُتّاب يا باشا؟

بتاع الكُتّاب؟ قصدك النساخين.. يعني حاجة زي كده، بس مين قالك عليه يعني؟

يا باشا أنا عادي هربان في الأنفاق، بس الناس قالوا لي إن المنطقة هنا أمان الأمان.

أشار ناصر من بعيد لرئيس الخطاطين، ليبدأ الاجتماع ويتجاهل الشاب، فنظر إليه كبير الخطاطين في تردد، وزفر بغضب، ثم قال:

المهم، نحن هنا اليوم لكي نضع تقريرا عن المجموعة التي ستنضم إلى النساخين، واستبعاد من لا نرى فيه المؤهلات المطلوبة لكي يعود إلى مدينة الأنفاق. وأعتقد كما تجلى خلال اجتماع الأمس أن هناك البعض ممن لا يبدو أنه راغب في الانضمام لفريق النساخين، وأعتقد أن هناك فريقا

لا يرى في دور النسخ أهمية أو لا يرى فيه أولوية، وأظن أن الأساتذة الذين حضروا بالأمس وبينهم مثلا الإخوة فارس وزاهر ليسا من أنصار الانضمام لفريق النساخين، وكذلك السيدة سناء، ولا يبدو لي موقف الأخ منصور واضحا بما فيه الكفاية.. فهل يرى غيركم غير ما أرى؟

تحدث فارس على الفور، مطلقا دفعة من جمله الطويلة، وكلماته المبتسرة، المشوهة، بسبب انقطاع نفسه وسرعة كلامه، موضحا أنه لايزال لم يتخذ قرارا، وأنه ليس متحمسا للنسخ من قبيل أن هناك أولويات وليس اعتراضا على أهمية مشروع النسخ.

وانتظر كبير الخطاطين ليعطي لمن يرغب الفرصة في الكلام، فعلق منصور، قائلا:

أنا أوضحت أني مع المشروع، لكن نحتاج لمعرفة تفاصيل فنية وضوابط.

أما زاهر، فقال:

أنا شخصيا بصراحة لا أعتقد أن الدور الوحيد هو النسخ، لأن هناك أدوارا أخرى كثيرة يجب أن نقوم بها.

كان إبرة ينظر إلى كل شخص يتحدث ثم يومئ بهزات من رأسه يؤّمن بها على ما يقال.

فسأله كبير الخطاطين:

إنت شايف إيه يا أخ إبره؟

يا باشا الكلام اللي اتقال ده كله زي الفل سيادتك، أنا موافق طبعا على كل كلام البشوات الكُتّاب اللي هنا. صحيح الكلام شوية مش مفهوم، بس وعهد الله زي الفل.

بس يا ريت يعني لو سعادتك تـــتكلم عربـــــي، برضـــو النبـــي عربـــي يا باشا!

ابتسم له كبير الخطاطين، وهز رأسه متعجبا، ثم توجه بنظره إلى سناء قائلا:

الأخت سناء، لم أسمع تعليقك بعد.

قالت سناء:

أعتقد إن فيه تصورات فوقية من جانب إدارة الحوار.

تصورات فوقية؟

طبعا.. هناك تأويل مفرط من جانب إدارة الحوار حول ما يريده كل منا، كأنك تفرض علينا رؤيتـــك الشخصـــية، وتفترض بطريقة غير مباشرة أنك تستبعد من تريد أو تقبل بمن تريد.

رجاء يا سيدتي، لا أرغب في الحديث في عموميـــات، أو إطلاق تهم. أنا لخصت نتيجة حوار أمس، وفقا لكلام نطق به الحضور. أنا لم أستبعد شخصا أبدى دعمه لفكرة النسخ مثل السيد هنا.

وأشار إليّ، فهمستُ باسمي لكي أذكر به الرجل وأعرف نفسي إلى سناء قائلا: كيان.

قالت سناء:

أنا شخصيا قلت إن مشروع النسخ مشروع مهـــم، لكـــني أيدت فكرة نيرد، بضرورة أن تكون هناك مجموعات عمـــل للمقاومة في مدينة الظلام، بالانضمام إلى حلقـــات القـــراءة السرية، ومنح الناس في المدينة الأمل بأن كتيبـــة النســـاخ لا

يعيشون في عزلة، وأنهم مجموعة من الهاربين تحت الأرض.

وبالتالي فهذا لا يعني أنني لست مع النسخ. وعلى فكرة قد يكون معنى كلامي أنني قد أنضم للنساخين، ولكني مع أن ينضم شباب مثل زاهر وغيره إلى حركات المقاومة في المدينة.

هز كبير الخطاطين رأسه متفهما، لكنه لم يعلق، وتأمل الحضور بحثا عمن يرغب في إضافة شيء. فتحدث منصور قائلا وهو يمد يده بورقة صغيرة:

أنا أريد فقط أن أعطي هذه الورقة للأخ كوكو هناك.

فتناولها منه فارس، ومد يده بها إلى كوكو، الذي تناولها وأخذ يحدق فيها قليلا، من دون أن يعلق. تعلقت عيون الحاضرين جميعا تقريبا بالشاب الذي وضع الورقة في النهاية على الطاولة، ولم يعلق بشيء. فسأله منصور:

إيه رأيك يا أخ إبره؟

في إيه يا باشا؟

في الكلام اللي في الورقة؟

أنا ماليش رأي يا باشا. اللي تشوفوه أنا معاكم.

بس إنت قريت اللي أنا كتبته؟

أيوه يا باشا، اللي تشوفه معاليك.

طلب منصور من كبير الخطاطين أن يقرأ الورقة، فتناولها من يدي الفتى، ثم أخذ ينظر إليه وإلى منصور في دهشة، بينما اعتلت وجه منصور ابتسامة متحذلقة.

أشار الرجل إلى نيرد، فابتسمت وتوجهت إليه، فأشار لها أن تقترب منه، ثم همس في أذنها لوهلة فيما كانت تهز رأسها، بينما

يرقبها الفتى بعينين مندهشتين، واختلط في الدهشة شيء من الإعجاب المذهول.

عادت نيرد إلى مكانها، بينما عاد منصور للقول:

المهم الآن في ما أرغب في قوله، ومن المؤكد أنك تفهم ما أعني، أن هناك آلافا بل ربما عشرات الآلاف الذين لا تمثل لهم هذه المنسوخات شيئا، بسبب عماهم الافتراضي.

فهز رأسه. بينما مالت سديم على أذني وتقول: بيتهيألي الواد ده ما بيعرفش يقرا.

أبديت دهشتي، فقالت: مش عارفه إيه اللي جابه هنا أساسا؟

دارت النقاشات مرة أخرى، بينما نهضت نيرد وتوجهت إلى إبره، وهمست له ببضعة كلمات، فاعتذر من كبير الخطاطين وخرج معها.

قال كبير الخطاطين، موجها كلامه لناصر:

كيف دخل هذا الفتى إلى هنا؟ أعتقد أنه تم اختراقنا.

لا أعتقد، ربما وصل إلينا بالصدفة.

لا أعتقد أن نحسن النوايا في هذا الأمر. الرجل لا يعرف القراءة ويحضر إلى هنا ليشارك في اجتماع للنساخين!

أعرف أن الأمر مريب، لكني تحدثت معه، وهو بالفعل مجرد سائق ميكروباص، يبدو أنه تعرض لمطاردات رجال المتكتم لأسباب لم يفصح عنها، وجاء إلى هنا بحثا عن مكان آمن.

استمر النقاش مرة أخرى، وأبدى الجميع تحفظهم على وجود الفتى الذي وعد ناصر بإعادته إلى مدينة الأنفاق في أقرب فرصة.

لكن وجوده في النهاية أثار استياء الرجل ذي النظارة السوداء، مـــا جعله أكثر تجهما خلال ما تبقى من وقت الاجتماع. وأعلن كـــبير الخطاطين أن اجتماعا خلال أيام سيعقد بوساطة مساعده، وأشار إلى الرجل ذي النظارات السوداء ليحدد بشكل نهائي المجموعـــة الـــتي سوف تلتحق بالنساخين"

* * *

أفقت من استعادتي لذاتي، واكتشفت أن وجودي في هذا الظلام، وحيدة، يبدو قادرا على الاستغراق في ذاتي لزمن أكبر، مما كان عليه الأمر حين كنت أتنقل بين الأيدي. ومع ذلك لم يكن الأمر مريحا بالنسبة لي. فلو أنني بقيت هنا للأبد فهذا يعني أنني انتهيت. سأصبح صوتًا منسيًا لا يصل للآذان، كما أن ذلك سيعني وأدًا لمن كتب كل الأفكار التي تضمنها متني.

الأمر أصبح مخيفا حقا، أشعر أنني الآن علي أن أصارع العدم.. لكن كيف؟ كيف يمكنني ذلك؟ كيف؟ ماذا أفعل؟

48

أشعر بحيرة شديدة، تقريبا بالدرجة نفسها التي كان يشعر بها رشيد حين عاد من إندونيسيا إلى القاهرة. أظن أنني مررت بفترة تشبه ما تشعرون به إذا فقدتم الذاكرة. ربما كانت تلك الفترة التي أودعني فيها رشيد في دولاب غرفة نومه في الشقة التي استأجرها في وسط القاهرة. كأنه كان قد يئس من كل شيء. من الحب، ومن تحقيق أي من أحلام حياته.

ولكن مهلا مهلا! هل تكون تلك الفترة هي التي ظهر له قاسم خلالها؟ أظن أن هذا هو التفسير الوحيد. ربما أنه في مرحلة يأس من حياته وإحساسه بالألم بعد انفصاله عن يوديت، وبعد ما مر به من تجارب عبثية في ألمانيا مع مجموعة المتأسلمين، قرر أن يغير حياته، ولهذا يمكن أن يكون قد استجاب لقاسم للعمل معه في تزوير المخطوطات أو تهريبها.

على الأقل هذا ما شهدته في فترة أخرجني فيها كأنه يود التأكد من قدرته على استكمالي، وكنت أرى حرصه الشديد في الاطلاع على تلك الأوراق الصفراء بدقة وتركيز واهتمام.

ذاكرتي تعود لي بعد أن قرر العودة لألمانيا. أظن أن انقطاعه

عني خلال تلك الفترة التي توقف فيها عن الكتابة، جعلتني أفقد خيط معرفتي بسيرة حياته. ولهذا لم أتمكن من فهم علاقته بقاسم.

المهم أنه حين عاد لكتابتي لم أصدق أن علاقته مع يوديت يمكن أن تعود، لقد كان جرحهما كبيرا، وصفته بمتخلف شرقي، ووصفها بالعنصرية، وأبدت ندمها على النوم معه.

آههه، هنا تذكرتُ أنه ربما لذلك اختار معادلا للفكرة في العلاقة بين سديم وكيان في متني.

"مرت فترة طويلة بين عقد هذا الاجتماع الأخير، وبين ظهور ناصر، ليعلن لنا أن هناك مستجدات طرأت على مدينة النساخين. خلال الفترة التي ربما امتدت لأكثر من عشرة أيام، كانت علاقتي مع سديم تتطور، كنا نتمشى في أرجاء المكان حول الدار، أو نذهب إلى البحيرة القرمزية للاستحمام، أو الجلوس أمامها نتأمل مياهها القرمزية وشلالاتها المدهشة في وله. انفتحت شهيتنا للثرثرة، فكنا نتحدث في كل ما يعن لنا. ولا نتوقف عن الثرثرة إلا لكي تغني سديم بصوتها الجميل بينما أنصت لصوتها منتشيا. تبادلنا أحاديث مطولة. أخبرتني عن انفصال أمها وأبيها، ثم زواج أمها بعد ذلك من رجل آخر. قالت إنها بسبب هذا الانفصال الذي تعده أكبر أحداث حياتها مأساوية، قررت أن تستقل بحياتها، رغم أنها لم تكن قد تجاوزت 15 عاما. قالت إنها بدأت تخوض علاقات عاطفية منذ ذلك العمر. ومع دخول الجامعة بدأت في ممارسة الجنس مع الشخص الذي وقعت في غرامه آنذاك، ثم بدأت تُغرق نفسها في القراءة. قرأت بعض الروايات العاطفية. وتعرفت من أحد زملائها في الجامعة على دوستويفسكي، فأخذت تقرأ أعماله

بضراوة. ومنه بدأت تسمع عن كتب أخرى في الرواية والمسرح والشعر والفلسفة، ثم شاركت في المسرح الجامعي في لعب أدوار ثانوية، وحاولت كتابة الشعر. انتقلت مع صديقة من صديقاتها إلى شقة قريبة من الجامعة، بعد أن حوّل شقيقها البيت إلى مقر لتدخين الحشيش مع أصدقائه، وانتقال الأب إلى بلد عربي للعمل، واقتصرت علاقته بها وشقيقها على المصروف الشهري الذي كان يرسله لهما.

قالت إنها كانت تتمنى أن تعيش مثل غيرها من صديقاتها في بيت طبيعي، أب وأم، وبعد ذلك كل شيء يهون. قالت لي إنها فقدت اليقين في قيم كثيرة، وكفرت خصوصا بكل قيم العائلة، بسبب هذا الانفصال. كانت تقاوم شعورا عميقا بعدم الأمان. قالت إنها بدأت علاقات عاطفية ليس رغبة في اكتشاف جسدها، أو لحبها للمغامرات، أو حتى لتثبت لنفسها أنها مرغوبة وجميلة، كما كان شأن الكثير من صديقاتها.

قالت لي: كنت أريد فقط أن أشعر بالأمان. ولم أشعر به. كنت أشعر بالخوف. لم تكن له أسباب واضحة، لكني كنت خائفة باستمرار. أخبرتني إنها اكتشفت أن المجتمع يضع معايير الأمان في منظومة البيت المستقر فقط، أما خارج هذه المنظومة فلا يقدم المجتمع شيئا لتحقيق الأمان للفرد، وخصوصا للمرأة.

قلت لها إن التحاقي بكتائب المتكتم، في فترة من حياتي، ربما كان له علاقة بالخوف. أظن أنني التحقت بهم لأنني في النهاية كنت أرى في الانضمام إليهم الانتماء لسلطة لها مكانة في المجتمع. وفكرة الرقابة نفسها تمنح الإحساس لمن يمتهنها بأنه فوق الناس. يعرف ما لا يعرفون. ويقرر هو ما يراه صالحا لهم.

قالت:

فكرة حقيرة.

الخوف؟

لا   الانتهازية.

صحيح.. بس أعتقد أن الفكرة دي كانت ولاتزال حافزا لكثير من الشباب للالتحاق بمنظومة توفر لهم فرصة عمل، وسلطة ونفوذ.

قبل مرور عشرة أيام، عقب انعقاد الاجتماع الثاني والأخير، كانت قرارات قد صدرت، لم ننجح أنا أو سديم في الانضمام إلى معبد أنامل الحرير. قيل لنا إن مواهب فنية جبارة يجب أن يتحلى بها الملتحقون بالمعبد، بالإضافة إلى الذاكرة. وكان هذا يعني ضمنيا أن إمكاناتنا ضعيفة، وبالكاد تُلحقنا ببرامج النسخ العادية التقليدية. قيل لنا إننا سننضم إلى كتائب نسخ المخطوطات السريع. كان ذلك النوع من النسخ، أعدّت له قاعة فسيحة في المكتبة، وعلى طاولة طويلة تتسع لعشرة أشخاص على الأقل، يجلس كهل أو شيخ أو شخص يفاجئنا بفصاحته لو كان مبصرا، أو بذاكرته لو كان كفيفا. كان دور هؤلاء الشيوخ قراءة النص إما من نسخة مخطوطة وإما من الذاكرة، فيما يجلس خمسة منا في مواجهته، كل بقلمه وأوراقه، بحيث ننسخ معا خمسة نسخ من كتاب واحد. لم تكن هناك إمكانية لتوفير طاقة تكفي لاستخدام أجهزة نسخ حديث. وبالتالي اعتمدت فكرة النسخ باليد. لكن ما أبهرني حقا أن يتمتع شخص ما بذاكرة تمكنه من استدعاء كتاب كامل في بضعة مئات من الصفحات.

أخبرني ناصر بأن هذه المقدرة كانت أمرا طبيعيا قبل انتشار الكتب، وحين كانت الثقافة والأفكار تنتقل شفاهة. وقال إن الكفيف بطبيعة الحال لديه هذه الملكة أكثر من غيره، لأنه يريد أن يستدعي الكتاب أو ما يقرأ غالبا من دون أن يحتاج إلى أحد.

اكتشفت أن التجارب التي مررنا بها في مدينة الأنفاق أنا وسديم، لم تكن سوى تجارب هواة، وربما اختبارات من الكاتب الشبح وأتباعه مبكرا، لمعرفة من تمكن الاستعانة بهم في عمليات النسخ أو الالتحاق بمعبد أنامل الحرير.

الاختبارات كانت تتضمن أيضا بعض الاختبارات الطبية، التي يتم التأكد بمقتضاها من خلو المتطوع للنسخ من أمراض روماتيزمية، أو وجود زيادة في حمض البوليك، أو اليوريك آسيد، كما يطلقون عليه، في دمه، ما يجعل مفاصل اليدين قابلة للتأثر بسرعة من عملية الكتابة. اكتشفت أن معملا طبيا متكاملا موجود وملحق بمعبد أنامل الحرير، وأن الأطباء الموجودين به مجموعة من المتطوعين.

اختفى الجميع، منصور وفارس وزاهر وكذلك لطيفة وسناء. وعرفت من ناصر مفاجأة انضمام نقّار الزجاج إلى معبد أنامل الحرير. قال لي إنه تنكر في زي النساخين، وتسلل إلى المعبد، واستعان بأحد الخطاطين الكبار لكي يصبح مساعدا له يتعلم منه.

كنت مشغولا بتحسين خطي، وبحيث أتمكن من الكتابة بسرعة من دون إخلال بجمال الخط، وبالتالي كان عليّ أن أتدرب في فترات الراحة على الكتابة بسرعة. كنت أطلب من سديم أن تمليني موضوعا من أي كتاب، بينما أدوّن ما تقرأه. ولاحقًا بدأت التدوين في كتابي السري. وهو الكتاب الذي كان أقرب ما يكون لليوميات.

قلت إن مكانًا لا يفعل فيه أحد شيئًا سوى النسخ والكتابة والفن، هو أفضل مكان يمكن لي أن أنجز فيه مخطوطي الخاص. كنت أدوّن ما يشبه اليوميات. تفاصيل من رحلتي في مدينة الأنفاق. انطباعاتي عن مشاهداتي للكثير ممن رأيت هنا. تداعياتي عن فترة اشتغالي بين المتكتمين. كما دونّت مشاعري تجاه سديم.

في ليلة كنا قد استُنفذنا فيها طوال اليوم في أعمال النسخ، وعُدنا منهكين معًا من المكتبة إلى الدار، سألتني سديم عدة أسئلة عن تلك المرحلة. أجبتها عن أسئلتها، ونحن نسير متجاورين، ثم توقفنا أمام الباب، وقررنا أن نجلس على منصة حجرية قريبة لنستكمل الحوار. سألتني عن بدايات دخولي في جماعة المتكتم. لاحظت في عينيها قلقا غامضا. وكانت كل إجابة من إجاباتي تسبب لها نوعًا من الامتعاض، الذي كان يظهر جليًّا على وجهها، وتبدو وكأنها غير قادرة على مداراته. لم تعد تتقبل هذه الذكريات بمرونة، واعتبارها من قبيل المضحكات المبكيات، التي كنا نسخر منها معا. و لم أتمكن من فهم تحولها على هذا النحو.

شعرت بأنها عصبية. قلت ربما يعود ذلك لطول اليوم والإرهاق، لكنها كانت تعود للأسئلة، كأنها تختبرني أو أن لديها شكوكا تحاول أن تتأكد منها. وبعد حوارات مطوّلة فهمت منها أنها بدأت تشك في أن من يقبل أن يعمل كرقيب، لا يمكن أن يكون شخصًا سويًا ليقبل العمل في مهنة كهذه. استوضحت ما تقصد، فقالت إنها تدرك الآن أن الرقيب يتعامل مع النصوص بعقل المخبر، بعقلية شكّاكة، لا تعقل الأمور أو تحاول إدراكها، بقدر ما تحاول أن تبحث عن الألفاظ والجمل والأفكار المريبة.

تذكرت أنني بنفسي قد أخبرتها ذلك. كنت أحدثها عن إحساسي بالفارق الشاسع لفعل القراءة بعد العمل في عملية النسخ. قلت لها إن أغلب الكتب التي قرأتها كمتكتم أو رقيب كانت قراءة مشوشة. وبررت ذلك بأنه ربما يعود لأنني كنت في تلك القراءات مستنفرا، بحيث إذا وقعت عيني على كلمات بعينها يعمل جهاز إنذار في مخي ويعطي يدي الإشارة، لكي أضع خطوطا وملاحظات: كلمات مثل: الله، الدين، الإسلام، داعرة، مثلية، الديكتاتور، شبق، حسية، حميمية، جنس، أو أي إشارة لأي عضو جسدي... إلخ.

قالت لي إن من يقع في فخ الشك يتحول إلى شخص مصاب بجنون الارتياب، يشك في كل ما يحدث حوله، ويرى العالم من حوله كمؤامرة كبرى، يتحول الكون إلى مكيدة والبشر إلى مخططي مكائد ومؤامرات. قلت لها، موضحا، إن نظرية المؤامرة نظرية عالمية لا تقتصر على الرقابة، واستطردت أنه أيا كان أمر الرقيب، فإن خروجي عليهم في حد ذاته هو اعتراف بعدم قدرتي على التكيف مع الأمراض النفسية، التي يتسبب فيها العمل في الرقابة.

لم يكن الحوار مريحا، ومع عصبيتها الملحوظة في النقاش، وسوء مزاجها، وإحساسي بالتعب الشديد، قررت إنهاء الحوار لكي أخلد للنوم. اكتشفت أنها تمر بدورتها الشهرية، وقلت إن ذلك ربما يوضح سبب عصبيتها ولامعقولية النقاش معها. كنت أرى زيغ نظرات عينيها لأول مرة، يصدمني تخلي العينين اللتين طالما وصفتهما بالشعرية عن شعريتهما. أصبحتا قاسيتين. أوجعني قلبي لهذا الاكتشاف"

أحيانا أعيد استدعاء جوانب من متني كما اختلقه رشيد، مدركة كيف كان تأثير حياته الشخصية على النص. كان في تلك الفترة، على ما يبدو، مشغولا بالخلاف المأساوي الذي وقع بينه وبين يوديت. أرى الآن أن سديم بدأت تعاني من الشك في مشاعرها تجاه كيان. الشك في أن هناك جانبا خفيا تقليديا محافظا في شخصيته يحاول إخفاءه تحت قناع المتحرر المتمرد على أفكار قديمة بالية كان قد اعتنقها لفترة، ثم انقلب عليها.

"تجنبتها لعدة أيام، كان العمل على أي حال يهلكنا، ويعود كل منا ليلا إلى الدار منهكا. لا حاجة لأي منا إلا للنوم أو الصمت. كنت قلقا، يساورني الإحساس بأنني يجب أن أتحمل مسؤوليتي تجاهها لنتجاوز هذه الأزمة. ربما كان عليّ أن أدللها وأحاول إزالة ضباب سوء التفاهم، ولكني في الوقت نفسه كنت أخشى ألا تكون جاهزة للتفاهم. دخولنا في دوامة النسخ جعل من العمل أولوية أولى. وكنت أفكر أنه ما كان جديرا بي أن أقع في الغرام. فعمل مثل النسخ لا يحتاج سوى رهبان مثل رهبان معبد أنامل الحرير، ثم سرعان ما كنت أفكر بأن الحب يفعل المعجزات، ويقلب حيوات، ثم ثار حذري فقلت لنفسي وقد يحوّل الحياة إلى مجرد مأساة. تذكرت مقولة أبي "الحب عمل العاطلين" ولكي أقاوم هذه الأفكار بدأت أدرب ذاكرتي على حفظ النصوص التي أنسخها. قلت إن الإنسان في عصر حرق المعرفة وقتل الكتب ومطاردة الكلمات لا يحتاج إلى شيء قدر احتياجه لذاكرة. الذاكرة التي نجت دومًا من كل محارق الأفكار، وجسدت الجسر الذي نجت به البشرية بالمعرفة. رحت أستدعي جانبًا مما كنت أقوم بنسخه في الصباح:

"ليس المقدس خاصية ثابتة في الأشياء بل هو هبة سرية تخلع على ما تستقر عليه سحرا وجلالا يستثيران الشغف والرهبة، في آن، وليس هناك ما يصلح لأن يكتسب صفة المقدس كما ليس هناك ما يستحيل تجريده منها. إنه قوة من العتو والخفاء، بحيث لا تقبل الترويض ولا التجزئة، لذا كان يقتضي الحؤول دون دخول الدنيوي معه في احتكاك قد يجر عليه الوبال، تماما كما يفترض أن يصان المقدس من مطامع الدنيوي الذي يهدده بإفساده وتقويضه نظير ما تفسد الحشرة الثمرة أو يقوض العدم الوجود" (13)

رددت الفقرة أكثر من مرة، وتأكدت من حفظي لها، بينما كنت أفكر في المأساة التي نعيشها في هذه اللحظة كهاربين من مدينتنا، هربا من مجنون أضفى قدسية على جرائمه ضد المعرفة وضد الإنسانية والحياة.

ثم استعدت الفقرة التي حاولت حفظها اليوم أيضا:

إن قابلية المقدس للتفشي، من جهة، تقوده إلى الانصباب الفوري على الدنيوي حتى ليهدد بتدميره وسفح ذاته بلا جدوى. كما أن حاجة الدنيوي إلى المقدس من جهة أخرى، تحدوه أبدا إلى الاستيلاء عليه، حتى لينذر بتجريده من قدسيته والانحلال هو نفسه في العدم. من هنا ضرورة تنظيم علاقاتهما المتبادلة بمنتهى الدّقة والصرامة. تلك هي تحديدًا وظيفة الطقوس، التي نميز فيها بين نوعين: أحدهما إيجابي يتولى مهمة تحويل طبيعة كل من الدنيوي والمقدس، وفق حاجات كل مجتمع، والثاني سلبي يهدف إلى إبقاء كل منهما ضمن نطاق كينونته الخاصة، مخافة أن ينشأ بينهما احتكاك غير مناسب يؤول بينهما إلى التلاغي. تتضمن الفئة الأولى طقوس

التقديس، التي تدخل كائنا أو شيئا ما إلى العالم المقدس، وطقوس إبطال التقديس أو التكفير [14]

شعرت بالاحتياج للنقاش مع سديم، وتمزقت روحي مرة أخرى بسبب الأزمة الغريبة التي تتعرض لها علاقتنا بلا معنى. استدعيت كلماتها عن علاقة أمها بأبيها. فكرت أنها ربما بسبب انفصالهما لا تشعر بالثقة بشكل عام في العلاقات العاطفية، أو تخشى أن تنتهي العلاقة كما انتهت علاقة أمها بأبيها. ربما، لا أعرف. هذا كله وارد. تذكرت منتصر، وقلت لنفسي إنني بالفعل أحتاج للحديث معه. ولكني لم أكن أعرف كيفية الدخول إلى معبد أنامل الحرير.

ومع الأرق قررت الخروج على الأقل للتمشية. وكنت أعرف أن قدميّ ستقودانني إلى المكتبة. ومنها عبرت الرواق المؤدي إلى مدخل المعبد. كان الباب الخشبي العتيق المهيب مغلقا. دفعته فانفتح، واستقبلني اللون الأخضر لجدران البهو. خطوت خطوتين ولمحت منتصر من بعيد، كان منحنيًا على ما يشبه طاولة طويلة، منكبّا على ما لم أتبينه. دققت النظر فوجدت جسدًا بشريًا عاريًا يتمدد على الطاولة. ما الذي يفعله؟ هل يستعان به هنا بوصفه طبيبًا؟ ولكن لا وجدته يمسك بما يشبه قلمًا أسود طويلا، ويمرره ببطء شديد على الجسد المسجى أمامه. قبل أن أتقدم خطوة أخرى أحسست بيد تطبق على كتفي، التفت إلى يميني، فوجدت الرجل ذا النظارة السوداء، واقفا، وهو يسدد لي نظرته المتجهمة الجامدة. حييته وقلت له إنني جئت لزيارة منتصر. فقال لي:

اخرج من هنا الآن وحالا لا يحق لك دخول المعبد. لو كنت شخصا آخر لاتخذت إجراءات صارمة ضدك، ليس

أقل من استبعادك من فرق النساخين. لسنا هنا في دار للهو.

تأملت وجهه لأتأكد من مدى صرامة ما يقول، وأحسست أنه بالغ الجدية.. فلم أغامر.

خرجت من الباب الخشبي من دون أن ألتفت خلفي، لكني لم أستطع إزالة مشهد منتصر وهو يعالج مريضه ذاك على الطاولة، ولم يكن ممكنا بالنسبة لي الوصول إلى تفسير مقنع لما رأيت.

49

أستطيع الآن بعد هذه الرحلة الصامتة التي أعود فيها لذاتي بين آن وآخر، أن أحاول تركيب الصورة على النحو التالي. بعد أن زار رشيد معبد بوربودور، في صحبة آهران، في وسط جزيرة جاوا، انبهر من مبنى المعبد الحجري، الذي بدا مثل أسطورة قديمة من الحجارة شقّت مكانًا لها في فضاء العالم.

تأمل المعبد الصخري فبدا له من بعيد بناء مستطيلا تعلوه نواقيس تشبه أجراس الكنائس القديمة وقد تراصت بجوار بعضها بعضا، لكي تشكل سطح المعبد.

حين اقترب من بناء المعبد، عبر الممر الفسيح الممهد، الذي يتوسط البناء ويقود إلى الدَرَج، الذي يُقلّ الصاعدين إلى فنائه الداخلي، بُهتَ من فرط دقة الرسوم والنقوش المنحوتة على جدران المعبد الشاسعة. وبينما كان يصعد السلالم الحجرية التي تقوده إلى قمة المعبد، استدعى في ذاكرته عددا من السلالم التي ارتقاها في شتوتغارت، إلى بيت الفنون، إلى الغابة، إلى مبنى أثري، أو قلعة. كانت شتوتغارت مدينة هضبية، مقامة على تلال. عندما رأى ساقي يوديت لأول مرة، لاحظ أنهما أشبه بساقي رياضية،

حيث بدت سمانة الساق قوية. ربط ذلك لاحقا بوجود التلال العديدة في المدينة، والتي تحولت إلى شوارع محاطة بالبيوت، مدركا أن المشي في مدينة مثل شتوتغارت لا بد أن يقوي من سيقان أبنائها.

لكنه أكد لنفسه أن سلالم شتوتغارت ليس بينها مثل هذه الآرشات الحجرية، التي كانت تتوالى خلال ارتقائه درج المعبد، قاصدا تمثال بوذا المقام في القمة، والذي سيقف بجواره يتأمل العالم من حوله، بالأحرى تلك الغابة الشاسعة الممتدة أمام وخلف المعبد، ويعيد تأمل سيرة حياته كلها، مستعيدا صفاءه الذهني، خصوصا بعد أن أنصت إلى طقوس صلاة رهبان المعبد، وأشعل الشموع، وقرأ ما قدمته له آهران عن البوذية وعن المعبد.

تذكر سلمى. حضر وجهها ببشرتها القمحية وتقاطيع الوجه المنمقة، والمسامات المتسعة في وجنتيها التي كانت تلوح كتجاعيد خفيفة في وجهها، وعينيها المبتسمتين بابتسامة حالمة تعبر عن عمق عينيها وذكائها معا، كما تبدوان لمن يتأملهما كنافذة لروح مطمئنة بلا ضغينة.

استعاد ما حكته له عن زيارتها لمعابد بوذية في زيارة قامت بها لعدد من دول آسيا. وحاول أن يتخيل وجودها في المعبد نفسه. فكر بأن قدومه إلى هنا ربما يعود لما زرعته سلمى في وعيه عن معنى السلام الروحي، وأن دعوة آهران له لزيارة المكان لم تكن سوى ترجمة لتلك الرغبة العميقة التي بذرتها سلمى في روحه قبل سنوات عدة، ثم عاد ليذكر نفسه بأن استدعاءه لسلمى أيضا قد لا يكون سوى محاولة من وعيه لتخفيف حدة تعلقه بيوديت.

ربما شعر آنذاك، أن روحه قد شفيت من أوهامها عن حقيقة ما يؤمن به ويفعله أصدقاؤه المصريون في ألمانيا، وشفي من آلام انفصاله عن يوديت، طبعا لا يمكن القول إنه تجاوزها، لكنه على الأقل كان قد ملأ روحه بحب العالم، أو الكون، كما كان يردد لنفسه ولآهران.

لكنه حين عاد إلى القاهرة، وجد نفسه وحيدًا ويائسًا. لم يكن يعرف ما ينبغي عليه فعله. ولم يجد في نفسه أي شغف بالعودة لعمله كمرشد سياحي.

أظن أن لقاء صديقه القديم قاسم قد تم في تلك الفترة، ولعلهما تبادلا الحديث عن هزائم حياتهما المتوالية، ومسارات حياتهما منذ انفصالهما في صدر المراهقة. ولعل مثل هذه الأجواء اليائسة، سهلت على قاسم مهمته في إقناع رشيد بمعاونته في تهريب المخطوطات.

يبدو لي أنه حين استفاق من هذا الوهم، إما لأن ضميره انتفض ووجد أن المآل الذي بلغه بتحوله إلى مجرد مهرب لمخطوطات أصلية أو مزوّرة لا يمكن أن يحقق له شيئا، وإما أنه اكتشف أنه تورط في طريق أراد أن ينجو من نهايتها التي شعر بأنها ستهلكه. لا يمكنني أن أتفهم تورط شخص مثله في أعمال كهذه.

هل أعاد آنذاك الاتصال بيوديت؟ أعتقد ذلك. حين أعادني من محبسي أخيرا قبل نحو ثلاثة أيام من سفره، على متن باخرة، تتجه إلى اليونان، ومنها لإيطاليا، ربما لأنه أراد أن يتعرف على البلد التي تقع يوديت في غرامها ويفهم أسباب عشقها لها ولأهلها، على أن

يسافر بعد ذلك إلى ألمانيا برًا، كان يؤكد لشقيقته التي جاءت لتزوره في بيت العائلة أنه لن يجد سيدة يمكن أن تفهمه أو تمثل له المثالية والكمال، مثل يوديت. حكى لها عما حدث بينهما من سوء تفاهم. وأخبرها أنه تأثر بعدد من المصريين هناك، وتعاطف معهما ضد الإحساس بالعنصرية. قال لها أيضا إنه صب غضبه على الشخص الخطأ.

يا إلهي! هل يعني ذلك أنه نجح في الوصول إليها؟ هل يكون قد وصل لروما بالفعل، ومنها نجح في العودة لشتوتغارت وليوديت؟ أم أن مياه البحر قضت على آماله؟ كيف وصلت إليه تلك العصابة في وسط البحر؟ الآن، أفهم إذن أن محاولته للهرب على متن الزورق الصغير كان قد خطط لها بعد علمه أن العصابة وصلت إليه في تلك السفينة.

أكاد لا أصدق أن رشيد دمر نفسه بنفسه على هذا النحو! كيف أمكن له أن يفعل ذلك؟ لا يمكنني حتى أن ألوم قاسم. فإذا كان قد ارتضى لنفسه ذلك فما هي مبررات رشيد لقبول خوض مثل هذه المهمة؟ منحته آهران فرصة مثالية لكي يعيد تأمل ما أصاب روحه في ألمانيا، بل ربما ليعيد تأمل حياته كلها وتنقية روحه من كثير من النقاط السوداء، وفهم العالم بطريقة أكثر نضجا، فلماذا لم يتعلم من تلك التجربة شيئا؟

"عدت إلى الدار، تسيطر عليّ الدهشة. كيف تسلل منتصر إلى هناك، وأصبح أحد فرسان معبد أنامل الحرير؟ ومن هي صاحبة أو صاحب الجسد العاري الذي/ أو التي كانت مستلقية تحت أنامله؟ لا

بد أن سديم تعرف شيئا عن هذا الأمر. لم أتردد في إيقاظها بعـ ا، تسللت بجوارها على الفراش. سألتني بلسان نائم عما بـــي، فحكيـــ لها بلا مقدمات ما رأيته في المعبد. صمتتْ و لم تعلقْ. واكتشفتُ أنها راحت في النوم مرة أخرى. أعدت الحديث بصوت عال، وســـألتها إذا ما كانت تعرف حقيقة معبد أنامل الحرير؟ فأكدت أنها لا تعرف شيئا أكثر مما أعرف.

حاولت اغتنام الفرصة لكي أفتح موضوع سوء التفاهم بيننـــا، قبل أن تغط في النوم مرة أخرى. قالت إنهـــا ســـتفكر في الأمـــر في الصباح، ثم اقتربت مني واحتضنتني. قبلت رقبتها، وأنا أشعر بانقشاع ضباب الوجل من روحي.

في الصباح لم أجدها بجواري حينمـــا اســـتيقظت. اغتســـلت وارتديت ثيابـــي بسرعة، وهرعت أركض باتجاه المكتبة. لم أجـــدها هناك. وكان ملقن المخطوط قد حضر وجلس في مكانه. وجـــدتُ ثلاثة من الرفاق في أماكنهم وقد تركوا مقعدي الثاني مـــن الـــيمين خاليا، وظل موضع الرفيق الخامس خاليا. ألقيت التحية، وانتظرنا معا قدوم الرفيق الخامس الذي سرعان ما حضر، وبـــدأنا في اســـتكمال نسخ المخطوط الذي بين أيدينا.

حين انتهت الجلسة الأولى هرعت خارجا أبحث عـــن ســـديم. تأملت موضع النساخين الذين ينقلون المخطوطات مباشـــرة في بهـــو البناء السفلي، ووجدتها تقف مغتنمة فرصة الراحة وهـــي تتحـــدث لإحدى الناسخات. فتوجهت صوبها وانتظرت حتى انتهت وأشرت إليها. اقتربت مني فحييتها واستفسرت عن سبب خروجها مبكـــرا، فابتسمت وقالت إنها كانت تشعر بالفضول لمعرفة حقيقة معبد أنامل

الحرير نظرت إليها بدهشة، فأشارت لي أن نبتعد.. خرجنا من المبنى، ثم همست لي قائلة:

اكتشفت إن الكاتب الشبح عامل خطة للثورة بس بطريقته.

مش فاهم.. ثورة إيه؟

الست اللي إنت شفت منتصر امبارح بيكتب على جسمها هيّا نيرد.

فعلا؟

أنا اتأكدت من كل حاجة. معمل أنامل الحرير كان بيدوّر على أصحاب القدرة على الوشم والخط على الجسم. فيه جيش من المتطوعات بيتكتب على جسمهم أجزاء من كتب. كل واحدة بيتكتب على ظهرها صفحة وعلى بطنها صفحة من كتاب معين، وبيتعمل فريق لما يقفوا جنب بعض تقدر تقرا الفصل بالتتابع على جسمهم.

فكرة غريبة جدا.

جدا. اكتشفت إن الكاتب الشبح هيبدأ بأول دفعة من البنات دول إنهم يروحوا مدينة الظلام في فرق كبيرة ويختاروا أماكن بعيدة عن عيون رجالة المتكتم ويقفوا عريانين، بحيث الناس تقرا اللي مكتوب على جسمهم.

فكرة مجنونة.

فكرة عظيمة.

بس مخيفة.

- قصدك إيه؟

تفتكري المتكتم هيسكت؟ دي عملية استفزاز مكشوفة.
هيعمل إيه يعني؟
ماعرفش.. "هيئذي البنات دول أكيد" دي أول حاجة، وبعدين.. مش عارف.. ممكن يبدأ فعلا يحاول يهاجم المكان هنا.
مش عارفة. عموما خللينا نتكلم بالليل. أنا لازم أمشي دلوقت علشان يا دوب وقت الراحة قرّب يخلص.

انصرفت بعد أن قبلتني. اعتبرتُ القبلة اعتذارا ضمنيا منها عمّا حدث، وأدى إلى سوء التفاهم. استدعيت ما قالته لي عن نقار الزجاج ونيرد، واكتشفت أن أحدا لن يحل لي هذا اللغز سوى ناصر لم يعد ممكنا لي الآن تكرار محاولة الدخول إلى المعبد وحدي. وهكذا عدت إلى الطابق العلوي مرة أخرى، لاستكمال النسخ في كتاب الإنسان والمقدس للفيلسوف الفرنسي روجيه كايوا.

حينما نجحت في الوصول إلى ناصر عقب انتهاء فترة النسخ اليومية، بدأ بإنكار الأمر، ولكن مع إلحاحي وتأكيدي له أنني رأيت بعيني ليلة أمس نيرد مضطجعة أمام نقار الزجاج. صمت قليلا، وطلب مني أن نبتعد.. خرجنا وسرنا باتجاه الشلالات.

أبدى ضيقه من تسريب هذا الأمر، ثم أوضح أن الاجتماع الذي عقد كان من بين أهدافه استيضاح مدى قوة الرغبة في مجتمع مدينة الأنفاق ومدينة النساخ في بدء إحداث قلقلة الأوضاع في مدينة الظلام، أو حتى وصولا إلى الثورة على المتكتم وأنصاره. ثم استطرد موضحا أن الكاتب الشبح يعتقد أن مشروع النسخ في الأساس هو مشروع ثوري، ولكن الأفكار التي طرحت في الاجتماع عن سبل

المواجهة كلها لم تلق منه ترحيبا، وقال إنها تبدو فقيرة الخيال. ولهذا فبعد تفكير قرر طرح مشروع مبدئي للثورة، يتم خلاله نسخ النصوص الممنوعة على الأجساد البشرية، وتم الاتفاق على أن يبدأ الأمر بجسد السيدات لإحداث صدمة أولا، ولأن مهاجمة السيدات لن تكون بسهولة الهجوم على الرجال، قال موضحا إن السيدات سيخرجن إلى مدينة الظلام وهن متشحات بالسواد، ولكنهن في أماكن بعينها، ووفق تنظيم محدد وفقا للنصوص، سوف يخلعن ثيابهن فجأة ويقفن في حشد ضخم، وسوف يقمن بدهن أجسادهن بالزيوت، بحيث يصعب الإمساك بهن لو تمت مواجهتهن.

صمت ناصر قليلا، ثم قال إنه ليس متأكدا من مدى نجاح هذا الأمر. ولكن مع استفحال سلطة المتكتم، يريد الكاتب الشبح أن يوجه رسالة إليه بأنه لن يصمت أمام ما وصلت إليه المدينة، ولكي يشجع جماعات المقاومة الموجودة التي تقيم تجمعات للقراءة، أو لعمل عروض فنية أو غيرها في أماكن سرية، تأكيدا لأن جماعة الخطاطين السرية تقف خلفهم.

دار بيننا نقاش واسع عن الأمر، ومدى أهميته وخطورته، بينما كان ذهني مشتتا لأنني كنت قررت التسلل إلى المعبد بأي ثمن.

* * *

مر الزمن عليّ في وحدتي حتى انتهيت.. فهل انتهيت حقا؟

انتهى رشيد من هذا الجزء، ولكنه لم يكمل نهاية الرواية. لم يستكملني. ألهذا كنت أشعر دوما بهذا الشعور بالنقص؟! هل كنت أتجاهل أمر عدم إتمامي. هل كان انتظاري لرشيد له علاقة

بإحساسي بضرورة اكتمالي؟ والآن بعد أن تبين لي أنني ربما سأظل، معلقة هنا كرهينة أو سجينة أبدية في هذه الزنزانة كيف سيكون الأمر؟

أظن أن رشيد كان بصدد استدعاء معبد باربادور في هذا الجزء الأخير من متني. لولا اضطراره للهروب من السفينة.

كان يريد لكيان أن يتسلل إلى المعبد، تقريبا كما فعل هو حينما أصر أن يبيت ليلة في المعبد البوذي العتيق. انتظر غروب الشمس، وأخبر آهران أنه لن يعود معها إلى الفندق. سألته بدهشة، وقد ضاقت عينيها تماما، عن السبب، فقال لها إنه سيبيت الليلة مع الرهبان. أخبرته أن هذا المعبد لا يتيح المبيت لغير الرهبان، لكنه أوضح لها بإصرار أنه لن يتراجع عما خطط له. ظل مختبئا خلف تمثال بوذا الموضوع داخل بناء حجري مستدير يحتفي بجسد بوذا الجالس داخل الدائرة يتأمل العالم في صمت.

في بداية المساء تسلل من مكمنه حتى بلغ المدخل المهيب للمعبد المقدس، وطرق الأبواب مطولا من دون أن يستجيب له أحد. وفي النهاية وقبل أن يصل اليأس مداه. سمع طرقة، وصرير الباب العملاق ينفتح، قبل أن يظهر أمامه شخص يرتدي زي الرهبان الأصفر، الذي ينسدل على جسده الدقيق النحيف، ويترك الكتف عاريا. تأمل الوجه الحليق صاحب العينين الضيقتين البريئتين. لم يكن أي منهما يعرف لغة الآخر، لكن التفاهم تم بينهما بلغة الإشارات وإيحاءات العيون، وانتهى الأمر به نائما بجوار جدار خشبي مزركش، على حشية وثيرة أحضرها له أحد الرهبان، يتنشق عبق البخور وينصت لما تصوره روح العالم. وقد حلّت على روحه السكينة.

لكن ماذا عن معبد أنامل الحرير؟ تُرى كيف أراد أن يصوره؟ وكيف كان سينهي رحلة كيان في داخل المعبد؟ أشعر أن وحدتي التعيسة في سفينة الحمقى التي ألقاني فيها القدر، أو سوء الحظ، تحمسني لكي أجد وسيلة ما للقضاء على هذه الوحدة. ينبغي لي أن أتمم مصيري الذي يشكل هويتي أولا، ثم أجد وسيلة لكي أحول صمتي هذا إلى صراخ يسمعه العالم كله. ولكن كيف؟

النهاية

50

ليذهب كيان إذن إلى المعبد. وليتسلل واقفا بجوار الباب، حتى يجد الفرصة للدخول. سينتظر طويلا حتى يجد امرأة لم يسبق له رؤيتها من قبل تتوقف أمام الباب. كانت امرأة في الأربعين من عمرها كما قدّر، تتشح بثوبٍ أسود يغطي جسدها كاملا. لم تلتفت له حتى انفتح الباب العملاق. فدخل خلفها، وتوقف قليلا، متأهبا ومنتظرا ليد خفية تطبق على كتفه.. لكن شيئا لم يحدث.

سارت السيدة عبر البهو الأخضر، حتى اختفت، فتسلل حذرا، ملاصقا للجدران، متجنبا المدخل الصغير إلى اليسار الذي رأوا فيه "إيد الحرير"، وانطلق يمينا إلى الرواق الذي يفصل بين البهو الأخضر وبقية المكان. لمح السيدة الغامضة وهي تمر عبر ممر ضيق معتم، يضيئه سراج وحيد خافت معلق على الجدار. أحس بأنفاسه اللاهثة تكشف توتره، فجذب نفسا عميقا داعيا نفسه للهدوء. حينما انتهى الممر وجد نفسه في باحة كبيرة مضاءة [illegible] عشرات من المصابيح الزيتية. ولم يجد للسيدة أثرا.

كانت الباحة الدائرية تحيط بما بدا له بناء خشبيا، سرعان ما أدرك أنه مكتبة خشبية عملاقة تحتفظ بمئات المخطوطات. سار في دائرة كاملة حول المكتبة، بينما فاضت أنفه بخليط من روائح الأحبار والأوراق. واكتشف ثلمة دائرية في أحد الجدران تقود إلى مدخل خفي، فانطلق باتجاهها. وجدها تقود إلى بهو تناثرت فيه غرف خشبية مربعة متجاورة، أدرك أنها صومعات مخصصة للرهبان والنساخ الموهوبين في المعبد. لم يعرف ماذا يجب عليه أن يفعل. انتظر قليلا واكتشف أن الأبواب الصغيرة المخصصة لكل صومعة مجرد حواجز خشبية قصيرة أكثر من كونها أبوابا، فانبطح على الأرض يتأمل الغرف المغلقة. حتى توقف عند صومعة بعينها أحس أنه يعرف صاحب القدمين الواقفين بها.

دفع الباب برفق، فوجد نقّار الزجاج بالفعل يقف مرتديا وشاحا أخضر ضيقا، كأنه يلتف على جسده النحيل، ويقف قريبا من جدار الغرفة الخشبي، وأمامه وقفت امرأة عارية كالمصلوبة وقد أدارت له ظهرها. وحين أحس منتصر بوجوده والتفت إليه اكتشف أنه ينقش نصا كتب منه بالفعل نحو ثلاثة سطور بخط جميل أعلى ظهر الفتاة. لم تلتفت الفتاة أو تتحرك، بينما أبدى منتصر دهشته من كيفية وجود كيان في المعبد. حيّا كل منهما الآخر. واعتذر منتصر من الفتاة فتنهدت. وأنزلت ذراعيها المرفوعتين والمستندتين على حلقتين معدنيتين مثبتتين في الجدار.

كانت فتاة عشرينية ذات جسد نحيف وبشرة شاحبة، أردافها صغيرة، وفخذاها نحيلان. كانت قلة الطعام والتقشف المضروب في المعبد ومدينة النساخ إجمالا قد أثرت على مظهر أغلب الموجودين الذين أصابهم الهزال.

جلست الفتاة على أريكة خشبية قريبة من موضع وقوفها، وأشار منتصر لكيان لكي يخرجا من الصومعة. انطلق منتصر داعيا كيان للسير خلفه حتى خرجا من باحة الصوامع وصولا إلى قاعة أخرى وجدها كيان ممتلئة بأعمدة رخامية بيضاء تتناثر في كل مكان، وتشكّلت في ما بينها ممرات عديدة وأروقة. تأملها كيان فشعر بأنها تخلق متاهة لا يمكن أن يعرف أي أحد إلى أين تمضي بمن يسير بينها.

لاحظ كيان أصواتا لم يتمكن من تحديد كنهها، بدت له كأنها تصدر من خلف الأعمدة. كانت مزيجًا بين التراتيل المبهمة وبين الغناء.

تأكد منتصر من أن أحدا لا يراهما أو يراقبهما، وشرح له هامسًا أن الكاتب الشبح قرر أن يجيّش فريقًا من الفتيات إلى مدينة الظلام. أخبره كيان أنه عرف التفاصيل من ناصر. وسأله عن كيفية وصوله ليكون من بين النسّاخ الموجودين في المعبد.

ابتسم له منتصر، وجلس على قاعدة أحد الأعمدة بثوبه الأخضر، الذي يلتف على جسده، فيبدو به كمومياء ملفوفة في كتان أخضر، وقال:

أنت السبب.. لولاك لما عرفت أهمية فكرة النسخ.

ثم شرح له كيفية تسلله إلى مقر السيدة التي شاهداها معا عند زيارتهما للمعبد مع ناصر. يد الحرير؟ نعم هي بالضبط. قالت لي إنها سوف تخضعني لاختبارات فنية، ولو ثبتت لها موهبتي فسوف تكون مسؤولة عن انضمامي للمعبد.. وقد كان.

وماذا عن النسخ على جسد الفتيات؟ هل يعد أصعب من النسخ على الورق أم أسهل؟

قال له إن الأمر في التعامل مع الجسد أشبه بالرسم أكثر. نحن نقوم برسم خطوط النصوص المختارة بالكيفية التي تردنا بها التعليمات، ثم تنتقل الفتيات لاحقا إلى أقسام المتخصصين، ليحولوا الرسوم أو الخطوط إلى وشم لا تمكن إزالته. الكثير من الفتيات يفعلن ذلك بحماس رغم المخاطر التي قد يتعرضن لها.

أخبر منتصر صديقه أن جيشا مبدئيا من نحو مائة وخمسين فتاة قد توجهن بالفعل إلى مدينة الظلام، وأنهم بصدد الانتهاء من كتابة النصوص على أجساد مجموعة مماثلة.

صمتا قليلا حين ارتفعت أصوات الترانيم الغامضة في المكان، وتردد صداها بين الأعمدة الرخامية.

ولنترك منتصر الآن مع كيان، قبل عودة منتصر إلى الفتاة النحيفة التي تنتظر باقي النص الذي ستحمله على جسدها مدموغا، لكي تصبح قربانا للمعرفة في مدينة الظلام.

نعم، لنتجه إلى مدينة الأنفاق التي شهدت حركة ونشاطا كبيرين، بعد أن انتشرت أخبار الفتيات المخطوطات، واللائي عرفن بالمخطوطات العاريات، وقدرتهن على إثارة الاستفزاز في أروقة قصر المتكتم، فقد أنصت لمن نقل له الأخبار أولا وهو يبتسم، معتبرا أن ما يقال له لا يعدو أن يكون مجرد دعابة، ولكن حينما لاحظ جدية وارتباك رئيس حرس المتكتمين وهو ينقل له الأخبار، بدأ يحوّل ملامح وجهه من المرح إلى أقصى الغضب. وحين طلب منه أن يُكمل ما يقول، أوضح له الرجل أن مجموعات من الفتيات العاريات وقفن في أرجاء المدينة، ليعرضن نصوصا فلسفية وفكرية وأدبية موشومة على أجسادهن، وأن جموعًا من سكان المدينة

احتشدوا لمطالعة الفتيات مبهورين بعريهن في البداية، ثم سرعان ما بدأ انتباههم يتجه إلى الكتابة المنقوشة على أجسادهن.

وحين بُلّغ رجال المتكتم بالأمر، واتجهوا إلى مواقع التجمعات، التي تم الإبلاغ عن وجود أولئك الفتيات فيها، بُهتوا من العري التام الذي واجهت به الفتيات سكان المدينة. وبالرغم مما عُرف به رجال المتكتم من وحشية وبربرية، فإنهم أصيبوا بالحيرة لأول مرة، إذ لم يكن لديهم تصور واضح عن الكيفية التي يمكن لهم بها مواجهة أولئك الفتيات العاريات. توقفوا أولا مبهورين بمشهد العري، وحين أمروا الفتيات بالاحتشام وارتداء ملابسهن أو مغادرة المكان، فوجئوا بأن الفتيات لم يحركن ساكنا، وظللن واقفات أمام الجمهور، من دون أن يرمش لأي منهن جفن. وقد كان لقوة صمودهن تأثير خفي في قلوب رجال المتكتم الذين شعروا بأن قوة الفتيات في تحديهم على هذا النحو قد تعني أنهن متبوعات بقوى أو جماعات أخرى من أنصار الكاتب الشبح. فتركوا الفتيات وأخذوا يركضون وهم يفتشون المكان؛ يتأملون الوجوه ويفتشون المارة خوفًا من أن يكونوا مسلحين.

حين وصلت الأخبار إلى المتكتم ثارت ثورته، وأرسل حشدا من رجاله المعروفين بشراستهم، وأغلبهم يعملون في حراسته شخصيا، ليلقنوا الفتيات المارقات درسا، ولتلقين رجاله المخنثين، كما أطلق عليهم، الذين وقفوا عاجزين أمام مجموعة من النساء العاريات، درسا أشد في كيفية التعامل مع المارقين والمارقات أيا كان الظرف.

لكن رجال حراسته الشخصية الذين تلقوا تلك التعليمات حين وصلوا إلى المكان المحدد لهم لم يجدوا فيه أحدا. ومع ذلك راحوا يتجولون في محيط ظهور الفتيات مطولا، يتأملون الوجوه، ويعتقلون

كل من تساورهم فيه الريبة ممن قد يكون قد شارك في مساعدة تلك الفتيات على الاختفاء. أحاطوا مداخل الكثير من الساحات العامة بأتباعهم وأنصارهم، لكي يقطعوا الطريق على ظهور الفتيات أو تجمعهن مرة أخرى.

وبالرغم من كل ذلك، ظهرت الفتيات مرة أخرى في اليوم التالي مباشرة. وبالطريقة نفسها كن يتجمعن، بحيث تأتي كل منهن بمفردها من جهة ما، متسربلة بالأسود من أعلى خصلة في شعرها حتى أخمص قدميها، وتنتظر حتى تتأكد من وجود جماعة الفتيات الأخريات قريبا منها، وفي لحظة محددة يبدو أنهن اتفقن عليها بشكل منظم خلعن عباءاتهن وأصبحن عاريات تماما، واعتمدن النظام الخاص بهن في الوقوف، ترتيب يتيح تتابع النصوص المنقوشة على أجسادهن، ليشكلن فقرة أو فكرة مكتملة مجزأة على عدد من أجساد الفتيات.

تكرر أمر تجمهر الجمهور من المراهقين والبالغين، وقد وقفوا يتأملون الأجساد العارية، ثم سرعان ما بدأوا الالتفات للنصوص. البعض من الجمهور بدأ جولته من الفتاة الثالثة في ترتيب وقوفهن، لأنه كان قد انتهى من القراءة عندها في الأمس.

كان المشهد من بعيد، لمن لا يرى الكتابة المنقوشة على ظهور الفتيات، وأردافهن، وبطونهن، يبدو كأنه تجمع لراقصات عاريات يعرضن عريهن لجماعات من المهتاجين الذين يدققون النظر في أثداء العاريات وأردافهن.

وحين وصل حرس المتكتم وبدأوا في الإحاطة بالفتيات والإمساك بهن، فوجئوا بأن الفتيات ينزلقن من بين أيديهم، بسبب

الزيوت التي أغرقن أجسادهن بها. وتحول الأمر إلى مسخرة. فالفتيات وقعن في أيدي حرس المتكتم بالفعل. لكن لم يتمكن أي منهم أن يمسك بواحدة منهن. كان الحارس يركض مرتديا زيه الأفغاني الطراز، وأمامه تركض لحيته، ولكنه بمجرد الإمساك بذراع واحدة من الفتيات، يبدو كمن يمسك بالسراب. فتنزلق الأذرع والأكتاف من بين أيديهم، وخشية أن يظن البعض من الجمهور أنهم يتحرشون بالسيدات العاريات لم يتمكنوا من المبالغة في إحكام القبض على الأجساد العارية.

وفي النهاية تمكنت الفتيات من الهرب، واحدة بعد الأخرى، حتى أصبحت هناك ثلاث فتيات فقط، سرعان ما قام الجمهور بعمل درع بشري لحمايتهن وتيسير سبيل الهرب لهن قبل أن يقعن في أيدي حراس المتكتم أو أتباعه.

سرعان ما أصبحت الفتيات العاريات حديث مدينة الظلام، وهو ما أدى إلى ظهور كافة الجماعات السرية ممن كانوا يمارسون المحظورات، من تجمعات للقراءة، أو أمسيات شعرية، أو عروض مسرحية سرية، أو شعراء أو فنانين، في الطرقات، لكي ينضموا للفتيات العاريات، ويحاولوا أن يحرسوهم ويوقفوا أذى أنصار المتكتم عنهم.

سادت في المدينة روح جديدة، وأصبح أغلب سكان مدينة الظلام يترقبون ظهور الفتيات في أي طريق أو شارع. والبعض كانوا ينتظرون في شرفات منازلهم، على أمل أن يلمحوا ظهور المخطوطات العاريات في الطريق.

انتقلت الأخبار إلى مدينة الأنفاق بسرعة، وبينما رأى البعض أن الأخبار تشجعهم على الإحساس بالمزيد من الحرية، فكر البعض

بأن يبدأوا حملة شبيهة، يقوم فيها عدد من الشباب والفتيات بكتابة نصوص وشعارات وأشعار على أجسامهم، ويتحركون في مجموعات.

لكن من جهة أخرى، وبسبب إحساس أنصار المتكتم أن ثمة ثورة تتمخض من بطن الأرض كما أعلنوا في أكثر من موقع، بدا واضحا لرواد مدينة الأنفاق زيادة عدد وجوه أشخاص لم تسبق لهم رؤيتها من قبل. أثار ارتيابهم في تلك الوجوه الإحساس بأن مدينة الأنفاق قد تتعرض لهجوم من أتباع المتكتم في أي لحظة، ما جعل الكثيرين يفكرون في الاختباء في المناطق الكهفية غير المعروفة، بينما قرر آخرون المواجهة والاستعداد بكل السبل لمواجهتهم إذا اقتحموا مدينة الأنفاق.

ويبدو أن هذا التوتر قد ألقى بظلاله على مدينة النساخين، فبينما كان العمل في معبد أنامل الحرير يجري على قدم وساق في الكتابة على أجساد أعداد متزايدة من المتطوعات، فوجئ جميع سكان مدينة النساخين بدعوتهم لاجتماع طارئ لم يتخلف عنه أحد تقريبا، وأعلن فيه الرجل ذو النظارة السوداء أن مدينة الأنفاق قد اخترقت من قبل رجال المتكتم، إثر تتبعهم لإحدى الفتيات العاريات في طريق عودتها إلى الأنفاق.

وإثر اللغط والهمهمات التي ثارت، أشار ذو النظارة السوداء للحضور بيديه، موضحا أن أحدا من الموجودين لم يعد يمتلك رفاهية الوقت اللازم للتصدي لهذه الأزمة. وكان القرار الذي اتخذ هو الهروب بأكبر عدد ممكن من المخطوطات على ظهر القوارب التي ستتجمع عند البحيرة القرمزية، ومنها إلى النهر. وأما

رهبان معبد أنامل الحرير فلا خوف عليهم، إذ سيغلق عليهم المعبد، لأن لـه منفذ واحد سيتم إحكام إغلاقه وضمان الحفاظ على كل محتوياته.

* * *

وهكذا جاءت فرصتي الأخيرة لكي أقضي على صمتي ووحدتي هذه. فإن كان مصير رشيد سيظل معلقا للأبد، وسوف أظل رهينة هنا في سفينة الحمقى هذه، فليس أقل من أن أوجد صوتي بنفسي، وأعلن عن وجودي بل وخلودي وللأبد أيضا.

فلتنفذ التعليمات يا كيان إذن، اذهب الآن واستعد لإحكام لف المخطوطات، وأنت يا نقّار الزجاج، لا تتردد، فلم يعد هناك وقت، لا يمكن لك أن تقضي بقية حياتك في المعبد، فأنت من يجب أن يسهم في حفظ المخطوطات، مع ناصر. وإذا كان ترددك يعود لشغفك بنيرد ووقوعك في غرامها، فاعلم أنها وفتيات المخطوطات العاريات كافة سوف يستجبن لتعليمات الكاتب الشبح، وسوف ينتقلن للقوارب الهاربة من مدينة الخطاطين، ومعهن كل الهاربين من مدينة الأنفاق لأجل الإسهام في نقل تراث مدينة النساخين إلى مكان أكثر أمنا.

نعم انهضوا جميعا من أماكنكم، وانفضوا الكسل والتردد عن أرواحكم. أنصتوا لتلك الموسيقى التي ستفيض على المكان، كأنها تراتيل أرواح المعرفة التي تحميكم حتى خروجكم، وليذهب الرهبان الآن ليعدوا ما استطاعوا من طعام وماء، ليخزنوه في الأيام العديدة التي سيغلقون خلالها أبواب المعبد على أنفسهم، ومعهم كبار الخطاطين والخطاطات.

أسرعوا وأعدّوا الزوارق والقوارب. سيأتيكم ناصر بخبر مخابئها، وسوف يطلعكم على كيفية نقل المخطوطات والأوراق واللفائف إليها. قسمّوا أنفسكم، ونفذوا تعليماته حرفا بحرف، واطمئنوا فسيكون خروجكم من مدينتكم الجبلية الصخرية هذه آمنا، أعدكم بحق الأدب والسرد وسأوفي بوعدي. سيبدأ في منتصف الليل، فانتظروا، وسوف يأخذكم المجرى المائي إلى مجرى النهر ليلا، ومنه سوف تنتقلون إلى البحر.

أسمعوني صوت أقدامكم تضرب الأرض في حماس، أعلنوا لي أنكم أنقى من عرفت المعرفة إخلاصا، وشجاعة ويقينا في أن الأدب وحده هو الذي سيخلصكم، كما سيفعل أهل مدينة الظلام بعد أن تلقوا الدرس جيدا وأصبحوا جميعا يعتبرون أجسادهم جسر المعرفة الذي لا يمكن للمتكتم أو أي من أتباعه أن يمسه بسوء، فإن اعتقل منكم ألفا فسوف يظهر غيركم آلاف، إن قتل منكم فردًا، ناسخًا، أو خطّاطا، أو حتى امرأة جعلت من جسدها مخطوطا حيا، فسوف يولد لكم ألف جسد مخطوط.

وأنت يا سديم! ماذا تنتظرين؟ أحقا تظنين أن هذا الوقت يصلح لتلك الرفاهية العاطفية؟ هذه الهشاشة الرومانسية لا تصلح حين تبدأ الأحداث الكبرى. كوني واقعية إذن واعرفي أنه لا مكان لك في المعبد. هل تريدين أن تعيشي لعبة الدراما؟ سوف تحاولين إقناع كيان بأن يبقى معك في معبد أنامل الحرير لكي يدافع عنه معك؟ هل هذا ما ترغبين فيه حقا؟ وعندما يرفض ذلك، لأنه يرى أن الحفاظ على المشكوك في حمايته له أولوية أولى فماذا ستفعلين؟ سوف تتهمينه بالتخلي عنك.. أليس كذلك؟

إن كان كذلك، فاعلمي أنك تخلقين الدراما من العدم. للمعبد رهبان يحمونه. أما أنت فمكانك هناك في ذلك الزورق الذي رسي الآن في البحيرة وينتظر حمولته من ثمين المخطوطات، ولن يتحرك إلا بعد أن تقفزي فيه بجوار كيان وتنطلقان مع كل حماة هذه الثروة. وسوف أكون في انتظاركم جميعا فلا تقلقوا! هيا تحركوا الآن.

سفينة الأشباح

لست رشيد الجوهري، ولا أرى أن من حقي أن أضع اسمي في ختام هذا النص. ربما أن الظروف والصدف التي قادتني إلى سفينة الأشباح كان لها الدور الحقيقي في وصولي إليه. لكن كل ما يمكنني إعلانه عن نفسي أنني كنت واحدا من رواد البحر إذا شئتم. ولأنني كنت قد توليت جمع الكثير من القصص التي سمعتها من بحارة أو قباطنة، ومن ركاب مسافرين أو صيادين، ممن التقيتهم لظروف ترحالي المستمر في أعالي البحار، فقد كان بإمكاني دوما أن أفعل الكثير من أجل التحقق من قصة أو حكاية يحكيها لي رفيق من رفاق البحر، أو بحّار ممن عملوا معي، أو حتى عامل من عمال الموانئ ممن انتقلوا من البحر إلى اليابسة.

لكن واحدة من أغرب الحكايات التي سمعتها اختصت بها سفينة أسماها من نقلوا لي أخبارها "سفينة الأشباح". وحين سألت عنها أخبروني بأنها سفينة لا تبرح بقعة بعينها من مياه البحر، كأنها تقف على اليابسة وليست عائمة في وسط البحار. لكنها مهجورة تماما، وفي هذا ما قد يكون معتادا لدى بعض رواد البحر في سفن يتعرض من فيها لوباء أو ينفذ طعامهم ومياههم، ويضلّوا الطريق بسبب عاصفة أو لأي سبب آخر. لكن أن تصدر عن السفينة تلك الأصوات المجنونة التي تبدو معها وكأنها جزيرة من جزر الشيطان،

فهذا أمر بالنسبة لي يبدو غامضا مريبا، وربما يستحق التحري والبحث.

أغلب من مرّوا بتلك السفينة الغامضة يقولون إنهم بمجرد الاقتراب منها، وحينما يبدو الوصول إليها على مرمى أذرع قليلة، فإن أصواتا صاخبة سرعان ما تعلو منها. استفسرت عن هوية الأصوات، قيل لي إنها أصوات بشرية لا يفهمها إلا من يعرف لغتها. لا صراخ، ولا عويل، بل كلمات، تنطقها ألسنة، رجال ونساء، خشنة وناعمة، حادة ورخيمة، لكنها عالية تتداخل مع بعضها بعضا، كأن اجتماعا لألف شخص معًا بدأت مراسمه على ظهر السفينة، لكن كل من تحلى بالفضول واقترب لم يتمكن من رؤية أي شيء على ظهر السفينة الغامضة.

لماذا لم تصعدوا إليها إذن؟ هكذا كنت أسأل كل من صادفني بحكاية ما عن سفينة الأشباح، وكانت الإجابات على السؤال نفسها تقريبا في كل مرة أوجه فيها السؤال. ولم يتعد الرد دوما وأبدا ابتسامة صفراء مقتضبة، يرمقني بها من يتلقى سؤالي، يبدو بها وكأنه يتهمني إما بالجنون وإما الغباء.

فلأعد العُدّة إذن.. هكذا هتفت لنفسي. كان ذلك شعارا من شعاراتي التي رفعتها قبل زمن. لا أنصت للشائعات، بالأحرى لا أصدق إلا ما أراه بعيني، فالعالم، كما لعلكم تعرفون، يقطنه مجموعة من المدعين الكاذبين. والقصة التي تبدأ بأن صيادًا جائعًا أسقط شبكته في بحيرة ساكنة ضحلة صغيرة ولم يحظ سوى بسمكات صغيرات تكفي لعشائه، سوف تصل إلى ألف أُذن بألف طريقة، ويعاد حكيها كذلك بألف لسان. وهكذا ستصبح السمكات الصغيرات

التي لفظت أنفاسها على ظهر زورق خشبي صغير، بكذب أصحاب الآذان وتلفيقاتهم؛ حيتانا ضخمة، كما سيمسي الزورق الصغير، الذي لا يتسع سوى لثقل كيلوات قليلة من سمك السوق الصغير، سفينة عملاقة من سفن الحواتين، وسيغدو الصياد المسكين بطلا أسطوريا يذهب لصيد الحيتان كما يذهب سائح في نزهة بحرية. أما المسافة التي لا تزيد عن تجديف متواصل بذراع صياد متوسط القوة لمدة لا تزيد عن نصف ساعة، فإنها تتحول، على الألسنة، إلى رحلة بحرية لا نهاية لها، تظهر خلالها جنيات البحر وأسماك القرش الرهيبة، وربما تنتهي بمواجهة سفن القراصنة وطواريد لصوص البحار.

قلتُ: فلنرى ما هي حقيقة سفينة الأشباح تلك، فكل ما عرفنا من عجائب البحر كانت وراءها دائما حقائق لا تصدق. وهكذا كان علي أن أجد رفقتي المثالية ووسيلة التنقل التي تناسب رحلة كهذه.

من بين البواخر والسفن واليخوت والزوارق اخترت سفينة صغيرة يمتلكها مجموعة من الأصدقاء، جمعت بيننا مغامرات عدّة في مواقع بحرية مختلفة أغلبها بدأ بقصد الصيد. كانوا ثقاة، ويولونني من التقدير ما يسمح لي بإقناعهم بالإبحار من أجل تقصي سفينة شبحية قد لا يكون لها وجود بالمرة، أوقد تكون حقيقة واقعة.

حكيت لهم، وهم ثلاثة رجال من جيلي، عاشوا في أعالي البحر، مثلي، ضعف ما عاشوه على اليابسة، وتنشقوا من هواء البحر والمحيطات ما تعيش به حيتان ضخمة تحت المياه لسنوات. حكيت لهم ما جمعته من حكايات تخص السفينة، فتوقدت عيونهم

بالإثارة. واستبقوا الترتيبات، ليكونوا أول من يضع أقدامه على ظهر تلك السفينة الغامضة.

لا أخفيكم أن الأمر استغرق وقتا طويلا لتحديد موقع السفينة، وفقا لحكايات الصيادين وغيرهم ممن قالوا إنهم صادفوها. وأدركت بمرور الوقت أن أكثر من نصف من نقلوا لي أخبارها لم يكونوا قد مرّوا بها يومًا أو رأوها في أحلامهم حتى، بل تناقلوا ما سمعوه كالعادة.

لكن ذلك لم يمنعنا من الاستمتاع التام بأوقاتنا الطيبة على ظهر السفينة. ثرثرنا عن أخبار الشهور الطويلة التي فصلت بيننا، واستدعينا الذكريات ورحلات الصيد المشهودة، وأوقات الشدة والعواصف، ونساء الموانئ البعيدة التي قدر لكل منا أن يلتقي أو يعشق. وفي الليل كنت أعود إلى كتاب أقرأه، أو إلى ما دونته من ملاحظات عن السفينة الغامضة.

وفي ليلة كنت سهرت فيها وحيدا، مطمئنا لتولي البحارة قيادة السفينة للوجهة التي حددناها لهم بدقة، سمعت ما بدا لي كصوت حوت يردد أناته الليلية الحزينة، فخفق قلبي، استعدت للحظات ذكرى أحاسيس بعيدة ناوشتني قادمة من مستودع ذكريات رحلات صيد الحيتان، ولكن الصوت أخذ يعلو بشكل مبالغ فيه. خرجت من قمرتي الدافئة وصعدت إلى ظهرالسفينة. كانت السماء مقمرة، لكني لم أتبين شيئا في الأفق. درت دورة كاملة على السطح، وأخذت أرهف السمع لكي أتمكن من التقاط مصدر الصوت بدقة. لكن الرياح التي كانت تلفح السفينة ومن عليها شوّشت على سمعي ولم أتمكن من سماع الصوت مرة أخرى.

كان وشيش البحر يختلط بصريخ الرياح التي كانت قد اشتدت. أما على امتداد الأفق فلم أشهد سوى اللون الرمادي القاتم للبحر وللسماء معا. ناديت البحارة المتيقظين وسألتهم إذا ما كانوا قد سمعوا شيئا غريبا، لكنهم أجمعوا أنه لا شيء سوى صفير الرياح.

قلت إنني ربما تعرضت للوهم. وهذا ما يحدث كثيرًا لمن يرتاد البحر ويترقب شيئا، فيستبق خياله ما يريد أن يراه أو يصل إليه.

عدت إلى قمرتي متشككًا، وتيقنت من احتياجي للنوم طالما وقعت أسير الوهم. أحكمت من لف الغطاء الصوفي من حولي بعد أن تسلل البرد إلى عظامي. وسرعان ما بدأ جسدي يستعيد الدفء تدريجيا، وكلما تنقل الدفء من بقعة إلى أخرى من أجزاء جسدي كلما ثقل رأسي وبدأ النعاس يتسلل إليّ، حتى سمعت الصوت مرة أخرى. ابتسمت وأخذت أردد "غنّي أيها الحوت.. غني وأطربني حتى أتمكن من النوم

كان التعب قد تمكن مني، وأحسست أنني سأغط في النوم، مهما حدث. وبدأت أشعر بخدر النوم يداعب دماغي، لولا طرقات الباب التي تسللت إلى أذني وأتبعها صوت أحد البحارة يطلب رؤيتي، فنهضت مسرعا وفتحت الباب.

كان فتى من البحارة يردد أنه رأى سفينة قريبة منا، وأنه يسمع منها أصواتا غريبة رغم أنها مظلمة تماما، ولا يبدو عليها أي أثر للحياة.

لم يكن معتادا أن تكون السفن معتمة ليلا إلا إذا عصفت بها عاصفة. وهكذا صرخت قائلا إنها لا بد أن تكون سفينة الأشباح.

طلبت من الفتى أن يوجه تعليماتي لقائد الدفة بالاقتراب التام من السفينة بعد أن يحدد موضعها، وأن يخفف السرعة لتفادي الاصطدام بها. كانت الريح قد اشتدت، واستدعت السماء السحب، فاختفى القمر، وصار الليل حالكا. أمرت البحارة بإشعال كل المصابيح المتاحة على ظهر السفينة.

انطلقت إلى مقدمة السفينة ورأيت من بعيد شبح السفينة التي بدت مثل جزيرة صغيرة ثابتة، مسكونة بالظلام.. تعلوها قلعة بائسة صغيرة. كانت الرياح قد اشتدت كثيرا، وبدأت سفينتنا في التأرجح، بسبب آثار الريح على مياه البحر التي بدأت رقصاتها العاصفية، ثم رأيت وشاح السماء الأسود الذي يحمل مياه العالم، كما كنت أطلق على سحب العواصف السوداء التي تغطي كل شيء في البحر والسماء فجأة، كانت الغلالة السوداء الشاسعة تتحرك باتجاهنا بسرعة كبيرة، أدركت معها أن العاصفة ستصب علينا جام غضبها في أقل من عدة دقائق. وكان عليّ، بسبب انعدام الرؤية، أن أطلب من قائد الدفة إيقاف المحركات تماما، بعد أن يتأكد من الابتعاد عن موقع سفينة الأشباح، بتوجيه الدفّة بعيدا عنها، تجنبا للاصطدام بها.

جاء صديقاي؛ "قنديل البحر و"العاصفة" كما كنت أطلق عليهما: الأول بمظهره الأنيق ومعطفه الصوفي الذي ألقى عليه غطاء من الجلد ليحتمي من المطر، والثاني بجسده الضخم ولحيته المشذبة، وركضا باتجاهي يسألاني عما حدث. حكيت لهما عن وصولنا لسفينة الأشباح قبل دقائق قليلة من هبوب العاصفة. وبدا أن ما احتساه صديقنا الرابع "الحوت" من نبيذ معتق، قد جعل نومه

ثقيلا، لدرجة أن يظل نائما من دون أن يشعر بأي من آثار العاصفة.

هتف قنديل البحر أنها مشؤومة على ما يبدو، وضحك ضحكات صاخبة. أما العاصفة فقد أبدى اهتمامه بالتأكد من أنني أعطيت الأوامر الخاصة بتأمينات السلامة لربان السفينة أولا، وتيقن من إيقاف محركات السفينة، وحين تأكد من ذلك بدأ يضحك، قائلا إن أشباح السفينة المشؤومة قد وقعوا أخيرا بين أيدينا، وأضاف بسخرية أن السفينة لو نجحت في إطلاق مائة عاصفة كهذه فلن تنجو هي وأشباحها منا.

ما كنت أخشاه فقط هو ما تفعله العواصف عادة من تحكم تام بمصير حركتنا واحتمال الإلقاء بنا بعيدا عن موقعنا، خصوصا لو استمر هطول المطر وحركة الريح لفترة طويلة.

كان علينا أن نواجه العاصفة معا، كما اعتدنا، ونتأكد من تأهب البحارة المستمر لكل الاحتمالات الممكنة، ومراقبة منسوب مياه الأمطار التي تهطل في السفينة، وأن نتأكد أن عمليات نزح المياه من على ظهر السفينة قد بدأت بوتيرة تناسب ما انسكب بداخل السفينة من مياه السماء والبحر معا. بينما كان المطر الغزير مع السواد الحالك للسماء والأفق قد جعلنا "عميانا".

لكن العمى الحقيقي سوف يدركنا في الصباح، بعد انقشاع العاصفة وتوقف الأمطار، وحلول الهدوء. كان ضوء الشمس أضاء كل شيء حولنا. لكن لم يكن هناك شيء لنراه سوى مياه البحر الشاسع التي تحيط بنا من كل جانب، وتنعكس ضياء الشمس عليها. أما سفينة الأشباح فلم يكن لها أي أثر. كنت أتشمم الهواء

الذي بدا بعد العاصفة نقيًّا، وأتمنى حقا أن يكون لنا حظ رؤية سفينة الأشباح بنقاء يشبه نقاء هذا الهواء النظيف.

ولولا أن لديّ شهود من البحّارة سمعوا ليلة الأمس ما سمعت، ورأوا ظلالها الشبحية في ضوء القمر، لكان من الصعب علي أن أقنع صديقي أنني لا أعاني من الهلاوس.

كان علينا أولا أن نتأكد من موقعنا ومدى ابتعاده عن الموضع الذي صادفتنا عنده العاصفة. والمدهش أننا لم نكن قد ابتعدنا بدرجة كبيرة.. فما الذي حدث إذن؟ هل أنهت العاصفة على أسطورة سفينة الأشباح؟ هل انقلبت وغاصت في الأعماق؟ هذا وارد بطبيعة الحال في عاصفة تتلاعب بالسفن، خصوصا تلك التي لا تجد ربانا يرد على ضربات العاصفة، ولا بحارة ينزحون عنها المياه في الوقت المناسب.

كنا مشتتين بفعل الإرهاق والسهر. ولم يكن أحد منا قادرا على أن يقرر شيئا. كما كنا نعرف أن أغلب البحارة، مثلنا، قضوا ليلتهم في مواجهة العاصفة، ولن يكون في مقدور أي منهم الغوص للبحث عن أي آثار محتملة للسفينة الغارقة، إن صح أنها غرقت من الأساس.

وبالتالي، كان علينا أن نرتاح أولا، وترتيب نوبات قصيرة بين البحارة حتى منتصف النهار قبل أن نقرر شيئا.

وقبل أن أخلد للنوم مباشرة، تذكرت أن من بين ما قيل لي عن سفينة الأشباح أنها سفينة ليلية، لا تظهر إلا في الليل. وعدت أتساءل: فأين تذهب بحق السماء في النهار؟

لكني قلت لنفسي إن كل ما يدور في ذهني الآن لا يعوّل عليه، كان علي أن أقمع الأصوات التي تتلاحق على ذهني، وأفسح المجال لسلطان النوم حتى يقضي الله أمرًا.

حين استيقظت من النوم اكتشفت أن أكثر من نصف النهار قد انقضى، فصعدت مباشرة إلى المطعم. تناولت طعاما خفيفا، وطلبت قهوة ثقيلة، وانضم لي العاصفة ولحق به قنديل البحر بعد دقائق أخرى، مصطحبا الحوت الذي ظهر بقامته القصيرة ومشيته التي يتحرك فيها مقدما كتفه الأيمن على الأيسر، كأنه يختال. وهو يرسم ابتسامة واسعة غير مصدق ما حكاه له العاصفة مما فاته وهو نائم.

قال العاصفة إنه لا يخشى إلا الغموض. وأمّنت على كلماته، لكني ذكرّته فورا بأننا حين قضينا عامين في صيد الحيتان كانت علاقتنا بالحيتان تماما مثل علاقتنا الآن بالسفينة الشبحية.

قال قنديل البحر: صحيح معك حق.

وتذكرنا معا كيف كنا نمخر في مياه البحر لليال عدة، على أمل أن نلتقي الحيتان التي قد تفاجئنا على غير موعد مرة، أو تختفي حتى في أماكن تجمعها في أماكن أخرى.

ولكي لا أطيل عليكم، فقد استغرق أمر مطاردتنا لسفينة الأشباح ليالي عدة. كنا بالفعل نبدو كسفينة لصيد الحيتان، لكننا بدلا من مراقبة أسراب الحيتان، أو ترقب ظهورها بحدباتها الضخمة الشهيرة، كنا نطارد أصوات الأشباح التي تباغتنا في الليل عادة، وعلى أثرها ننهض ونتحول إلى مجموعة من المجانين من فرط الإثارة والهياج والرغبة في الاقتراب من سفينة الأشباح، كما كنا نفعل حين نرى حوتا في الأزمان الغابرة. ولكننا كنا نفاجأ بأن السفينة أقرب للسراب. تبدو أمامنا على مرمى البصر شبحا ليليا في هيئة سفينة ثابتة كما جزيرة، لكننا كلما اقتربنا منها كلما أحسسنا بأن

الطريق إليها يطول. وكلما فقدنا أثرها سرعان ما تتناهى لأسماعنا أصوات نداءات وأسماء حفظناها من فرط ما سمعناها تتردد في الليالي المتتابعة. أصوات نسائية حادة تنادي على آخرين، بينهم أسماء مثل: كيان وناصر ونقار الزجاج، ثم تبدأ جوقة الأصوات الرجولية التي تنادي بدورها على أسماء، مثل سديم، أو أسماء أخرى لا نعرف أكانت لرجال أم لنساء أم مجرد تعاويذ سحرية، مثل إيد الحرير، ونيرد.

جن جنوننا، من فرط إحساسنا بأننا نتتبع سرابا سوف يظل يغوينا بالنداء، ولكن لا يبدو أننا سنتمكن من الوصول إليه، خصوصا بعد أن مضى علينا أكثر من شهر في البحر.

بدأت المؤونة تقل، ومياه الشرب تشح تدريجيا، وكان ما يزعجنا أننا قد نضطر إلى الوصول إلى أقرب الشواطئ إلينا، لكي نتزود بالمؤونة قبل أن نعاود رحلتنا، ولكن العاصفة اقترح أن نستعير بعض المياه من أي سفينة تمر بنا، حتى لا نضيع الوقت. وقد كان.

لكن بعض البحّارة الذين كانوا قد أنهكوا عصبيًا من شدة ترقب الأشباح التي لا نراها وإن كنا نسمعها، اقترحوا علينا أن يستخدموا الزوارق الصغيرة للوصول إلى السفينة الشبحية حين تظهر لنا ليلا، بدلا من متابعتها بكامل السفينة. واعتبرنا الفكرة جيدة. لكن قنديل البحر، الشكاك بطبيعته، قال لنا إنه لا يشعر بالرضا عن هذا الحل، لأنه يشعر أن البحارة يرغبون في الهروب من السفينة، إما خوفا وإما من شدة الزهق.

لكن العاصفة أوضح له أنهم يحصلون على أتعابهم بغض النظر عمّا نرغب نحن في الوصول إليه. وأكد له أنه يمكن له هو

نفسه أن يصحبهم في أحد الزوارق إلى سفينة الأشباح، إذا كان حقًا يصدق أن أي بحار عاقل يمكن له أن يفكر في الهروب في البحر بزورق صغير كهذا.

قلت لهم إنني سوف أهبط مع البحارة في الزورق فور تجلي أصوات الأشباح أو ظهور شبح السفينة، مستطردا أننا لا يمكن لنا أن ننجح حقا في الوصول إلى السفينة من دون زوارق. فضرب الحوت كتفي بقوة وهو يضحك، قائلا إنني لا يمكن لي أن أفلت من صحبته، ثم أضاف: "لا أنت ولا تلك الأشباح".

وهكذا بدأت التخطيط للأمر، واختيار مجموعة البحّارة المناسبين لهذه المهمة، ممن يجمعون إلى فنون البحر ومهارات الصيد بعض المعرفة بالفنون القتالية والدفاع عن النفس، فلربما كانت السفينة في النهاية مقرًا لعصابة من القراصنة.

اجتمعت بهم لكي أوضح لهم طبيعة الاحتمالات التي يمكن أن نتعرض لها، وكيفية التصرف في كل حالة من تلك الحالات.

في الليلة الموعودة، وحين تم رصد موقع السفينة الشبح أعددنا الزورق، وألقينا به في المياه، ونزل إليه ستة شباب من خيرة بحاري السفينة الأشداء، ولحق بهم الحوت، واضعا سيجاره العتيق المطفأ بين شفتيه، ومرتديا معطفا جلديا على ثيابه، ثم انضممت إليهم، فيما كان قنديل البحر والعاصفة يرقباننا من أعلى السفينة، وقد أعطيا الأوامر للربان بالابتعاد عن سفينة الأشباح، إمعانا في التأكيد على أننا لا نقصدها، وكانت العاصفة التي بدأت قبل قليل قد بدأت تهدأ باستثناء استمرار هطول المطر ولكن ذلك لم يمنع الشباب من التجديف بكل قواهم، وبلا توقف، حتى وجدنا أنفسنا بالفعل في

محيط سفينة الأشباح. التي لم تكن كبيرة كما توهمنا. لكن الأصوات التي كنا نسمعها سابقا مثل وشيش صاخب تختلط فيه الأصوات صارت الآن جلية بشكل لا لبس فيه.

أوقفنا الزورق، وبدأ الشباب في الصياح للفت الانتباه، لكن شيئا لم يحدث. ظلت السفينة ثابتة كأنها تقف على صخرة، والأصوات تتداعى بلا توقف. حوارات بين أشخاص عن الحياة. صراخ شبق لامرأة تمارس الحب. دعابات مازحة بين أشخاص لا يمكن تحديد هويتهم. أصوات منظمة تبدو كأنها تقرأ نصوصا أو تلقي شعرا. وضحكات صاخبة مجنونة لا تتوقف، كأن أصحابها أصيبوا بلوثة هيستيريا. كنا نتبادل النظر أنا والحوت في دهشة، لكننا سرعان ما غرقنا في الضحك. أعاد الحوت وضع السيجار في فمه، تحرك إلى مقدمة الزورق، متهيئا ليكون أول الصاعدين إلى السفينة. ولكن كبير البحارة أكد أنه سيستكشف السفينة أولا. وبعد محاولتين لإلقاء حبل غليظ مزود بهلب رباعي صلب، تم أول اتصال مادي بيننا وبين السفينة، وعندما وصل البحار الأكبر ومساعده إلى ظهر السفينة استغرقا عدة دقائق، تجولا خلالها في ما يبدو على السطح لمسح السفينة، والتأكد من خلوها من المخاطر، وحين صعدنا جميعا إلى السطح، تبين لنا أن السفينة مهجورة بالفعل، فقد علا الصدأ كل معدن فيها، سواء كان ممثلا في مسامير الأرض الخشبية، أو مقابض الأبواب أو الهيكل المعدني العلوي. تجوّلنا مطولا فلم نجد شيئاً، ثم بدأ الحوت لعبة تقليد الأصوات، فأخذ يردد أصوات الأشباح، ولكننا في لحظة بعينها فوجئنا بالصمت الذي حلّ على المكان فجأة. وأحسستُ بالتوتر، لأن ذلك يعني أن الأشباح التي

كانت تهيم هنا بلا رادع قد انتبهت أخيراً إلى وجودنا، ورغم قلقي، فقد بدأ الحوت يرفع عقيرته وينادي على الأشباح، ويردد الأسماء التي كنّا جميعا قد حفظناها. الكاتب الشبح، كيان، نقّار الزجاج، أين أنت؟ تعال الآن أريد أن تنقر زجاجتي هذه. هكذا كان الحوت يصرخ ثم تنتابه حالة من الضحك الهيستيري.

وبعد لحظات من الصمت يعاود الصراخ مرة أخرى كأنه ينتقم لليالي التوتر والبحث المضنية التي قضيناها بحثا عن هذه السفينة الغامضة وفي مطاردتها أيضا. ثم يعاود الصراخ: سديم؟ أين أنت يا حياتي؟ اظهري لي لأرى جمالك. تعالي لتسهري معنا سهرة صاخبة هنا. وأنت يا يد الحرير تعالي لكي تدلكي لي ظهري فقد قضت ليالي البحر على عمودي الفقري، ولم يعد لي من أمل إلاك.

ويضحك الحوت، فيما يصبح الصمت مريبا. نتلفت حولنا لنرى خيال سفينتنا من بعيد وهي تتلألأ ببعض الإضاءة، فيما كنت أتخيل قنديل البحر والعاصفة يقفان معا يرقباننا من بعيد.

وبعد سويعات أخرى يأتي إلينا أحد البحارة ويقول لنا لاهثا إنهم اكتشفوا مصدر الأصوات. قال لنا إنهم تتبعوا الأصوات وهبطوا إلى بطن السفينة، وتجوّلوا في أحشائها حتى وصلوا إلى ممر قريب من المحركات المعطلة، ومن خلف باب غرفة صغيرة أنصتوا للأصوات التي كانت تدوّي بقوة.

قال لنا مختتما كلامه:

ولكنها انقطعت فجأة حين أحس سكانها بنا!

يتردد الحوت في المضي خلف البحار، مؤكدا على الجميع بالاستع وشحذ سكاكينهم وأسلحتهم. ومضينا خلف البحار الذي

كان ممسكا بكشاف يدوي يضيئ لنا الدروب الضيقة في أحشاء سفينة الأشباح.

حين بلغنا الغرفة المنشودة أشار إلينا البحار الذي كنا أسميناه الأخطبوط؛ بسبب إمكانياته المتعددة في قضاء أكثر من مهمة في الوقت نفسه. وطلب منا أن نلزم الهدوء.

أشار الحوت للجميع أن يلزموا أماكنهم، واقترب بخطوات حذرة من باب الغرفة وهو يمسك في إحدى يديه سكينا أخرجها من حزام مخصص لها يتمنطق به. واقترب من الباب ولصق أذنه به، فلم يسمع شيئا. طرق الباب بخفة وانتظر قليلا، ثم حاول إدارة المقبض فأدرك أن الباب مغلق. أعاد الكرّة عدّة مرات، بلا جدوى، فأشار إلى البحّارة أن يقتربوا وطلب منهم أن يكسروا الباب.

استمرت هجمات الشباب في كسر الباب فترة طويلة، ولم تنجح إلا بعد أن حصلوا على مثقال حديدي اسطواني أمسكوا به واندفعوا مرة وأخرى حتى انكسر الباب.

ومنذ تلك اللحظة لم أعد أذكر الكثير من التفاصيل، بعد أن بوغتنا بمشهد خروج مداهم لعشرات وربما مئات الفتيات العاريات من الغرفة، وهن يتصايحن ويرقصن ويتدافعن باتجاهنا، كان خروجهم حاشدا ومباغتا وفائقا لتصور أي منا. فكيف لغرفة في سفينة أن تحتجز كل هؤلاء البشر؟ وهم لم يكتفوا بذلك، بل خرجت خلفهم كتائب من أشخاص لم أملك من هول الصدمة القدرة على تبين ملامحهم، حتى سقطت من شدة الهجوم وأغشي علي.

حين استعدت وعيي لم أجد أحدا، كان الجميع قد خرج، وأصبحت الغرفة خالية. كان الظلام مطبقا، باستثناء شعاع من

ضوء انطلق من الكشاف الذي كان الأخطبوط ممسكا به قبل خروج مخلوقات الغرفة الغريبة. وحين استعدت قدرتي على النهوض وتوقفت على باب الحجرة بحذر. كان شعاع الضوء يقود إلى بقعة بيضاء في أقصى ركن بالغرفة. توجهت إلى الكشاف، ثم قصدت الغرفة وفي حذر سرت حتى وصلت إلى البقعة البيضاء. اكتشفت أنها دفتر مفتوح الصفحات، تأملته فوجدته مغلفا بغلاف جلدي رقيق، وفي أولى صفحاته وجدت كلمة واحدة عنوانا له على ما يبدو "المتكتم"، فيما لاحقني صوت باطني كان يشوش وعيي، ولا أعرف مصدره وإن بدا أنه يصدر من أعماقي أنا: "انشرني ظل الصوت يلاحقني حتى بعد أن نهضت وعدت إلى السفينة، التي لم يكن بها سوى العاصفة وقنديل البحر. اختفى الحوت والبحّارة جميعا، ولم تنجح جهودنا في الوصول إليهم أبدا، ولا حل لغز اختفائهم الغامض هذا حتى اليوم. لكنني طالعت صفحات الدفتر الغامض، والتي كانت تلاحقني بذلك الصوت الغامض الذي لم يصمت البتة: "انشرني

وها أنا قد فعلت.. لعلني أنجو!

تمت

الكويت 2009 - يناير 2015

شكر واجب

لعديد الأصدقاء والمحبين والكثير من العابرين ممن التقيت، وقدموا لي معلومات عديدة عن الحياة اليومية والتاريخ والطقوس الاجتماعية في إثيوبيا، والذين، مع الأسف، لا أعرف سوى أسمائهم الأولى، وبينهم هينوك، الذي قدم لي العون بجهد دؤوب، وعلى مدى جلسات عديدة بالنقاش والتدوين، والصديق من جيبوتي صلاح الدين، الذي أتاح لي الاتصال بعدد من دوائر مختلفة للجالية الإثيوبية، كما أشكر د. أيمن بكر، ود. ماتيو سيلفادور، أستاذ مساعد العلوم الاجتماعية والإنسانية في جامعة الخليج بالكويت، على توفير بعض المصادر والمراجع حول تاريخ إثيوبيا.

كما لا يفوتني شكر العديد من الأصدقاء، لما وفَّروه لي من تفاصيل ومعلومات عن طبيعة الحياة في ألمانيا، وأخص بالذكر كلاً من الصديقة إستر صعوب، والصديق مارتين رودجر.

الشكر موصول، كذلك، للصديق الروائي سعود السنعوسي، على الوقت الذي منحه لقراءة المخطوط، ولملاحظاته الدقيقة حول التفاصيل، التي كان لها دور كبير في تنقيحه، كما أشكر محمد وحيد يوسف، على تدقيق المخطوط وتصويبه لغويا.

أخيرا، وليس آخرا، أقدم الشكر والامتنان لقارئتي الأولى ورفيقة الدرب، هايدي عبداللطيف؛ للقراءة وللكثير من التفاصيل والملاحظات، والأهم من هذا كله: التفهم لما اقتضته كتابة هذا النص من وقت على مدى سنوات.

إشارات

أنا مدين لمصادر إلهام عديدة، استخدمت بتصرف في متن النص، وبينها:

شذرات لفالتر بنيامين.

"المكتبة في الليل"، ألبرتو مانغويل، ترجمة عباس مفرحجي. دار المدى.

أفلام وثائقية وتسجيلية ودرامية عدة عن إثيوبيا، ومحاضرات في التاريخ والأدب الإثيوبيين. مواد بحثية عن المهاجرين الإثيوبيين.

مواد عديدة عن تاريخ القرصنة في العالم.

الكذبة الرومانسية والحقيقة الروائية، رينيه جيرار، ت: رضوان د. رضوان ظاظا. مركز دراسات الوحدة العربية.

صفحة الكاتب أحمد شافعي على الفيسبوك.

Notes from the Hyena's Belly: An Ethiopian Boyhood, By NegaMezlkia.

بعض الأفلام الوثائقية والتسجيلية والدرامية عن شتوتغارت، وألمانيا.

الهوامش

(1) مرنبتاح هو رابع ملوك الأسرة التاسعة عشر وهو ابن الملك رمسيس الثاني من زوجته الثانية إيزيس نوفرت وترتيبه الرابع عشر بين أبناء رمسيس إذ كل إخوته الأكبر منه قد ماتوا في حياة والدهم. استمرت مدة حكم مرنبتاح حوالي عشر سنوات من عام 1213 ق.م إلى عام 1203 ق.م

(2-6) الشريف العبقري دون كيخوت دي لا مانشا "الشهير بين العرب باسم دونكيشوت"، ثربانتس سابيدرا، ميجيلدى، ترجمة: سليمان العطار، القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة.

(7) مقطع من قصيدة "الجسد المغتبط"، شاكر لعيبي.

(8) من رواية "عشيق الليدي تشاترلي"، د. هـ. لورانس، ترجمة حنا عبود، ص 194.

(9) المرجع السابق، ص203-204.

(10) الأشجار واغتيال مرزوق، رواية، عبدالرحمن منيف.

(11) مقطع من "الخبز الحافي"، رواية، محمد شكري.

(12) مقطع من نص منشور في مدونة "يوميات مثلي على الإنترنت. http://stories21.blogspot.com/

(13) الإنسان والمقدس، روجيه كايوا، ت: سميرة ريشا، المنظمة العربية للترجمة.

(14) المرجع السابق.

صدر للمؤلف:

1. باتجاه المأفي (قصص)- دار شرقيات- القاهرة- 1997.
2. كهف الفراشات (رواية)- طبعة خاصة- القاهرة- 1998، طبعة ثانية من دار ميريت- القاهرة 2003.
3. أشباح الحواس (قصص)- دار ميريت- القاهرة- 2001.
4. ابتسامات القديسين (رواية)- دار ميريت- القاهرة- 2004. ط ثانية 2005، طبعة ثالثة 2006، مكتبة الأسرة- الهيئة المصرية العامة للكتاب.
5. جنية في قارورة (رواية)- دار العين للنشر- القاهرة - 2006.
6. مداد الحوار، وجوه ألمانية في مرايا عربية (أدب رحلات)- دار العين للنشر- القاهرة- 2006.
7. أبناء الجبلاوي (رواية)- دار العين للنشر- القاهرة 2009، ط ثانية، 2010.
8. شامات الحسن (قصص)- دار العين للنشر- القاهرة- 2014.
9. مغامرة في مدينة الموتى (رواية للشباب)- بيروت- دار حكايا- 2014.

تحت الطبع:

1. ثورة الزمن، الثورات الموازية في الفضاء الافتراضي، (مقالات)- [illegible]ة الإسكندرية.
2. عو[illegible]صاصي الحبر (رواية للفتيان)- دار شجرة- القاهرة.

معبد أنامل الحرير

إبراهيم فرغلي

• روائي من مصر.

حينما انتهى الشخص الذي أنقذني، من قراءة هذه السطور الأولى التي أحتويها على صفحاتي، أغلق الدفتر الضخم، المغلف بغلاف جلدي أزرق، ثم دسّني داخل الجاكيت الجلد الذي يرتديه، وأحكم إغلاقه، لأجد نفسي حبيسة المساحة الضيقة بين القميص وبطنه الليّن المشعر، أترقب مصيري.

قفز من القارب الخشبي الذي كنت ملقاة على أرضه، إلى قارب بخاري آخر أكبر قليلا. وبعد أن عالج المحرك مرة، أو اثنتين، دوّى صوته عاليًا، وانطلق.

بعد وهلة توقف القارب وأوقف المحرك فعمّ الهدوء. غادر القارب، متشبثًا بدرجات سلم معدني صدئ عتيق، ليصعد على درجاته منتقلا إلى سطح سفينة..

ISBN: 9786140212664

منشورات ضفاف
DIFAF PUBLISHING
editions.difaf@gmail.com

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef
editions.elikhtilef@gmail.com

جميع كتبنا متوفرة في موقع نيل وفرات.كوم
www.neelwafurat.com - www.nwf.com